فَلسَفةُ التَّارِيخ

دراسة تحليليّة في المناهج والسّلوك

آية الله العظمى الإمام

السّيّد محمّد الحُسيني الشِّيرازي

أعلى الله درجاته

تحقيق وتعليق

الشيخ صاحب مهدي



مؤسسة الوعي الاسلامي

دار القارئ

فلسفة التاريخ

دراسة تحليلية في المناهج والسلوك

آية الله العظمى الإمام

السيد محمد الحسيني الشيرازي

أعلى الله درجاته

دار القارئ

مؤسسة الوعي الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

مؤسسة الوعي الإسلامي
للتحقيق والترجمة والطباعة والنشر
بيروت - لبنان

دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/٩٠٢٩٤٤

في البدء كانت كلمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قليل هم من بكاهم التاريخ ، فبعضهم احترق بدموع التاريخ ، وآخر ذوبته حرارة اللآلي الفضية ، وثالث استطاع أن يجعل من دموعه مشروعاً حضارياً يتدفق بنبض في كل حين .

والشيرازي تتمئُ من هذا القبيل ، وكيف لا يكون وقد صنع الأمجاد لأمّته وأنار بفكره الوقّاد شموعاً في دروب المستقبل .

التاريخ يبكي على أصحاب المبادئ والقيم ، الذين ضحّوا بأنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه في الأرض ونصرة الحق والحقيقة . ولن يذرف دمعة واحدة على أولئك الظلمة أمثال : فرعون ، ونيرون ، ويزيد ، وهتلر ، فإنه يفضل الانتحار على أن يقزّم نفسه أمام المجرمين والخونة .

علينا أن نتعظ من حكمة بكاء التاريخ .

ونحن نعيش هذه الأيام فرحة سقوط أكبر طاغية عرفه التاريخ المقروء الذي جثم على صدر العراق لأكثر من ثلاثة عقود والذي لم يبنِ لشعبه إلاّ السجون والمعتقلات والمقابر الجماعية . . علينا ألاّ ننسى أطروحة إمامنا الراحل تتمئُ لاستقرار العراق والذي تحدث عنها في كتابيه : «إذا قام الإسلام في العراق» و«تلك الأيام» . فقد انبرى ـ أعلى الله درجاته ـ إلى فضح حكم البعث ونظام صدام في حركاته وخطاباته ومؤلفاته وحتى رسائله الخاصة ، وكان ينتظر بفارغ الصبر

لحظات سقوط صدام وعودته ـ قدس سره ـ للعراق ـ حتى إنه قال لي ذات مرّة : «إنني لا أنام ليلتي إلاّ وأتوقع سقوطه في اليوم الثاني» ـ لكن إرادة الله سبحانه شاءت ألا تتحقق أمنيته في حال حياته .

وارتأيت أن أنشر إحدى الرسائل التي بعثها سماحته إليّ قبل عدّة سنوات والتي تعكس أمانيه في التحرير والعودة إلى عراق علي والحسين عليهما السلام .

وختاماً . . نبتهل للعلي القدير أن يزيد في درجات مقتدانا رفعة وسمواً ، إنه سميع مجيب .

من جوار عقيلة الهاشميين السيدة زينب عليها السلام
صاحب مهدي - ربيع الثاني ١٤٢٤ هـ

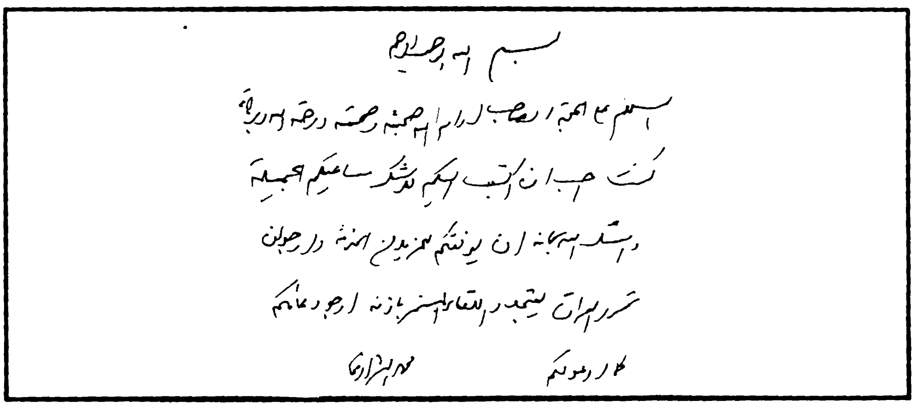
بسم الله الرحمن الرحيم

السلام على الحجة الصاحب أدام الله صحبته وصحته ورحمة الله وبركاته

كنت أحب أن أكتب إليكم لأشكر مساعيكم الجميلة وأسأل الله سبحانه أن يوفقكم للمزيد من الخدمة وأرجو أن تحرر العراق ليتجدد اللقاء المستمر بإذنه أرجو دعاءكم كما أدعو لكم .

محمد الشيرازي

الرسالة بخط سماحته قدس سره


بسم الله الرحمن الرحيم
السلام على الحجة الصاحب أدام الله صحبته وصحته ورحمة الله وبركاته
كنت أحب أن أكتب إليكم لأشكر مساعيكم الجميلة
وأسأل الله سبحانه أن يوفقكم للمزيد من الخدمة وأرجو أن
تحرر العراق ليتجدد اللقاء المستمر بإذنه أرجو دعاءكم
كما أدعو لكم محمد الشيرازي

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ نهرٌ جارٍ ، لا يفتر في تدفقه . . .

فمنذ أن عاش الإنسان على الأرض ، سواءٌ كان في الغابة ـ على رأي البعض ـ أو جنّة الأرض ـ على رأي آخر ـ ولم يختلف الرأيان . . منذُ ذلك الوقت والتاريخ يتدفّق كسيل من الأحداث المتعاقبة .

وكما مياه الأنهار تتغيّر بين حين وآخر كذلك التاريخ ، فهو يختلف في شكل حركته وتدفقه ، فمرّةً ينهمر كالشلال عندما تكون هناك أحداثٌ عظيمة ، مثلاً وقوع البعثة النبوية وما تعقَّبها من الأحداث ، فالتاريخ انهمر في ذلك الوقت كالشلال .

وعندما يكون التاريخ كالشلال يكتسح كلَّ شيء . وهو لا يبقى هكذا حتى النهاية حيث تبدأ سرعته بالهبوط شيئاً فشيئاً عندما تنخفض الأرض وتنتهي الروابي ، وكذلك التاريخ عندما تجفّ المبادئ ويتحوّل الإيمان إلى أهواء يهبط التاريخ كما الأرض المنخفضة . لكن بمجرّد أن تتغيّر تضاريس الأرض وتبدأ الأرض بالارتفاع ثمّ بالانخفاض ، ترى يعود النهر إلى تدفقه السريع بعد فتور قاتل . .

هذا هو حال التاريخ ؛ فلو تناولنا تاريخ أيّ شعب من الشعوب لوجدنا أنّ هذه الحقيقة صادقةٌ عليه . فالشعوب التي تعيش المبادئ وتضحّي بأرواحها من أجل أهدافها الكبيرة تصبح كالشلال المتدفّق وبمجرّد أن تفتر هذه الحيوية في النفوس

تفتر حركة المياه المتدفقة .

وقد عانت الأمّة الإسلامية في فترة من حياتها من مشكلة الركود ، عندما تخلّت عن رسالتها الإسلامية السمحة وتمسّكت بأهداب الخرافة وبحبال الأهواء ، وكان نتيجة ذلك أنْ زحف الموت البطيء إليها . . فقد شهدت القرون «٧ ـ ٨ ـ ٩هـ » حالة من الركود القاتل الذي حوّل النهار إلى ليل ، والانتصار إلى هزيمة ، وهي الفترة التي تعرّض فيها العالم الإسلامي إلى هجمات المغول الذين دمّروا الحضارة الإسلامية وحطموا المدنية في البلاد الإسلامية ، ولم يكن ذلك إلاّ نتيجة عوامل داخلية ، فقد تسلّل الخمول إلى أوصال الأمّة ، الأمر الذي جعلها غير قادرة على مقاومة الزحف المغولي ، وكما نشاهد مياه الأنهار صافية براقة عند المرتفعات وعند الأرض الصخرية ، كذلك التاريخ يصبح صافياً شفّافاً برّاقاً مشعاً عندما ينحدر فوق أكتاف الرجال الصامدين الذين يقاومون الإغراءات والأهواء كالصخور الصلبة التي تقاوم منحدرات المياه .

وبمجرّد أن تصل المياه إلى المناطق الرملية ، تتحوّل إلى مياه ملوّثة غامقة لا يمكن مشاهدة قاع النهر من خلالها ، والمشكلة أن هذه المياه ستحمل معها الرمال والتراب ، الأمر الذي سيؤثّر على حركتها وسرعتها . وكم من الأنهار العظيمة تنتهي إلى جداول ضيّقة فاترة لا تحسّ بوجودها ، وهكذا التاريخ عندما يصل إلى الأمم الضعيفة التي تشابه الرمال والأتربة والأوساخ التي تعرقل سير تدفق المياه .

وهذا ما نقرأه على صفحات تاريخنا ، فعندما انتكس الإنسان المسلم وتحوّل إلى كتلة من الأهواء والشهوات بعد أن كان كتلة من التضحيات والاستعدادات ، عند ذلك ينهار التاريخ أيضاً بانهيار الإنسان المسلم ، فازدادت الترسبات على طرفي التاريخ ، فظهرت الصوفية والأفكار القدرية التي حاولت أن تبرّر واقع المسلمين وتوجد لهم بديلاً للهروب ممّا هم عليه .

وكما [illegible]ل الأنهار الأتربة من أماكنها إلى أماكن أخرى ، نقل لنا التاريخ الكثير

من تلك الأفكار التبريرية والتصوّرات الصوفية التي انتشرت في القرون المظلمة .

وكما تعمل هذه الأتربة كسدٍّ يمنع تدفق المياه كذلك هذه الأفكار التخديرية تعمل كسدّ بوجه تدفق التاريخ والحضارة الإنسانية .

إنّ دراسة التاريخ لا تختلف عن دراسة الأنهار . .

فالجغرافيا هي الوسيلة لمعرفة طبيعة الأنهار وكيفية تدفقها . .

أمّا التاريخ فوسيلته الفلسفة ، ففلسفة التاريخ هي دراسة تضاريس التاريخ ، متى ينحدر ومتى يتدفّق ومتى يتوقّف ، متى يسيل ومتى يتّسع ؟ .

وقد عني علماء الغرب كثيراً لدراسة هذا العلم ، ووضعوا له قواعد وأصولاً ، نذكر من بينهم فيلسوف التاريخ توينبي ، وقديماً اهتمّ المسلمون بهذا العلم ، وقد تخصّص فيه علماء كبار كمسكويه ، وابن خلدون ، وابن أبي الربيع ، والطقطقي ، وغيرهم ، أمّا اليوم ، فلا نجد بحوثاً في هذا المجال إلاّ النزر القليل بالرغم من أهميّته في مجال التوجيه ، وصياغة الأفكار ، ونشرها ، وبالرغم من دوره في خوض الصراع العقائدي ، وفي بناء الحضارات .

وقد قام الإمام الشيرازي تتئ ضمن اهتماماته بما تركه المسلمون من الأبحاث والعلوم ، قام بوضع هذه الدراسة المهمّة عن فلسفة التاريخ ، ودور التاريخ في تأسيس العلوم الدينية ، وهي تعد أوّل مبادرة من قبل علمائنا المعاصرين .

تكمن أهميّة هذا البحث ، إنّه يأتي ضمن مرحلة حسّاسة من تاريخ الأمة الإسلامية ، حيث الاستعدادات جارية للتحوّل من واقع إلى واقعٍ آخر ، فكان لابدّ من إضاءة شمعة ، تكشف للسائرين في طريق التغيير معالم الطريق الذي يمشون فيه .

والكتاب الحالي الذي كتبه المرجع الديني الأعلى السّيد محمد الشيرازي تتئ هو من هذا القبيل ، فقد تضمن أبحاثاً حسّاسة ، ترتبط

بمستقبل الأمة ، وتتعلق بأمانيها في الحياة الكريمة .

وقد حرصنا على تقديم الكتاب بصورة أنيقة ، نرجو أن ينتفع به العلماء والمثقفون ، وأن ننتفع جميعا بالأفكار النيرة والرؤى الثاقبة للإمام الشيرازي ، راجين من العلي القدير أن يحشره مع أجداده الطاهرين ، إنه نعم المولى ونعم النصير.

مؤسسة الوعي الإسلامي

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين واللعنة على أعدائهم إلى قيام يوم الدين .

كما أنّ الأشجار بأجمعها لها واقع مشترك ، وإن كانت مختلفة في الحجم ، والشكل ، واللون ، والثمر ، وباصطلاح المنطقيين لها جنس واحد وفصول مختلفة ، كما ولها أعراض مختلفة خاصّة أو عامّة ، وكذلك بالنسبة إلى الأنواع الأخرى ، وهكذا الحيوان وسائر المخلوقات سواء النباتية منها أو الحيوانية وحتّى الإنسان والملائكة والجنّ والشياطين[1] لها جامع واحد ، كذلك الأمر بالنسبة إلى المجرات والكواكب وما أشبه ذلك .

كذا الأمر بالنسبة إلى أحداث التاريخ فكلّ الحضارات والبداوات لها جامع مشترك من ناحية .

وفي نطاق الحضارات هناك جامع مشترك لجميع الحضارات ، وكذلك البداوات لها جامعٌ مشترك ، وإنّما الأشكال ، والصور ، والخصوصيات ، والمزايا ، تختلف اختلافاً نوعياً أو فصلياً أو نحو ذلك ، وحالها حال الأمواج التي تتقاذف في البحر ، فلها واقع واحد وتكوينٌ مشترك هو الماء .

---

(١) الشيطان قسم من الجن حسب منطوق الآية الكريمة :﴿كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه﴾ سورة الكهف : الآية ٥٠ .

ومفهومنا لفلسفة التاريخ ، والذي يدور حوله البحث في هذا الكتاب هو القاسم المشترك الذي يجمع الأحداث التاريخية ، ويضعها أمام بصيرة الإنسان .

وفائدة دراسة فلسفة التاريخ ، والتعمّق فيها ، هي المعرفة ، فإنّ العلم والمعرفة مطلوبان بذاتهما ؛ لأنّهما يسبّبان لذّة روحية ، والإنسان بطبيعته ميّال إلى اللذّة نفّارٌ من الألم جسمياً كان أو روحياً ، والمراد بالروح هنا الأعم من النفس حيث عندنا جسمٌ ونفسٌ وروحٌ على ما ذكرنا تفصيله في بعض الكتب .

والفرق بينهما أنّ المعرفة يقال لما سبق العلم به ، ولذا قال ﷻ في قصّة يوسف ﴿**فعَرَفهُم وَهُم له مُنكرُونَ**﴾[(١)] ، حيث كانت معرفته سابقة للعلم ، وفي الحديث : **(عرفت الله ﷻ بفسخ العزائم وحلّ العقود ونقض الهمم)**[(٢)] حيث سابق العلم المعرفة بالنسبة إلى موضوع الأخوة وبالنسبة إلى الله ﷻ ، بينما العلم لا يدلّ على ذلك ، ولذا لا يصحّ أن يقال «فعلمهم» إلى غير ذلك من الشواهد التي لا مجال لذكرها هنا .

أضف إلى ذلك ، فإنّ العلم بالجامع ينتج معرفة الإنسان بأسباب سقوط وقيام الحضارات والدول ، فمثلاً سنتعرّف على أسباب سقوط بني أميّة ، وسقوط روسيا القيصرية ، ثمّ روسيا الشيوعية ، وهكذا بالنسبة إلى أسباب الانتصار والنجاح ، فلماذا نجح ذو القرنين ، ونجح الرسول الأعظم ﷺ ، ونجح الأئمّة الطاهرون عليهم السلام ؟ .

ومثل هذه المعرفة ، تفيدنا في تجنّب الأسباب الداعية إلى السقوط والأخذ بأسباب النجاح ، لذا نجد في القرآن الكريم وصفاً دقيقاً لذي القرنين ﴿**ثمّ اتبع**

---

(١) سورة يوسف : الآية ٥٨ .

(٢) نهج البلاغة قصار الحكم : ٢٥٠ ، متشابه القران : ج١ ص ٤٦ ، غرر الحكم ودرر الكلم : ص ٨١، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٩ ص٨٤ ب٢٤٧ .

سبباً﴾[١] ، فالدنيا هي محيط الأسباب ، والأسباب تنتهي إلى المسبّبات ، ولذا قال ﷻ : **﴿فسيروا في الأرض﴾**[٢] ، وقال الإمام علي عليه السلام : **(وسرْ في ديارهم واعتبر آثارهم)**[٣] فإنّ من يسير في الأرض أو في الديار ، سيعرف لماذا سقطت هذه الأمّة ، وكيف نجحت تلك الأمّة ، وسيعرف أسباب عزّتها وأسباب ذلّتها ، فالجامع الواحد ، يعطي أثراً واحداً حسناً في الجامع الحسن ، وأثراً سيئاً في الجامع السيئ ، حيث إنّ الواحد ـ في الطبيعيات ـ لا يصدر منه إلاّ الواحد ، كما لا يصدر إلاّ من الواحد على القاعدة الفلسفية المذكورة في الحكمة ، وقد ذكرنا ذلك في الأصول بالتفصيل[٤] ، والمراد بالواحد ، الواحد من جميع الجهات في الطبيعيات ، أما الله ، فهو واحد في ذاته وصفاته الذاتية ، أما إرادته فهي متعددة **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[٥] ، و**﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾**[٦] ، ولذا تنوّع خلقه ، وإنّما جعل الله ﷻ الأمر كذلك ؛ ليستقيم العلم وإلاّ لزم على الإنسان أن يجرّب كلّ واحد من الأشياء ، فإنّ الأشياء إذا لم يكن لها جامع ، فلا يمكننا أن نستدل على أنّ الماء من طبيعته البرودة ، وأنّ النار من طبيعتها الحرارة ، إذ لولا الجامع ، كيف نستطيع أن نستخلص هذه القاعدة المشتركة ؟.

وهذا بحث فلسفي لا نطيل الكلام حوله ، وقد أوردنا البحث فيه في

---

(١) سورة الكهف : الآيتان ٨٩ ، ٩٢.

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣٧ .

(٣) بحار الأنوار : ج٧٧ ص٢٠٢ ح١ ب٨ ، وفي نهج البلاغة الكتاب ٣١ ، وكتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ص٦٢ح٣١ : (وسر في ديارهم وآثارهم فيما فعلوا وكما انتقلوا وأين حلوا وأين نزلوا) .

(٤) أنظر كتاب الأصول ، مباحث الألفاظ ، للإمام المؤلف قدس سره .

(٥) سورة يس : الآية ٨٢ .

(٦) سورة الرعد : الآية ٣٩ .

التفسير الموضوعي [١] ، نسأل الله ﷻ أن يوفّقنا لذلك فهو خير من يوفّق وهو أفضل رفيق وهو المستعان والمسدّد .

محمد الشيرازي

(١) وهو كتاب خطي ، لم يتسنَ له النور .

المدخل

علاقة الفقه بالتاريخ

الأحداث قبل أن تقع . . هي بانتظار اللحظة التي ستقع فيها ، ولحظة وقوعها تدخل في مكونات الحاضر ، وعندما يمر زمان على وقوعها ، تصبح شيئاً من الماضي ؛ وهذا هو التاريخ .

تصدق هذه الحقيقة على كلّ شيء ، باستثناء الله ﷻ حيث لا يشتمل عليه الزمان كما قرر في علميّ الفلسفة والكلام وكذلك المجردات على بعض الأقوال .

ولما كان الفقه شيئاً من الأشياء ، فارتباطه بالتاريخ(١) ارتباط وثيق

---

(١) لابد أن نذكر تعريف التاريخ لغة واصطلاحاً حتى يتسنى للقارئ أن يلمَّ ببعض المعرفة عن ذلك . فالتاريخ لغة هو معرفة الوقت أو الإعلام بالوقت .

قال الجوهري في صحاحه : ج١ص٤١٨ ما لفظه : التاريخ تعريف الوقت والتوريخ مثله ، يقال : أرخت وورخت .

وقال الأصمعي في الإعلان بالتوبيخ ص٦ : هو الإعلام بين اللغتين ، فقال : «بنو تميم يقولون ورّخت الكتاب توريخاً» . وقيس تقول : أرّخته تأريخاً .

والتاريخ اصطلاحاً كما عن ابن خلدون في مقدمته ص٦ طبعة دار الفكر : التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ، وتطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال ، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمّروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة ،

لا انقطاع له ، فالفقه الإسلامي لم يكن ثم وجد ثم مرَّ عليه الزمن لا بمعنى انعدامه كانعدام الإنسان والحيوان بل بمعنى مرور الزمان عليه .

مثلاً : فقه الإمام الصادق عليه السلام تكوّن عندما قال الإمام عليه السلام تلك الأقوال وبيّن تلك الأحكام ، فأصبح قوله وفعله وتقريره عليه السلام فقهاً[1] ، وعندما رحل الإمام عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ومرّ على هذا الفقه زمن طويل ، أصبح ذلك الفقه تاريخاً ، و«تاريخاً» بالمعنى الفلسفي للكلمة لا بالمعنى العرفي لها ؛ أي ليس بمعنى انقضاء العمل به بل يؤخذ به إلى قيام الساعة ؛ لأنّه حقيقة يريدها الله تعالى للبشر حتى انقضاء أجلهم المكتوب لهم على هذه الأرض .

عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق.

وعرّفه المقريزي اصطلاحاً : الإخبار عمّا حدث في العالم في الزمان الماضي .

وعرّفه ثالث : علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته.

وعرّفه رابع : إنه تفسير للحوادث والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان .

وعرّفه خامس : إنه علم نظري إنساني يبحث فيه عن حوادث الزمان من حيث التعيين والتوقيت والتفسير والتعليل .

وعرّفه سادس: عبارة عن مجموعة حوادث ناتجة عن فعاليات البشر.

وعرّفه سابع : العلم بالأحداث والأوضاع وأحوال البشر الكائنة في الزمن الماضي .

وعرّفه ثامن : العلم بالقواعد والسنن المهيمنة على الحياة الماضية .

والتاريخ عند الإمام المؤلف عبارة عن مفردات من الأحداث مترابطة بزمان خاص ومكان خاص وفرد خاص.

واختلفوا في أصل كلمة التأريخ هل هي عربية أو معربة ، فبعض قالوا: إنها عربية كالأصمعي ، وبعض قالوا: إنها فارسية مأخوذة من «ماه روز» ، وثالث: إنها سريانية ومعناها الشهر.

(١) هذا في مرحلة الإثبات كما لا يخفى ، وإن كان في مرحلة الثبوت : إن ما قاله الأئمة الأطهار عليهم السلام فهو مستقى عبر رسول الله صلى الله عليه وآله من الوحي .

فعلاقة الفقه بالتاريخ أنه جزئي من جزئياته ، لكنّه جزئي معنوي كسائر المعنويات ، وليس جزئياً مادياً كالمواليد الثلاثة [١] لوضوح أن التاريخ ومرور الزمان ، ينطبق على كليهما [٢] .

فتطور الفقه تطور تكاملي ، فكل فقيه يأتي بما يكمل ما قدّم الفقيه الذي قبله ، وهكذا دواليك ، فتطوّر الفقه هو إلى الأعلى وليس إلى الانحدار كما هو أثر الزمن على الأشياء .

وهناك علاقة أخرى بين الفقه والتاريخ غير تلك العلاقة التي ذكرناها وهذا هو مقصود حديثنا ، ونحن نبيِّن هذه العلاقة بضرب المثال التالي :

لقد مرّ تحريم الخمر بمراحل عديدة ، كذلك مرّت الصلاة بمراحل عديدة من حيث جواز التكلم أثناءها أو عدمه ، وهذه الأدوار لم تقرّ من قبل الشارع جهلاً منه ثم تداركه لهذا الجهل بل رحمة للناس ، فالناس لا يتحملون الأمور الصعبة مرة واحدة ، فلابد من التمهيد لخلق الاستعداد الكافي لتلقي الواجب ، فربّما يكمل الفاعل ، وربما يكمل القابل ، كما ذكروا في مباحث الفلسفة .

فعلاقة التاريخ بالفقه ، تبدو على نحوين كما ذكرنا :

الأول : تطوّر الفقه على مرور الزمان ، وهذا هو علم من العلوم ، ونستطيع أن نسمّيه بتاريخ التشريع الإسلامي أو تاريخ الفقه الإسلامي [٣] . والعلم بالشيء خير من الجهل به .

الثاني : وقوع الفقه ضمن ظروف واقعية [٤] ، حيث شرعت الأحكام وفق الظروف الموضوعية لحياة الناس في ذلك الزمان ، فمعرفة هذه العلاقة ـ بين التشريع

---

(١) الحيوان والنبات والجماد .

(٢) المعنوي والمادي .

(٣) وبعبارة أخرى التاريخ الفقهي بمعنى الفاعل .

(٤) وبعبارة أخرى كشف الظروف عبر القابل .

والواقع أو الفقه والتأريخ ـ ، تكشف لنا الظروف الطارئة والعوامل المؤثّرة في مراحل التشريع في الحكم الواحد ، الأمر الذي يجعلنا قادرين على الأخذ بها في المستقبل إذا كانت الظروف الحاضرة لا تتناسب مع الأخذ بها .

وقد ورد في كتاب النكاح أن كراهة رضاعة الطفل من لبن الزانية ترتفع إن رفع المالك للجارية يده عن حقّه في زناها ، وقد بيّنّا تفصيل ذلك في كتاب النكاح ، فالمستقبل مؤثّر في الماضي عقلاً أحياناً على نحو الشرط المتأخّر ، وشرعاً بالنص ونحوه .

وبالإضافة إلى المنافع التي ذكرناها ، هناك منافع أخرى من أهمّها : إننا عندما ندرس التاريخ الفقهي ، سنلاحظ منحى القوة والضعف في هذا التاريخ ، سنجد هذا المنحى يرتفع في بعض الأوقات ، ويهبط في أوقات أخرى . فالمعروف عند العلماء أنّ الفقه تكامل في خطوطه العامة عند نزول الآية الكريمة : ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾ [١] ، أما في خطوطه الخاصة ، فهو لم يتكامل إلاّ خلال قرن من الزمن ، وقد بدىء بكتابة الفقه الإسلامي منذ أيّامه الأولى ، فكتاب الجامعة لأمير المؤمنين عليه السلام الذي يبلغ طوله سبعين ذراعاً كما ورد في الكافي هو الكتاب الذي يتضمّن جميع الأحكام الشرعية حتى أرش الخدش [٢] ، وقد ورث الأئمّة عليهم السلام كتاب الجامعة من جدّهم أمير المؤمنين عليه السلام ، وانتقل من إمام إلى إمام . علماً أن عمل العلماء والمجتهدين عبر التاريخ الإسلامي إنما يكون بالشرح والتوضيح والتبيين وما أشبه ذلك .

هذا ، وقد ذكر المؤرخون أن القانون الروماني لم يدوَّن إلاّ بعد مرور ألف سنة مع أخذ النظر بالفروقات المهمة بين القانونين الإسلامي والروماني ، فالأثر يدلّ

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣.

(٢) أنظر الكافي (أصول): ج ١ ص٥٩ ح٣ و ص ٢٣٩ ب ٤٠ ح ١، بصائر الدرجات : ص١٤٨، المحاسن : ص ٢٧٣ .

على المؤثّر ، فالنتيجة من حيث القوّة والضعف ، دليل على قوّة أو ضعف المستند ، كما أنّ الانحراف والاستقامة دليل على البطلان أو الصحة ، وقد ذكر لنا التاريخ كثيراً من قصص محاكم التفتيش في العهد الروماني عندما فرضت الكنيسة سيادتها على الحياة العامة ، فقامت بحرق المسيحيين المخالفين لها ، كذلك فعلت الحكومات التي جاءت عقب الكنيسة ، فانتهجت الأساليب نفسها ، حتى إنهم كانوا ينتزعون الاعترافات من القساوسة بالآلات الجارحة ، وهذا دليل على تدنّي القانون الروماني ، لأنّ لكل فعل ردّ فعل .

وكيف كان ، فالأمران دليل على ما ذكرناه .

ونكتشف حين دراستنا لتاريخ التشريع الإسلامي ، إصابة هذا الفقه بوابل من الضعف في زمن الخلفاء الذين ابتدعوا فقهاً في قبال فقه الأئمة الأطهار عليهم السلام، وهذا ليس بالأمر الغريب ، فقد ادعى التاريخ لهؤلاء ما كان للأئمة عليهم السلام من فضيلة ، فادّعوا الزهد حتى ليزيد بن معاوية [1] ، وهارون العباسي [2] في قبال زهد الإمام

---

(١) ثاني خلفاء بني أمية ، رمز التسلّط والاستبداد والانحراف الديني والسياسي والأخلاقي ، اشتهر بشرب الخمور وارتكاب الفجور واللعب بالنرد والقرود ، واشتهر كذلك بنكاح أمهات الأولاد والبنات والأخوات وترك الصلاة والصيام كما وصفه عبد الله بن حنظلة ، غسيل الملائكة . ولد سنة ٢٥ هـ ، وقتل سنة ٦٤ هـ ، وحكم ثلاث سنوات ، ففي السنة الأولى من حكمه قتل سبط الرسول ، الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه ، وفي السنة الثانية أباح مدينة الرسول صلى الله عليه وآله لجنوده ثلاثة أيام بعد أن قتل وسبى الآلاف من سكانها ، وفي السنة الثالثة ضرب الكعبة بالمنجنيق وأحرقها .

(٢) خامس خلفاء بني العباس والبالغ عددهم ٣٧خليفة ، ولد سنة ١٤٨هـ (٧٦٥ م) ، ومات في جمادى الأولى سنة ١٩٣هـ (٨٠٩ م) في قرية سناباد عن عمر يناهز ٤٧ سنة ، وحكم سنة ١٧٠هـ (٧٨٦م) ، وامتد حكمه ٢٣ سنة وشهراً وتسعة عشر يوماً ، واتّسم حكمه بالظلم والاستبداد وعلى الخصوص لشيعة أهل البيت وأئمتهم عليهم السلام ، فقد قتل الإمام الكاظم عليه السلام بعد أن سجنه عشر مرات في البصرة وبغداد ، وكذا قتل الطالبيين . وكان هارون يسعى دائماً إلى طمس المذهب الشيعي ، والآثار الإسلامية ، وعلى الخصوص العتبات المقدسة في مدينة كربلاء ، واهتم بالغناء والمغنين وقرّب الكثير منهم وأجزل العطاء عليهم

زين العابدين ، والإمام الكاظم ، وبقية الأئمة ﷺ.

فالتاريخ ، يكشف لنا عن نقاط الضعف هذه ، ويسجلها بوضوح ؛ كي يستطيع من يريد الحقيقة الوصول إلى ذلك .

ومن عوامل تأثير التاريخ في الفقه هو ما ذكره الفقهاء عندما يطرأ عنوان ثانوي حيث يتغيّر الحكم حسب هذا العنوان الثانوي ، أولاً كان فهو حكم أولي ، وثانياً حكم ثانوي ، وإذا انعكس الأمر بأن كان السابق حكماً ثانوياً ثم ذهب موضوعه ، فكان الأمر ثانياً حكماً أولياً ، وهذا من مصاديق التأثير المتبادل بين الفقه والتاريخ ؛ حيث يكون من نتائج هذا الترابط آثار الحكم الأول بعد طرو الحكم الثاني ، مثل القضاء والكفارة وما أشبه .

والحاصل : أن الطرو والتغيير والتجديد فيما ذكرناه هنا من نتائج تأثير التاريخ في الفقه .

وكان يجمعهم في مجلس واحد ويقترح عليهم في الأصوات ليطرب هو ومن معه ، وقد اختار له إسحاق الموصلي من الغناء مائة صوت ، وعرفت بالأصوات المائة المختارة ، التي وضع أبو الفرج الأصفهاني فيها كتاب الأغاني . وكان أخو هارون ، إبراهيم ، المعروف بابن شكلة قد بلغ منزلة بالغناء والعزف والمنادمة حتى اشتهر بشيخ المغنين ، وقد ذكر في التاريخ أنه لما عجز إبراهيم عن توزيع عطاء الناس ؛ لصرفها في ملذاته ، قال قوم من أهل بغداد هازئين مستهزئين : «أخرجوا لنا خليفتنا يغني لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات فتكون عطاءً للجميع» ، وكانت أخت هارون ، علية ، تغني وأخوها الآخر، يعقوب ، يزمّر لها على الغناء .

الفصل الأول

مقدمات في فلسفة التاريخ

الفرق بين
علم التاريخ وفلسفته

مسألة : من الضروري للباحث في التاريخ أن يعرف الفرق بين علم التاريخ وفلسفته[١] ، فالعلم ـ بما هو علم ـ عبارة عن المفردات أو المجموعات السطحية الظاهرة من اقتصادية ، أو سياسية ، أو اجتماعية ، أو تربوية ، أو ما أشبه .

أمّا الفلسفة ، فهي عبارة عن الروح العامة الدارجة في كلّ ذلك في أي بعد من أبعاد الحياة ، مثلاً العوائل هي مفردات لعائلة زيد ، وعائلة علي ، وعائلة خالد ، وهكذا . فالعلم ، بأنْ يعلم كلّ إنسان كيف يصنع كلّ واحد مع زوجته وأولاده ، وكيف تصنع الزوجة والأولاد مع أبيهم ، أو كيف يصنع الأقرباء

---

(١) وقد عرف العلماء فلسفة التاريخ تعاريف عديدة ، منشؤها اختلاف المناهج ، منها :
١ـ لورد بو لينغبروك : الفلسفة التي تعلّم بالقدوة .
٢ـ أنطونيو لايديولا : إنها تمحيص للمناهج ، والمبادئ ، والأنظمة لعلوم التاريخ ، إضافة إلى كونها تاريخاً ، شاملا ، ومكتوباً ، وجّهته أفكار فلسفية سابقة.
٣ـ أد كزينو بول : إنه وقائع متتابعة على عكس العلوم التي تعتبر وقائع متكررة.
٤ـ دور كهايم : تبحث في تحديد الاتجاه العام لتطور الإنسانية ، وإيجاد قانون لحركة الحياة البشرية في خطوط دائرية أو مستقيمة .
٥ـ وعرفه بعضٌ : إنه معرفة الروابط التي تربط الأحداث والوقائع المتفرقة ودراستها لتبين دوافعها وارتباطاتها ونتائجها ، واستخلاص السنن من خلالها والاعتبار بالدروس والعظات فيها.
٦ـ وعرفه الدكتور حسن سلمان في كتابه : النظرة القرآنية لتفسير حركة التاريخ ص٣٦ بما يلي : معرفة التحولات ، والتطورات التي تنقل المجتمع من مرحلة إلى أخرى ، ومعرفة القوانين المحكمة في هذه التطورات والتحولات.

بعضهم مع بعض ، بالنسبة إلى عائلة بني تميم ، أو بني كلاب ، أو بني ضبّة ، أو ما أشبه ذلك .

أمّا الفلسفة ، فهي عامّة بالنسبة إلى كلّ العوائل ، فيؤخذ في الفلسفة المشتركات بينها ، ويترك الخصوصيات حال ذلك حال الجنس أو النوع في الاصطلاح المنطقي . فالمنطقي لا ينظر إلى هذا الفرد الجزئي وتلك ـ كالشاة ـ ، أمّا المؤرّخ فهو ينظر إلى كلّ واحدة مفردة عن الأخرى ، وإنّما المنطقي يأخذ حال الجزئي ـ الشاة مثلاً ـ بالنسبة إلى النوع ، ولذا قال الحاج السبزواري :

فلازم للفيلسوف المنطقي أن ينظر اللفظ بوجه مطلق(١)

وليس المراد باللفظ بما هو لفظ وإنما اللفظ بما هو مثال ، وهكذا حال الجنس الشامل للجزئيات المختلفة للبقر ، والشاة ، والمعز ، وغير ذلك . وهكذا الحال بالنسبة إلى مختلف الجزئيات لغير الحيوان ـ مثلاً ـ ، فتاريخ هذه الشجرة ، وتلك الشجرة ، علمٌ ، أمّا بالنسبة إلى تاريخ المجموع سواء كان نوع البرتقال ، أو جنس الشجرة ، فهو جنسٌ ، وهكذا يكون حال الخاصّ ، والعرض العام باصطلاح المنطقيين ، فقد يتكلّم حول مال زيد أو قبح عمرو ، وهكذا بالنسبة إلى خالد ، وبكر ، أو غيرهم . أمّا بالنسبة إلى الفلسفي ؛ فينظر إلى الجمال في أشخاص جميلين بقول مطلق ، أو إلى القبح في هذا وذاك بقول مطلق .

هذا بالنسبة إلى الخاصّة وبالنسبة إلى العرض العامّ هكذا على ما ذكروه في بحث الكلّيّات الخمسة سواء ما ذكروه في الفقه ، أو في الفلسفة ، أو في الحكمة ، أو في غيرها .

والحاصل : أنّ موضوع التاريخ ، لمفرده ، علم مستقل ، ولمجموعه يدخل في

---

(١) شرح منظومة السبزواري ، قسم المنطق ، مباحث الألفاظ : ص٢١ للإمام المؤلف ﷺ .

نطاق الفلسفة ، فالمؤرّخ إنّما يؤرّخ للذين دخلوا التاريخ ، ولعبوا دوراً فيه ، وحرّكوا مساره ، سواء دخلوا التاريخ للإفساد كفرعون [(١)] ، وهتلر [(٢)] ، وستالين [(٣)] ، أو دخلوا التاريخ للإصلاح ، كما فعل الأنبياء والمصلحون ،

---

(١) الوليد بن مصعب ، ويكنى بأبي مصعب وهو فرعون موسى ، الطاغوت والجبار والمتكبر والظالم والساحر والباغي الذي قال : «أنا ربكم الأعلى» ، وقد اختلف أرباب التاريخ في نسبه فبعض قال : إنه من اليمن ، وآخر: إنه من العمالقة ، وثالث : إنه من أقباط مصر كما ذكر ذلك اليعقوبي في تاريخه ج١ ص ١٨٦ ، وكلمة «فرعون» في اللغة المصرية القديمة تعني الملك المتصرف أو الرب الذي له حق الأمر والنهي في شعبه أو من هم تحت سلطته وقد ورد اسم فرعون في القرآن ٧٤ مرة ، وتحدث عنه الباري سبحانه وتعالى في ٢٧سورة ، وقد حكم مصر وفلسطين وبلاد الشام وبلاد ما بين الرافدين في العراق واستمر حكمه على أقل التقادير ٢٠٠ عام وقد استعان في ترسيخ حكمه ببعض الكهنة والسحرة وقد وصفه القرآن الكريم بما يلي: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ «سورة القصص ، الاية ٤» و﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ «سورة يونس ، الآية ٨٣». و﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ «سورة الدخان ، الآية ٣١» . أرسل الله سبحانه وتعالى له موسى النبي وآزره بأخيه هارون وبعث معه آيات عديدة منها : العصا ، والجراد ، والقمل ، والضفادع . لكن فرعون استكبر ولم يؤمن فأغرقه الله وجنوده والبالغ عددهم مليون شخص في النيل .

(٢) أدولف هتلر ولد في النمسا سنة ١٨٨٩ م ، وانتحر في برلين سنة ١٩٤٥م ، تسلم مقاليد الحكم في ألمانيا سنة ١٩٣٤م ، أدت سياسته إلى نشوب الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م ، والتي ذهب ضحيتها قرابة الخمسين مليونَ إنسانٍ ، وخسر المعركة بهجومه على روسيا سنة ١٩٤٣ ، من مؤلفاته كتاب : «كفاحي».

(٣) جوزيف ستالين ولد سنة ١٨٧٩م ، ومات سنة ١٩٥٣م ، أصبح الأمين العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ـ السابق ـ سنة ١٩٢٤م ، واستمر إلى سنة ١٩٥٣م وأصبح رئيساً للجمهورية بين الفترة ١٩٤١ـ ١٩٥٣م ، اتّسم حكمه بالاستبداد والديكتاتورية ، وقد قضى على خصومه في محاكم صورية ، وقد قتل من الشعب أكثر من عشرين مليوناً لأجل تحويل النظام الزراعي التقليدي إلى المزارع الجماعية أو المزارع الحكومية . وقد سبب هذا التحويل سحق الطبقة الوسطى في المجتمع ممّا أدى إلى خفض الإنتاج الزراعي ، ونقص الملايين من رؤوس الماشية ، وإحداث مجاعات في البلاد وعلى الخصوص في أوكرانيا وشمال القفقاز .

ولا فرق في ذلك بين الساسة ، والقادة ، والعلماء ، والفلاسفة ، والمفكّرين ، والشعراء ، والمخترعين ، وأصحاب الصناعات والحرف .

ولا يقتصر التاريخ والفلسفة على الجانبين السياسي والعسكري ، أو جانب ثالث ، أو جانب رابع ، أو ما أشبه ذلك ، بل بالنسبة إلى المجموع من حيث المجموع سواء كانوا شخصيات ، أو حضارات ، أو أدياناً ، أو حروباً ، أو غير ذلك ، ولذا فلكلّ من العلماء الذين ذكروا المفردات ، والفلاسفة الذين ذكروا الروح العامّة للتاريخ ، فضلٌ كبير بالنسبة إلى العلم والأجيال الآتية ، فإنّ التحوّل في العصر الحديث من تاريخ الأفراد إلى تاريخ الحضارات ليس معناه أنّ تاريخ الأفراد صار منسيّاً ؛ لأنّ الاستفادة تكون من الجانبين ، فقد يكون بعض العلماء قد اتّخذ التاريخ والفلسفة معاً معياراً للعلم ، فلهم علم التاريخ ، ولهم فلسفة التاريخ .

علاقة

التاريخ بالأخلاق

مسألة : من موضوعات فلسفة التاريخ التي يجب على الباحث التاريخي أن يلاحظها : النظر إلى تاريخ الأمّة بصورة إجمالية ، والقول إنّ تاريخها تاريخٌ أخلاقي ، أو تاريخ غير أخلاقي .

وفي البدء يمكننا القول : إنّ الأخلاق لا تتكون عند الإنسان إلاّ بالدين والإيمان بالله سبحانه ، واليوم الآخر ، حقيقةً لا لفظاً وادّعاءً ، فالأخلاق بدون الدين لا تكون أخلاقاً صحيحة وإنّما أخلاقاً خياليّة ، وكما أنّ للأفراد أخلاقيات سليمة وفاسدة ، كذلك للدول والحضارات ، والأحزاب ، والمنظّمات ، والهيئات ، والاجتماعات ، والعشائر ومن أشبههم ، أخلاقيات صحيحة أو فاسدة ، فإذا كان هناك في الدولة : التراحم ، والتعاطف ، والشورى ، والخدمة ، وما أشبه ذلك ، فهذه الدولة لها أخلاق صحيحة وسليمة . أمّا إذا لم تكن هذه الأمور بل كان الاستبداد ، والإسراف ، والترف ، والتبذير ، والبطش ؛ كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [1] ، بتقريب فئة ، وتبعيد فئة ، واتّخاذ بطانة للمؤامرة والمكر دائماً ، فهذه الدولة ، تصبح دولة لا أخلاقية .

ومن الواضح أنّ الفرد كالمجتمع ، والمجتمع كالفرد ، وكلاهما كالحكومة والحزب ، فيكتب لها البقاء ، إذا كانت لها أخلاقيات صحيحة ؛ لأنّ الأخلاقيات الصحيحة هي التي تواكب الحياة ، وتكون حسب موازين الكون ،

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٣٠ .

والفطرة ، وليس حسب موازين ما يريده الإنسان ، وما تشتهيه نفسه . فمن يقول : لا أعترف بالجاذبية ، ويُلقي نفسه من شاهق ، لابدّ وأن يصطدم بالأرض ، ويتقطّع جسده قطعاً متناثرة . كذلك من يقول : إنّي لا أؤمن بالهواء الطلق النظيف في البيئة السليمة ، فأنتقل إلى بيئة موبوءة ، لابدّ وأن يصيبه الوباء . وهكذا بالنسبة إلى من لا يعترف بأنّ النار محرقة ، فيدخلها فلابدّ وأن يحترق .

وهذه الأمور الملموسة للإنسان ، تقاس عليها الحكومات والدول ، فإنّ الله تعالى كما جعل لكلّ شيء موازين وحدوداً من الأمور المخلوقة ، كذلك جعل للمجتمعات والأفراد مثل هذه الموازين . فالعصفور لا يكبر إلى حجم الحمام ، والحمام لا يكبر إلى حجم النعامة ، والنعامة لا تكبر إلى حجم الفيل ، والعكس صحيح أيضاً ، فالفيل لا يصغر إلى حجم النعامة ، والنعامة لا تصغر إلى حجم الحمام ، والحمام لا يصغر إلى حجم العصفور ، وهكذا بالنسبة إلى سائر موازين الكون حسب ما قاله تعالى : ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (١) ، وهكذا جعل الله تعالى لكلّ من الاقتصاد ، والاجتماع ، والتربية ، والفكر ، والثقافة موازين خاصّة ، فإذا خالف كائن ذلك الميزان ، اصطدم بموازين الله تعالى ، وسننه ؛ ليتحطّم ويفنى .

مثلاً : بنو أميّة (٢) خالفوا موازين الله تعالى في الحكم ؛ ولهذا تحطموا بعد عهد

---

(١) سورة طه : الآية ٥٠ .

(٢) نسبة إلى أميّة وهو من الروم ، استلحقه عبد شمس ، حكموا اثنين وتسعين سنة ابتداءً من ٤٠ هـ (٦٦١ م) وإلى ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، وامتدّت دولتهم من شواطئ المحيط الأطلسي وجبال البرانس غرباً إلى نهر السند وتخوم الصين شرقا ، وعدد خلفائهم أربعة عشر خليفة ، وهم كالتالي: ١. معاوية بن أبي سفيان. ٢. يزيد بن معاوية. ٣. معاوية الثاني. ٤. مروان بن الحكم . ٥. عبد الملك بن مروان. ٦.الوليد بن عبد الملك. ٧. سليمان بن عبد

من الطغيان والجبروت ، وكان سبّ الإمام أمير المؤمنين ﷺ مَعلماً لطغيانهم ، فقد ذكر لنا الشافعي [(١)] أنّ بني أميّة نصبوا «٧٠ ألف» منبر لسبّ علي ﷺ ، ممّا يدلّ على كثرة منابر المسلمين في طول البلاد وعرضها ، ومع ذلك ، لمّا خالفوا سنن الله ﷻ في الحكم ، قصم ظهورهم ، وأقصاهم عن السلطة ، وهكذا رأينا نحن في زماننا كيف سقط الشاهان ـ رضا شاه وابنه [(٢)] ـ في إيران ، وكيف سقط

الملك . ٨. عمر بن عبدالعزيز . ٩. يزيد بن عبد الملك . ١٠. هشام بن عبد الملك. ١١. الوليد بن يزيد . ١٢. يزيد بن عبد الملك . ١٣. إبراهيم بن الوليد. ١٤. مروان الحمار.

اتّسمت سيرتهم باللهو ، واللعب ، والغناء ، والطرب ، والشراب ، وإحياء الباطل ، وإماتة السنة ، وإظهار البدعة ، ومصادرة الأموال ، وبث روح العصبية وإثارة النزاعات القبلية، وقتل أهل البيت عليهم السلام . وفي زمانهم كانوا يختمون على أعناق الصحابة والتابعين على أنهم عبيد للخليفة ، وكانوا يسجنون النساء ويأتي من أراد الزنا فيدخل إلى السجان فيختار من النساء ويقضي وطره مقابل مبلغ من المال .

وقامت في عهدهم عدة ثورات منها: ١. ثورة الإمام الحسين عليه السلام ٢. ثورة أهل المدينة بقيادة عبد الله بن حنظلة ٣. ثورة أهل مكة بقيادة عبد الله بن الزبير. ٤. ثورة المختار ٥. ثورة مصعب بن الزبير . ٦. ثورة زيد بن علي . ٧. ثورة بني المهلب .

(١) أبو عبد الله ، محمد بن إدريس ، الملقب بالشافعي ، نسبة إلى جده ، ويعد مؤسس المذهب السني الشافعي ، ولد سنة ١٥٠هـ (٧٦٧م) وتوفي في مصر سنة ٢٠٤هـ (٨٢٠م) ، هاجر إلى مصر سنة ١٩٨هـ (٨١٣م) ، ثم سافر إلى مكة ومنها إلى بغداد ثم العودة إلى مصر سنة ٢٠٠هـ (٨١٥م) ، من مؤلفاته : كتاب الأم ، رسالة في أدلة الأحكام ، اختلاف الحديث ، المسند .

للمزيد راجع كتاب الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة : ج٣ ص ١٧٥ ـ ٢٥٤ ، تهذيب الأسماء واللغات : ج١ ص ٤٤ .

(٢) رضا شاه: من ملوك إيران في القرن العشرين ، أصبح وزيراً للحربية ـ الدفاع ـ في حكومة القاجار ثم أطاح بهم ولقب نفسه بـ«بهلوي» احياءً للفارسية القديمة ، ولد سنة ١٢٩٥ هـ ـ (١٨٧٨م) وحكم إيران سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) ، واستمرّ في الحكم لسنة ١٣٥٩ هـ (١٩٤١م) ، اتّسم حكمه بإحياء القومية الفارسية ونشر المذهب البهائي وهدم المساجد والمدارس والحسينيات ومنع العلماء ورجال الدين من ممارسة أدوارهم في الحياة ، وأشاع الزنا والخمر والقمار في أوساط المجتمع الإسلامي ، ومنع النساء المسلمات من ارتداء

حكّام العراق من عبد الكريم قاسم [١] ، وعبد السلام عارف [٢] ، وعبد الرحمن عارف [٣] ، والبكر [٤] ، فإنّ الحكام إذا خالفوا موازين الله ﷻ ، يكون حالهم حال من يخالف موازين الله في إلقاء نفسه من الشاهق .

وعلى كلّ حال : فأخلاقيّات الحكّام سواء انبعثت عن الإيمان بالله واليوم الآخر أو انبعثت عن العقل الذي يقول : إنّ الأخلاقيات المنحرفة تسبّب سقوط الحكم حالها حال أخلاقيات الفرد ، فإنّ الفرد إذا كانت له أخلاقيات صحيحة

الحجاب الذي فرضته الشريعة ، وحطم اقتصاد البلاد وعلى الخصوص قنوات الري ، وقتل في ثورة مسجد «كوهر شاد» في مدينة مشهد الإيرانية أكثر من ثلاثة آلاف مسلم . نفاه الإنجليز إلى جزيرة موريس في المحيط الهندي ، وعيّنوا ولده محمد رضا مكانه ، وأصابه في منفاه لوث من الجنون ؛ فكان يقف كلّ يوم أمام مرآة في غرفته ويعدد ألقابه ثم يضحك بهستيرية على نفسه ، وكان يقضي أكثر أوقاته بهذه الكيفية ، ثم قتله الإنجليز هناك سنة ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م) .

محمد رضا شاه : من ملوك إيران في القرن العشرين ، عينه الإنجليز بعد أن خلعوا والده ، ولد سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م) ، وتسلم الحكم في إيران سنة ١٣٥٩ هـ (١٩٤١ م) ، وأطيح به سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) ، ومات في المنفى سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) ، ودفن في مصر .

(١) عبد الكريم قاسم : ولد في بغداد سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) ، تسلم الحكم في العراق سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٨م) بعد أن أطاح بالنظام الملكي ، وأعلن النظام الجمهوري ، وشكل مجلس السيادة لإدارة البلاد ، استمر في الحكم لسنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م) ، وأعدم إثر تعرضه لانقلاب عسكري ؛ قاده عبد السلام عارف .

(٢) عبد السلام عارف : ولد سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢١م) ، تسلم الحكم في العراق سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م) ، قتل سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٦م) ؛ إثر سقوط طائرته في جنوب العراق .

(٣) عبد الرحمن عارف : ولد سنة ١٣٣٤هـ (١٩١٦م) ، أصبح رئيساً للعراق سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٦م) ، بعد مقتل أخيه عبد السلام ، نحي عن السلطة سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) ؛ إثر انقلاب دبّره أحمد حسن البكر ، ونفي إلى تركيا .

(٤) أحمد حسن البكر : ولد في تكريت سنة ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) ، تسلم الحكم في العراق ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) ؛ إثر انقلاب دبّره على عبد الرحمن عارف ، واستمر في الحكم إحدى عشرة سنة ، وأقصي سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) ؛ إثر انقلاب دبّره صدام التكريتي . وقتله صدام سنة ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) بحقنة سبّبت ارتفاع نسبة السُّكر لديه بواسطة الدكتور صادق علوش .

عن إيمان أو عن تعقّل ، لابدّ وأن يزدهر ، وأن يتقدّم ، وأن يلتفّ حوله الناس ، ويصل إلى هدفه ، بينما إذا لم يكن كذلك ، انفض الناس من حوله . كما قال الإمام أمير المؤمنين ﷺ : **(لا وحشةَ أوحش من العجب)**[1] .

---

(١) من لا يحضره الفقيه : ج٤ ص ٣٧٢ ب٢ ح ٥٧٦٢ ، كشف الغمة : ج١ ص٣٨٤ ، بحار الأنوار : ج١ ص٨٨ ، غرر الحكم ودرر الكلم : ص٣٠٨ ح٧٠٨٨ .

الاستقراء

مسألة : إنّ دراسة التاريخ في منهجه وغايته ، تعتمد على الاستقراء ، والتمثيل ، والقياس المنطقي ، كالعلوم الأخرى ؛ وذلك لوحدة الجامع في العلوم ، فالاستقراء هو تتبع الجزئيات ، والأمور المتشابهة ؛ ليستفاد منها الكلّي العام - مثلاً - نلاحظ أنّ الفرس ، والبغل ، والحمار ، وألف حيوان وحيوان آخر ، يحرّك فكّه الأسفل عند المضغ ، فنستفيد من ذلك أنّ كلّ حيوان يحرّك فكّه الأسفل عند المضغ ، فنجعل ذلك قاعدة كلّية ، فإنْ كان الاستقراء تامّاً بالنسبة إلى كلّ الحيوانات ، فتكون القاعدة قطعية ، وإن لم يكن الاستقراء تامّاً في كلّ المفردات وإنّما في كثير من المفردات ، فيكون الاستقراء ناقصاً ، وإنّما تأتي بنحو الكلّية من باب أن الظنّ يلحق الشيء بالأعمّ الأغلب إلاّ أن يتدخّل بداهة في الأمر ، فيكون الاستقراء أيضاً قطعياً ، ويسمّى الاستقراء المعلل .

مثلاً : إنّا نرى أنّ النار في العراق ، وفي إيران ، وفي مصر ، وفي الشام ، وفي الصين ، وفي عشرات الأماكن الأخرى ، تحرق اليابس الذي تلتقي به من خشب ، أو عود ، أو ورق ، أو ما أشبه ذلك ، فإنّا نقطع بأنّ النار تحرق اليابس مع أنّه ليس لنا استقراء تام . ولذا لا استثناء في ذلك إلاّ إذا كان الأمر مرتبطاً بالله تعالى ؛ لقوله : ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً**﴾ [1] ، كما حدث في قصّة إبراهيم عليه السلام .

أمّا بالنسبة إلى كلّ حيوان يحرّك فكّه الأسفل عند المضغ ، فقد رأينا استثناء

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٦٩ .

ذلك في بعض أقسام من الحيوانات البحرية على ما ذكروه .

وبالقواعد الكلّية التي انتهينا إليها ، نستطيع استيعاب العلوم المختلفة ، فنرى أنّ العلوم تقوم على أساس الاستقراء . كما أنّ كثيراً من العلوم تستفيد من التمثيل ، وكثيراً من العلوم تستفيد من القياس المنطقي ، حيث تشكّل الصغرى والكبرى ، وتكون النتيجة قطعية إذا كانت كلّ من الكبرى والصغرى قطعية ، فنقول : زيد إنسان ، وكل إنسان يموت ، فزيد يموت ، حيث إنّ الأصغر يدخل تحت الأكبر ؛ بسبب الحدّ الأوسط المكرّر في كلّ من الصغرى والكبرى حسب الأشكال الأربعة التي ذكرها المنطقيّون والصناعات الخمسة وهي حسب المادّة ، وأمّا القياس فهو حسب الصورة ، وهذا كما يأتي في علوم الفيزياء ، والكيمياء ، والعلوم الإنسانية ، يأتي أيضاً في فلسفة التاريخ ؛ إذ العلوم لها جامع واحد من هذه الجهة ؛ لأنّ منهج علم التاريخ ، يعتمد على جمع أكبر عدد ممكن من الوقائع التاريخية بهدف الوصول إلى أحكام كلّية على طبق ما ذكر في العلوم الطبيعية ، إمّا على نحو القياس ، أو على نحو الاستقراء ، أو على نحو التمثيل . وقد أضاف بعض علماء الأصول الاستحسان ، لكن الاستحسان ليس له ضوابط خاصّة ، ولهذا فإنّ الفقهاء أسقطوا الاستحسان عن الاستدلال ؛ لأنّه حسب ذوق العالم الذي يستحسن . ولذا فأحدهم يستحسن شيئاً ، وأحدهم يستحسن شيئاً آخر . مثلاً : أحدهم يقول : إنّ الضبع كالظبي ؛ ولهذا فهو حلال ، والآخر يقول : إنّ الضبع كالكلب ؛ ولذا فهو حرام ، إلى غير ذلك من الأمثلة الموجودة في الفقه .

والنتيجة : لا يؤدّي الاستحسان إلى تأسيس أحكام كلية ، فهو ليس منهجاً علمياً ، وبالتالي لا يوجد قاعدة كلية . وهذا من جهة منهج العلم .

كما أنّ فلسفة التاريخ أيضاً تشابه العلوم الطبيعية والإنسانية من جهة غاية العلم وهي الغايات العملية في الطبيعية لأجل تسخير العلوم الطبيعية لصالح

الإنسان ، وأمّا بالنسبة إلى فلسفة التاريخ ، فالهدف من ذلك تزويد الإنسان بأحكام تمكّنه من أن يفهم معنى الأحداث الحاضرة أو المستقبلية في ضوء خبرته بالماضي ، وقد ذكرنا في موسوعة الفقه في كتاب الفقه المستقبل : إنّه كيف يمكن استمداد المستقبل من الماضي والحاضر ؛ لأنّ الزمان يشبه بعضه بعضاً ، والحضارات تشبه بعضها بعضاً ، بحسب ما نستفيد من القياس ، أو التمثيل ، أو الاستقراء من الجهات المشابهة سواء كانت الحضارات صحيحة ، أو باطلة ، أو كانت أموراً اقتصادية ، أو سياسية ، أو اجتماعية ، أو تربوية ، أو غير ذلك ، مستقيمة أو غير مستقيمة ، مثل الاقتصاد الرأسمالي ، أو الاقتصاد الشيوعي ، أو الاقتصاد الاشتراكي ، أو غير ذلك من اتحاد الاقتصاد .

وعلى أي حال : فإنّ فلسفة التاريخ منهج علمي يستفيد من منهج العلم ومن غاية العلم ، كما أنّه يستفاد من ذلك احتياج العلم إلى الدين ، وأنّه لا يمكن للعلم أو الدين أن يؤثر لوحده ، فهما جناحان للحضارة الصحيحة ، وقد أضحت غاية العلم خدمة أغراض الدين ، فإنّ العلم بدون الدين لا يتمكّن أن يخدم الإنسان ، بل كثيراً ما يكون العلم آلة للهدم بيد الإنسان ، كما رأيناه في هذين القرنين بالنسبة إلى البلاد الغربية ، وقبل ذلك كان دين المسيحية دون وجود أي دور للعلم ، فأفسدت الكنيسة إفساداً لا مثيل له .

وفي هذين القرنين ، وبعد أن أضحى العلم بدون وجود الدين ، أفسد العلم إفساداً لا مثيل له ، حتّى انتهى إلى صنع القنبلة الذرّية المدمرة .

ومن هذه التجارب الأخيرة التي مرّت على العالم في القرون الوسطى ، والنهضة الصناعية إلى اليوم ، استقرأ المؤرّخون النظرة الأخروية التي تجعل غاية التاريخ عالم الدنيا ، وعالم الآخرة ، على ما قاله سبحانه وتعالى : ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا**

كَسَبُوا ﴾[1] ، فالاستعمار ، والاستثمار ، وقتل الأبرياء ، والسيطرة على الأفراد والشعوب ونهب مواردها وخيراتها ، ما هي إلاّ نتيجة أنّ العلم صار بيد أناس لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .

وعلى أي حال : فتجرد العلم عن الأخلاق ، والإنسانية ، والعدل ، والإنصاف ؛ يولد الظلم ، والقهر ، والاستبداد ، وكلّ ما هو سوء .

ولذا ورد في رواياتنا **(فأحببْ لغيرك ما تحبّ لنفسك)**[2] ، و **(من نادى يا للمسلمين فلم يجيبوه فليسوا بمسلمين)**[3] ، و **(ليس منّا من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه)**[4] ، و **(اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً)**[5] ، إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة التي تبيّن هذا الأمر بعد القرآن الحكيم ، الذي فيه إشارات كثيرة إلى هذه الجهة .

ولذا نشاهد أنّ الغرب بعد ابتعاده عن الدين خلال القرون الماضية ، وبعد أن رأى الآثار السلبية للعلم عندما تجرد عن الإيمان ، أخذ يقترب منه رويداً رويداً حتّى تنبأ أحد فلاسفة بريطانيا أنّه لا تمرّ مائة سنة القادمة إلاّ والبريطانيون يدخلون في دين الإسلام كافّة .

---

(١) سورة البقرة : الآيات ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٣١ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٦ ص ٨٤ ب٣١ ، وفي الأمالي للصدوق : ص ٣٢٣، ومصادقة الإخوان : ص٤٠ ، والاختصاص : ص٢٧ (بالمعنى) .

(٣) فقد ورد في الجعفريات : ص٨٨ (من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس من المسلمين ، ومن شهد رجلاً ينادي يا للمسلمين ؛ فلم يجبه ، فليس من المسلمين) ، وفي وسائل الشيعة : ج١٥ص١٤١ ب٥٩ ح٢٠١٦٩ وج١٦ ص٣٣٧ ب١٨ ح٢١٧٠٢ : (من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم) ، وفي الكافي (أصول) : ج٢ ص١٦٣ ح١ (من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين ، فليس بمسلم) .

(٤) من لا يحضره الفقيه : ج٣ ص١٥٦ ب٢ ح٣٥٦٨ ، وسائل الشيعة : ج١٧ ص٧٦ ب٢٨ ح٢٢٠٢٥.

(٥) مجموعة ورام : ج٢ ص ٢٣٤، مستدرك الوسائل : ج١ ص ١٤٦ ب٢٥ ح٢٢٠، بحار الأنوار : ج٤٤ ص ١٣٩ ب٢٢ ح٦.

أدوار التاريخ

مسألة : إنّ للحضارات أدواراً كأدوار الليل والنهار ، والفصول الأربعة ، أو سائر ظواهر الكون . بمعنى أن الحضارات تبدأ صغيرة ، ثمّ تكبر وتشبّ ، ثمّ تأخذ في الهرم ، ثمّ تأخذ بالسقوط . وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في آيات متعدّدة ، وهنا نذكر جملة من الآيات في سورة المؤمنون ، تدلّ على هذا الشيء ، وعلى هذه فقس ما سواها ، قال ﷻ : ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِه فَقَالَ يَا قَوْم اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ منْ إِلَه غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۞ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا منْ قَوْمه مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلاَئكَةً مَا سَمعْنَا بِهَذَا في آبَائنَا الأَوَّلينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ به جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا به حَتَّى حين ۞ قَالَ رَبِّ انْصُرْني بمَا كَذَّبُون ۞ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْه أَن اصْنَع الْفُلْكَ بأَعْيُننَا وَوَحْينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فيهَا منْ كُلٍّ زَوْجَيْن اثْنَيْن وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْه الْقَوْلُ منْهُمْ وَلاَ تُخَاطبْني في الَّذينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ۞ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْك فَقُل الْحَمْدُ لله الَّذي نَجَّانَا منَ الْقَوْم الظَّالمينَ ۞ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْني مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلينَ ۞ إِنَّ في ذَلكَ لآيَات وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلينَ ۞ ثُمَّ أَنْشَأْنَا منْ بَعْدهمْ قَرْناً آخَرينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا فيهمْ رَسُولاً منْهُمْ أَن اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ منْ إِلَه غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۞ وَقَالَ الْمَلأُ منْ قَوْمه الَّذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بلقَاء الآخرَة وَأَتْرَفْنَاهُمْ في الْحَيَاة الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مثْلُكُمْ يَأْكُلُ ممَّا تَأْكُلُونَ منْهُ وَيَشْرَبُ ممَّا تَشْرَبُونَ ۞ وَلَئنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسرُونَ ۞ أَيَعدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا متُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لمَا تُوعَدُونَ ۞ إِنْ هيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا**

نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ◆ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ◆ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ◆ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ◆ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ◆ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ ◆ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ◆ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ◆ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ◆ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ ◆ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ◆ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ◆ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ◆ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ◆ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ◆ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (١) .

وقد تقدّمت جملة من الآيات الأخرى التي ذكر الله ﷻ فيها أنّ جماعة كانت تشابه جماعة في تكذيب الأنبياء ، وأنّ بعضهم كان يشابه بعضاً في أخذ الله ﷻ لهم بمختلف العقوبات المناسبة لأعمالهم المنحرفة وعقائدهم الباطلة ، وقد أشرنا إلى مناسبة العقاب بالعمل في آيات القرآن الحكيم في كتاب حول القرآن الحكيم (٢) ممّا لا نريد تكراره هنا .

وعلى أي حال : فالحضارات حالها حال الكائنات الحيّة فيها ميلاد ، وشباب وشيخوخة ، وفناء ، ولا يقصد بالفناء الفناء المطلق بل فناء الكيفية . ومن الممكن أن تكون هناك حكومة على الغرار المنحرف ثمّ تستقيم ، فتبقى كما ذكرنا ذلك في كتاب «الغرب يتغيّر» ، بينما ذكرنا قبل سقوط الشيوعية بسنوات

(١) سورة المؤمنون : الآيات ٣٣ ـ ٥٢ .

(٢) وهو التفسير الموضوعي .

متعدّدة ، أنّ الشيوعية تسقط سقوطاً مطلقاً في كتاب «ماركس ينهزم» (١) ، والذي نراهُ أنّ الصيغة الأخيرة الصحيحة الباقية هي صيغة الإسلام الصحيح الواقعي حيث ليس لحكم الله منتهى ، وقد قال ﷻ : ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (٢) ، ونحن الآن نرى أنّ الغرب إذا أخذ بالإسلام ، ستبقى حكومته بدون حروب ، أو ثورات ، أو مشاكل اقتصادية ، أو اجتماعية إلاّ بالقدر الملازم للبشرية ، حيث قال الإمام علي عليه السلام في وصف الدنيا : **(دار بالبلاء محفوفة وبالغدر معروفة لا تدوم أحوالها ولا يسلم نزّالها)** (٣) .

أمّا إذا لم تأخذ البلاد الغربية بالإسلام الصحيح ، فإنّها معرّضة أيضاً للاهتزازات والسقوط ، والإسلام ليس إلاّ عقيدة صحيحة ، وقولاً صحيحاً ، وعملاً صحيحاً ، في مختلف جوانب الحياة. ولكنّ الكلام في أنّ عقلاء الغرب هل يدركون هذه الحقيقة فيغيّرونه إلى المسار الصحيح الذي هو باق أم لا ؟ حتّى يكون السقوط نهايته ؟!

كلام فولتير وردُّه

و«فولتير» (٤) المفكّر الغربي المشهور يشير إلى هذا المطلب ، حيث يقول : «إنّ بعض المؤرّخين اهتموا بالحروب والمعاهدات ، ولكنّي بعد قراءة ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف معركة ببضع مئات من المعاهدات ، لم أجد نفسي أكثر حكمة من

---

(١) وكما أشار إلى ذلك من قبل في كتاب «الاقتصاد الإسلامي المقارن» .

(٢) سورة النجم : الآية ٤٢ .

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢٦ ، وفي بحار الأنوار : ج ٧٣ ص ٨٢ ب ١٢٢ ح٤٥ ، وص١١٧ ب١٢٢ ح١٠٩ ، و ج ٧٧ ص ٢٩٨ ب ١٤ ح ٤(بالمعنى) .

(٤) اسمه فرانسوا ماري أرويه ومشهور بفولتير ، ولد سنة ١٦٩٤م في باريس ، ومات سنة ١٧٧٨ م ، كاتب ، ومؤرخ ، وفيلسوف ، عمل جاهداً ضد أفكار الكنيسة وحكمها المطلق ، ويعد المفكر الإيديولوجي للثورة الفرنسية .

قبلها ؛ حيث لم أتعرّف إلاّ على مجرّد حوادث لا تستحق عناء المعرفة».

أقول : لو أنّ فولتير درس الإسلام الصحيح الكامل لا ما ارتكبه الحكّام المنحرفون ، لم يتكلّم بمثل هذا الكلام ؛ فقد قال الله ﷻ : ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [1] ، وليس المراد لقلقة اللسان ، وإنّما ذكر الله واقعاً في أقواله وعقائده وأعماله .

وقال ﷻ في آية أخرى : ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ [2] ، وفي آية أخرى في السورة نفسها : ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾ [3] ، وفي آية رابعة : ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [4] .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(٢) سورة الفتح : الآية ٤ .

(٣) سورة الفتح : الآية ١٨ .

(٤) سورة التغابن : الآية ١١ .

الدراسة

الموضوعية للتاريخ

مسألة : يلزم على من يريد معرفة فلسفة التاريخ ، أن يدرس التأريخ بتجرد وموضوعية ، وأن يفهم الخصوصيات والمزايا للأحداث والوقائع ، فمن يعمل ذلك ، سيعرف أن كثيراً من المكتشفات الحديثة لم تكن حديثة كالطائرة ، واكتشاف القارّة الأمريكية ، واكتشاف الدورة الدموية بل واكتشاف آلات الطابعة ، وما أشبه ذلك ، قد تحقّق وجودها بفضل سبغ غور التاريخ ، إنّ هذه الأمور اكتشفت قبل ذلك ولعلّها بقرون ، فإنّ الدورة الدموية ـ مثلاً ـ مذكورة في كلام الإمام الصادق عليه السلام ، الذّي ألقاه على المفضّل ، والذي أملاه عليه في كتاب «توحيد المفضّل»[1] ، وهكذا كان اكتشاف القارّة الأمريكية على يد بحّار مسلم

---

(١) وقد جاء في إملاء الإمام جعفر الصادق عليه السلام على المفضل بن عمر الجعفي : فكّر يا مفضَّل ، في وصول الغذاء إلى البدن ، وما فيه من التدبير ، فإن الطعام يصير إلى المعدة فتطبخه ، ويبعث بصفوه إلى الكبد ، في عروق دقاق وأشجة بينهما ، وقد جعلت كالمصفّى للغذاء ، لكي لا يصل إلى الكبد منه شيء فيتكأها ، وذلك أن الكبد رقيقة لاتحمل العنف . ثم إن الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً ، وينفذه إلى البدن كله في مجارٍ مهيئة لذلك ، بمنزلة المجاري التي تهيأ للماء ليطرد في الأرض كلها وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول إلى مفائض قد أعدت لذلك ، فما كان منه من جنس المِرَّة الصفراء جرى إلى المرارة ، وما كان من جنس السوداء جرى إلى الطحال ، وما كان من البلة والرطوبة جرى إلى المثانة . راجع توحيد المفضّل ص١٩ ـ ٢٠ . وليست الدورة الدموية من مكتشفات العالم الإنجليزي وليم هارفي ، المتوفى في القرن السابع عشر الميلادي .

اسمه أحمد . . إلى غير ذلك [١] ممّا لسنا بصدد ذكره الآن .

وعلى أيّ حال : فليست فلسفة التاريخ إلاّ مثل سائر الأشياء الوجودية بحاجة إلى واقعية في الفلسفة ، واستقامة في أهلية المؤرّخ ، وإلاّ كانت النتيجة خطا سواء في تخطئة أحدهما ، أو في تخطئة كليهما .

والحاصل : أنّه من أراد الوصول إلى الحريم التاريخي ، والفلسفة العامّة في قضايا مختلفة ، ليستفيد منها الروح العامّة السارية في التاريخ حاضراً ومستقبلاً بل وماضياً ، عليه أن يحشر موضوعات كثيرة من التفاصيل التاريخية المشابهة ، مثل الحروب المتعدّدة ، أو الدول المتعدّدة ، أو القضايا الاقتصادية المتعدّدة ، أو ما أشبه ذلك ؛ حتّى يحصل الاستقراء التام ، أو الاستقراء الناقص المفيد ولو للظنّ ، ممّا يمكن تشكيل القياس المنطقي منها صغرى وكبرى ، بالإضافة إلى حصر الوقائع المراد دراستها من حيث الزمان ، والمكان ، والخصوصيات والمزايا ، حتّى يستطيع الباحث أن يستوفي دراستها ، ويصل إلى النتيجة المطلوبة السارية في جميعها ، متسلحاً بالروح النقلية التي تستند إلى الوثائق والمستندات زيادة ونقيصة ، وقوّة ، وبعثاً ، وإلاّ لم يصل إلى النتائج المطلوبة الموثوق بها بل يكون منتهى الأمر نقصاناً ، أو ظنّاً لا يفيد علماً ولا عملاً .

هذا مع الفرق التامّ بين الجانب الشخصي والجانب الاجتماعي ، والاهتمام بالجانب الحضاري . إذ لا تفهم روح التاريخ من دراسة التاريخ ، أو الشخصيات ، أو أعمالهم ، أو حروبهم ، أو اقتصادياتهم ، أو ما أشبه ذلك ، بدون النقد ، والفحص ، والبحث ، والتدقيق ، والمناقشة ، والمعادلة

---

(١) مثلاً كروية الأرض ؛ اكتشفها المسلمون في القرن السادس عشر الميلادي قبل رحلة ماجلان ، كما اكتشفت القارة السادسة - إنتاركتيا - والتي تبلغ مساحتها ١٤،١٠٧٦٣٧كم^2 ، وتقع في نصف الكرة الأرضية الجنوبي ، في القرن السادس عشر من قبل المسلمين قبل اكتشافها من قبل علماء الغرب سنة ١٩٥٢م عبر الأجهزة العاكسة للصوت باعتبارها منطقة مغطاة بالثلوج طوال عصور التاريخ .

والتراجيح ، وما أشبه ذلك .

وتدقيق النظر في زمان ومكان الحدث ، وسائر جوانبه ، كثيراً ما يصل بالإنسان إلى صحّة الواقعة أو بطلانها ، وزيادتها أو نقيصتها ، وقد ورد في التاريخ أن بعضاً من اليهود في منطقة ما عرضوا على أحد الخلفاء العباسيين وثيقة بخط الإمام علي بن أبي طالب ﷺ بإملاء رسول الله ﷺ وبشهادة نفرين من الأصحاب ، أنّ الرسول رفع الجزية عن هؤلاء أبداً ، وتحيّر الخليفة في ذلك وأحضر العلماء ، وبعد التدقيق ، تبيّن أن الوثيقة ملفّقةٌ ، وأنّ الشاهدين أحدهما لم يكن مسلماً حين كتابة الوثيقة ، والثاني لم يكن مولوداً ، ولذلك أبطلت الوثيقة ، وأجرى الخليفة الجزيّة عليهم ، كما كان يأخذها من سائر اليهود .

ولا يخفى أنّ الجزية في الإسلام لغير المسلم سواء كانوا أهل كتاب أو غير أهل كتاب كما نراه في الفقه ، بأنّ غير أهل الكتاب أيضاً تؤخذ منهم الجزية ، والجزية هي في مقابل حماية الدولة لهم ، فالمسلم تؤخذ منه الزكاة والخمس ، وغير المسلم تؤخذ منه الجزية .

ومن الملاحظ في التاريخ الإسلامي الطويل ، وفي عرض الإسلام وطوله في البلاد أن غير أهل الكتاب أيضاً كانوا يعايشون المسلمين على طول التاريخ ، وحتّى إنّ نهج البلاغة تضمن بعض الرسائل الدالّة على أنّ بعض القرى التي جعل عليها الإمام والياً مسلماً ، كانوا مشركين .

وعلى أيّ حال : فاللازم ملاحظة أصالة الوثيقة وخلوّها من الأخطاء ، والتزوير ، والزيادة والنقيصة ، وصحّة نسبة الوثيقة إلى مؤلّفها ، والنقد الداخلي السلبي عليها ، حيث يتبيّن الباحث من درجة دقّة الراوي في الرواية ، والنقد الداخلي الإيجابي ، حيث تفسير مضمون الوثيقة خصوصاً إذا كان كاتبها يلجأ إلى الغموض والرمز ، ومقارنة هذه الوثيقة بالوثائق الأخرى هل بينهما تساوٍ ، أو تباين ، أو عموم مطلق ، أو عموم من وجه .

التحليل الدقيق للتاريخ

مسألة: يلزم على من يريد الوصول إلى فلسفة التاريخ أن يتأنى في قبول التفسيرات العصرية للنصوص القديمة ، وهكذا التفسيرات في العصور السابقة على الوثيقة ، أو التفسيرات في العصور اللاحقة على الوثيقة ؛ لأنّ في كلّ زمان اصطلاحات ومفاهيم خاصة به ، وأحياناً تكون مستوعبة ، وأحياناً تكون غير مستوعبة ممّا ذكره الأصوليون في مباحث التعادل والتراجيح بالنسبة إلى الروايات المختلفة ، فإنّ مثل ذلك أيضاً ، يأتي في مقام تحليل التاريخ ، وفلسفة القضايا الكلّية ، أو الجزئية الشخصية ، أو الزمنية ، أو المكانية ، أو غيرها .

فالفرق بين الاصطلاحات في كلّ زمان ، ومكان ، وجماعة ، وأمّة ، يفيد المحلّل التاريخي كثيراً ـ مثلاً ـ الصلاة قبل الإسلام كانت بمعنى الدعاء ، كما قال تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ (1) ، أمّا الصلاة بعد شيوع الاصطلاح الإسلامي فهي خاصّة بالأركان المخصوصة ، والشرائط ، والآداب .

وهكذا بالنسبة إلى الزكاة ، حيث كانت قبل الإسلام عبارة عن مقدار خاصّ من المال ، يسبّب تطهير المال بإعطائه الفقراء ، والمساكين ، والمشاريع ، وما أشبه ذلك . ثمّ بعد الاصطلاح الإسلامي ، صارت الزكاة اصطلاحاً خاصاً للمقدار المخصوص من الحيوانات الخاصّة ، أو الذهب ، أو الفضّة ، أو الغلاّت الأربع ، وهكذا .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٥.

فعلى محلّل الحدث التاريخي أن يقوم بمقارنة الظواهر الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، واللغوية ، في مختلف المجتمعات ، والأنظمة ، والدول ، حيث للألفاظ معان متعدّدة ؛ بسبب اختلاف الأزمنة ، والأمكنة ، والمجتمعات ، وما أشبه ذلك . فلا يصحّ الاعتماد على التخيّل إلاّ بعد توفّر الجوانب المختلفة ، والمناحي المتعدّدة لهذه الأمور .

نعم ، كثيراً ما يسدّ التخيّل الثغرات الموجودة بين شيء وشيء ، سواء كان التخيّل بالنسبة إلى المبصرات ، أو المسموعات ، أو غير ذلك . وإذا كانت مرحلة التجريب ، والجمع والطرح ، والزيادة والنقيصة كفيلة بتمحيص الفرض ، فإنّه بالنسبة إلى التاريخ ، يجد المؤرّخ الذي يريد التحرير ، نفسه في موقف مماثل لموقف عالم الأحياء ، الذي يقوم بالتحليل ، والتشبيه ، والتركيب المعتمد على التخيّل ، والتصنيف وفقاً للفصائل ، والسلالات ، وأوجه الشبه والاختلاف .

وهكذا يفعل الذين يكتشفون حيوانات قديمة مثل الديناصورات ، وما أشبه ذلك ، حيث يتمّون الجزء المكتشف وما يكمله حيواناً حسب الموازين العلمية المرتبطة بذلك الحيوان .

والحاصل : أنّ تحليل الحدث التاريخي ، يحتاج إلى مثل تلك الأمور المرتبطة بالمكتشفات ، وما أشبه ذلك . وهذا يقوم على ركني العلم الكثير ، والتجارب الوفيرة ، والذهن الخلاّق بالنسبة إلى الجمع ، والتفريق ، والتركيب ، وما أشبه .

ولابد للباحث ألاّ يطمئن إلى صدق رواية ليس لها إلاّ راو واحد غير مستجمع للشرائط خصوصاً إذا كان معروفاً بذلك ، فإنّ ذلك من أخبار الآحاد على اصطلاح الأصوليين ، إلاّ إذا كان الراوي الواحد من الدقّة والإتقان بمنزلة كبيرة كما ذكر مثل ذلك بالنسبة إلى نهج البلاغة ، حيث قال الإمام (عليه السلام) : **(لا عذر لأحد من موالينا في التشكيك فيما يرويه عنا ثقاتنا)** [1] ، فالمعيار هو الوثاقة في

---

(١) وسائل الشيعة : ج ١ ص ٣٨ ب ٢ ح ٦١ ، و ج ٢٧ ص ١٥٠ ب ١١ ح ٣٣٤٥٥ ، رجال

الرواية ؛ إمّا من جهة السند ، وإمّا من جهة المضمون ، وإمّا من جهة الشواهد والقرائن ، أو غير ذلك ، فإنّ قوّة الشريف الرضي (١) رحمه الله تعطي روايات نهج البلاغة من الوثاقة الشيء الكبير ، ولذا يستدلّ العلماء بها ، وإن لم يورد السيّد الرضي سند الرواية ، ولهذا عَمِلَ العلماء بمراسيل ابن أبي عمير (٢) .

وعلى أي حال : إذا كان للراوي وزنه ، وثقله في الرواية ، يؤخذ قوله وإن

الكشي : ج ٢ ص ٨١٦ .

(١) السيد الشريف الرضي : محمد بن الحسين الموسوي ، الملقب بـ«ذي الحسبين» ، ولد سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م) ، وتوفي سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٦م) ، وعاش ٤٦ سنة ، فقيه متبحر ، وأديب بارع ، وشاعر متميز بالفصاحة والشفافية والرّقة ، ومتكلم حاذق ، أُعتقل أبوه من قبل عضد الدولة ؛ وسجن سنة ٣٦٩هـ إلى ٣٧٦هـ أي سبعة أعوام ؛ لأسباب سياسية ، وكان عُمره عند اعتقال والده عشرة أعوام ، لكن اهتمام والدته بالعلم هو الذي دفعها أن ترسله وأخاه السيد المرتضى إلى الشيخ المفيد ؛ ليعلمهما ، كما تتلمذ عند أبي الفتوح عثمان بن جني ، تولّى نقابة الطالبيين وإمارة الحج والنظر في المظالم في حياة أبيه وعمره لايتجاوز الحادية والعشرين ، له مصنفات في التفسير والعقائد والأدب والحديث ، وله ديوان شعري ، وقد قيل في حقه : «إنّه أشعر الفقهاء» ، وفي أخيه السيد مرتضى : «أفقه الشعراء» . من مؤلفاته : حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، مجازات الآثار النبوية ، تلخيص البيان عن مجازات القرآن ، الخصائص ، أخبار قضاة بغداد ، الزيادات في شعر أبي تمام .

(٢) محمد بن زياد بن عيسى الأزدي ، ويكنى بأبي أحمد ، ويلقب بإبن أبي عمير ، عالم جليل ومحدّث عظيم ، اشتهر بالزهد والورع ويعدُّ من أصحاب الإجماع ، عاصر الإمام الكاظم والإمام الرضا والإمام الجواد عليهم السلام وتعرض للمضايقات والسجن والتعذيب عدّة مرات ، فقد سجنه هارون العباسي وضربه بالسياط ؛ ليكشف له عن أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام وسجنه المأمون العباسي أربع سنوات تعرض خلالها للضرب المبرح بالسياط حتى أشرف على الموت وقيل : إنه ضرب ألف سوط ، كما صادروا أمواله وما عنده من ممتلكات ، وطلب المأمون العباسي أن يخبره عن أصحاب الإمام عليه السلام لكنه كتم ذلك . وله أكثر من تسعين مؤلفاً ؛ تلفت بعد أن أخفتها أخته عند سجنه . وبعد خروجه من السجن ، تحدّث من مخزون ذاكرته وما كان قد رواه الأصحاب عنه في كتبهم . توفي سنة ٢١٧هـ (٨٣٢م) . للمزيد راجع رجال الشيخ الطوسي ورجال الكشي وتنقيح المقال للمامقاني .

كان منفرداً .

نعم ، في باب التنازع لابدّ من شاهدين على الأكثر ، أو رجل وامرأتين ؛ كما ذكر ذلك القرآن الحكيم ، والسبب كون اثنتين منهما بمنزلة رجل واحد ، حيث قال ﷻ : ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ [1] ، كما ذكرنا تفصيل ذلك في بعض المباحث المرتبطة بالتساوي واللا تساوي بالنسبة إلى الجنسين .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٢ .

مناقشات

في أدوار التاريخ

مسألة : البعض قسّم أدوار التاريخ إلى ثلاثة أقسام :

الأوّل : دور الآلهة ، حيث كانت الشعوب الأمّيّة تعيش في ظلّ حكومات تشرّع قوانينها بما تعتقد أنّه مشيئة الآلهة ، وذلك عن طريق الرؤساء الدينيين أو من وحي الكهّان ، فكان ما يقع في ذهن المشرع ، يُنسب إلى الآلهة ، سواء إله الخير ، أو إله الشرّ ، أو إله البحار ، أو إله الشمس ، أو ما أشبه ذلك . ويكون لحكم هؤلاء الرؤساء الدينيين أو وحي الكهّان ، قداسة خاصّة لا يمكن تخطّيها ، فمن تخطّاها يرون أنّه يعاند المشيئة الإلهية ، فيستحقّ العقاب التكويني كالزلازل ، والفيضانات ، أو العقاب التشريعي مثل الإلقاء في النار ، أو في البحر ، أو في غابة لتأكله السباع ، أو في بئر عميق ، أو يستحق القتل بالجلد ، أو الرجم ، أو الذبح ، أو قطع الأعضاء .

الثاني : دور الأبطال ، حيث كان الاعتراف بأبطال أشدّاء محاربين ، وكان الناس يعتقدون أنّهم أسمى من البشر ، وتسود الأرستقراطية نُظم الحكم هذه ، وفي هذا الدور نشأت الفروسية وكانت تمجِّد الحرب .

الثالث : دور البشر ، حيث الإقرار بسواسية الناس ، وبذلك ظهرت الأنظمة الديمقراطية بعد الممالك الاستبدادية .

قال هؤلاء : اجتازت كل الشعوب هذه الأدوار وهي تجتازها في تاريخها ، حيث تتوالى في تعاقب دوري ، تتّصل نهاية الدور الثالث بالدور الأول : إمّا

لنفس الأمّة ، أو لأمّة أخرى ، وهي دائرة أزليّة مرسومة لكلّ أمّة .

أقول : إنّ هذه الأدوار الثلاثة ـ التي ذكروها ـ لا مصدر لها من تاريخ مقطوع ، ولا دليل عقلي يدلّ عليها ، والغالب أنّها من صنع الذين ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى وشرائع السماء ، وإلاّ فمن يعترف بوجود الله سبحانه وتعالى وأنّ أبانا آدم عليه السلام هو أوّل الأنبياء جاء إلى الأرض ، فكان الخليفة قبل الخليقة ، لا يعترف بمثل هذه الأدوار ، وإنّما تختلط هذه الأدوار بعضها مع بعض من ذلك اليوم وإلى هذا اليوم ، كما نجد في الهند ، أو الصين ، أو بعض بلاد أفريقيا ، الأدوار الثلاثة نفسها في وقت واحد ، أو متعاقبة ، على عكس ما ذكروه .

أقوال وردود

وقد ذكر بعض العلماء المعتقدين بهذا التقسيم مثالاً تطبيقياً للأدوار الثلاثة بطريقة مصر القديمة ، قائلاً : في الدور الأوّل تكلّم المصريون اللغة الهيروغيليفية ، ثمّ اللغة الرمزية ، ثمّ سادت اللغة العامية للشعب ، وكان المصريون القدماء على علم بهذا التقسيم لتاريخهم .

أقول : أنت ترى أنّه لا صحّة لهذا التقسيم ، لا في مصر القديمة ، ولا في سائر الشعوب .

وأسوأ من هذا التقسيم ما قيل : إنّ هناك لوحة تاريخية لأهمّ وقائع التاريخ القديم منذ خُلق العالم مستنداً إلى التوراة ، فأبناء نوح بعد الطوفان لم يسيروا على نمطٍ واحد ، وبينما حافظ أبناء سام على لغتهم وعاداتهم ، تشتت أبناء حام على سطح الأرض ، وعاشوا عيشة أقرب إلى الحياة الحيوانية ، ففقدوا مزاياهم البشرية ، وأصبحوا ذوي أجسام ضخمة ، ومن ثمّ انقسم البشر إلى قسمين : من سلالة سام ، وإلى عمالقة من نسل يافث وحام .

ثمّ يضيف هذا القائل : شَعَرَ العمالقة بالخوف من بعض الظواهر الجوّية

كالبرق ، والرعد ، والصواعق ، واعتبروها غَضَباً من الآلهة ، فتحايلوا على إرضائه بالكهانة ، وحينما استقرّت الأُسر ؛ بسبب حرفة الزراعة ، وملكيّة الأرض ، أخذ العمالقة يفقدون ضخامة أجسامهم ، ولكن بعضهم بقي على تشرّده ، وأصبح هؤلاء في حالة أسرهم ، خدماً وموالين للمزارعين من أصحاب الأراضي ؛ وبذلك نشأ نظام الرقّ . وقد شكّل الآباء ، أو الرؤساء من أصحاب الأراضي طبقة من النبلاء ، كما شكّل الخدم والعبيد طبقة الرقيق ، فتكوّن بذلك المجتمع الأرستقراطي ، ولكن لما قويت شوكة رقيق الأرض ، بدأ هؤلاء يحصلون على بعض المزايا ، فتكوّن النظام الديمقراطي ، ولكنّ ذلك أدى إلى الفوضى ، فظهر رجل شديد البأس ، قبض على زمام الأمور ، وأعلن نفسه حاكماً مطلقاً ، فتأسس بذلك حكم الفرد .

أقول : إن كلّ المذكورات ليست إلاّ أوهاماً من نسيج الخيال ، وعلى أحسن الفروض ظنون لا دليل عليها من علم ولا عمل ، ولا من توراة ولا من غير توراة ، وحتّى إذا كانت مستندة إلى التوراة ، فالتوراة محرّفة في اعتقادنا كما يدلّ على التحريف التوراة نفسها على ما ذكرنا تفصيله في كتاب «هؤلاء اليهود»(١) .

ثمّ يطبق هذا القائل آراءه في الأدوار الثلاثة على تاريخ اليونان ، والرومان ، ثمّ العصور الوسطى ، فيرى أنّ عصور الأبطال لم تستمر طويلاً لدى اليونان ، لأنّ ظهور الفلسفة عجّل الانتقال من الدور الإلهي إلى الدور البشري دون أن يبقوا مدّة طويلة في الدور البطولي ، عكس ما حدث في عهد الرومان إذ طال الدور البطولي ، ثمّ عاد الناس في العصور الوسطى إلى البربرية الشبيهة بالبربرية الأولى ، فاجتازوا دوراً إلهياً جديداً ، وهو دور يتولّى فيه الملوك المناصب الدينية ، ثم اجتازوا دوراً بطولياً عندما نشأت الفروسية ، وقامت الحروب

---

(١) يقع في ١٤٤ صفحة من القطع المتوسط ، أُلّف في كربلاء المقدّسة ، وطبع عدّة طبعات بعدّة لغات .

الصليبية . أمّا الدور الثالث ، فقد بدأ في العصر الذي عاش فيه هذا القائل . انتهى كلامه مع تعليقنا عليه .

الفلسفة العقلية ومعرفة التاريخ

والفلسفة التي تعتمد على آراء عقلية مجردة لا يمكن استخدامها في معرفة التاريخ ، فالتاريخ لا يمكن أن يستكشف بالفلسفة ، أو يقال عن مثل ذلك ؛ لأنّ التاريخ شيء حقيقي لابدّ أن يكتشفه الحاضر بنفسه ، أو لا يكتشفه الغائب غير المخبر إلاّ في بعض الحفريات التي لا تدلّ حتّى على عشر هذه الآراء ، فلم يبق إلاّ أن يخبر الإنسان الصادق المتّصل بالله تعالى ، ومثل هذا الإنسان هو في اعتقادنا نبي الإسلام وآله المعصومون عليهم السلام ، حيث إنّهم يخبرون عن عالم الغيب ؛ كما قال تعالى : ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [(١)] ، والذي بأيدينا من تاريخ الحضارات السابقة على رسول الإسلام صلى الله عليه وآله هو تاريخ بعض الأشخاص عادةً لا البشر ، فإنّ الناس كانوا يكتبون تاريخ الحكومات ، والحروب ، والانتصارات والهزائم ، وما أشبه ذلك . ومثل هذا يوجد أيضاً بعد نبي الإسلام ، حيث كتب بعض المتزلّفين تاريخ بني أميّة ، وبني العبّاس [(٢)] ،

---

(١) سورة الجن : الآية ٢٦ .

(٢) بنو العباس : حكموا خمسمائة وأربعاً وعشرين سنة ابتداءً من ١٣٢ هـ (٧٥٠م) وإلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ؛ عندما احتلها هولاكو ، وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة ، وهم : ١. السفاح ٢. المنصور ٣. المهدي ٤. الهادي ٥. هارون ٦. الأمين ٧. المأمون ٨. المعتصم ٩. الواثق ١٠. المتوكل ١١. المنتصر ١٢. المستعين ١٣. المعتز ١٤. المهتدي ١٥. المعتمد ١٦ . المعتضد ١٧. المكتفي ١٨ . المقتدر ١٩ . القاهر ٢٠ .الراضي ٢١ .المتقي ٢٢. المستكفي ٢٣ . المطيع ٢٤. الطائع ٢٥ . القادر ٢٦.القائم ٢٧. المقتدي ٢٨. المستظهر ٢٩. المسترشد ٣٠. الراشد ٣١. المقتفي ٣٢.المستنجد ٣٣. المستضيء ٣٤. الناصر ٣٥. الظاهر ٣٦ . المستنصر ٣٧ .المستعصم.

وفي زمانهم انفصلت عنهم دول عديدة منها الحمدانية في حلب والإخشيدية والفاطمية والأيوبية في مصر والغزنوية في أفغان والهند والسامانية في خراسان وما وراء النهر .

والعثمانيين [١] ، والقاجاريين [٢] ، ومن أشبههم ، بينما نرى كثيراً من المؤرّخين بعد ظهور الإسلام بسبب عدّة من العوامل ؛ كتبوا تاريخ الحضارة لا الحكّام ، فإنّه كان للقرآن الكريم الأثر الأكبر في تصوّر المسلمين للتاريخ ، وإنّ ما ذكره القرآن عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ومع الطغاة أمثال نمرود [٣] ، وفرعون ،

والدولة العباسية لم تختلف عن الدولة الأموية في سيرة حكامها من الظلم ، والقتل ، واللهو، واللعب ، وشرب الخمور ، وارتكاب الفجور ، وإحياء الباطل ، وإظهار البدعة ، ومحاربة التشيع ، بل زادوا على الأمويين في ظلمهم واضطهادهم وجبروتهم .

(١) تأسست الدولة العثمانية سنة ١٢٨١م وسقطت سنة ١٩٢٢م وعدد خلفائها ٣٧ خليفة وهم كالتالي : ١. عثمان الأول ٢. أورخان بن عثمان ٣. مراد الأول ٤. بايزيد خان الأول ٥.محمد جلبي. الأول. ٦. مراد خان الثاني ٧. محمد الثاني. الفاتح. ٨. بايزيد خان الثاني ٩. سليم الأول ١٠. سليمان الأول. القانوني. ١١. سليم الثاني ١٢. مراد الثالث ١٣. محمد الثالث ١٤. أحمد الأول ١٥. مصطفى الأول ١٦. عثمان الثاني ١٧. مراد الرابع ١٨. إبراهيم الأول ١٩. محمد الرابع ٢٠. سليمان الثاني ٢١. أحمد الثاني ٢٢. مصطفى الثاني ٢٣. أحمد الثالث ٢٤. محمود الأول ٢٥. عثمان الثالث ٢٦. مصطفى الثالث ٢٧. عبد المجيد الأول ٢٨. سليم الثالث ٢٩. مصطفى الرابع ٣٠. محمود الثاني ٣١. عبد المجيد الثاني ٣٢. عبد العزيز ٣٣. مراد الخامس ٣٤. عبد الحميد الثاني ٣٥. محمد رشاد ٣٦. محمد السادس ٣٧. عبد المجيد الثالث الذي نفاه أتاتورك إلى مدينة نيس الفرنسية . ومن أخطر مثالبهم إضافة إلى الفساد والاستبداد هو ترك مصادر التشريع الإسلامي والتوسل بالقوانين الغربية الوضعية . للمزيد راجع كتاب موجز عن الدولة العثمانية للإمام المؤلف ﷺ .

(٢) سلالة إيرانية ، حكموا منذ سنة ١٢١٠هـ (١٧٩٥م) وإلى سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م) ولمدة ١٣٣سنة ، وعدد ملوكهم سبعة ؛ أولهم محمد علي شاه وآخرهم أحمد شاه ، وأبرز ملوكهم فتح علي شاه وناصر الدين شاه ومظفر الدين شاه ، وفي عهدهم دخلت إيران في السلك الأوربي ، وخسرت مدينة باكو وجورجيا ومعظم أرمينيا الفارسية ؛ بعد أن استولت عليها روسيا القيصرية ، وأطاح بسلالتهم رضا بهلوي سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥م) للتفصيل عن قبيلة قاجار راجع أعيان الشيعة : ج٣ ص ١٢٠ .

(٣) هو نمرود بن كوش بن حام بن نوح أول جبار على وجه الأرض وأول ملوك بابل بعد السريانيين وحكم ٩٦ سنة ، ويقال : إنه بنى مدينة نينوى عاصمة آشور والتي دمرت من قبل ملك بابل ، بعث الله سبحانه إليه إبراهيم عليه السلام ليهديه ولكن نمرود أبى واستكبر

وهامان [١] ، إنّما أريد بها محورية الأنبياء الذين يجسِّدون خط الإصلاح ، وليس محورية الطغاة ، والجبابرة من الملوك والحكّام .

فإذا ذكر القرآن الكريم قصّة فرعون ذكره من حيث صلته بموسى عليه السلام ، كما أنّه إذا ذكر قصّة عاد وثمود ، ومن أشبههم ، ذكرهم باعتبار اتّصالهم بالأنبياء وبسبب ذلك تحوّل التاريخ إلى الدين لا السياسة . وذلك لأنّ الهدف من قصص القرآن هو الموعظة والاعتبار ، فهو هدف ديني ، أخلاقي ، إنساني قد أرجع الأمر إلى محلّه ، حيث إنّ المعيار الإنسان خيره وشرّه وحقيقته وأخلاقه وعمله وقوله ، كما قال تعالى : ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى**﴾ [٢] . وفي المرحلة اللاحقة لنزول القرآن الحكيم ، فقد ارتبط التاريخ الإسلامي في نشأته ارتباطاً وثيقاً بالحديث المرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبعض أصحابه ، أو عن الأئمّة الطاهرين عليهم السلام ، وتأثّر التاريخ في نشأته بمنهج رجال الحديث ، والرواية ، والإسناد ، صحّتهم ، وسقمهم ، وصدقهم ، وكذبهم ، وأمّا من حيث الموضوع ، فبالرغم من أنّه بدأ بما يسمّى بالمغازي ، فلم يكن البدء بغزوات الرسول صلى الله عليه وآله الّتي تمثل الجانب العسكري ، وإنّما بسيرته كرسول حتّى إذا ذكروا تاريخ حروب الرسول وخصوصياتها ذكروا ذلك لتكون أسوة ، كما

وسجن إبراهيم ثم أحرقه بالنار ولكن الله تعالى أبى إحراقه فجعل النار برداً وسلاماً . راجع تاريخ اليعقوبي : ج١ ص ٨٢ .

(١) الوزير المعتمد لدى فرعون وساحره المفضل ، والذي ساعده في ادعاء الربوبية ، وأشار إليه بإحضار السحرة من جميع البلاد لمواجهة موسى ، ولقد ذمّه القرآن في آيات عديدة منها : ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ سورة العنكبوت : الآية ٣٩ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ❁ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ سورة غافر : الآيتان ٢٣ـ ٢٤، وقد أشار المفسرون إلى بعض أعماله وتصرفاته في تفسير سورة طه والشعراء والقصص .

(٢) سورة يوسف : الآية ١١١ .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [(١)] ، وهكذا مع أنّ بداية تاريخ التقويم الإسلامي قد حُدّد في عهد الرسول نفسه ، ذكر ذلك العلاّمة المظفّر في كتابه «البشرى بقدوم البشير» ، فلم يكن ذلك تاريخاً للحكّام وما أشبه ذلك ، فإنّ السياسة لم تكن إلاّ وسيلة لغاية نبيلة ، شريفة ، هي نشر الدعوة ، وإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور ، وهكذا ارتبط التاريخ بالحديث موضوعاً ، فالحديث هو أقوال الرسول ، وأفعاله ، وتقريراته . فالتاريخ ابتدأ من الكتاب والسنّة ، وذلك يحقّق هدفاً مشتركاً ؛ هو تسجيل نظم الحياة الدينية ، والفكرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والعائلية ، والتربوية ، والعسكرية ، وما أشبه ذلك ، وكلّ ذلك لهُ جوانب حضارية .

والحاصل : أنّ التاريخ في الإسلام ، بدأ من تاريخ الشعوب لا من تاريخ الحكّام والعسكريين ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [(٢)] ، فالمحور هو التعارف بينهم ، والتقوى في شرائعهم ، وخصوصيّاتهم ، ومعاملاتهم ، وبذلك يجب أن نفهم فلسفة التاريخ الإسلامي ، والتحليل التاريخي من هذا المنطق ، لا من منطق الحكّام ، والمستبدّين ، والعسكريين ، والغزاة في سبيل المال ، والشهوة الجنسية ، والسلطة .

أمّا الإجماع ، فهو مستند إلى قول رسول الله ﷺ : **(لا تجتمع أمّتي على ضلالة)** [(٣)] ، وإلى غير ذلك ممّا ذكر في علم الأصول ، فليس بشيء جديد سوى

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢١ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٨ ص١٢٣ ب١٢٧ ، الاحتجاج : ج٢ ص٤٨٧ ، تحف العقول : ص٤٥٨ ، الصوارم المحرقة : ص٢٧٠ . وفي كتاب الألفين : ص٢١٨ : (لا تجتمع أمتي على الضلالة) .

الكشف عن قول المعصوم . ولذا نشاهد المسلمين قد اهتمّوا بسيرة النبي ، والأئمّة والصحابة ، والتابعين ، وأصحاب الأئمّة ، والعلماء ، في سيرتهم ، وأقوالهم ، وأعمالهم ، وما أشبه ذلك . أمّا الذين كتبوا حول الحكّام ، فكانوا طلاّب رئاسة ، ومال ، وشهوة جنسية ، وما أشبه ذلك ، ولذا ذهب أولئك بسيرهم ، وبقي العلماء بتواريخهم ، ـ مثلاً ـ من زمان السيّد المرتضى (١) ، والشيخ المفيد (٢) ، والشيخ الطوسي (٣) ، والسيّد الرضي رضي الله عنه ، حيث مضى ألف عام

---

(١) السيد المرتضى : أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى المشهور بالمرتضى أو علَم الهدى، ولد سنة ٣٥٥هـ (٩٦٦م) في بغداد ، وتوفي سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤م) ، ودفن في حرم الإمام الحسين عليه السلام . من فقهاء الشيعة ، عرف بالعلم والفضل والفقاهة، اهتم بتأسيس المكتبات في بغداد ، وكانت مكتبته الشخصية تحتوي على ٨٠ ألف كتاب ، وقد اهتم بتربية الطلاب والمفكرين بعد أن أسس مدرسة لهذا الغرض وبعد أن خصص لهم رواتب شهرية ، ومن تلامذته : الشيخ الطوسي وسالار الديلمي وأبو صلاح الحلبي والشيخ الكراجكي ، وقد بلغت مؤلفاته التسعين منها : الشافي في الإمامة ، الطيف والخيال ، الدرر القلائد وغرر الفوائد والمشهور بـ«الأمالي» ، تنزيه الأنبياء . ترجمه الكنى والألقاب ج٢ ص٤٨٢ .

(٢) الشيخ المفيد : أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالمفيد ، ولد سنة ٣٣٦هـ (٩٤٧م) ، وتوفي سنة ٤١٣هـ (١٠٢٢م) ، وقد وجد على قبره مكتوباً بخط الإمام الحجة عجل الله فرجه:

لا صوت الناعي بفقدك أنه	يوم على آل الرسول عظيم
إن كنت قد غيبت من جدث الثرى	فالعدل والتوحيد فيك مقيم
والقائم المهدي يفرح كلما	تليت عليك من الدروس علوم

ويعد قدس سره من الفقهاء المعروفين بالعلم والزهد والتقوى ، آلت إليه الرئاسة الدينية في زمانه ، وكان يحظى بمنزلة رفيعة في دولة آل بويه ، ألّف أكثر من مائتي كتاب منها : الرسالة المقنعة ، الأركان في دعائم الدين ، الإيضاح في الإمامة ، الإرشاد ، الإفصاح ، الاختصاص ، العيون والمحاسن ، نقض فضيلة المعتزلة. ترجمه روضات الجنات ج٦ ص ١٥٣ .

(٣) الشيخ الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ، ولد بخراسان سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥م) ، وتوفي ٤٦٠هـ (١٠٦٨م) ، ودفن في داره في النجف الأشرف ، وهي الآن مسجد

وأكثر ، الناس يعرفون هؤلاء العلماء ، ويحبون ذكراهم ، أمّا حكّام زمانهم ، والزمان الذي جاء من بعدهم ، فلا يُعرف عنهم شيء ، فهم نكرات في التاريخ ؛ لأنّ الخلود دائماً لأصحاب العطاء .

فما عطاء أولئك الخلفاء الذين فسقوا في الدنيا ، وانغمسوا في شرب الخمور ، وغيرها من الموبقات ، فالمسلمون يريدون أن يعرفوا الحلال ، والحرام ، والواجب ، والمستحب ، والمكروه ، وهو منشأ الصلاح لدينهم ، ودنياهم ، ولذا ورد : **(الملوك حكّام على الناس والعلماء حكّام على الملوك)**[1] وحتّى الخلفاء ، والأمراء ؛ على طول تاريخهم ، كانوا خاضعين بدرجة ، أو بأخرى للعلماء ؛ لأنّهم يريدون كسب القلوب ، والتقرّب إلى القلوب لا يكون إلاّ من طريق العلماء .

يسمى بـ(مسجد الطوسي) ، هاجر إلى العراق سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧م) ، واستوطن بغداد ؛ وكان يدرس فيها عند الشيخ المفيد وأدرك شيخه الحسين بن عبد الله الغضائري المتوفى سنة ٤١١هـ كما تتلمذ عند السيد المرتضى قرابة ٢٣سنة ، وفي سنة ٤٤٧هـ تعرض الشيعة في بغداد للقتل ، والنهب ، والسلب ، من قبل الحاكم السلجوقي طغرك بك ، وأحرق كرسيه الكلامي ـ الذي كان يدرّس عليه والذي يعدّ منصباً مهماً وما كان يعطى إلا لذوي المرتبة العالية في العلم والمعرفة ـ ، وأحرقت المكتبات والمدارس التي أسسها آل بويه سنة ٣٨١ هـ ، وتعرض الشيخ للهجوم وأنقذه الله من القتل ، وأحرقت داره بما فيها من الكتب المخطوطة والنفيسة ، فبعد هذه الحادثة هاجر الشيخ إلى النجف الأشرف وأسس حوزة علمية هناك. وبقي اثني عشر عاماً بين درس وبحث ، وهداية وإرشاد ، وقد بلغ عدد تلاميذه المجتهدين ثلاثمائة مجتهدٍ . يقول عنه العلامة الحلي في الخلاصة صفحة ٧٢ : «شيخ الإمامية ووجيههم ، رئيس الطائفة ، جليل القدر ، عظيم المنزلة ، ثقة ، صدوق ، عين ، عارف بالأخبار والرجال والفقه والأصول والكلام والأدب ، وجميع الفضائل تنسب إليه».

بلغت مؤلفاته ستةً وأربعين مؤلفاً في الأخبار والأصول والفقه والتفسير والدعاء والرجال ، منها : التهذيب ، الاستبصار ، العدة ، المبسوط ، التبيان ، المصباح ، الرجال ، الأمالي ، الفهرست ، الغيبة ، النهاية ، الخلاف .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٢٠ ص٣٠٤ ب٤٨٤ الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، كنز الفوائد : ج٢ ص٣٣ .

بل كان لنا الكثير من المؤرخين العلماء ، الذين عاكسوا الخلفاء ، والأمراء ، وما أشبه ، فقد سجّلوا ضد نظرهم ، مثلاً سجّلوا واقعة صفّين ، وغيرها ، رغم حكومة معاوية المطلقة ، وسجّلوا مقتل الإمام الحسين عليه السلام ، وأخبار المختار بن أبي عبيدة الثقفي [(١)] ، ومناقب آل البيت عليهم السلام ، وذكروا الحكّام المعارضين لهم كابن زياد ، والحجّاج ، وما أشبه ، بكلّ نفرة وانتقاص ، فقد صرف الخلفاء المبالغ الطائلة ؛ لأجل توجيه الناس إلى مناحيهم لكن لم يجدوا إلاّ من يعاكسهم ، ـ مثلاً ـ عجز الأمويّون عن أن يفرضوا على المؤرّخين مبدأ الجبر ، الذي كانوا يعتنقونه ، حتّى يقولوا للناس إنّ كلّ شيء يفعلونه إنّما هو بقضاء من الله وقدره ، فلا حيلة للناس فيه ، ومن يعارضهم ، فإنّما يعارض قدر الله تعالى ، ويستحقّ العقاب في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، بل كانت كتابات المؤرّخين تعكس المبدأ المعارض الذي هو عبارة عن مسؤولية الإنسان عن أفعاله ، وأقواله ، وحركاته ، وسكناته .

---

(١) مجاهد مقدام ، ولد في السنة الأولى للهجرة النبوية (٦٢٢م) ، أحد الثوار الذين ثاروا على الطغيان الأموي ، فسجنه عبيد الله بن زياد وعذبه وضربه بالقضيب حتى شتر عينه ثم نفاه للحجاز ، وحكم الكوفة سنة ٦٦هـ ثم ألحق بها الموصل وأرمينيا وآذربيجان بعد أن انتصر قائد جيشه إبراهيم بن مالك الأشتر ـ الذي كان مسجوناً في زمن معاوية مع أربعة آلاف وخمسمائة من الشيعة وأُطلق سراحهم بعد هلاك يزيد ـ على الجيش الأموي في معركة (انجازر) في شمال العراق حيث قُتل فيها من الأمويين ثمانون ألفاً بما فيهم عبيد الله بن زياد والحصين بن النمير . وتتبع قتلة الإمام الحسين عليه السلام واقتص منهم فأدخل بذلك السرور والفرح على قلب الإمام السجاد عليه السلام وآل الرسول والثكالى واليتامى الذين استشهد آباؤهم مع الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء بعد خمس سنوات من استشهاد الإمام ، وأنقذ العلويين من عبد الله بن الزبير عندما أراد إحراقهم في شعب أبي طالب حيث أرسل المختار إليه أربعة آلاف مقاتل كما ذكر ذلك المسعودي . واستشهد سنة ٦٧ هـ (٦٨٧م) في الدفاع عن الكوفة في الحرب التي دارت بينه وبين مصعب بن الزبير الذي طلب الولاية لنفسه في البصرة .

التاريخ دينٌ لا سياسة

ومن هذه الجهة ، نجد أنّ المسلمين ، بعلمائهم ، وعامّتهم ، بنوا الأضرحة ، والبنايات الضخمة ، سواء عند السنّة أو الشيعة ـ مثلاً ـ قبر الإمامين الكاظمين عليهما السلام في الكاظميّة ، وهكذا بنى السنة قبر أبي حنيفة في بغداد ، وقبر الشافعي في القاهرة ، وإلى جانبه مسجد الإمام الحسين عليه السلام ، وكذلك مقام السيّدة زينب عليها السلام في الشام .

ونجد إهمالاً متعمّداً لقبر معاوية ، مؤسّس الدولة الأمويّة ، بينما نجد لأهل البيت عليهم السلام مقابر ، وقباباً ، وأضرحة ، ومساجد ، حتّى لطفلهم الصغير كالسيّدة رقيّة في دمشق ، أو حتّى قطرة من دم الإمام الحسين عليه السلام الطاهرة لها مشهد ؛ وأقيم عليها مسجد سمّي بمشهد النقطة في مدينة حلب ، فلم يتمكّن الخلفاء بأموالهم الطائلة ، وجيوشهم الجرارة أن يسيطروا على أفكار ، وأقلام المؤرّخين ؛ لأنّ عوامل أخرى أكثر فاعلية ، كان لها الأثر ، والتوجيه في مسار الفكر ، والثقافة ، والعلم ، والهداية .

والخلفاء العبّاسيون على كثرتهم ، وامتداد زمانهم ما يقارب خمسة قرون ، لا أثر لقبر أحدٍ منهم إلاّ قبر هارون ، وإنّما بقاء قبر هارون كان حسب معجزة للإمام الرضا عليه السلام ، كما هو مذكور في التاريخ (١) ، أمّا بقيّة أولئك الخلفاء فلا يعرف لهم قبر .

وهكذا قلب الإسلام الحضارة السابقة عليه من حضارة الحكّام إلى حضارة

---

(١) يقول الشاعر دعبل الخزاعي في هذا الصدد في مجلس المأمون العباسي عن دفن هارون عند قبر الإمام الرضا عليه السلام :

قبران في طوس خير الناس كلهم ... وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قبر الزكي ... ولا على الزكي بقبر الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ما شئت أو فذر

الأنبياء ، والأئمّة ، والعلماء . فمن يريد كتابة فلسفة الحضارة ، أو التاريخ ، يجب أن يلاحظ ذلك بعين الاعتبار ، وأن يبدأ بما بدأ الله ﷻ ممّا ذكرناه سابقاً «الخليفة قبل الخليقة» .

ومن الواضح أنّ الخليفة يورث الحكم إلى الخليفة لا للحكّام المستبدّين ، والعسكريين ، والديكتاتوريين ، ـ وقد قال رسول الله ﷺ في سعيه : **(ابدؤوا بما بدأ الله ، حيث قال ﷻ : ﴿إنّ الصفَا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله﴾** [1]**)** [2] ، فبدأ الرسول بالصفا اتّباعاً للقرآن الحكيم ـ ، حتّى وصل الأمر إلى عصر الديمقراطيين الذين اتّبعوا بعض طريق المسلمين في الحكم لا طريق المستبدّين والديكتاتوريين . وليس معنى ذلك أنه قبل الإسلام لم يكن تاريخ للأنبياء ، وعظماء العلم ، والزهد ، والنسك ، وإنّما معنى ذلك أنّ الغالب في تواريخ ما قبل الإسلام هم الحكّام ، والملوك ، والفراعنة ، ومن أشبههم ، وكان تاريخ الأنبياء ومن إليهم حاله حال نور الحباحب أنوار ضئيلة متفرقة هنا وهناك ، بينما لّما جاء الإسلام ، صار النور كنور الشمس ، فصار التاريخ تاريخ الأنبياء ، والأوصياء ، والعلماء ، والزهّاد ، والعبّاد ، ومن إليهم ، ولذا صار تصوّر المؤرّخين المسلمين أنّ النشاط والفعالية في الحضارة الإسلامية للأمّة جميعاً لا للفرد حسب الآية القرآنية حيث قال ﷻ : **﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ﴾** [3] بل صار في عهد الخلفاء ، والأمراء ، ومن إليهم موضع نقد شديد من كافّة الأمّة حتّى المقرّبين منهم ، فلم يُدرس التاريخ بسير ملوك أو سلاطين ـ لأنّهم لم يجدوا في أولئك علماً نافعاً ، أو سيرة حسنة ، فهل

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٨ .

(٢) وقد ورد في الفصول المختارة : ص١٩٢ الحديث التالي : (قال رسول الله ﷺ حين بدأ بالصفا ، نبدأ بما بدأ الله تعالى به) ، وكذا في تفسير العياشي : ج١ ص٨٩.

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

يكتبون أنّ الخليفة المتوكّل (١) كان من قوم لوط وفي الحال نفسه كان له غلامان يلوطان به ، أو يكتبون أنّ الوليد (٢) كان يدخل مع جواريه حوض الخمر ،

---

(١) المتوكل العباسي : جعفر بن المعتصم بن هارون ، عاشر خلفاء بني العباس ، ولد سنة ٢٠٧هـ (٨٢٢م) ، وحكم سنة ٢٣٢هـ (٨٤٦م) ، وقتل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١م) من قبل ولده المنتصر في مجلس لهوه وطربه بين العود والناي . اتّسم حكمه بالقتل وسفك الدماء وعلى الخصوص لأهل البيت عليهم السلام وشيعتهم ، يقول ابن الأثير في كتابه «الكامل» في حوادث سنة ٢٣٦هـ : «وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب وأهل بيته» ، وكان من يبلغه عنه أنه يتولى علياً يقتله ويصادر أمواله ، وقد ذكر أبو الفرج الإصفهاني : «إن المتوكل أمر واليه على مكة والمدينة أن يعاقب كل من يساعد آل أبي طالب بالإحسان ، وقد بلغ بهم الفقر حداً أن العلويات كُنَّ يرتدين ملابس رثة وممزقة ، ولم يكن عندهن سوى ثوبٍ واحدٍ، كن يتناوبن عليه وقت الصلاة ، واستمر هذا الوضع إلى مقتل المتوكل» ، وكان يبذل الأموال للشعراء الذين يذمّون الشيعة فقد أعطى لأبي السمط ثلاثة آلاف دينار وعقد له على البحرين واليمامة وخلع عليه أربع حلل ؛ لأنه هجا الشيعة ، وكان المتوكل أول خليفة يسخر في مجالس لهوه من سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ كما ذكر ذلك المسعودي . وسعى لهدم قبر الإمام الحسين عليه السلام وما حوله من المنازل والمباني أربع مرات ؛ لمنع الناس من الزيارة ، أولاها سنة ٢٣٣هـ ، وثانيها سنة ٢٣٦هـ، وثالثها ٢٤٧ هـ ، وقد قتل العالم اللغوي يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت سنة ٢٤٤هـ (٨٥٨م) ؛ لأجل تشيعه . للمزيد راجع مروج الذهب : ج٤ ص ٤٧ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي : ص ١٣٧، ثمار القلوب للثعالبي : ص١٣٤ ، مقاتل الطالبيين : ص٣٨٥ .

(٢) الوليد بن يزيد بن عبد الملك : ولد سنة ٨٨ هـ (٧٠٧م) ، وقتل من قبل جنده في الحرب التي وقعت بينه وبين عمه يزيد بن الوليد سنة ١٢٦هـ (٧٤٤م) ، من حكام بني أمية ، ويعد الحاكم الحادي عشر وحكم سنة واحدة وشهرين . أجمع أرباب التاريخ على كفره وزندقته، وعرف باستحلاله لكل حرمة ، وارتكابه لكل بدعة ، واقترافه لكل موبقة ، فقد سلَّ سيف البغي على رقاب العلويين ، وشدّد الحصار على شيعة أهل البيت وأئمتهم عليهم السلام ، وانتشرت في زمانه الدعارة ، والمجون ، فقد جاء في التاريخ أنه أزال بكارة ابنته وزنا بجواري أبيه اللائي ولدن له أولاداً ، وجاء في تاريخ السيوطي ص٤٥١ : إنه اشتهر بالتلوط، وكان يتظاهر بالفسق ، وحمل المغنين من البلدان إلى البلاد الإسلامية ، وأظهر الشراب والعزف في المجالس ، حتى ذكر الطبري في تاريخه : ج٥ ص ٥٥٧ : إنه شرب سبعين قدحاً في ليلة واحدة . كما أنه اتخذ في قصره بركة فكان يملأها خمراً ثم يتعرى ويدخل فيها ويشرب منها ويظل هكذا حتى يظهر النقص عليها ، وفي إحدى الأيام أذّن المؤذن لصلاة الصبح

فيشربون منها حتّى يتبين عليه النقص [(١)] ، ويكتبون أنّ حميد بن قحطبة بأمر من هارون العباسي قتل «٦٠» علوياً في ليلة واحدة وألقاهم في البئر [(٢)] ، وهذا نزر قليل من جرائم هؤلاء الحكّام العتاة .

وهكذا جعل المؤرخون موضوع التاريخ ، تاريخ الأنبياء وسننهم ، والأوصياء

وكان الوليد في حالة سكر ومعه إحدى الجواري وأقسم أن تصلي الجارية بالناس فألبسها لباس الخلافة وبعث بها إلى المسجد وهي في حالة سكر وجنابة لتصلّي بالناس ، وانتشر في عهده المغنون أمثال ابن السريج ، ومعبد ، والغريض ، وابن عائشة ، وابن محرز ، ودحمان . وفي مصادر التاريخ من أفعاله وأشعاره في الفسق ما يأباه الذوق والعرف الاجتماعي ، وقد عزم على أن يبني أعلى الكعبة في بيت الله الحرام قبّة يشرب فيها الخمر ، ويشرف منها سكران منتشياً على الطائفين ببيت الله الحرام .
وفي إحدى المرات ، رأى آيات في المصحف الشريف ، تتحدث عن الحساب والجزاء ، فرمى المصحف بسهام وهو ينشد :

تذكرني الحساب ولست أدري ... أحقاً ما تقول من الحساب
فقل لله يمنعني طعامي ... وقل لله يمنعني شرابي

ومرة فتح القرآن فوجد ورقة فيها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾ ، فمزق المصحف بسهمه وأنشد :

تهددني بجبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

كما ذكر ذلك في كتاب حياة الحيوان : ج١ ص ١٠٣ ، ومروج الذهب : ج٣ ص٢٢٨ .
كما واعتبر المسلمين عبيداً له ، فيحدثنا التاريخ أنه كان يبيع الولايات الإسلامية بما فيها، من الناس ، والموظفين ، والإمكانات ، والثروات ؛ فعلى سبيل المثال : باع ولاية خراسان لنصر بن سياب ، ثم بدا له أن يبيعها مرّة ثانية لمن يدفع أكثر ، فباعها بما في ذلك واليها وعُمّاله إلى يوسف بن عمر . للمزيد راجع تاريخ الطبري وتاريخ السيوطي والأغاني والمستطرف ومروج الذهب وحياة الحيوان وعيون أخبار الرضا .

(١) للمزيد راجع كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني : ج٣ ص ٣٠٧ .

(٢) وقد ذكر ذلك عيون أخبار الرضا بسنده عن عبيد الله البزاز النيسابوري عن حميد بن قحطبة والي خراسان ؛ إنه قتل في ليلة واحدة بأمر هارون في طوس ستين نفساً من العلويين طرح أجسادهم في بئر هناك . ولا يخفى أن حميد بن قحطبة ولي مصر والجزيرة قبل خراسان ، ومات سنة ١٥٩هـ .

وسيرتهم ، والعلماء ومذاهبهم ، والحكماء وآراءهم ، والزّهاد ومواعظهم ، لأنّهم علموا أنّ المسلمين يتحرّون رضى الله ﷻ في معاملاتهم ، ومعاشراتهم ، وأخذهم ، وعطائهم .

نعم ، أرّخوا شيئاً من قضايا الحكّام وشعرائهم ومن إليهم مع تجنّب غالب المؤرّخين في ذكر أحوالهم نقاط الضعف الكثيرة ، فذكروا بعض أخبار الملوك وسياستهم وأسباب الدول ورجالها وشروعها وانقراضها وكثيراً من أعوان الملوك والوزراء وما يتّصل بذلك من الأقوال والأعمال . فكان الجانب الحضاري عندهم هو الجانب الأهم الذي هو جانب الروح والواقع والفطرة والعقل ، لا جانب الجسد وملذّاته ، كما قال ﷻ : ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [١] فللدنيا نصيب ، لكن اللازم هو تحرّي رضى الله والآخرة ورضى أنبيائه وأوليائه .

وكان الحقّ مع المؤرّخين الذين كتبوا تاريخ الأنبياء والأوصياء والعلماء وتركوا تواريخ الطغاة والجبابرة والفراعنة وهم النزر اليسير اليسير ، فهل يكتبون قصص ألف ليلة وليلة [٢] أو يكتبون قول الإمام علي عليه السلام في الخراج والضرائب عندما

---

(١) سورة القصص : الآية ٧٧ .

(٢) وهي مجموعة قصص تتحدث أن الملك شهريار يكتشف خيانة زوجته فيقتلها ويقتل الذين شاركوها في الخيانة وينقم من النساء جميعاً ويقرّر أن يتزوج كل ليلة ، واحدةً ، ثم يقتلها مع بزوغ الفجر وظلّ دأبه هذا حتى تزوج من شهرزاد ، ابنة وزيره ، فأخذت تقصُّ عليه كلّ ليلة قصة لكي تحمله على استبقائها ، وكانت كلما أدركها الصباح ، سكتت عن الكلام ، فكان هو يسألها في الليلة التالية لإتمام حديثها إلى أنْ أتى عليها ألف ليلة فاستعقلها ومال إليها واستبقاها . ولايخفى أن هذه القصص مجهولة المؤلف ، ودارت حولها وأصولها ومؤلفها بحوث كثيرة ، ولكن الثابت أنها ليست لمؤلف واحد وأنها وضعت في أكثر من عصر وأنها متأثرة بالأساطير والقصص الشعبية الفارسية والهندية . راجع الموسوعة الإسلامية لحسن الأمين : ج٤ ص٢٢٦ ، موسوعة المورد : ج٩ ص ٢٠٧ .

وصّى مالك الأشتر [1] بقوله : **(وتفقّد أمر الخراج بما يصلح أهله فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلاّ بهم ، لأنّ الناس كلّهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأنّ ذلك لا يدرك إلاّ بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلاّ قليلاً . . . وإنّما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنّما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على**

---

(١) مالك بن حارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة النخعي ، وجدّه الأعلى مدحج ؛ الذي تسمّت به قبيلة من أشهر قبائل اليمن ، ولقب بالأشتر ؛ لأنه شترت عينه في إحدى الحروب أيام أبي بكر ، ولد قبل بعثة الرسول ﷺ واستشهد سنة ٣٩هـ (٦٥٩م) ، صحابي جليل ، وزعيم متميز ، وسياسي محنك ، وفارس مقدام ، وشاعر قدير ، ورئيس عسكر الإمام عليه السلام في معاركه وحروبه، اشتهر بالكرم والسخاء والنبل والفضيلة والعلم والتقوى ، قال عنه الرسول الأكرم ﷺ : «إنه المؤمن حقاً» وقال عنه الإمام علي عليه السلام: «إنه ممن لايخاف رهنه ولاسقطته و لا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم ولا إسراعه إلى ما يبطأ عنه أمثل» ، تعرض للنفي في عهد عثمان بن عفان حيث نفاه إلى الشام مع تسعة آخرين ، ثم جلبه إلى الكوفة، ثم نفاه إلى حمص ، وقد تحدّى عثمان ، وزار أبا ذر رضي الله عنه في منفاه في الرّبذة وتولى دفنه. شارك في حرب الجمل وقتل عبد الله بن الزبير وكان عمر مالك آنذاك ثمانين سنة ، وشارك في حرب صفين ، وكان على ميمنة الجيش ، وكانت له صولات وجولات ، أصبح والياً للإمام علي عليه السلام على الجزيرة ، ثم أرسله والياً إلى مصر بعد اضطراب أحوالها ومقتل واليها محمد بن أبي بكر ، فقال له الإمام عليه السلام : «ليس لها غيرك ، فاخرج إليها رحمك الله..» ، وعندما وصل خبر إرساله إلى معاوية ، بعث إليه «ملاك» في منطقة العريش ؛ أن يدسّ السم في طعامه مقابل إعفائه من الخراج عشرين سنة ، وعندما وصل مالك إلى العريش استضافه «ملاك» بمقدار من السم المخلوط بالعسل ، وكان مالك صائماً في ذلك اليوم فأثر السّم فيه واستشهد ، وقد أبّنه الإمام عليه السلام كما ورد في نهج البلاغة قائلاً : «ومَا مَالكٌ واللهِ ، لَوْ كَانَ جَبَلاً لَكَانَ فِنْداً ولَوْ كَانَ حَجَراً لَكَانَ صَلْداً لا يَرْتَقيهِ الْحَافِرُ ولايُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ» ، وقيل إنه عليه السلام قال : «لقد كان لي كما كنت لرسول الله ، رحم الله مالكاً وما مالك لو كان صخراً لكان صلداً ، ولو كان جبلاً لكان فنداً ، وكأنه قَدْ قُدَّ مني قداً» .

الجمع ، وسوء ظنّهم بالبقاء ، وقلّة انتفاعهم بالعبر) [١].

أو هل يكتبون مخازي المأمون العبّاسي [٢] وزواجه ببوران [٣] وابتهاجه بيوم العيد وأمامه بنات النصارى سافرات متبرّجات في حالة لهو ورقص ؟، أو قول الإمام علي عليه السلام في كتابه إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني الذي كان من عمّاله على البلاد يقول فيه : **(بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وعصيت إمامك ، إنّك تقسمّ فيء المسلمين الذي حازته رماحُهم وخيولُهم ، وأريقت عليه دماؤهم فيمن اعتامك [٤] من أعراب قومك ، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقاً لتجدنّ لك عليّ هوانا ولتخفّن عندي ميزاناً، فلا تستهن بحقّ ربّك ، ولا تصلح دنياك بمحق دينك ، فتكون من الأخسرين أعمالاً، ألاّ وإنّ حقّ من قبَلك وقبَلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء يردون عندي عليه ويصدرون عنه)** [٥] إلى غير ذلك من سيرتهم الطاهرة عليهم السلام وأقوالهم الرفيعة في قبال سفاسف الخلفاء والأمراء ومن إليهم .

---

(١) نهج البلاغة : الكتاب٥٣ ، شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد : ج١٧ ص٧٠ ب٥٣ .

(٢) المأمون العباسي : عبدالله بن هارون الملقب بالمأمون ، سابع خلفاء بني العباس ، ولد سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦م) ، حكم سنة ١٩٨ هـ (٨١٣م) ، واستمر في الحكم عشرين عاماً ، وقتل سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) وعاش ٤٨ سنة ، وقد قتل أخاه الأمين سنة ١٩٨هـ ؛ وذلك لأن الأمين خلع المأمون من ولاية العهد ونصّب ابنه الصغير الذي كان عمره خمس سنوات ، كما أنه قتل الإمام الرضا عليه السلام .

(٣) وكان ذلك سنة ٢١٠هـ (٨٢٥م) ، ويحدثنا التاريخ أن بعض ما أنفقه الحسن بن سهل وزير المأمون في زواج ابنته بوران على أمراء الدولة بلغ خمسين ألف ألف درهم إضافة إلى أربعة آلف ألف دينار . وقد ماتت بوران سنة ٢٧١هـ (٨٨٤م) .

(٤) اعتامك : اختارك ، وأصله أخذ من العيمة ـ بالكسر ـ وهي خيار المال .

(٥) نهج البلاغة : الكتاب ٤٣ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٦ ص١٧٥ ب٤٣ .

التجرد الموضوعي

مسألة : اللازم على من يريد تحليل التاريخ ، وذكر فلسفته ، أن يعزل موضوعه زماناً ، ومكاناً ، وشرائط ، وخصوصيات ، ومزايا عن سائر العصور ، والدول ، والأزمنة ، والأمكنة ، وغير ذلك ، حتّى يصل إلى جوهر التاريخ ، كما يعزل العالم الطبيعي الظاهرة الطبيعية عمّا هو من حولها من الظواهر الأخرى ، حتّى يصل إلى الجوهر العامّ والكلّي المختفي في الظواهر ، فإنّ لكلّ شيء ظاهراً وباطناً ، وأحياناً يكون الباطن بعد باطن حتّى يصل إلى سبعين باطناً ، كما ورد بالنسبة للقرآن الكريم : **(إنّ له سبعين بطناً)** [1] ، وإذا أردنا أن نمثل ذلك بمثال وإن كان المثال يقرّب من جهة ويبعّد من جهة ، نمثله بالجنين ؛ المستخلص من المني ؛ المستخلص من الدم ؛ المستخلص من التفّاح ؛ المستخلص من الشجرة ؛ المستخلصة من التراب ، والماء ، والنور ، والهواء .

---

(١) تهذيب الأصول : ج١ ص٧٢ .

تركيب
وصياغة المادة التاريخية

مسألة : يلزم على من يريد معرفة فلسفة التاريخ ، أن يجمع أكبر قدرٍ ممكن من الحالات ، والمعلومات ، والخصوصيات ، والمزايا المتعلّقة بموضوع الدراسة ، وأن يقوم بدراسة دقيقة للوثائق أهي صحيحة أو غير صحيحة ، قطعية أو ظنّية أو شكّية أو وهمية ، وأن يصب ذلك في قوالب الأشكال الأربعة مراعياً للصناعات الخمس حسب ما يقوله المنطقيّون حتّى يصل إلى التحليل الدقيق ، وأن يقوم بعملية تركيبية ، وصياغة المادّة التاريخية صياغة علمية ، متجاوزاً مرحلة السرد والوصف إلى التعليل ، فإنّ لكلّ شيء سبباً ، ولكلّ شيء مسبّباً ، فيتعرّض المحلل التاريخي للوقائع التاريخية مع تناول علل وأسباب يريد استخلاصها ، فما هو علّة هذا ، وما هو سبب هذا ، وما هو المعلول ، وما هو المسبّب ؟ وأن يصل بذلك إلى أحكام كلّية ، وتلك الأحكام الكلّية جارية في السابق ، والحاضر ، والمستقبل . وبذلك يتمكّن أن يتنبّأ عن المستقبل تنبؤاً علمياً .

وربّما يخطئ الإنسان بل كثيراً ما يخطئ ، لأنّ الظروف متداخلة ، فلا يتمكّن الإنسان من استخلاصها حقيقة ، ولا يتمكن من فهم الشرائط ، والمزايا ، والخصوصيّات ، والمتداخلات التي تتحكّم بالمستقبل كثيراً ، حال ذلك حال الطبيب الذي يشاهد المريض ، فيحكم على حالته أن يعيش إلى وقت كذا ، أو يموت إلى وقت كذا ، ومع ذلك لا يعيش إلى ذلك الوقت ، ولا يموت إلى ذلك الوقت ، بل الأمر أبعد من هذا ، فقد قال عليه السلام : **(لولا آيةٌ من كتاب الله**

لأخبرتكم بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة)[١] ، والمراد بالآية : **﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾**[٢] . ومن ذلك نشأ البداء ، الذي يقول العلماء به ، وقد فصّلنا شيئاً منه في كتاب مقدّمة الفقه كتاب العقائد[٣] . فبناءً على هذا نشاهد أنّ الذين يصلون إلى روح التاريخ وفلسفته ، إنّما يفعلون ذلك بأسباب ، من جملتها القلق على مصير الحضارات القائمة سواء كانت حضارة إسلامية ، أو حضارة غربية ، أو حضارة شرقية مثل حضارة الهند إلى غير ذلك ، فإنّ تحليل التاريخ وفلسفته ، يوصل الإنسان إلى أن يكتشف المستقبل من الماضي ومن الحاضر ؛ لأنّ الماضي ، والحاضر ، والمستقبل كلّها سلسلات بعضها مرتبطة ببعض ، وقد قال الحاج السّبزواري :

كـونُ المراتـب في الاشـتداد أنواعـاً اسـتنار للمـراد[٤]

والذين يريدون مثل ذلك بالنسبة إلى الحضارات البائدة ، والقائمة ، والمستقبلة بحاجة إلى مقدرة فائقة على المقارنة بين مختلف الحضارات كالحضارة الإسلامية ، والحضارة الغربية الحديثة ، والحضارة المسيحية ، والحضارة اليهودية ، والحضارة الإبراهيمية ، والحضارة اليونانية القديمة ، والحضارة الآشورية ، والحضارة الفينيقيّة ، والحضارة الخسروية ، والحضارة الرومانية ، وما أشبه ذلك[٥] .

---

(١) وفي بحار الأنوار : ج٤ ص١١٨ ب٣ ح٥٢ ، وتفسير العياشي : ج٢ص٢١٥ سورة الرعد الحديث التالي : عن زرارة عن أبي جعفر قال : (كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول : لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما يكون إلى يوم القيامة ، فقلت له : أية آية ؟ قال : قول الله : ﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾.

(٢) سورة الرعد : الآية ٣٩ .

(٣) للمزيد راجع موسوعة الفقه كتاب الفقه العقائد : ص٣٠٧ .

(٤) شرح منظومة السبزواري ، قسم الفلسفة : ص١٧٢ للإمام المؤلف قدس سره .

(٥) وقد أحصى بعض العلماء الحضارات إلى أكثر من عشرين حضارة ، وهي : الحضارة

ومن الواضح أنّ الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فالعالم عالم قديم لإله أزلي سرمدي قديم ، وإن كان بينهما فرق ، فالله ﷻ قائم بذاته وأزلي أبدي ، بينما العالم القديم قديم قدماً نسبياً ، وحادث ذاتاً وزماناً ، مستند إلى الإله تبارك وتعالى ، وقد مرّت دهور ودهور بما لا تدخل تحت الألفاظ ولم يكن شيء إطلاقاً ، ولذا ورد : **(كان الله ولم يكن معه شيء)** [1] ؛ هذا بالنسبة إلى الماضي ، وأمّا بالنسبة إلى المستقبل ، فقد قال ﷻ : **﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾** [2] .

ومحلّل التاريخ يتكلّم حول أسباب قيام الحضارات ثمّ شيخوختها ثمّ سقوطها ثمّ بعد ذلك تقوم حضارة أخرى .

وقد رأينا نحن بأنفسنا كيف قامت حضارة الشيوعيين ، ثمّ كيف قويت ، ثمّ كيف ضعفت خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية ، ثمّ كيف سقطت وإن تصوّر الشيوعيون بأنهم يمتلكون ما لا حصر له من الأسباب والأموال والقدرة وغير ذلك لأن تبقى سلطتهم قروناً وقروناً ، حتّى انّي قرأت في التاريخ أن ما هيّأه الشيوعيون من القنابل الذرّية فقط تكفي لإفناء العالم سبع مرّات ، وقد قال الشاعر :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى   ولا زاجرات الطير ما الله صانع [3]

المدنية ، الآشورية ، الإسلامية ، الإنديزية ، الإيجية ، البابلية ، الرومانية ، السومرية ، الصينية ، العربية ، الغربية ، الفارسية ، الفينيقية ، المايانية ، المصرية ، الهندية ، اليونانية ، حوض نهر السعد ، في البحر الأبيض المتوسط ، في الشرق الأوسط ، في وادي نهر هوانغ هو . راجع موسوعة المورد : ج١ و ج٣.

(١) الكافي (أصول) : ج١ ص ١١٦ ح٧ و ص ١٢٠ ح٢ (بالمعنى) .

(٢) سورة القصص : الآية ٨٨ .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٩ ص٣٧٥.

المقارنة

بين العلوم الطبيعية والتاريخ

مسألة : يجب على من يريد تحليل التاريخ ، أن يقارن تحليله بسائر العلوم الطبيعية ، كالكيمياء ، والفيزياء ، والحساب ، والهندسة ، والفلك ، وغير ذلك ، فإن للأمور الطبيعية ظواهر وبواطن ، والبواطن على الأغلب تكون متشابهة ، مما يمكن أن يستفاد من تلك الظواهر والمفردات الحكم الكلي الساري في جميع ذلك .

مثاله مثال ما ذكره ﷻ : ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ [1] ، وكما قال القدماء بأنّ جوهر كلّ شيء نشاهده في هذا العالم هو مكوّن من أربعة أشياء : الماء ، والتراب ، والهواء ، والنور أو النار ، ولا يخفى أن هناك فرقاً بين النور والنار ، ذكره علماء الطبيعة وإن كان بينهما جامع مشترك .

وبذلك تبيّن أنّ مفردات الحوادث لم تقع مصادفة ، وإنّما وفقاً لظروف معيّنة وكلّي عام متحد في جميعها وشرائط وأزمان مختلفة .

ومنطق التفسير في الأمور الطبيعية أو في غير الطبيعية واحد في جوهره في كلّ من التاريخ ، والعلوم الطبيعية ، ولا يكون التنبؤ حينئذ علمياً بل هو قائم على قوانين عامّة لا غنى عنها لمن يريد تحليل التاريخ عنها . لكنّ هذه القوانين لا تعني الحتميّة والقطعية كالتدخّلات التي لا نعلمها ، ولأن إرادة الله ﷻ التي لا تدع شيئاً

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

إلاّ وتتدخّل فيه زيادة ونقيصة وإفناءً وإيجاداً ، ولذا يبقى المجال للإمكان والاحتمال .

نعم ، قد يكون الإمكان قوياً ، وقد يكون الاحتمال قوياً ، وقد يكون الإمكان أو الاحتمال ضعيفاً بدرجات الضعف ، فربّما يصل الأمر إلى«١٠٠٪» وهو القطع ، وربّما لا يصل آخذاً في النقيصة إلى الواحد ودون الواحد .

استيعاب المفردات

مسألة : يلزم على من يريد معرفة فلسفة التاريخ ، أن يجمع قدراً كبيراً من المفردات ، والخصائص ، والشرائط . مثلاً ؛ إنّنا من دون الجمع ، لا نتمكّن أن نحكم حكماً قطعياً ببقاء هذه الحضارة أو تلك ، وموت هذه الحضارة أو تلك ، فإنّ الأشياء إنّما يصل علم الإنسان إليها في حدود شرائط خاصّة بأزمنة خاصّة ، وأمّا الغيب فلا يعلمه إلاّ الله ، والراسخون في العلم الذين يريد الله لهم أن يعلموا الغيب ؛ كما قال تعالى : ﴿**فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِه أَحَداً ◆ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُول**﴾[1] ، مثلاً إنّا إذا ألقينا نظرة دقيقة على خريطة جغرافية ، ظهرت لنا الحدود بين الدول كخطوط دامية ؛ لكثرة ما جرى فوقها من حروب في الماضي والتي أثرت في الجغرافيا ، خاصّة بين الدول المنظّمة تنظيماً صارماً .

وقد شاهدنا نحن في عمرنا القصير كيف تغيّرت الحدود بسبب الحرب العالمية الثانية ، ومن الواضح أنّه لا يمكن بشكل عام تغيير هذه الحدود إلاّ بحروب جديدة أو ثورات غير طبيعية ، كالزلازل ، والتقاء الأرض بالشهب ، أو ما أشبه ذلك ، فإنّه يوجد على سطح الكرة الأرضية مناطق متميّزة ، فإنّ الله تعالى فضل الأشياء بعضها على بعض ، كالتراب ، والذهب ، وكالإنسان المفضّل على غيره ؛ كما قال تعالى : ﴿**وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[2] ، والذي يظهر من الروايات والآيات أنّ في الآخرة أيضاً مناطق مفضّلة بعضها على بعض ، كما

---

(١) سورة الجن : الآيات ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .

قال ﷻ: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾[(١)].

وفي الحديث أنّ بعض الناس يسألون عن أصدقائهم ، فيقال لهم إنّه في مرتبة كذا فينظر إلى تلك المرتبة ، كما ينظر أهل الأرض إلى النجوم[(٢)] ، وهذه المناطق المفضّلة في الأرض على مدى العصور ، دلّت على أنّها أكثر ملاءمة من غيرها لسكنى البشر.

ولا يخفى أنّ مسألة الإنسان الأوّل[(٣)] ، كما يذكره المؤرّخون الغربيون الجدد ومن إليهم إنّما هو تخرّص بالغيب ، وإلاّ فإنّنا نحن المسلمين نعتقد بأنّ الإنسان الأوّل هو آدم ﷺ ، وقد جاء من الجنّة إلى الدنيا بحضارة كاملة ، ظهر بعضها ولم يظهر بعضها الآخر حسب الظروف والملائمات[(٤)].

وعلى أيّ حال : ففي هذه المناطق المعتدلة ، وجد الإنسان أفضل الشروط للعيش ، ولهذا توجّه إلى تلك المناطق ، والاعتدال إنّما يكون بالماء ، والهواء ، والتربة . أمّا تلك المناطق التي تقع إلى الشمال من مدار السرطان مثلاً ، فتشكّل شريطاً متّصلاً تقريباً ، يمتد من شواطئ الأطلسي إلى شواطئ المحيط الهادي ، ويبلغ طوله آلاف الكيلومترات ، ويمكن أن ندخل فيه الشريط الساحلي في إفريقيا الشمالية الذي يبدأ من المغرب ويصل إلى مصر ثمّ يتّصل بالهلال الخصيب في آسيا

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٢١ .

(٢) ورد في بحار الأنوار: ج ٨ ص١٤٨ وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول : (إن أهل الجنة ينظرون إلى منازل شيعتنا كما ينظر الإنسان إلى الكواكب).

(٣) الإنسان في العصر الحجري أو ما يسمى بالإنسان (جاوه) الذي يكون أشبه بالقرد .

(٤) إنّ من يراجع علم مقارنة الأديان ، تتجلى له حقيقة هامة ، وهي : إن اليهود يحاولون أن يمحوا قداسة الأديان ويظهروا الأنبياء مظهر الدجالين . ومن هذا المنطلق روجوا لنظرية دارون في التطور وأشباهها ؛ لأجل القضاء على الأديان والقوانين السماوية معلنين أن كل شيء بدأ ناقصاً ثم تطور ، فلا قداسة إذاً للأديان والقوانين !!.

الصغرى .

وتاريخ هذه المناطق مجهول لنا إلاّ بالتخرّصات ، والتخمينات ، والظنون ، ومن الواضح ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [(١)] كما قاله تعالى ، وقد اكتشف قبل سنوات قرب مدينة مشهد المقدسة الإيرانية مدينة ذكروا أنّ عمرها «٥ آلاف» سنة ، كما اكتشفت في الصين أجساد موميائية ، ذكروا أنّ عمرها «١٠ آلاف» سنة ، وقبل مدّة قرأت في إحدى الصحف العالمية أنّ في مصر مدينة قدّر العلماء عمرها «١٥٠ ألف» سنة ، وهناك في إفريقيا اكتشفت جماجم إنسانية قدّروا عمرها بسبعين مليون سنة ، واكتشف في ألمانيا بعض الأسماك التي قدّر عمرها بثلاثمائة مليون سنة ، وهكذا .

وكم يبقى من العالم أيضاً فإنّه مختلف فيه أبعد الاختلاف عند علماء الغرب ، فمنهم من ذكر أنّ بقاء الدنيا بهذه الحضارة والكيفية عمرها المستقبلي خمسة مليارات من السنوات [(٢)] ، كما ذكر بعضهم أنّ عمر الكون حسب موازينهم «١٦ مليار» سنة ، وذلك ممّا لا يعلمه إلاّ الله تعالى .

نعم ، في العصر القريب كان الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسّط منطقة لقاء بين الحضارات منذ أقدم عصور التاريخ المدوّن ، بل ومنذ عصور ما قبل التاريخ على الاصطلاح الحديث . أمّا ما وراء المحيط الهادي ، فإنّ المنطقة المعتدلة تمتد حتّى أواسط الأمريكيتين ، فالمكسيك والبيرو كانتا مهد حضارات سابقة ، ولكن هذه الحضارات تطوّرت بدون احتكاك مع العالم الخارجي قبل وصول الأسبان أو المسلمين حسب ما يعتقد المسلمون حولها ، وخطوط التصدّع في هذه القارّة هي بلا شكّ أقلّ وضوحاً من تلك الخطوط المماثلة الموجودة فوق

---

(١) سورة يونس : الآية ٣٦ ، سورة النجم : الآية ٢٨ .

(٢) للمزيد راجع كتاب «نهاية الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون» للمؤلف فرانك كلوز ، والصادر عن عالم المعرفة الكويتية ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي .

القارات الآسيوية والأوربية ، ولأنّ من ينظر إلى هاتين القارتين آسيا وأوربا يراهما ملتحمتين بشكل يجعل خطوط التصدّع الموجودة فوقهما متّصلة بدون انقطاع ، فقد بدأت فيهما الحضارات التي يسمّونها بالعظمى وتطوّرت منذ آلاف السنين .

وإنّما ذكرنا ذلك لمجرّد المثال وإلاّ فالأمثلة كثيرة ، ولعلّ الأمثلة في المجرات الأخرى أو في الأنجم الأخرى في مجرّتنا تكون أروع وأوسع في الطول والعرض والعمق . وقد ذكر بعض العلماء [1] : إنّه ما لا يقل عن «١٠٠ ألف» كوكب يسكنها البشر . وقد ذكر الإمام علي عليه السلام حينما سئل عن الكواكب ؟ فقال : **(مدائن مثل المدائن التي في الأرض)** [2] . لكن الذي يظهر من الآيات والروايات أنّ الشيء الذي يبقى ممّا يكون الزيادة عليه مؤقّتة ، والنقيصة عنه مؤقّتة أيضاً هي الفطرة ، كما قال تعالى : **﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** [3] وأمّا التقاليد والعادات والأعراف والقوانين الموضوعة وما أشبه ذلك ، فكلّها وقتية سواء دام وقتها عشرات السنوات أو لم تدم إلاّ سنوات قلائل . ولهذا نشاهد في البشرية منذ بداية التاريخ سواء التاريخ الديني الذي يبتدئ بآدم عليه السلام وما بعده أو التاريخ الحضاري أو الغربي أنّهم كانوا متشابهين في كثير من الأمور ، وإنْ كانوا مختلفين في العادات والتقاليد والأعراف والقوانين الموضوعة وما أشبه ذلك . لكن التاريخ البشري ليس منه بأيدينا لا دينياً ولا دنيوياً الشيء الكثير ، بل إنّ الذي عندنا بعض المجملات ، وكنت في السابق احتمل أنّ نوحاً عليه السلام كان قبل مائة مليون سنة ، ثمّ وجدت في كتاب حديث أنّ الغربيين حدّدوا زمن نوح عليه السلام حسب موازينهم

---

(١) على ما ذكره الكاتب المصري عبد الرزاق نوفل.

(٢) فقد ورد في تفسير البرغاني: ص١٣٧ ، وتفسير القمّي : ج٢، ص٢١٨، في تفسير سورة الصّافات : (هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض).

(٣) سورة الروم : الآية ٣٠ .

بثمانين مليون سنة ، وهكذا فالمحلّل التأريخي يحتاج إلى مقدار كبير من المفردات الزمانية والمكانية والشرائطية وما أشبه ذلك ، حتّى يتمكّن من تحليل التاريخ وفلسفته واستخلاص ذلك الكلّي المبطّن في هذه الأمور أو الحضارات .

مهمّة المؤرّخ

مسألة : على المحلل التاريخي أن يراعي ظروف الزمان والمكان والشرائط والخصوصيات والملابسات للأحداث والأمم التي أصابتها تلك الأحداث ، وألاّ يصدر أحكام الزيغ والضلال على الماضي ، أو إصدار أحكام الزيغ والضلال على المستقبل حسب موازينه الشخصية .

إنّ إصدار أحكام الزيغ والضلال خاصّ بالله ﷻ وبأنبيائه «عليهم أفضل الصلاة والسلام» سواء كان بالنسبة إلى الماضي أو بالنسبة إلى المستقبل ، فلا يحقّ للمؤرّخ والفيلسوف أن يجعل من نفسه واعظاً عقيدياً معتمداً على ذوقه الشخصي ، لأنّ ذلك لن يؤدّي إلاّ إلى أحكام خاطئة إذا قيست بعقلية ذلك العصر ، الذي يدرسه سواء بالنسبة إلى العصر الماضي أو العصر المستقبلي ، فإنّ لكلّ عصر تاريخاً بل لكلّ حقبة ذلك ، كما أنّ لكلّ حضارة شخصيتها وقيمها ، وليس للمؤرّخ أن ينظر إلى الماضي من خلال معايير الحاضر ، كما أنه لم يكن للمؤرخ السابق أن ينظر إلى الحضارة الحاضرة حسب مقاييس الماضي ، وإن كان بين الماضي والمستقبل والحاضر معايير كلّية هي كالروح السائدة في أجزاء البدن ، أمّا الوصول إلى ذلك فهو مشكلة المشاكل ، ولا يمكن إلاّ بقدر معين من العلم وقدر معين ممّا ورثه الإنسان عن الأنبياء عن الله ﷻ . فإنّ الإنسانية ليست شكلاً واحداً ولا طابعاً مستقلاً ولا نمطاً متفرداً ماضيه ومستقبله وحاضره ، إلاّ في صور خاصّة وموازين قطعية .

ولذا ينبغي التعبير عن كلّ عصر بتعبيرات خاصّة به ، لأنّ لكلّ عصر ولكلّ أمّة

طابعاً فريداً غير قابل للتكرار ، بل قال بعضهم : إنّ كلّ فرد من الإنسان كلّي منحصر بفرده في الخصوصيات والمزايا والشرائط والأفكار وما أشبه ذلك ، وقد أشار إلى ذلك القرآن الحكيم ـ فإنّه قابل للتطبيق على الأمم وعلى الأفراد وعلى الجماعات ـ قال الله ﷻ : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (١) ، فإذا أردنا أن نمثل ذلك بأوان ، فهناك إناء يستوعب مثقالاً من الماء وهناك إناء فوق ذلك وفوق ذلك إلى أن يصل إلى بحار الدنيا ، حتّى يصل إلى ما يكون بحار الدنيا جزءاً صغيراً منها كما قال ﷻ : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (٢) ، فأفضل ما خلق الله الماء في إطار الماديات ثمّ جعل من الماء السماء كما قال ﷻ : ﴿وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ◆ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ (٣) ، ولا نعلم إلى اليوم أنّ المراد بسبع سماوات هل العدد أو المبالغة كما قال : بكلٍّ بعضٌ .

وعلى كلّ حال : فليست الحضارة المصرية القديمة كالحضارة العراقية ، أو الآشورية أو ما أشبه ذلك ، كما أنّهما لا يشابهان حضارة الصين ، أو حضارة اليونان ، أو حضارة الرومان ، وهكذا لا تشابه بين حضارة اليهود الموسوية ، وحضارة المسيحيين العيسوية ، وحضارة المسلمين المحمّدية صلوات الله على أنبياء هذه الحضارات ، وإن كان يشبه بعضها بعضاً في الجامع الذي أقرّه الله ﷻ ، حيث قال : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤) ، فإنّ (الأنبياء أخوة من أمّهات

---

(١) سورة الرعد : الآية ١٧ .

(٢) سورة هود : الآية ٧ .

(٣) سورة فصلت : الآيات ١١ ـ ١٢ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٣٦ .

شتى) [(١)] ؛ كما ورد في الحديث ، وإنّما الفروق تكون زمانية ومكانية وحسب خصوصيات الأمم . ولذا قال عيسى المسيح عليه السلام لليهود : ﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [(٢)] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [(٣)] ، ثمّ غير تلك الجهة العامّة بالنسبة إلى الحضارات المختلفة ، فقد تشكّلت كلّ منها بطريقة متمايزة منفردة ؛ ومن ثمّ وجب على المؤرّخ أن يلاحظ العصر الذي يدرسه والدين الذي يدرسه وما أشبه ذلك .

وعليه ، فاللازم على من يريد معرفة فلسفة التاريخ ألاّ يتجاوز ظروف الزمان والمكان والشرائط والخصوصيات والأمم ، حتّى يصدر أحكاماً مطلقة ، فهذا غير صحيح ، إلاّ في الكلّي العامّ الدقيق الجاري في الكلّ ، مثال ذلك مثال الفواكه المختلفة التي فيها جامعٌ عامٌ من العناصر الأربعة ، بينما لكلّ واحد منها لون وشكل وطعم وخصوصية ومزيّة وخاصيّة وغيرها .

وقد قرأت في بعض الكتب أنّه يعيش على الكرة الأرضية «٣٠ مليوناً» من الأحياء سواء كانت أحياء نباتية أو أحياء حيوانية أو أحياء إنسانية ، وهذه الثلاثون مليوناً على فرض صحة هذا الرقم فيها جامعٌ واحدٌ من الحياة النباتية أو الحيوانية أو الإنسانية ، بينما لكلّ واحد منها خصوصية ومزيّة ، كما نشاهد ذلك بالنسبة إلى النباتات المختلفة ، فأحدها لا يشبه الآخر إطلاقاً ، وإن كان في الجميع جامع واحد يعبّر عنه بالنبات ، أو بالنسبة للحيوان يعبّر عنه بالحيوان .

---

(١) فقد ورد في بعض الكتب عن الرسول صلى الله عليه وآله : (الأنبياء أخوة لعلات دينهم واحد وأمهاتهم شتى) كنز العمال : ج١٤ ص ٢٣٦ ح٣٨٥٦٦ ، تفسير القرطبي : ج١٦ ص١٠٦ ، جامع البيان : ج٣ ص٣٩٦ ، وقريب منه في مسند الطيالسي : ج١ ص٣٥٥ وتفسير ابن كثير : ج٢ ص٦٧ وتحفة الأحوذي : ج١٠ ص١٤ ومصنف ابن أبي شيبة : ج٧ ص ٤٩٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٥٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .

المنهج المادّي

في دراسة العلوم

مسألة : لا يتسنى التعرّف على روح الأمّة ، وشخصيتها المعنوية ، وفلسفة التاريخ بمنهج العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء ؛ إذ هذه العلوم الطبيعية لا تكشف إلاّ عمّا هو ظاهري وخارجي ، بينما فلسفة التاريخ أمرٌ معنوي ، وروح عامة . والماضي التاريخي والمستقبل الآتي والحاضر أمر روحي ، ولا يمكن التعرّف على الروح من الظاهر ، وإنّما الروح هي التي تعرف الروح ، أمّا الظاهر فيعرَّف بظاهر ويعرِّف الظاهر . فالروح الداخلية للإنسان هي التي يمكن أن تكشف روح العصر سابقاً أو حالاً أو مستقبلاً ، فلابدّ للمؤرِّخ الذي يريد أن يتعرّف على شخصية الأمّة ويصل إلى روحها العامة ـ ممّا نسميه بفلسفة التاريخ ـ أنْ يتفاعل مع الأمّة وأنْ يستشعر في ذاته تراث الأمّة ، ولا يتسنى فهم ذلك من خلال الأمور الطبيعية والعلوم الظاهرية ، فإنّ الإنسان ليس مجرّد عقل ، ولا مجرّد عاطفة ، ولا ما ينبع عنهما من الإرادة المنتهية إلى الأعمال الخارجية ، بل الإنسان كلّ ذلك .

وفي هذه الأمور الفردية تختفي الروح العامة كما لا تفهم شخصية الإنسان إلاّ في ضوء هذه الجوانب كلّها ، أي إنّك إذا أردت أن تعرف زيداً ، فلابدّ أن تسبر عقله ، وتعرف عواطفه ، وتدري كيفية استخدامه لإرادته ، كذلك الروح المميّزة للأمّة في عصر معيّن ، لا تفهم إلاّ في ضوء مكوّناتها جميعاً . وليست هذه الأمور مجرّد أفعال خارجية ، وأمور ظاهرية من اقتصاد ، وسياسة ، واجتماع ،

وتربية ، وفكر ، وما أشبه ذلك ، وإنّما طبيعة باطنية ، تكمن خلف هذه الأفعال ، وتشكّلها في صور مختلفة ، ونواحٍ متعدّدة ، وكما لا يمكن فهم الإنسان الواحد إلاّ من خلال مرور الزمان ، وعبر مظاهر إرادته ، وليست البواعث الذاتية محدّدة تحديداً جازماً لسلوكه ، كما تحدّد خصائص الشجرة وفقاً للبذرة ، وكذلك بالنسبة إلى الحيوان ، فإنّ البذرة ، والحيوان الصغير ، إذا رآه الإنسان ، وكان عارفاً بنوعيته وخصوصياته ، يعرف الشجرة ، والحيوان الكبير المتحوّل من هذا الحيوان الصغير ، وليس الإنسان كذلك من حيث علاقته بالتاريخ الماضي ، وكذلك المستقبل ، فإنّ الحياة البشرية طابعها الاستمرار كلّ لحظة ، ترتبط بأخرى لتكوّن وحدة متكاملة ، وهذا الإنسان يتغيّر تغيّراً سريعاً ، ويتنوّع تنوّعاً مختلفاً ، وبينما نشاهد أنّ الحيوان منذ أنْ حفظ التاريخ لم يتغيّر عن حالته السابقة ، وإنّما يعمل النحل بكيفية خاصّة ، والنملة بكيفية خاصّة ، وهكذا بالنسبة إلى الأسد ، والدبّ ، وسائر الحيوانات ، بينما نرى الإنسان في ارتقاء وانخفاض ، وصعود ونزول ، وتوقف وتحرّك ، لأنَّ الإنسان يحمل إرادة واعية ، ويتصرّف باختيار ، وحرية في المواقف التي تواجهه ، لذلك لا يمكن تخمين رد الفعل الإنساني في استجابته . أمّا الحيوان ؛ فإنّه يتصرّف حسب غريزته ؛ لذلك يكون ردُّ فعله واحداً .

كما هو بالنسبة إلى الفرد ، كذلك بالنسبة إلى الأمّة ، فإنّ الإرادة والاختيار شيء غريب في الإنسان لا يعرف حقيقتهما إلاّ الله ﷻ ، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿**ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾ (١) ؛ أيّ خلقه وهداه إلى مصالحه مستمرّاً وهكذا في الحيوان على نحو واحد ، مع تغيير يسير في سلوكه وحياته ، وكذلك حال الشجرة ، والفرق بينهما الروح الحيوانية ، وعدم الروح الحيوانية . كما أنّ

---

(١) سورة طه : الآية ٥٠ .

هناك فرقاً آخر بين الحيوان والشجر ، إنّ الشجر مرتبط بالأرض ، بينما الحيوان يتحرّك هنا وهناك ، بينما الإنسان يختار ، ويفعل ، ويتغيّر يوماً بعد يوم ، ارتفاعاً ونزولاً ، وقلّةً وكثرةً ، وتجدّداً وتجمّداً .

وتفهم الحياة الإنسانية في ضوء الاستمرار ، والتنوّع ، والتغيّر في الزمان ، وليس هناك أيّ كائن حيّ آخر تتسم حياته بذلك حسب علمنا ، إذ نحن لم تصل علومنا إلى معرفة سائر الكائنات الحيّة بخصوصياتها كالجنّ ، والملك ، والشيطان ، وما أشبه ذلك ، لكن مقتضى أنّ الأنبياء بعثوا إلى الجن والانس ، وأنّ الجن أيضاً له شبه بالإنس في بعض الخصوصيات ، ولذا كان عرضة للامتحان ، والسؤال والجواب ، والثواب والعقوبة ، ولكن من الظاهر أنّه لا يصل إلى حدّ الإنسان في الوصول إلى هذه الخصوصيات ، ولذا فقد ورد في الأحاديث : **(إنّ محلّ الجنّ الصالح الأعراف لا الجنّة)** .

ومن ناحية أخرى ، فإنّ حاضر الإنسان مشحون في الماضي ، كما أنّ الحاضر مشحون بتوقّعات المستقبل ، ولذا نجد آنات الزمان لدى الإنسان في ديمومة ، وانفصال ، واستمرار ، وعلوّ ، وهبوط ، وتجدّد ، ولا نجد مثل هذا الاتّصال أو الاستمرار في العالم الطبيعي ، ولا في مثل عالم الحيوان والشجر. وإذا انتقلنا من الفرد إلى المجتمع ، وجدنا الماضي ماثلاً في الحاضر على نطاق أكثر اتساعاً متّخذاً شكل تراث من أنظمة ، وعقائد ، وأفكار ، ومعارف ، وصنائع ، واقتصاديات ، وسياسيات ، واجتماعيات ، وغير ذلك ممّا يشكّل تراث الأمم ، ومن ذلك نعرف شخصيات أولئك والروح العامة فيهم ممّا نسميه بفلسفة التاريخ ، والمقولات الأساسية التي تميّز الزمان التاريخي هي التنوّع ، والتغيّر ، والديمومة ، والصعود ، والنزول ، والتجدّد ، والتجمّد .

ولابدّ أن تكون للمؤرّخ الذي يريد دراسة التاريخ ، والوصول إلى الروح العامة منه ، حاسّة تاريخية كي يدرك ذلك ، ومن ثمّ يتجنّب النظر إلى الماضي

باعتباره صورة مماثلة للحاضر من جانب السابق ، وهكذا بالنسبة إلى المستقبل في الجانب الآتي . فلا يستطيع المؤرخ أن يستنسخ الماضي ، أو المستقبل حسب محدوديته ، ونظرته الضيقة في الحاضر.

دور القيم والمشخص

ثمّ لا يخفى أنّ الحضارة جوهرها القيم ، فإنّ القيم المعنوية هي التي تدير الحضارة بصور مادّية مختلفة ، فقيم الشيوعيين هي التي تدير الشيوعية ، كما أنّ القيم الرأسمالية هي التي تدير الرأسمالية ، وقيم الإسلام هي التي تدير بلاد المسلمين ، والأمر كان كذلك من القديم ، لأنّ الإنسان هو الذي أقامها ، وإن كان ما يقدّمه الإنسان جوهره القيم ، ولكنّه ليس معزولاً عن الوجود المشخّص .

ومن هنا لم تكن القيم تنتمي إلى الإنسان فقط ، بل إلى الوجود المشخّص أيضاً . إذ لا وجود بغير تشخّص ، فإنّ الكلّي الطبيعي على اصطلاح المنطقيين هي الماهية بالوجود المشخّص كما قال الحاج السبزواري :

كلّي الطبيعي هي المهية وجوده وجودها شخصيّة[1]

فعلاقة الإنسان بالوجود ، وعلاقة الوجود بالإنسان ، وعلاقة الإنسان بالله تعالى إنّما تكون علاقة ذات بعدين : بعد التشخيص ، وبعد الحقيقة .

والأخير هو الذي يحمل القيم ويسري إلى الوجود الشخصي . فالإنسان حقيقة وشخصية وقيم ، والقيم مربوطة بكليهما ، وهناك شخصية وهناك جماعة وهناك نوع وهناك جنس ، ولكن الجماعة والنوع والجنس لا وجود لها بدون الأفراد .

ومن هنا كان لابدّ لنا أن نلاحظ هذه الأمور الأربعة ، والقيم إنّما تكون

---

(١) شرح منظومة السبزواري : النسب الأربعة : ص٣٩ للمؤلف تتَرَّئُ .

منسوبة إليها جميعاً ، فيقال قيم زيد وقيم الحزب الفلاني وقيم نوع الإنسان ، وربما قيم نوع الحيوان ، فإنّ للحيوان أيضاً قيماً يسير عليها مثل قيمة الغضب أو الرضى أو الشهوة أو ما أشبه ذلك ، ممّا يشترك الإنسان والحيوان فيها ، ولذا يقال الوجدان الفردي والوجدان الجماعي ، والوجدان الجماعي عبارة عن مجموعة وجدانات فردية تهيمن عليها قيم واحدة .

ومن الواضح أنّ القيم غير النوع ، كما أنّ النوع غير الجماعة ، والوجدان هي المكوّنة في داخل الإنسان ممّا يعطي الإنسان القيم ، والإنسان هو محلّ القيم ، ولولا وجود الإنسان لما كان هناك شيء نسميه عالم القيم ، إلاّ أن نوسّع في القيّم لتشمل الحيوان أيضاً على ما ذكرناه . ولولا وجود القيم لكان الإنسان في حالة طبيعية لا لون له . ولذا قال الله ﷻ : **﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾** [1] ، والصبغة تكون في ظاهر الإنسان وفي باطنه .

مثلاً : صبغة الرحمة أو صبغة العنف ، فإنّ النفس تتلوّن بهاتين الصبغتين ثمّ لهاتين الصبغتين مظهر في خارج الإنسان ، حيث يكون الإنسان عنيفاً أو يكون في أموره رحيماً ، ولذا قال الله ﷻ : **﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾** [2] و«الفظّ» في الظاهر ، و« غليظ القلب» في الباطن ، وقد ذكرنا في بعض كتب تفاسيرنا أنّ قوله سبحانه وتعالى: **﴿الرحمن الرحيم﴾** حكاية عن ظاهر الرحمة وباطن الرحمة مع أنّ الله ﷻ ليس له نفس وظاهر بمعنى الإنسان ، وإذا أردنا أن نقيس ذلك بالإنسان نجد أن بعض الناس يظهرون الرحمة ويبطنون الفظاظة ، وبعض الناس باطنهم الرحمة أمّا ظاهرهم فالقسوة ، وكلاهما خلاف موازين الإنسان والإنسانية ، والله يريد أن يبيّن بقوله : **﴿الرحمن الرحيم﴾** حسب ما يستفاد من هاتين الكلمتين أنّه ظاهر الرحمة ، وباطن الرحمة أيضاً ، وفي التعبير

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

العرفي يقال فلان رحيم القلب ، ولا يقال رحمان القلب ، وبذلك يظهر أنّ الحضارة مرتبطة بالوجدان ، كما أنّ فلسفة التاريخ والروح العامة أيضاً كذلك ، لكن ليس معنى ذلك أنّ الروح العامة لا تظهر في المظهر ، وإلاّ فمن الواضح أنّ الروح العامة تظهر في مظهر كلّ فرد فرد ، وجماعة وجماعة ، وأمّة وأمّة ، وهكذا .

علاقة الوجدان الاجتماعي بالله سبحانه

إن الوجدان الاجتماعي لا يتحقق في الإنسان إلا بالأمور الخارجة عن ذاته وبتفكيره ، بالإضافة إلى عوامله الفطرية ، مثلا الوجدان الصحيح إنما يتكون بعامل الدين ، ونتيجة اعتقاد الإنسان بالله الرقيب عليه الذي بيده نفعه وضره ، وبإيمانه باليوم الآخر حيث يحاسب عليه ، وإحساس الإنسان الفطري بذلك .

أما ما يقوله بعض الفلاسفة من أن مصدر القيم الصحيحة والوجدان هو الذات فقط ، فهو غير تام ، إذ كيف يمكن للوجدان أن يتحقق بدون الإيمان بالله واليوم الآخر . والعقل وإن كان ينادي بالأشياء الحسنة وترك الأشياء القبيحة ، إلا أنه محدود إذا لم يكن هناك ضوء من الخارج ، وخوف من الله ﷻ ، لم يتمكن العقل من القيادة ، ولهذا نشاهد أن العقلاء دائما في العالم موجودون ، ومع ذلك تقع المظالم التي لا حدود لها ، وقد اعترف بذلك حتى كبار العلمانيين ، ففي كتاب «نصر بلا حرب» ، الذي كتبه نيكسون [(١)] ، الرئيس الأسبق للولايات المتحدة ، جاء فيه هذا النص : «لقد نهض بتأسيس أميركا أفراد كانوا ينشدون الحرية الدينية ، وأرادوا أن يكون لهم حق عبادة الله بطريقتهم الخاصة ، وأن يبحثوا عن معنى للحياة حسب شروطهم الخاصة . وعلينا ألا نغفل عن هذا المبدأ الموحى من

---

(١) ريتشارد ميلهو نيكسون ، ولد سنة ١٩١٣م ، ومات سنة ١٩٩٤م . سياسي أمريكي ، تزعم الحزب الجمهوري وأصبح رئيساً للجمهورية سنة ١٩٦٩م ، ، ويعدُّ الرئيس رقم ٣٧ ، وأعيد انتخابه سنة ١٩٧٢م ، واستقال سنة ١٩٧٤م ؛ إثر فضيحة ووتر غيت السياسية .

مبادئ بلادنا ، وعلينا ألاّ نسمح لمنافستنا مع موسكو بأن تنحدر ، وتصبح سباقاً بين الطرفين على أيّهما يستطيع إنتاج أكبر عدد من القنابل ، وأطول العمارات ، وأعلى معدّل للدخل الفردي من الناتج القومي الإجمالي ، فإنْ كانت الثروة المادّية هي هدفنا الوحيد ، لم نختلف في شيء عن الشيوعيين . علينا أن نصغي إلى التحذير الذي ساقه ماركس ، وكون المادّية مخرّبة أنانيّة تصبغ الروح البشرية بالبيروقراطية في قفص حديدي نقدّمه إلى الغرب . علينا أن نوجّه المنافسة الأمريكية ـ السوفياتية إلى اتّخاذ طريق الحوار حول أفكار الطرفين وأيّتها تسفر لا عن أقوى أو أغنى اقتصاد فحسب ، بل تسفر كذلك عن أعدل المجتمعات ، والشيوعيون ينكرون وجود الله ، ولكنْ ليس هناك من منكر أنّ الشيوعية عقيدة ، وفي اعتقادنا أنّها عقيدة زائفة ، ولكنّ الردّ على العقيدة الزائفة لا يمكن أبداً أن يكمن في إنكار العقيدة ، وإنّما كانت أميركا ضعيفة ، وفقيرة ، منذ مائتي سنة مضت ، كانت عقيدتنا هي التي أبقت علينا ، ونحن ندخل القرن الثالث ، ونستقبل الألف سنة المقبلة ، أن نعيد اكتشاف عقيدتنا ، وأن نبثّ فيها الحيوية » إلى آخر كلامه .

ولكن يضاف إلى ذلك أنّ العقيدة المسيحية التي كانت عقيدة آباء الأميركيين والأوربيين لم تتمكّن من ردّ الشرور ، ولهذا أقاموا الحربين العالميتين في أقلّ من نصف قرن (١) ، بالإضافة إلى المليارات من المشاكل الفردية والجماعية التي تموج فيها أميركا وأوربا ، ولا علاج إلاّ بالرجوع إلى الإسلام . والإسلام هو ما تدعو

---

(١) الحرب العالمية الأولى التي ابتدأت سنة ١٩١٤م بين ألمانيا والنمسا والمجر من جانب ، وفرنسا وانجلترا وبلجيكيا واليابان وأمريكا من جانب آخر ، وانتهت في سنة ١٩١٨م. والحرب العالمية الثانية التي ابتدأت سنة ١٩٣٩ م بين دول ألمانيا وإيطاليا واليابان من جانب ، وفرنسا وإنجلترا وروسيا وأمريكا والصين من جانب آخر ، وانتهت سنة ١٩٤٥م، وقد قتل في الحرب العالمية الأولى تسعة عشر مليون إنسانٍ ، وفي الحرب العالمية الثانية ما يقارب خمسين مليون إنسانٍ.

إليه المسيحية الصحيحة التي تناسب الوقت الحاضر . ولذا ورد أنّ **(الأنبياء أخوة من أمّهات شتى)** [١] . وورد في القرآن الكريم : **﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** [٢] . إذ المسيحية بدّلت وغيّرت كثيراً من مفاهيم المسيح عليه السلام ، فهل قول المسيح المشهور : **(إذا ضُربت على خدّك الأيمن فمدّ له خدّك الأيسر ، وإذا سلبك العدو شيئاً أعطه شيئاً آخر)** [٣] ، هو المطبّق في الغرب المسيحي ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا الاستعمار والاستثمار ؟ ولماذا في أميركا وحدها في الحال الحاضر يوجد «٣٠ مليون» فقير كما صرّحوا هم بذلك ؟ ولماذا ؟ ولماذا ؟ وما أكثر هذه التساؤلات .

لا يقال : إنّ الرجوع إلى المسيحية الموجودة كاف .

لأنّه يقال : المسيحية حُرّفت ، والتحريف هو سبب المشاكل التي لا تعدّ ، إضافة إلى أنها تلبي بعض الحاجات ، وتغطي بعض الجوانب ، ولذا أصبح دين الإسلام كصيغة متكاملة وصحيحة خاتمةً للأديان .

---

(١) فقد ورد في بعض الكتب عن الرسول صلى الله عليه وآله : (الأنبياء أخوة لعلات دينهم واحد وأمهاتهم شتى) كنز العمال : ج١٤ ص ٣٣٦ ح٣٨٥٦٦ ، تفسير القرطبي : ج١٦ ص١٠٦ ، جامع البيان: ج٣ ص٣٩٦ ، وقريب منه في مسند الطيالسي : ج١ ص٣٥٥ وتفسير ابن كثير : ج٢ ص٦٧ وتحفة الأحوذي : ج١٠ ص١٤ ومصنف إبن أبي شيبة : ج٧ ص ٤٩٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٣٦ .

(٣) وقد ورد في الأمالي للصدوق : ص٥١٩ المجلس ٧٨ عن عيسى عليه السلام : (وإن لُطم خدك الأيمن فاعطِ الأيسر) ، وفي تحف العقول : ص٥٣٢ (ومن لطم خده منكم فليمكّن من خده الآخر) .

متطلّبات الباحث
في فلسفة التاريخ

مسألة : من ينظر إلى فلسفة التاريخ ، يحتاج إلى أمرين : النظر إلى المفردات ، والنظر إلى الظروف .

لأنّ كلّ واحد من المفردات ، والظروف هي التي سبّبت تلك النظرية ، فالإنسان ليس معصوماً ـ إلاّ من عصمهم الله سبحانه وهم قلّة ـ حتى يدرك الواقع ، فيكتب عنه ، فإذا لم يعرف المفردات ، لا يعرف الروح العامة ، وتلك المفردات ، لا تكون معلّقة في الفراغ ، وإنّما تكون مفردات بظروف خاصّة ، زماناً ، ومكاناً ، وشرائط ، وأجزاءً .

فعلى سبيل المثال : من يريد أن يدرس نظرية فلاسفة اليونان ، الذين قالوا بشيء ، فإن مجرد قراءة النص في لغة اليونان ، التي تكلم أولئك الفلاسفة بها ليس كافيا ، وإنما عليه أن يستوعب المشكلة التي تشكلت بسببها نظريات أولئك الفلاسفة ، حيث أرادوا حل تلك المشكلة . فعليه أن يدرس مفردا مفردا ، كنظرية أفلاطون ، ونظرية سقراط ، ونظرية ديوجنس ، وهكذا . . ثم يدرس النظريات البديلة التي يمكن أن تقدم حلا للإشكال نفسه ، ثم عليه أن يدرس عوامل اختيار أولئك الفلاسفة لتلك النظريات دون سائر البدائل ، وهذه الدراسة تحتاج إلى معرفة الزمان ، والمكان ، والمزايا ، والشرائط ، والخصوصيات ، التي منها نشأت نظريات أولئك الفلاسفة .

ومثال آخر : إذا رأينا عشرة من الفلاسفة قالوا بوحدة الإله ، وعشرة قالوا

بالاثنينيّة ، وعشرة قالوا بالأكثر من ذلك ـ كما نسب شرح التجريد إلى الرّازي أنّه قائل بآلهة خمسة أو على الأصحّ بقدماء خمسة ـ. وأراد الباحث أن يدرس نظرية أولئك الموحّدين على حدة ، فيدرس نظرية الأوّل ، والثاني ، والثالث ، والعاشر منهم مفردةً مفردةً ، فإنّ نظرية التوحيد أيضاً يمكن أن يكون فيها اختلاف ، كما نشاهد أن جماعة من المسلمين ، يقولون بالتوحيد ومع ذلك يقولون بالتجسيم ، وجماعة يقولون بالتوحيد ولا يقولون بالتجسيم ، وهكذا . وبعد ذلك يدرس النظريات البديلة للذين يقولون بالتعدّد أو ما أشبه ذلك ، ثمّ يدرس ظروف نظريات القائلين بالتوحيد زماناً ، ومكاناً ، وشرائط ، وخصوصيات . وبذلك يستخلص تلك النظرية التي كانت لأولئك ، وذلك الاستخلاص يعطي روح التاريخ ، وفلسفته .

وعلى كل حال : فإنّ فهم أفكار الآخرين وتجاربهم ، لا يقف عند مجرّد فهم المواقف ، والأفكار ، والسلوك ، بل اللازم أن يعيش هذا الذي يريد الوصول إلى فلسفة التاريخ معيشتهم ، ويجعل نفسه كأحدهم بشروطه الزمانية والمكانية ، حتى يصبح جزءاً من كيانهم ، وكأنّه عاش في ذلك الوقت . مثلاً : يفترض نفسه سقراطاً بزمانه ، ومكانه ، ومزاياه ، وخصوصياته ، والنظريات المقابلة لنظريته ، وذلك لكي يبعث الروح في رفات ذلك الماضي ، ويكون كأنّه هو .

ومن الخطأ أيضاً القول : إنّ التاريخ مجرّد دراسة لما وقع ، لأنّ الواقع الفعلي يحدّد فكراً لابدّ أن يتمثّله المؤرّخ . ومن ثمّ فكلّ التاريخ تاريخ فكر وعمل ، وحيث إنّ العمل إنما ينشأ من الفكر أيضاً ، يكون التاريخ تاريخ الفكر في نهاية الأمر .

ومن الواضح هناك فرق بين دراسة التاريخ للوصول إلى فلسفته ، وبين دراسة الأمور المرتبطة بالعلوم الطبيعية ، ذلك بأنّه لا خصوصيّة للزمان ، والمكان ، والمزايا بالنسبة إلى الأمور الطبيعية كالأشجار فضلاً عن الجمادات ، فإنّ

الجمادات والأشجار لا حرّية لها حتّى تتغيّر وتتبدّل بخصوصيّاتها . ولذا نجد أنّها جامدة لا تغيّر فيها ، وإن كان بعض العلماء قالوا بأنّ المستقبل البعيد جداً مثلاً مليون من السنوات يمكن أن تتغيّر الأشجار ، ويمكن أن تتغيّر الحيوانات في مناهجها ـ مثلاً ـ : النحل يبني بيوته مثمّناً عوض المسدّس ، وأنّ شجرة البرتقال تعطي برتقالاً بشكل الرمّان وهكذا ، بل قال ابن سينا [1] : إنّ الحيوانات قابلة للنطق لكنّها تحتاج إلى جهود كبيرة كعشر سنوات أو عشرين سنة من التدريب .

وقد تمكن البعض من تدريب بعض الحيوانات على بعض الأصوات المفهومة .

وقد ذكر بعض علماء الغرب أنّه من الممكن أن تصبح الذئاب كالكلاب ، مأنوسة بالناس فتأتي إلى البيوت ، ولهذا جماعة منهم أخذوا يربّون الذئاب ، ويعيشون معها لعلهم يصلون إلى هذه النتيجة .

---

(١) الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البلخي ، ولد في بخارى سنة ٣٧١هـ (٩٨١م) ، فيلسوف ، وطبيب وشاعر ، يعرف بالغرب باسم (آفيسين) ، تقلّد منصب وزير الدولة ، وكان كثير الاهتمام بالدرس والبحث والتأليف رغم مشاغله بالوزارة ، وكان له تضلع بالتحليل النفسي والعصبي ، فكان يرى أنّ للعوامل النفسية والعقلية كالحزن ، والخوف ، والقلق ، والفزع ، وما أشبه لها تأثيراً على أعضاء الجسم ووظائفه، ويعد أول من وصف التهاب السحايا ، والسكتة الدماغية عن كثرة الدم، وهو أول من أشار بوضع كيس الثلج في قطعة من القماش وتغطية الرأس به، وهو أول من فرّق بين الحصى الكلوية والحصى في المثانة . تزيد مؤلفاته عن المائة في حقل الطب ، والفلسفة ، والرياضيات ، والنفس ، والمنطق ، والإلهيات ، والفلك ، والطبيعيات ، وعلم طبقات الأرض ، وله نظريات مهمة في الفلسفة ، ولا زالت كتبه تدرَّس في الجامعات الغربية ، من أشهر كتبه الطبية : «القانون» ، والفلسفية «الشفاء» ، «النجاة» ، «الحكمة المشرقية» ، «الإشارات والتنبيهات» ، وله قصيدة في «النفس» . توفي سنة ٤٢٨هـ (١٠٣٧م) عن عمر يناهز ٥٧ سنة ودفن بهمدان .
ترجمه أعيان الشيعة : ج٦ ص٢٩٨ وموسوعة المورد : ج١ ص ٢٢٣ .

الدراسة التاريخية
تجربــة حدسيــة

مسألة : إنّ من ينشد فلسفة التاريخ ، يحتاج إلى جمع المفردات ، إذ الدراسة التاريخية تجربة حدسية مباشرة ، تجعل شخصيات الماضي جزءاً من التجربة الحاضرة للمؤرّخ الذي يدرسها ، فإنّه ينبغي أن يكون موضوع المؤرّخ موضوعاً اندماجياً ذاتياً ، فإنّا إذا انتقلنا من الفرد إلى المجتمع ، وجدنا الماضي ماثلاً في الحاضر على نطاق أكثر اتساعاً ، متّخذاً شكل تراث من أنظمة ، وعقائد ، وفكر ، ومعرفة ، وتكنولوجيا ، وبذلك الماضي الماثل يتميّز تراث الأمم ، ومن ثمّ تتشكّل شخصيّاتها الكلّية السارية في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، ولذا نستكشف المستقبل أيضاً ، ولكن الاستكشاف كما ذكرناه ليس قطعياً بل ظنّياً ، حيث إنّ الاستقراء لا يكون تاماً ، والذي يفيد هو الاستقراء التامّ ، وأمّا الاستقراء الناقص فلا يفيد إلاّ ظناً . وعلى مبنى الاستقراء الناقص ، بنى العالم الغربي كما هو المشاهد في اتّخاذهم نتائج من فحص مئات ، أو ألوف ، أو أقلّ من ذلك البشر في ناحية خاصّة ثمّ يحكمون على البشرية من تلك الناحية ، ولابدّ أن تكون للمؤرّخ حاسّة تاريخية ؛ كي يدرك ذلك ، ومن ثمّ يتجنّب النظر إلى الماضي باعتباره صورة مكرّرة ، أو مماثلة للحاضر ، وتتّضح خلفية هذه الحاسّة أخلاقها حين يعالج مثلاً مسميات من الدولة الرومانية ، مثل الشريف ، والنبيل والرقيق ، والعبد ، والسيد ، وما أشبه ذلك ، فإنّه لا يصحّ أن تفهم هذه المسمّيّات كما نفهمها الآن ، وذلك ما ذكروه في الأصول حيث قالوا : يلزم علينا

أن نعرف مفاهيم الألفاظ في زمان المعصومين عليهم السلام ، وكثيراً ما يكون مفهوم لفظ في زمان غير مفهوم لفظ في زمان آخر.

كما أنّ الأمم أيضاً تختلف في المفاهيم ـ مثلاً ـ لفظ النجس بالنسبة إلى الهندوسي عبارة عن أنّه إذا نظر إليه تنجس بصره ، أو مسّه بلا رطوبة ، تنجست يده ، بينما مفهوم النجس عند المسلمين غير ذلك ، وهذا هو الذي يسبّب التشويش التاريخي ، ويقع فيه كثير من الناس .

وقد قال الحاج السبزواري :

فلازم للفيلسوف المنطقي   أن ينظر اللفظ بوجهٍ مطلق[1]

لكن ما ذكره خاصّ بالمنطق ، وإلاّ فالشأن كذلك بالنسبة إلى الفيلسوف التاريخي ، أو الفيلسوف الرياضي ، أو الفيلسوف الفيزيائي ، وإن كان الإطلاق سيكون نسبياً حينئذٍ ، وليس ينظر إلى اللفظ فقط ، وإنّما تكون النسبة للمنحى الذي يقصده من التاريخ ، أو الرياضيات ، أو الفيزياء ، أو غير ذلك .

---

(١) شرح منظومة السبزواري ، قسم المنطق ، مباحث الألفاظ : ص٢١ للمؤلف قدس سره .

التجرّد من الأهواء في دراسة التاريخ

مسألة : يجب على من يريد تحليل التاريخ وتناول فلسفته ، التجرّد عن العواطف ، والأهواء ، والميول ، والاتّجاهات السابقة ، وإلاّ فالإنسان بطبعه يميل إلى الأهواء ، والتبرير ، وبذلك لا يتمكّن من تناول فلسفة التاريخ تناولاً واقعياً ، وإنّما يفسّر التاريخ حسب نظره وبعيداً عن المنطق .

فالموضوعية مطلوبة في كلّ شيء ، وخصوصاً في التاريخ ، ولذا نشاهد أنّ الشيوعيين ، يفسّرون التاريخ استناداً للعامل الاقتصادي ، وفرويد [1] ، يفسّر التاريخ حسب نظره إلى قضايا الجنس [2] ، والبروتستانت ، يفسّرون التاريخ

---

(١) زيغموند فرويد ، طبيب وعالم نفساني ، يهودي الأصل ، ولد في النمسا سنة ١٨٥٦م ، ومات في لندن سنة ١٩٣٩م ، له نظرية في التحليل النفسي ، عرضها في كتابه «عالم الأحلام» ، له عدة مؤلفات ، منها : المدخل إلى التحليل النفسي ، ثلاث محاولات في نظرية الجنس ، محاولات في التحليل النفسي ، مقدمة عامة للتحليل النفساني ، ولا يخفى أن فرويد يُرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والأسرية الى الغريزة الجنسية ؛ كي يبطل قداستها ويُخجل الإنسان منها ويسلبه إيمانه بسموها ما دامت راجعة إلى أدنى ما يرى في نفسه .

(٢) في القرن الماضي ، برزت عدة نظريات ، تقوم على تفسير الأحداث ، والوقائع ، من بعد واحد ، ويعبر عنها بنظريات العامل الواحد ، نذكر بعضها على نحو الإجمال :

١- النظرة المادية أو الاقتصادية : والتي دعا إليها ماركس ، وتنص على أن التاريخ ، يعيش في صراع ، وتبدل في قيمه ، وموازينه حسب تبدل وسائل الإنتاج وتطورها .

وقد ناقش الإمام المؤلف ﷺ هذه النظرية في كتابه «الفقه الاقتصاد» ، وكتاب «نقد المادية الديالكتيكية».

حسب نظر مارتين لوثر[(١)] الإصلاحي ، والكاثوليك ، يفسّرون التاريخ على عكس ذلك ، وهكذا نشاهد بين المسلمين من يفسّر التاريخ حسب وجهة نظر ابن خلدون[(٢)] ؛ لأنّهم يأخذون بمذهبه في التاريخ ، بينما هناك من يرفض آراء ابن

٢- النظرة المثالية : والتي دعا إليها هيجل ، وتنص على أن التاريخ ، يشرف على الأحداث من وجهة نظر كلية ، غير خاضعة للزمن ، وهي وجهة نظر عقلية ، لأن العقل في نظره جوهر التاريخ ، والعقل كما يراه هيجل هو الذي يحكم العالم.

وقد ناقش بعض المفكرين هذه النظرية ، وأوردوا عليها بعض الإيرادات.

٣- النظرة القومية والعرقية : وتنص على أن الأحداث التاريخية ، وبواعثها ، تنشأ من اللغة والتجمع الواحد ، فمثلاً ينظرون إلى التاريخ الإسلامي على أنه حلقة من حلقات تأريخ العرب ؛ ولذا يفسرون أحداثه على أساس صراع قومي.

وقد ناقش الإمام المؤلف تَتِّئِ هذه النظرية في كتابه «القوميات في خمسين سنة».

٤- النظرة الغريزية الجنسية : والتي دعا إليها فرويد ، وتنص على أن الدوافع الجنسية هي المفسرة للتاريخ.

وقد ناقش الإمام المؤلف تَتِّئِ هذه النظرية في كتابه «نقد نظريات فرويد».

٥- النظرة الحضارية : والتي دعا إليها أرنولد توينبي ، وتنص هذه النظرية على أن نشوء الحضارات ، يعتمد على التحدي ، والاستجابة ، ويفسر الأحداث التاريخية على أساس الجانب المادي ، والروحي.

وإن هذه النظرية لا تخلو من مناقشة ، حيث تفقد لبعض مقومات الحدث التاريخي ، إضافة إلى الفهم المشوش لعناصر الحدث.

(١) زعيم الإصلاح الديني ومؤسس مذهب البروتستانت ، ولد سنة ١٤٨٣م ، ومات ١٥٤٦م ، انتقد أفعال الكنيسة كسلطة البابا . وكان في عهد البابا لاون العاشر . ، والغفران ، وإكرام القديسين ، والنذور الرهبانية ، والمطهر ، والقداس .

(٢) عبد الرحمن بن محمد الكندي ، الملقب بولي الدين ، والمشهور بابن خلدون ، فيلسوف ومؤرخ ، له باع في علم الاجتماع ، ولد في تونس سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م) ، وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م) ، شغل مناصب رفيعة في دولة بني مرين ، فشغل منصب القضاء على المذهب المالكي في عهد السلطان أبي سالم ، نزح إلى الأندلس وأخذ يمتهن الخطابة والتدريس ، وكان من المقرّبين لثالث ملوك بني الأحمر ، أبي عبد الله ؛ والذي كلفه بالانكباب على كتابة التاريخ ، كما استأثر بعدّة وظائف حكومية وقضائية في الأندلس خلال خمس وعشرين سنة ، له عدة مؤلفات ، منها : «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام

خلدون ، ويفسّرون التاريخ خلاف ذلك ، فتعارض التفسيرات التاريخية هو نتيجة اختلاف وجهات النظر بين المؤرّخين ، لكن الواقع لا يحمل إلاّ شكلاً واحداً ، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً ، وهذا صحيحاً ، والصحيح إمّا في شيء ثالث ، أو في أحدهما فقط ، أو يكون بينهما عموم من وجه ، فالبعض من هذا ، والبعض من ذاك ، أو البعض من هذا ، والبعض من الأمر الثالث .

وليس الخلاف بين المؤرّخين ومن يذكرون التاريخ التحليلي هو نتيجة اختلاف العقائد ، والأفكار ، والمذاهب ، والآراء ، والاتّجاهات فقط سواء كان الأمر مرتبطاً بالاقتصاد ، أو السياسة ، أو الاجتماع ، أو التربية ، أو الفكر ، أو ما أشبه ذلك . وقد ورد أنّ الإمام الصادق عليه السلام ، كتب إلى ثلاثة من تلاميذه كلمة «جيم» ، ففهم أحدهم من الجيم جلاء الوطن والأمر بترك الوطن . وفهم الثاني الذهاب إلى الجبال . وفهم الثالث الجنون ، حتّى لا يُعتقلوا أيّام الخلفاء الجائرين .

والحاصل : أن التجرّد عن الميول ، والأهواء ، والاتّجاهات المسبقة ، من الشروط الأساسية لذكر فلسفة التاريخ . وقد روي أنّ امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ ليقوم الرسول بنهي ابنها عن أكل التمر ، فأرجأه الرسول إلى وقت آخر . ثمّ جاءت المرأة إلى الرسول صلى الله عليه وآله مع ولدها ، فنهاه الرسول عن أكل التمر ؛ لأن التمر كان مضراً له ، ولمّا سألت المرأة عن سبب الإرجاء ؛ علل الرسول صلى الله عليه وآله أنّه في ذلك اليوم الذي جئتي إليَّ كنت قد أكلت التمر ، ومن فعل شيئاً لا يؤثّر كلامه في الآخرين ، إذا أراد نصيحتهم في ذلك الشيء ، فبناءً على صحة هذه الواقعة ، فإنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ، أراد تعليم الناس ، وتذكيرهم بأنّ لا فائدة من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إذا لم يلتزم الشخص عملياً بالأمر

العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» ، والذي اشتهر بـ«مقدمة ابن خلدون» ، وله كتاب في الحساب ، ورسالة في المنطق .

والنهي ، يقول الشاعر :

لا تنهَ عـن خلـقٍ وتـأتي مثلـه عـارٌ عليـك إذا فعلـت عظيـمُ (١)

ونقل أنّ الشيخ مرتضى الأنصاري ﷺ (٢) ، سئل عن مسألة ، فأرجأ الجواب . فسألوا عن سبب إرجائه مع أنّه يعلم جواب المسألة ، فقال : لأنّي أميل إلى هذا الجانب ، وما قصدت أن أذكر جواباً يمكن أن يصدر عن ميل ، وإنّما أردت مراجعة المسألة مرّة ثانية ، للتدقيق فيها ، حتّى أقول الجواب المجرّد عن الميول ، وإن كانت الميول ميولاً فقهية (٣) .

فاللازم على من يريد تحليل التاريخ ، أن يتجرّد عن ميوله ، وينظر إلى الواقع بما هو واقع . وهذا وإن كان صعباً بالنسبة إلى غير المعصوم ، لكنّه صعب يجب سلوكه ، كما قال الشاعر :

لابـدّ مـن صنعـا وإن طـال السـفر

وقول بعض علماء الغرب : « إنّ تعارض التفسيرات التاريخية نتيجة اختلاف وجهات نظر المؤرّخين ، لا يلغي بعضها بعضاً ، وإنّما يكمّل بعضها البعض ، وذاك أمرٌ ضروري طالما لا يمكن تحقيق الإجماع على قبول وجهة نظر معيّنة ،

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٧ ص١٦٨ ، تأويل الآيات : ص١٢٤ .

(٢) ولد في مدينة دزفول ١٢١٤ هـ ، وتوفي في النجف الأشرف سنة١٢٨١ هـ ، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري ، تتلمذ عند السيد المجاهد ، وشريف العلماء ، والنراقي ، والشيخ موسى كاشف الغطاء ، والشيخ علي جعفر كاشف الغطاء ، والشيخ الجواهري ، آلت إليه المرجعية سنة ١٢٦٦هـ بعد وفاة صاحب الجواهر ، من مؤلفاته : الرسائل ، المكاسب ، الاجتهاد والتقليد ، التسامح في أدلة السنن .
ترجمه الكنى والألقاب : ج٢ ص ٣٥٩ ، مصفى المقال : ص٤٥٥ و ٤٥٦ ، إيضاح المكنون : ج٢ ص١٨١، الفوائد الرضوية : ص٦٦٤ و ٦٦٥ .

(٣) ونظير هذا حدث للعلامة الحلي ﷺ ، عندما أراد أن يبحث في طهارة ماء البئر الذي تنجس بالقليل ، فردم البئر الموجود في منزله ، ثم بحث في أدلة المسألة.

وطالما أنّ التاريخ تاريخ فكر لا وقائع » ؛ لا يخلو من التأمل .

إذ من الواضح أنّ هذا غير صحيح ، فهل يمكن أن يكمّل المتناقضان أحدهما الآخر ، أو المتضادان ، أو فيما كانت النظريتان على طرفي ارتفاع النقيضين .

وعلى هذا ، يلزم على الباحث أن يعرف وجهة نظر المؤلّف ، وفكره ، ومبادئه ، وعقائده ، واتّجاهاته ، ومناحي نظرياته قبل فهم المادّة التاريخية التي يحرّرها ، وكلّما كان الإنسان أقرب إلى البحث ، والفحص ، والتفتيش ، والمناقشة ، والمباحثة ، وما أشبه ذلك ، يكون أقرب إلى الموضوعية ، والواقعية ، وفلسفة التاريخ ، وهذا الأمر هو الذي يقرّب الإنسان إلى الواقع في العلوم التي ليست كالهندسة ، والرياضيات ، وما أشبه ذلك من الأمور القطعية أمثال بعض مباحث علم الفلك .

اختلاف المقتضي

ولمّا كانت المقتضيات تختلف عند المؤرّخين المختلفين ، الذين كتبوا الكتب التاريخية ، فاللازم أن يحتاط الإنسان في النظر إلى آرائهم سواء كانوا يسردون التاريخ سرداً ، أو يحلّلون تحليلاً . فإنّ السرد أيضاً يأتي فيه ذلك . إذ السارد ، يحذف بعض التاريخ ، ويزيد في البعض الآخر ، ـ مثلاً ـ نشاهد أنّ الذين رووا أنّ رسول الله ﷺ اتّكأ على الفضل وعلي عليه السلام ، عند مجيئه إلى المسجد في المرّة الأخيرة ، يذكر بعضهم الفضل لا عليّاً ، ويقولون رجلٌ آخر ، ويذكر بعضهم اسم علي لا الفضل ؛ لأنّه من العبّاسيين ، وهم لا يحبّون العباسيين ، ويذكر بعضهم ـ الحياديون ـ كليهما ، ويذكر الرابع الشخصين مجهولاً ، فيقول : اتكأ على نفرين من أصحابه . ولذا اشترط في راوي الحديث أن يكون ثقة ؛ كما قال عليه السلام : **(لا عذر لأحد من موالينا في التشكيك فيما يرويه عنّا ثقاتنا)** [1] . بل

(١) وسائل الشيعة : ج١ ص٣٨ ب٢ ح٦١ وج٢٧ ص ١٥٠ ب١١ ح٣٣٤٥٥ ، رجال الكشي :

قال قبل ذلك القرآن الحكيم : ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١) ، على ما يفصّله الأصوليون في بحث الخبر الواحد (٢) .

والانحراف في تفسير التاريخ ، أو نقض التاريخ ، قد يكون بسبب العاطفة الذاتية ، إزاء من يؤرّخ لهم من الشخصيات ، أو المطالب والقضايا ، وأحياناً بسبب انتماء المؤرّخ إلى حزب معيّن ، أو طبقة معيّنة ، أو اتّجاه خاص . ولذا فاللازم على من يريد تحليل التاريخ أن يتجرّد عن الأمرين ، حتّى يأتي تاريخه موافقاً للواقع ، أو أقرب إلى الواقع ، وكذلك بالنسبة إلى تحليل التاريخ .

أمّا إذا كانت عقلية المؤرّخ وانتماؤه إلى طبقة معيّنة ، فذلك يعني أن هناك خلفيّة تشكّل الطبقة التاريخية لذهن المؤرخ وعقله ، ومن الطبيعي حينئذ أن يتميّز ، ويتخيّر الوقائع والأفراد التي تؤيّد وجهة نظره ، ويتجاهل ، أو على الأقلّ يبخس من قيمة الوقائع ، والأشخاص الذين لا يؤيدون وجهة نظره .

وقد قرأت في كتاب كتبه أحد الأشخاص ، الذين كانوا لا يؤيّدون المشروطة اسم الآخوند الخراساني (٣) بلفظة «كاظم الهروي عليه ما عليه » ، بينما المشروطة

ج٢ص٨١٦ .

(١) سورة الحجرات : الآية ٦ .

(٢) للمزيد راجع كتاب رسائل الشيخ الأنصاري بحث الظن أية النبأ وكتاب كفاية الأصول للآخوند وكتاب الأصول الجزء السادس بحث الأدلة العقلية ص٢٠ للإمام المؤلف ﵀ .

(٣) الشيخ محمد كاظم بن حسين الهروي الخراساني ، زعيم الحركة الدستورية في إيران ، ولد في مشهد الرضا سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) وتوفي في النجف الأشرف سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) ، هاجر إلى العراق سنة ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) ، تتلمذ عند الشيخ الأنصاري والسيد محمد حسن الشيرازي ، آلت إليه المرجعية بعد وفاة السيد الشيرازي سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٥م) ، له مواقف سياسية عديدة ، فقد تزعم الحركة الدستورية والحكم النيابي في البلاد التي كان يسودها الحكم الديكتاتوري ، حيث شكل سنة ١٩٠٨م مجلساً من العلماء يضم ٣٢ مجتهداً ثم أصدر فتوى بوجوب إسقاط الشاه - محمد علي - وحرمة دفع

والمستبدّة اتجاهان سياسيان ، تزعّم أحدهما الآخوند الخراساني ، والآخر السيّد اليزدي [(١)] «قدس الله سرّهما» ، ونشأ هذا الاختلاف في الاتجاه السياسي نتيجة الاختلاف في الاجتهاد [(٢)] .

وقد ورد في الحديث : **(إن للمصيب أجرين وللمخطئ أجراً واحداً)** [(٣)] ، وبغض النظر عن كونه حديثاً يطابق الواقع ، فإنّ المصيب حيث سلك الطريق فله أجر ، وحيث أصاب الواقع له أجرٌ ثان ، بينما المخطئ حيث سلك الطريق له أجر ، وحيث لم يُصب الواقع لم يكن له أجر ثان . وهذا ما نشاهده في الأحزاب أيضاً ، كما رأينا ذلك في العراق قبل أربعين سنة ، حيث كانت الأحزاب الحرّة ، مثلاً حزب الأمّة وحزب الدستور [(٤)] ، كان لهما

الضرائب للدولة ، وأدت جهوده إلى إسقاط الشاه محمد علي القاجاري وإعلان الدستور والحياة النيابية ، ومن مواقفه تَتَنُّ أيضاً مساندته للشعب الليبي في صراعه مع الاحتلال الإيطالي ؛ فأصدر فتوى بالجهاد المقدس ، كما وجه دعوة الجهاد ضد الروس الذين أرادوا احتلال إيران ، وتحرك ومعه جمع من العلماء إلى إيران لمقاومة الغزو الروسي وبينما هو يستعد لذلك اغتاله الروس بالسم ، من أهم مؤلفاته : «كفاية الأصول» والذي عليه مدار التدريس في الحوزات العلمية والذي عليه قرابة مائتي شرح وتعليقة .

(١) السيد محمد كاظم بن عبد العظيم الطباطبائي اليزدي ، ولد سنة ١٢٤٧هـ (١٨٣١م) ، توفي في النجف الأشرف سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) ، تتلمذ عند الشيخ مهدي نجل الشيخ كاشف الغطاء والشيخ راضي النجفي والسيد محمد حسن الشيرازي ، رفع لواء المستبدّة ومعه بعض العلماء المساندين له كالشيخ فضل الله النوري ، من مؤلفاته : «العروة الوثقى».

(٢) وقد سعى الإنجليز والروس إلى تعميق هذا الاختلاف بين الاتجاهين للقضاء على حركة الشعب الإيراني .

(٣) حاشية سلطان العلماء على المعالم : ص٨٠ .

(٤) إن حزب الأمة الاشتراكي ، أُجيز تأسيسه في ٢٤ حزيران ١٩٥١م برئاسة صالح جبر ، وكان للحزب جريدتان إحداهما باسم «الأمة» ، والثانية «النبأ» . وإن النظام الداخلي للحزب ، يتكون من خمسة فصول ، ذكرها بالتفصيل عبد الرزاق الحسني في كتابه «تأريخ

اتجاهان ، وكلّ واحد منهما يفسّر الأمور حسب نظر حزبه . كما أنّه يؤيّد ، أو يبعّد الأفراد حسب أفراد حزبه ، وعدم كونه من أفراد حزبه .

الصدق والكذب في التوريخ

ثمّ لا يخفى : إنّ الصدق صدق ، والكذب كذب ، سواء عرفهما الناس أو لم يعرفهما ، وسواء كان الذي لا يعرف على نحو الجهل المركّب ، أو على نحو الجهل البسيط ، وللشيء الواحد يقال صدقٌ ؛ لأنّه يطابق الواقع ، ويقال له حقّ ؛ لأنّ الحقّ مطابق له على ما ذكره بعض العلماء .

ومن الواضح : إنّنا قد لا نتمكّن أن نحكم على الدعوة التاريخية ، أو غير التاريخية مثلاً الاقتصادية ، أو السياسية ، أو الاجتماعية ، أو العقائدية ، أو ما أشبه ذلك بأنّها صادقة ، أو أنّها كاذبة ، لكن من الواضح أنّ الإنسان قد يكون جاهلاً مركباً ، فيرى الصدق كذباً ، أو الكذب صدقاً ، وهذا لا يضرّ بالواقع أعني كون الكذب كذباً ، والصدق صدقاً ، وعمل المؤرّخ إنّما هو تسجيل الواقع بدقّة وأمانة كبيرين ، فاللازم أن يلاحظ هل هذه الوثيقة صادقة ، أم كاذبة ؟. وهل نسبتها إلى راويها أو كاتبها مطابق للواقع أو غير مطابق للواقع ؟ فما وقع ، يكون صادقاً ، إذا رويناه كما وقع ، وما لم يقع ، يكون كاذباً ، إذا رويناه باعتبار أنّه واقع . فالواقع واقع وإن لم يؤرّخ له مؤرّخ ، أو لم يكتب له كاتب ، أو لم يرو له راوٍ .

نعم ، لاشكّ أنّنا لم نؤت من العلم إلاّ قليلاً ، والوثائق التاريخية قليلةٌ حتّى أقل من واحد ، بالنسبة إلى مليار مليار جزء سواء كان من الحوادث القديمة ، أو

الأحزاب السياسية العراقية» ص٢٤٣- ص٢٥٢.

أما حزب الاتحاد الدستوري فأجيز تأسيسه في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٤٩م برئاسة نوري السعيد . ومنهاج الحزب يتكون من أربعة فصول، ذكرها عبد الرزاق الحسني في كتابه «تاريخ الأحزاب السياسية العراقية» : ص٢٣٢-٢٣٨.

الحوادث المتأخرة . هذا بالإضافة إلى أنّ كثيراً من الوقائع التاريخية المعاصرة تكتمها الحكومات خوفاً من إفشائها ، وحتّى لا يطّلع عليها الناس إطلاقاً ، إمّا لهدف سياسي ، أو لهدف اقتصادي ، أو لهدف اجتماعي . فهنا أمران بالنسبة إلى المؤرّخ : هل وقع الشيء الفلاني أم لم يقع ؟ ، والمشكلة الثانية هي في الأمر الثاني ، وهو في التعرّف على ما لم يقع .

مثالية الفكر والواقع

أمّا ما يتصوّر أنّ الواقع لا مثالية له ، وإنّما الفكر له مثالية ، فهذا غير صحيح ، وقد شبهوا لذلك بالإنسان الذي لا يدرك أنّ وراءه أفعى ، فإنّ عدم إدراكه ، سبب لعدم تحرّكه ، وعدم فراره ، بينما الإنسان الذي يدرك أنّ وراءه أفعى ، يفرّ وإن لم تكن الأفعى واقعاً موجودة . فقول بعضهم حيث قال : أنا أقول على المنضدة التي أكتب عليها إنّها توجد ، أي إني أراها وأحسّها ، وعندما يقال إنّ هناك رائحة ، فالمقصود أنّها تشمّ ، وأن هناك صوتاً ، فالمقصود أنّه يسمع ؛ غير صحيح .

الإدراك وعلاقته بالواقع

وقد أشكل الحسّيون على انفصال الواقع عن الإدراك بقولهم : إنّ وجود الأشياء غير المفكّر فيها وجودٌ مطلقٌ دون أيّة صلّة بكونها مدركة ، فذلك ما يتصور على الإطلاق ، فوجود الأشياء هو كونها مدركة بإحدى الحواس الخمس من بصر ، وسمع ، وشمّ ، وذوق ، ولمس .

أقول : وهذا الكلام خلط واضح بين الإدراك وبين الواقع ، فالواقع واقع أُدْرِكَ أو لَمْ يُدْرَكْ . والمُدْرَكُ مُدْرَكٌ قد يكون واقعاً وقد لا يكون واقعاً ، وإنَ استدلّ بهذا بعض الإسلاميين من خلال الآية الكريمة : ﴿**وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ**

المنافقين لكاذبون ﴾[١] ، مع أنهم كانوا يقولون : إنك لرسول الله ، ورسول الله ﷺ واقع ، ولكن حيث لم يدركوه ، قيل : إنهم كاذبون .

لكن أجيب عن ذلك[٢] بأن المراد بكذبهم أنهم لا يقولون ذلك عن عمق وعقيدة والتزام ، لا أنهم كاذبون بالمعنى المصطلح للكذب ، حيث لم يكن رسول الله ﷺ في نظرهم رسولا ، ولذا تداركه الله تعالى بقوله : ﴿**والله يعلم إنك لرسوله** ﴾[٣] .

والحاصل أن هناك ثلاثة أشياء :

١. الواقع الذي يسمى بالحق .

٢. الإدراك

٣. الوثيقة التاريخية .

فقد تكون الوثيقة التاريخية التي ندركها واسطة للوصول إلى الواقع ، وقد لا تكون واسطة ، فالوثيقة قد تكون طريقا ، وقد لا تكون طريقا ، حالها حال المقدمة التي قد تكون موصلة ، وقد لا تكون موصلة ، فالتاريخ كما هو سواء كان حادثا أو غير حادث ، كقولنا : إن الله لا شريك له ، فإن ذلك ليس بحاجة بل هو حقيقة إذا عرفناها ، فقد وجدنا السبيل إلى معرفته ، فإن السلب يعرف كما أن الإيجاب يعرف ، فأما الذي لا يقول ذلك فإنه يتكلم حول المعرفة واللامعرفة ، والذهن واللاذهن .

نعم ، يترتب على المعرفة واللامعرفة ، الثواب والعقاب ، ولذا قال رسول الله ﷺ : **(رفع ما لا يعلمون)**[٤] ، فليس المراد بالرفع مطلقا ، بل الرفع في الجملة

---

(١) سورة المنافقون : الآية ١ .

(٢) عن استدلال بعض الإسلاميين بالآية .

(٣) سورة المنافقون : الآية ١ .

(٤) ونص الحديث : (رفع عن أمتي تسع : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وما لايعلمون

الذي منها رفع العقاب قطعاً ، إذا لم يكن مقصِّراً بالمقدّمات ، سواء كان عقاباً دنيوياً أو أخروياً .

نعم ، يمكن أن يكون هناك أثر القضاء ، والكفّارة ، وما أشبه ذلك ، كمن لا يعلم بخروج الوقت عن قريب ، فلا يصلّي لا أنّه يريد العصيان ، وإنّما يريد الصلاة بعد ساعة ، بينما هو جاهل بأنه بعد ساعة يخرج الوقت ، أو بعض أقسام كفّارات الحجّ أو ما أشبه ذلك .

وما لا يطيقون وما اضطروا إليه والحسد والطيرة والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة). انظر تحف العقول : ص٥٠ ، الخصال : ص٤١٧ح٢٧ ، التوحيد : ص٣٥٣ ح٢٤ (بالمعنى) .

فلسفة التاريخ
وفلسفة الواقع

مسألة : إنّ معرفة الواقع الكلي ، أو العام ، هو المؤثر في فهم فلسفة التاريخ ، سواء علم الإنسان هذا الواقع ، أو لم يعلمه ، فإنّ ما نسميه بتحليل التاريخ ، أو ما أشبه ذلك من الألفاظ إنّما نريد به الواقع الذي هو عام ، وكلّي في المفردات التاريخية لا ما يزعم أنّه عام . حال ذلك ، حال مفردات الدواء ، حيث إنّه إنّما يكون دواءً ، إذا كانت للمفردات روح عامة في كونه غلاجاً ، أمّا ما زُعم أنّه علاج ، وليس بعلاج ، فلا يصحّ أنْ يسمّى فلسفة التاريخ ، وإنْ زعم الطبيب ـ مثلاً ـ أنّه هو دواء .

ومن الواضح : أنّ الآثار إنّما تترتّب على الواقع لا على الخيال ، والذهن ، والفكر ، والتصوّر . فإنّ البيضة التي لا تكون بيضة واقعية ، وإنّما في صورة البيضة ، لا تفرخ ، وكذلك الحبّة التي هي في صورة الحبّة ، ولا تكون حبّة واقعيّة ، لا تنبت ، وبالعكس إذا زعمنا أنّ هذه البيضة ليست واقعية ، وكانت واقعية ، فإنها تفرخ ، والحنطة إذا زعمنا أنّها ليست بحنطة ، وإنّما صورة حنطة بينما هي حنطة واقعية ، فإنّها تنبت .

وعلى هذا ، فإنّ الواقع هو المؤثّر سواء علمه الإنسان أو لم يعلمه ، وغير الواقع لا يؤثّر ، علمه الإنسان أو لم يعلمه [١] .

---

(١) نعم ، بعض الآثار إنّما هي آثار ذهنية لا آثار واقعيّة وهي تترتّب على الذهن.

وهناك مسألة أخرى هي مسألة التجرّي ، المذكورة في الفقه ، والأصول ، حيث يتصور الإنسان ما لا واقعية له ، فيفعله ، أو يتركه ، فيكون متجرّياً . مثل ما إذا عَلمَ ذهناً علماً غير مطابق للواقع بأنّ هذا المائع خمر ، وشربه ، ولم يكن في الواقع خمراً ، فإنّ هذا الإنسان هو المتجرّي سواء كان بالنسبة إلى ما فعله أو ما تركه ، وهذا ينطبق على فلسفة التاريخ ، فيمكن أن تكون هناك وثيقة لا يدركها الإنسان ، ومع ذلك يدرك الواقع بالحاسّة السادسة ، أو ما أشبه ذلك .

وعليه : فقد لا تكون وثيقة ، لكن الواقع يدرك بسبب الحاسّة السادسة .

فهناك ثلاثة أشياء : الواقع ، والإدراك ، والوثيقة ـ كما أسلفنا سابقاً ـ وكلّ واحد منها قد لا يرتبط بالآخر ، فقد يكون واقع مع إدراك ، أو بدون إدراك ، وقد يكون لا واقع بإدراك خطأ ، أو لا . وقد يكون لا واقع بوثيقة خطأ ، وبدونها ، وقد يكون واقع بوثيقة ، أو بدونها .

وعلى كلّ حال : فعلى المؤرّخ أن ينفذ ببصيرته ، وإدراكه ، واستقرائه ، من خلال القشرة التي تغطي سطح الأحداث ؛ ليكتشف ببصيرته الفكر الكامن وراءها ، ولذا قال أحدهم : إن نظرة قدسية تكشف عن الحيوية المتدفّقة بما تنطوي عليه من ثراء في الأحاسيس ، والمشاعر ، وتنوّع في الكيفيّات ، وأزمات وحلول ، وحرب وسلم ، من حبٍّ وكره لمنهجٍ صحيح ـ في أيّ بعد من أبعاد الحياة ـ أو غير صحيح . كلّ ذلك بالنسبة إلى الحياة بكلّ فعلها ، وانفعالها ، وصخبها ، وهدوئها . ولا يمكن الوصول إلى شيء من ذلك إلاّ بالاستقراء التامّ ، أو بالانكشاف الحدسي القطعي ، كمن يشاهد النار في العراق ، وفي إيران ، وفي مصر ، وفي سوريا ، وما أشبه ذلك ، ثمّ يحكم أنّ النار في روسيا ، والصين ، وفيتنام أيضاً محرقة ، وتبعث على الإضاءة ، وتعطي الحرارة ، بينما لم يشاهد إلاّ قليلاً من النيران الموجودة في المكان المعيّن ، أو أمكنة معيّنة ، أو في الزمان المعيّن ، أو الأزمنة المعيّنة .

لكنّ الحدس يعطي ما وراء ذلك ، الذي هو الروح العامة في النيران مطلقاً ، وهذا الحدس هو المعيار للمنطقيين في كلماتهم بالنسبة إلى الصناعات الخمس لا الحدس الذي لا حجّية فيه ولا اكتشاف للروح العامة .

أمّا الاستقراء الناقص ؛ الذي ليس من مواضع الحدسيّات العلمية التي ذكرناها ، فلا يفيد علماً ، وعملاً ، وإن ظنّ الإنسان بالجامع والفلسفة ، لأنّ ﴿**الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً**﴾ [1] ، فلا ينكشف الواقع ، والكلّي ، والفلسفة ، في الأمور المشتتّة المتباعدة مكاناً ، أو ما أشبه ذلك .

نعم ، هناك من يبني الأمور على الاستقراء الناقص ، وذلك من التواضع لا من الحقيقة ، فهناك فرق بين أن يتبنى جماعةٌ أحكاماً على ما يستقرئونه استقراءً ناقصاً ، وبين أن يراد الواقع الجامع الذي لا ينكشف إلاّ بالاستقراء التامّ ، أو بسبب الحدس العلمي القطعي الذي ذكرناه .

وليس معنى ما ذكرناه أنّ الاستقراء الناقص قد لا يصادف الواقع ، وإنما المعنى أنّه لا يمكن الاعتماد على الاستقراء الناقص في العليّة والمعلوليّة ، واتّخاذ الآثار المترتّبة على الواقع العام ، ـ مثلاً ـ إذا وجد إنسان خمرَ التمر مُسكراً ، وكذلك خمر الزبيب ، والعنب ، والتفّاح ، وما أشبه ذلك ، فحكم أنّ كلّ خمر مسكر بدون موازين الحدس التي ذكرناها ، فإنّ الاستقراء وإن كان ناقصاً إلاّ أنّه أصاب الواقع ، ويكون أثر الواقع مترتّباً على كلّ خمر ، لكنّ الكلام هنا في أنه كيف نتمكّن أن نستدلّ على العلّية الواقعية ، والمعلولية الواقعية ، بالاستقراء الناقص ، إذا لم يكن هناك حدس قطعي ، ولم تكن هناك مطابقة للواقع ، وإن لم يصل الفيلسوف ، أو المؤرّخ ، أو العالم إلى ذلك الواقع ؛ بسبب أحد الأمرين السابقين من الاستقراء التامّ ، أو الحدس القطعي ؛ بالكاشف للجامع .

---

(١) سورة النجم : الآية ٢٨، سورة يونس : الآية ٣٦.

ثمّ بالإضافة إلى سلامة المادّة ممّا ذكروه في الصناعات الخمس ، وجوب سلامة الهيئة ممّا ذكروه في الأشكال الأربعة المنطقية ، وكلّ واحد منهما لا يغني عن الآخر على نحو القاعدة الكلّية ، وإن كان أحياناً يصادف الواقع بشكل غير منطقي ، أو بمادّة غير منطقيّة ، فإنّ اللازم في العلوم ، القواعد الكلّية لا الجزئيات الخارجية . فإنّ الجزئي على اصطلاح المنطقيين لا يكون كاسباً ولا مكتسباً ، ولا يفيد علماً ولا عملاً ، إلاّ في نطاق جزئي خارجي ، من قبيل القضايا الخارجية التي ذكروها .

والكلام في العلوم إنّما يدور حول القضايا الحقيقية ، بحيث كلّما وجد الموضوع ، وجد الحكم ، أو كلّما رأينا وجدان الحكم ، اكتشفنا وجدان الموضوع بالدليل الإنّي ، فإنّه كما يدل الأثر على المؤثّر بالدليل الإنّي ، كذلك يدلّ المؤثّر على الأثر بالدليل اللمّي ؛ لفرض العلّية والمعلولية .

الفرق بين
التاريخ الصحيح والمزيّف

مسألة : المهم في فلسفة التاريخ أن يجد الإنسان الروح العامّة للتاريخ الواقعي لا التاريخ المزيّف ، فإنّ التاريخ المزيّف عبارة عن سفسطة ، ومجموعة أكاذيب ، لا تمتُّ إلى الواقع بصلة .

والتاريخ المزيّف هو الذي وصفه الإنسان بالعموم والخصوص ، أو التباين ، أو من وجه لأجل إدخال فلسفة زمانية ، أو مكانية ، أو شرائطية ، فإن مثل هذه الفلسفة بالإضافة إلى أنها أمر غير واقعي ، لا ينفع في المستقبل بل يسبب تحريف المستقبل .

مثلاً : قال الطبيب : الرمّان له خاصية دفع الصفراء ، فاستنتج أن كثرة تناول الرمّان لأمّة من الأمم هو السبب في صحّة أجسامهم . فالحكم التاريخي رتّب على موضوع أكل الرمّان ، فيأتي الفلسفي المزيّف ليقول إنّ المراد بالرمّان هو البرتقال بقرينة كذا ، أو الأعم من الرمّان والبرتقال ، أو الأخصّ الذي هو رمّان الطائف ممّا لا نواة له ، لا كل رمّان أو الرمّان في الصيف لا الرّمان في الخريف والشتاء ، وغير ذلك ، أو الأعم من وجه ، والأخصّ من وجه ، كالرمّان الحلّو لا كلّ رمّان ، والرمّان الأعمّ من الرمّان والبرتقال ، فهو أخصّ من ناحية ، وأعمّ من ناحية ، إنّه بهذا العمل لا يفلسف التاريخ بل يفلسف زعمه ، ويبني عليه الحكم المستقبلي .

ومن الواضح أنّ فلسفة الصحّة الجسدية لأولئك الذين كانوا يأكلون الرمّان

مترتّبة على الرمّان بما هو رمّان لا الشيء الخاصّ ولا العام ولا المباين ولا الذي بينه وبين الرمّان عموم من وجه، كما أنّ الأكل كان يراد به الأكل بالمعنى المصطلح، لا أن يفسّر الأكل بالتزريق أو التقطير في الأنف أو العين أو الأذن.

لقد كان هذا ـ العدول عن الفلسفة الحقيقية التي جاء بها الشرع، والتمسك بأنماط من الفلسفة المزيفة ـ هو بعينه سبب سقوط المسلمين بعد تلك الحكومة الطويلة العريضة القويّة، حتّى صاروا تبعاً لغيرهم بل صاروا أذلّة لا حول لهم ولا قوّة، وليس لهم حال، ولا مستقبل بل هم كلّ يوم في انحطاط أكثر وأكثر في كلّ مناحي الحياة[١].

إنّ (**حلال محمّد حلالٌ إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة**)[٢]؛ كما في الحديث، و﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ**﴾[٣]؛ كما جاء به القرآن الحكيم وبيّنه الرسول الأعظم وآله الطاهرون ، فإنّ ذلك هو الذي جعل المسلمين: ﴿**وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ**﴾[٤]؛ حسب التعبير القرآني، أو (**الإسلام يعلو ولا يعلى عليه**)[٥]؛ حسب تعبير نبي الإسلام ، لا الفلسفات المزيّفة التي جعلها الحكّام أصحاب الأهواء إسلامهم، وحكموا الناس بالحديد والنّار، والدعايات المسمومة.

وهناك ألف مثال ومثال ممّا ادّعاه الحكّام إسلاماً، وهو لا يمت إلى الإسلام

---

(١) وقد تحدث المؤلف عن أسباب سقوط المسلمين دينياً ودنيوياً في كتابه: «سقوط بعد سقوط»، وكتاب «لماذا تأخر المسلمون؟».

(٢) بصائر الدرجات: ص١٤٨ ب ١٣ ح٧، وفي الكافي (أصول): ج١ ص٥٨ ح١٩ إضافة قيد«أبداً».

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٤) سورة محمد: الآية ٣٥، سورة آل عمران: الآية ١٣٩.

(٥) المناقب: ج٣ ص٢٤١، نهج الحق: ص٥١٥، وسائل الشيعة: ج٢٦ ص١٤ ب ١ ح٣٢٣٨٣، غوالي اللآلي: ج١ ص ٢٢٦ ح ١١٨ و ج٣ ص٤٩٦ ح١٥، مستدرك الوسائل: ج١٧ ص٤٢ ب١ ح ٢٠٩٨٥.

بصلة ، نذكر منها بعض الموارد المعدودة التي يعايشها المسلم في كلّ بلاد الإسلام ، من غير فرق بين عربهم وعجمهم .

أمثلة وشواهد

مثلاً : قالوا الخمر المحرّمة هي المسكر ، أمّا إذا أخذ سكر الخمر كانت حلالاً . وإنّ الخمر إنّما كانت محرمة ، إذا لم يتوقّف الاقتصاد الوطني عليها ، فإذا توقّف الاقتصاد الوطني عليها ، كانت حلالاً ؛ كما قال رئيس الوزراء الإيراني الأسبق ـ مصدّق [١] ـ في قبال السيّد الكاشاني [٢] رحمه الله . أو قالوا : إنّ الزنا المحرّم هو ما كان مضراً أو بالاغتصاب لا ما كان بالرضى ، وليس خطراً بسبب احتمال تفشي الأمراض الزهرية وغيرها . وقالوا : إنّ الإسلام إنّما حرّم الضرائب ؛ لعدم وجود الحاجة في ذلك اليوم ما عدا الضرائب الأربع ـ الخمس ، والزكاة ، والجزيّة ، والخراج ـ، أمّا إذا احتاجت الدولة إلى الضرائب ، كحالنا ، لتعقّد الأمور ، والاحتياجات الكثيرة ، فليست الضرائب محرّمة حتّى إذا وصلت إلى أكثر من «٩٠ ٪» .

وقالوا : إنّ التعذيب المحرّم في الإسلام إنّما هو التعذيب الذي يراد به الاعتباط لا التعذيب الذي يراد به أخذ الاعترافات من فئات ، أو أفراد محترفين ، أو إنّ

---

(١) محمد بن هداية مصدّق : ولد في طهران سنة ١٨٨١م ومات سنة ١٩٦٧م ، سياسي إيراني تقلّد وزارة المالية ثم رئاسة الوزراء بين سنة ١٩٥١م ـ ١٩٥٣م ، وقد ألغى معاهدة النفط الإيرانية ـ البريطانية سنة ١٩٥١م ، وقد حاول شاه إيران محمد رضا إقالته سنة ١٩٥٣م لكن الجماهير الغاضبة أكرهت الشاه على مغادرة البلاد وما هي إلاّ أيام حتى تدخل الغرب وتمكن من إعادة الشاه إلى الحكم ، وقد حُكم عليه بالسجن لثلاث سنوات ثم وضع تحت الإقامة الجبرية حتى موته . راجع موسوعة المورد : ج٧ ص ٦٨ والمنجد في الأعلام : ص٦٦٥ .

(٢) السيد أبو القاسم بن مصطفى الكاشاني : ولد سنة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م) ، شارك في ثورة العشرين ، وكان عضواً في المجلس العلمي ، وبعد انتكاسة الثورة طارده الإنجليز ؛ فهرب إلى إيران وفيها خاض صراعاً مريراً مع الطاغية رضا شاه ، وله مواقف مشرفة في قضية تأميم النفط الإيراني .

السجن الاعتباطي حلال في هذا الحال مثل سجن القاتل .

وقالوا : إنّ الإعدام إنّما جعله الشارع في موارد محدودة جداً ؛ لأنّ الناس في ذلك اليوم كانوا بسطاء ، أمّا في هذا اليوم ؛ فيجب أن نزيد على موارد الإعدام الشرعية ؛ لتعقّد الحياة ، كما فعله العراق أيّام الشيوعيين ، والقوميين ، والبعثيين حتّى أوصلوا أنواع الإعدام إلى «٢٠٠» نوع [(١)] .

وقالوا : إنّ الحدود الجغرافية ضرورية لحماية الدولة من الاعتداءات الخارجية ومن فرق التهريب ، وفي السابق لم تكن هذه الأمور موجودة ، أمّا اليوم حيث هذا الاحتمال قائم ، فمن الضروري أن نحدّ الحدود الجغرافية حول أراضي البلاد ، صغيرةً كانت أو كبيرةً .

وقالوا : إنّ الحرّيات الإسلامية التي جعلها الله سبحانه وتعالى : ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ [(٢)] ، وبينها الرسول الأكرم ﷺ بقوله : **(الناس مسلّطون على أموالهم وأنفسهم)** [(٣)] بزيادة مستفادة من ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ [(٤)] ، إنّما كانت حيث لا احتياج للدولة للمال ، ولا لتكثير الموظّفين ، ولا ، ولا . . أمّا في هذا اليوم فكلّ هذه الاحتياجات قائمة ، ولهذا نحتاج إلى كبت الحرّيات وتحديدها .

وقالوا : إنّ الأخوة الإسلامية كانت إذا لم يكن العصر حديثاً ، أمّا إذا صار

---

(١) وقد تطرق الإمام المؤلف قدس سره إلى هذه الأنواع في كتاب : «الصياغة الجديدة لعالم الحرية والرفاه والسلام ص ٥٨٢ ـ ص ٥٩٤ تحت عنوان التعذيب في سجون بغداد» .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٣) الناس مسلطون على أموالهم ، حديث شريف ورد في كتاب غوالي اللآلي : ج١ ص٢٢٢ ح٩٩ الفصل التاسع وص٤٥٧ ح١٩٨ ، وج٢ ص١٣٨ ح٣٨٣، وكتاب نهج الحق : ص٥٠٤ ، وبحار الأنوار : ج٢ ص٢٧٢ ب٣٣ ح٧.

(٤) سورة الأحزاب : الآية ٦ .

العصر الحديث فلا عمل بآية : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١) .

وقالوا : إنّ الزواج بالأربعة إنّما كانت حيث النساء الكثيرات ؛ بسبب حصاد الحروب للرجال ، أمّا في هذا اليوم ؛ فلا يحقّ للرجل إلاّ الزوجة الواحدة ، ثمّ من الضروري أن يستأذن الزوج من الزوجة الأولى إذا أراد أن يتزوّج زوجة ثانية ؛ لأجل زيادة النسل ، أو ما أشبه ذلك .

وقالوا : إنّ حرمة الاستمناء إنّما كان في السابق نتيجة عدم وجود الدواء لضعف الأعصاب ، حيث يسبّب ضعف الأعصاب ، أمّا اليوم ؛ فحيث توجد الأدوية لضعف الأعصاب ؛ فلا حرمة للاستمناء .

وقالوا : إن الاستبداد إنّما يكون محرّماً كما قال الإمام علي عليه السلام : **(من استبدّ برأيه هلك)** (٢) ، وغير ذلك من الروايات ، والآيات ، حيث قال الله تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (٣) ، و﴿شَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (٤) ؛ لأجل أنّه لم يكن بالإمكان تسيير الحكومة إلاّ بالشورى ، أمّا اليوم ؛ فلمّا أصبح بالإمكان الاستغناء عن المشورة بالأجهزة المتطورة ، فلا حاجة لنا إلى الشورى ، فإنّ مصلحة النظام هي المقدّمة على كلّ حكم ، فإذا تعارضت مصلحة النظام مع محرّم أو واجب وحتّى مع التوحيد ، أمكن تقديم المصلحة على الأحكام الإسلامية بل والعقائد الإسلامية كما قال بكل ذلك جماعة من الطغاة .

أقول : نعم لا إشكال في التوسيعات الشرعية مثل الخمر حرام حيث يوسّع إلى كلّ مسكر حسب الدليل ، والتضييقات الشرعية مثل تقيّد الأحكام بلا ضرر

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم : ص٤٤٣ ح١٠١١١ ، نهج البلاغة قصار الحكم : الحكمة ١٦١ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٨ ص٣٨٢ ب ١٦٣ ، بحار الأنوار : ج٧٢ ص١٠٤ ب٤٩ ح٣٨ ، وسائل الشيعة : ج١٢ ص٤٠ ب٢١ ح١٥٥٨٧، خصائص الأمة: ص١٠٨.

(٣) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

حيث قاله الشارع ، وذلك ما يعيّنه شورى الفقهاء المتعاونين مع أهل الخبرة والاختصاص ، الذين نسميهم بالأحزاب الحرّة ، أو الأفراد المستقلّين ، وكم هو الفرق بين الأمرين ؟ فالتوسيعات الشرعية ، أو التضييقات الشرعية ، إنما تكون مع استنباط شورى الفقهاء ذلك التضييق أو التوسيع في الحكم حسب الأدلّة الأربعة المشهورة : الكتاب ، والسنّة ، والإجماع ، والعقل ، وقد فصلنا هذا البحث في موضع آخر .

رأي وتعليق

وقد قرأت في أكثر من كتاب تمسك بعض المسلمين بأقوال مونتسكيو [1] ، أو فولتير ، والتي هي بمنأى عن الإسلام ، وسننقل بعض المقاطع من أحدهما مع شرحه لها .

يقول الكاتب : مونتسكيو يحدّد العوامل التي تشكّل قوانين الدولة ، وشكل الحكومة ، وشخصية الأمّة ، فيرجعها إلى عوامل إمّا مادّية طبيعية ، أو معنوية اجتماعية . ومن العوامل الطبيعية ، عامل الجغرافية ، التي يوليها مونتسكيو اهتماماً خاصاً إلى حدّ أن اعتبرها أغلب الباحثين أهمّ ما يميّز مؤلّفه ، الذي يتكوّن من ستّة أجزاء في «٣١» باباً ، فمن نتائج بحثه : يختلف الناس في مختلف الأقاليم تبعاً لعوامل المناخ ، وطبيعة الأرض ، والموقع ، ونوع الأراضي ، ذلك أنّ للمناخ أثراً على كلّ أجزاء الجسم الإنساني وما به من عصارات ، وإفرازات ، ومن ثمّ يتشكّل مزاج الإنسان ، وأخلاقه ، وعاداته ، وطباعه ، فحيوية الناس في المناطق الباردة غيرها في المناطق الحارّة . وقد ترتب على ذلك كثير من الأنظمة

---

(١) شارل دي سيكوندا ، بارون دي لايريد ودي المشهور ب(مونتسكيو)، ولد سنة ١٦٨٩م ، ومات سنة ١٧٥٥م، كاتب ، ومؤرخ ، وفيلسوف فرنسي ، له باع في تنظير أيديولوجية الملكية الدستورية ، وله عدة مؤلفات منها : «روح القوانين» ، «رسائل فارسية» ، «نظرات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم» .

الاجتماعية ، ذات الطابع الخاصّ في المناطق الحارّة ، كتعدّد الزوجات ، وتحريم الخمر ، وإنجاب النساء ، كذلك يتأثّر به نظام الأمّة ؛ إذ العبودية طابع المناطق الحارّة ، ومن ثمّ سادها النظام الاستبدادي في الحكم ، كذلك يختلف مفهوم الحرّية في الأنظمة الاقتصادية ، كالضرائب ، وأنظمة الحرب في هذه المجتمعات ، وفقاً لشكل الحكم فيها ، وهذا بدوره قد شكّلته العوامل الجغرافية ؛ إنّ حالة القحط قد أدّت بالتّتار إلى الاندفاع نحو الحروب ، والتعطّش للدماء ، والتدمير ، بينما تميل الأقضية العربية إلى الحرّية ؛ وإن عانت من القحط أيضاً .

وأضاف هذا الكاتب : أمّا العوامل المعنوية والاجتماعية ؛ التي تشكّل بدورها قوانين الدولة ، ونظام الحكومة ، فأهمّها المزايا الاقتصادية ، وأمور الدين .

أمّا حول المسائل الاقتصادية ؛ فيعرض مونتسكيو أنظمة التجارة ، والضرائب في بعض المجتمعات القديمة ، خصوصاً الدولة الرومانية ، وعوامل تطوّرها ، وأثر القوانين الوضعية في النقد ، وحركة التجارة ، وانعكاس ذلك على عدد السكّان ، وحركتهم ، ونموهم ، وثقافتهم ، أو تخلخلهم . فإنّ القوانين الوضعية ، وإن كانت تعكس رغبة المشرّع ، والحكومة القائمة ، فإنّها بدورها لابدّ أن تتأثّر بالقوانين الطبيعية .

أمّا الدين ؛ فيرى مونتسكيو أنّ الإسلام أكثر ملاءمة لشعوب الشرق ، بينما المسيحية تناسب الأوروبيين ؛ لأسباب جغرافية من جهة ، ولأسباب تتعلّق بشكل الحكومة من جهة أخرى ، وهو إذ يفصل القول في الجوانب الاجتماعية في الدين ، والأعياد ، فإنّه يحمل حملة شعواء على الاضطهاد الديني ، ومحاكم التفتيش .

خلاصة القول : لقد درس مونتسكيو بإسهاب مستخدماً المنهج التاريخي ، والمنهج المقارن ، كيف يتحدّد نظام الحكم بالعوامل الجغرافية ، والمادّية ، والاجتماعية ، أو الثقافية . وهو وإن أولى العوامل الجغرافية اهتماماً خاصاً في بيان أثرها بشكل المجتمع ، فإنّه أشار إلى أنّ العوامل الجغرافية إن ساد تأثيرها على

العوامل الثقافية ، والاجتماعية ، فإنّ هذا يعني جمود المجتمع ، وضعف مقدرته على التطوّر ؛ نظراً لثبات العامل الجغرافي إن أُضيفَ إلى العامل الثقافي .

أقول : وأنت ترى أنّ هذه الكلمات ليست إلاّ تضخيماً من جانب ، وتصغيراً من جانب آخر ، ولم يقم أي دليل على ما ذكره مونتسكيو ، أو الكاتب ، ولكن لو كان الأمر كذلك ، كانت الدول الأوربية في الزمان السابق المتعدّدة اللغات ، والأديان ، والاقتصاديات ، والمناخات ، لم تتمكّن أن توحّد جهودها في دولة أوربية برفع الحدود الجغرافية عنها بعملة موحدة وبرلمان مشترك و . . . وكذلك بالنسبة إلى الدول الأمريكية التي اتّحدت فصارت دولة واحدة [1]، إلى غير ذلك من التناقض ، والإشكالات التي لسنا بصدد ذكرها ، وهي أكثر من أن تحدّد في واحد ، أو اثنين ، أو ثلاثة ، أو عشرة ، أو عشرين ، أو حتّى مائة .

---

(١) فقد شكلت جمعية تأسيسية ، تتكون من (٥٥) عضواً ، يترأسها جورج واشنطن من أجل وضع دستور ، يوفق بين حرية الولايات ، وضرورة السلطة المركزية القوية المتمتعة بالموارد الكافية لإدارة مجموع الشعب الأمريكي ، واجتمعت الجمعية لأول مرة في ٢٥ آيار ١٧٧٨م ، وخرجت بقرارات ، حددت فيها حقوق الحكومة الفدرالية وواجباتها . واتحدت الولايات الأمريكية على شكل مراحل آخرها في ٤ تموز ١٩٠٩م بعد انضمام ألسكا ، وهاواي ، وأصبح عَلَمُهم يحتوي على خمسين نجمة ، يمثل خمسين ولاية . لمزيد من التفصيل راجع جريدة العالم : ج٤ ص٢٣٦ ترجمة سمير شيخاني .

كيفية استنباط
السنن التاريخية

مسألة : فلسفة التاريخ هي قواعد كلّية مستنبطة من مجموعة الأحداث ، بمعنى أن تكون المقدّمات متعلّقة بالتاريخ العالمي باستقراء المواد المختلفة من الأمم والشعوب ، والشرق والغرب ، والإمبراطوريات القديمة والحديثة ، والانتصارات والانكسارات .

ومن الواضح أنّ هذه القواعد لا تحتاج إلى الاستقراء الكلّي ، الذي لا يمكن تحقيقه بالنسبة إلى الإنسان في هذا العصر ، فكيف بالعصور القديمة ، وقد كتب جماعة من العلماء فلسفة التاريخ ، ولم يشكل عليهم بأنّهم لاحظوا بعض العصور ، أو بعض الأمم ، وذلك لأنّ الاستقراء إذا كان معلّلاً ، لم يحتج إلى تصفح جميع الجزئيات .

مثلاً : من يريد أن يقول كلّ حيوان يحرّك فكّه الأسفل عند المضغ حيث لا يستند هذا الإدعاء إلى علّة عامة مشتركة ، يحتاج إلى أن يشاهد الإنسان كلّ حيوان حيوان ، بينما إذا وصل الأمر إلى الاستقراء المعلّل ، لم يحتج إلى الاستقراء التامّ ، ولذا فرّق المنطقيّون بين الاستقراء التام وبين الاستقراء الناقص ، وبين الاستقراء المعلل وغيره ، فكما أنّا لا نشاهد إلاّ بعض النيران ، ومع ذلك نقول : كلّ نار حارّة ، أولا نشاهد إلاّ بعض أقسام الضرب ، ومع ذلك نقول إنّ الضرب أمرٌ غير محبذ ، كذلك بالنسبة إلى فلسفة التاريخ لوحدة الطبيعة الإنسانية من جهات متعدّدة ، فإنّها تكمن خلف اختلاف الشعوب ،

وتمايز ألوانها وعوائدها ، ومن ثمّ فمن النتائج الكلّية المستخلصة من مادّتها المحدودة يمكن أن تطبّق على غيرها من المجتمعات .

مثلاً : إذا رأينا أنّ الشاب له قوّة الاندفاع ، فإنّه لا يحتاج الأمر إلى أن نشاهد كلّ شابٍّ شاب . بل إذا رأينا ألوفاً من الشباب لهم هذه الخاصّية ، نقول بأنّ كلّ شاب ، له قوّة اندفاعية إلاّ الشاب المريض ، أو ما أشبه ذلك ، وهكذا إذا رأينا الشيوخ لهم هدوء ، وسكينة ، وعدم اندفاع ، فإنّه لا يحتاج إلى أن نرى كلّ الشيوخ ، بل نقول ذلك بالنسبة إلى كلّ الشيوخ ؛ لاكتشاف ذلك الكلّي من عشرات المئات من الشيوخ الذين شاهدناهم ، وكذلك الحال في كثير من القضايا مثل قولهم : الربا شرارة الحروب ، والخمارون ينتهون إلى أمراض القلب ، والمدمنون للمخدّرات ينتهون إلى ضعف الأعصاب ، إلى غير ذلك من القضايا الكلّية التي لا اختلاف فيها إطلاقاً ، مع أنّ التاريخ العالمي لدى معظم فلاسفة التاريخ كانت أبحاثه مركّزة على مجتمعات معيّنة وأزمنة معيّنة ، لأنّ الإنسان ليس في طول الزمان من أوّل الخلقة إلى آخرها ، ولا في سعة الأمر من الناس الذين هم في عصره من الأشخاص المتشتّتين في شرق الأرض وغربها .

وعلى هذه الأمور تترتّب كلّ القضايا باستثناء الضروريات الحسابية ، أو الرياضية ، أو ما أشبه ذلك ، كالطبّ ، والهندسة المعمارية ، والمحاماة ، والقضاء ، وألف علم وعلم ، كلّها حاصلة من مثل تلك المفردات .

نعم ، العلوم الضرورية كالحساب ، والهندسة العلمية ، وبعض مسائل الفيزياء ، والكيمياء ، وما أشبه ذلك هي من الضرورات بحيث لا تحتاج إلى جمع المفردات الكثيرة وإلاّ فالعلوم التجريبيّة كافّة بحاجة إلى جمع المفردات الكثيرة حتّى يكتشف منها السرّ العامّ ، والفلسفة الجامعة لكلّ تلك المفردات في المنحى الذي قصده العالم .

الأسباب والمسببات

مسألة : إن معرفة فلسفة التاريخ تحتاج إلى استكشاف العلل والمعلولات ، والأسباب والمسبّبات ، وذلك كما في الحديث : **(أبى الله أن يجري الأشياء إلاّ بأسباب)**[١] ، وفي القرآن الحكيم ذكر مرتين قوله ﷻ : **﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾**[٢] فإنّ الله جعل الدنيا دار أسباب ومسبّبات باستثناء ما قد يفعله من المعجزات الخارقة .

مثلاً : الإنسان إذا صار مريضاً ؛ احتاج إلى الدواء ، لكن الله ﷻ أجرى على يد عيسى المسيح عليه السلام الشفاء بدون الدواء . كما أنّه جعل كذلك في نار إبراهيم ، فإنّ النار تكون محرقة ، بينما جعل الله ﷻ النار لإبراهيم عليه السلام برداً وسلاماً .

والحاصل : أنّه بدون الصور المستثناة ، تكون الدنيا دنيا الأسباب والمسبّبات ، ومن يريد فلسفة التاريخ ، واكتشاف الروح العامة ؛ يجب أن يعرف الأسباب والمسبّبات كأسباب النهوض ، وأسباب السقوط ، وأسباب الغنى ، وأسباب الفقر ، وأسباب الصحّة العامّة ، وأسباب المرض العام .

مثلاً : أسباب الصحّة العامة ، تكمن في مراعاة الماء ، والهواء ، والنوم واليقظة ، والإملاء ، والإفراغ ، فإذا كان الهواء غير نقيٍّ ، أو الماء غير صحّي ، يسبّب ذلك أمراضاً للإنسان بل والحيوان والنبات أيضاً ، إلى غير ذلك من العلل والمعلولات ، والأسباب والمسبّبات ، ممّا قد يكون أسباباً ومسبّبات متعدّدة حتّى

---

(١) الكافي (أصول) : ج١ ص١٨٣ ح٧ وبصائر الدرجات : ص٦ و ص٥٠٥ باب معرفة العالم ، وقريب منه في غوالي اللآلي : ج٣ ص ٢٨٦ باب النكاح .

(٢) سورة الكهف : الآيات ٨٩ و٩٢ .

الوصول إلى النتيجة المطلوبة ، وقد يكفي في الوصول للنتيجة وجود سبب ومسبّب واحد .

وعلى أي حال : فمن يريد فلسفة التاريخ يجب أن يلاحظ هذا الأمر في كلّ شيء يريد تحصيل النتيجة من مقدّماته .

ثم إنّ هذه المقدّمات قد تكون قريبة ، وقد تكون بعيدة ، مثلاً : الماء ، والهواء ، والتراب ، والحرارة ؛ مقدّمة للحصول على المركب ، أو المعجون الفلاني ، الذي هو ناتج عن ماء التفّاح ، وشجرة التفّاح الناتج عن الأرض الخصبة ، إلى غير ذلك من الأمثلة . من غير فرق بين أن تكون الأسباب مترتّبة بعضها على بعض كالمثال المتقدّم ، أو في عرض واحد مثل احتياج الفقه إلى اللغة ، والصرف ، والنحو ، والبلاغة ، والمنطق ، والأصول ، والحديث ، والرجال ، وما أشبه ذلك ، فإنّها لا تترتّب بعضها على بعض بل كلّها في عرض واحد .

ومن الواضح أنّ التعليل يجب أن يكون تعليلاً لجملة من الأمور الكافية للاستكشاف لا أمراً جزئياً خارجياً ، كما هو حال التاريخ ، إذ التاريخ يكتفي في سرد حالة زيد ، وعمر ، وبكر ، وتجارة خالد وخويلد ، وعلم فلان وفلان ، وفي التاريخ يجب أن يلاحظ ذلك .

التعليل

الظاهري والباطني

مسألة : من يريد معرفة فلسفة التاريخ ، واكتشاف الروح العامة ، يجب عليه معرفة التعليل الباطني ، ولا يكتفي بالتعليل الظاهري ، فإنّ التعليلات الظاهرية لا تكفي لكشف الروح العامّة ، وإنّما الذي يكشف الروح العامة هو التعليلات الباطنية ، بأن ينظر إلى ما وراء أحداث التاريخ والأسباب الواقعية .

مثلاً : هارون العبّاسي ذهب إلى خراسان لأجل الاصطياف ، هذا كان ظاهر الأمر ، أمّا باطن الأمر هو رغبته في إخماد الفتن التي نشبت هناك من جرّاء أخذ علي بن ماهان [1] حاكمه في خراسان الضرائب المرهقة التي سبّبت هيجان الناس ومن ثمّ الثورة [2] . وهكذا في كثير من الأمور علل ظاهرية وعلل باطنية ، والعلل الظاهرية بمفردها لا تتمكّن من كشف الروح العامة وفلسفة التاريخ .

ومن الواضح أنّ التعليل التاريخي بحاجة إلى جملة من العلوم كالمنطق ،

---

(١) علي بن عيسى بن ماهان ، تولى ديوان الجند في عهد المهدي العباسي ، حكم خراسان في عهد هارون العباسي ، سيره الأمين العباسي لمحاربة أخيه المأمون ، قتل سنة ١٩٥هـ (٨١١م) .

(٢) وكان ذلك في شعبان سنة ١٩٢هـ حيث خرج عليه رافع بن الليث واستولى على ما وراء النهر ؛ لأن واليه علي بن ماهان قد أرهق الأهالي بالضرائب ما يقدر بحمل ألف وخمسمائة جمل .

والحكمة ، والأصول المصطلح في أصول الفقه ، والحساب ، وما أشبه ذلك ، فإنّ اكتشاف الروح العامة بحاجة إلى هذه الأمور . ومنه يعلم أنّه لا يراد بالفلسفة هنا الفلسفة عند الفلاسفة الحكماء كابن سينا ، والفارابي (١) ، وقبل ذلك أرسطو ، وبعد ذلك الحاج السبزواري (٢) ، والملاّ

---

(١) أبو نصير محمد بن محمد بن طرخان الفارابي ، عالم وفيلسوف وحكيم ، أتقن العلوم الحكمية وبرع في العلوم الرياضية ، وكتب في الفلسفة والفلك والمنطق والرياضيات والهندسة والموسيقى والنبات ، ولد في إقليم خراسان سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣م) ، وقيل : ٢٥٧هـ (٨٧٠م) ، عاش ثمانين سنة ، وكان يجيد اللغة التركية والعربية والفارسية واليونانية واللاتينية والعبرية ، وكان يسعى للتوفيق بين فلسفة أرسطو وأفلاطون ، ودرس في بغداد الرياضيات والطب والفلسفة ، وكان على اتصال بالصاحب بن عباد وغادرها لما أصابها من اضطرابات اجتماعية وسياسية وهجوم الديلم عليها وما أحدثوه من فتن ومصائب وتقتيل ثم سافر إلى حلب سنة ٣٢٩هـ (٩٤١م) فاتّصل بسلطانها ، سيف الدولة بن حمدان ؛ وأقام في كنفه مدة وأكرمه وقربه ، ثم سافر معه إلى دمشق عندما استولى عليها ثم توجه إلى مصر سنة ٣٣٨هـ (٩٤٩م) ؛ وتوفي فيها سنة ٣٣٩هـ (٩٥٠م) وصلى عليه سيف الدولة الحمداني ، بلغت مؤلفاته المائة غير أن أغلبها فقد ، والموجود منها حوالي الأربعين : (٣١) بالعربية و(٦) بالعبرية و(٢) باللاتينية ، من مؤلفاته : «المدينة الفاضلة» ، «التعليم الثاني»، «إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها» ، «السياسة المدنية» و«السيرة الفاضلة» ، «ماينبغي أن يتقدم قبل تعلم الفلسفة» ، «الموسيقى الكبير» .

(٢) المولى هادي بن مهدي السبزواري ، حكيم وفيلسوف وفقيه وشاعر وعارف ، ولد في مدينة سبزوار الإيرانية سنة ١٢١٢هـ ، ثم هاجر منها إلى أصفهان للدراسة وبقي فيها عشر سنوات ، تتلمذ عند الشيخ محمد تقي ؛ صاحب «هداية المسترشدين» ، والشيخ محمد إبراهيم الكلباسي ؛ صاحب «إشارات الأصول» ، والملاّ إسماعيل الإصفهاني ، والملاّ علي نوري ، ثم انتقل إلى مدينة مشهد الرضا سنة ١٢٤٢هـ ؛ وأخذ يدرس فيها ، ثم انتقل إلى سبزوار سنة ١٢٥٢هـ وطفق يدرس فيها الفلسفة والعلوم الإلهية ٣٧ سنة ، توفي سنة ١٢٨٩هـ ودفن في مسقط رأسه ، ومن تلامذته الشيخ محمد كاظم الخراساني ؛ صاحب «كفاية الأصول» ، والملاّ عبد الكريم القوجاني ، وله أكثر من عشرين مؤلفاً منها : «شرح المنظومة» وهي على قسمين : في المنطق والفلسفة ، وكتاب «شرح الأسماء الحسنى» و«شرح على المثنوي» ؛ لجلال الدين الرومي ، و«تعليقات على كتاب الأسفار الأربعة» ، و«حاشية على الشواهد الربوبية» ، و«حواشٍ على رسالة المبدأ والمعاد» ؛ لصدر المتألهين ،

صدرا [١] ، ومن أشبههم ، بل المراد بالفلسفة هنا الأعمّ من وجه والأخص بالوجه من الفلسفة المصطلحة .

و«مجموعة رسائل» و «إرجوزة في الفقه» ؛ سماها «النبراس» و «الجبر والاختيار» و «شرح دعاء الصباح» و «غرر الفوائد» في الحكمة . ترجمه المآثر والآثار : ص١٤٧.

(١) محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي ، المشهور بـ«الملا صدرا» أو «صدر المحققين» ، فيلسوف وحكيم وعارف ومفكر إسلامي ، ولد في شيراز في الربع الأخير للقرن العاشر الهجري ، وتوفي في البصرة سنة ١٠٥٠هـ (١٦٤٠م) في طريقه لحج بيت الله الحرام للمرة السابعة ، تتلمذ عند السيد الميرداماد والشيخ البهائي ، ومن أبرز تلامذته الفيض الكاشاني واللاهيجي ؛ صاحب «الشوارق» ، من مؤلفاته : «الحكمة المتعالية في المسائل الربوبية» ، المسمى بـ«الأسفار الأربعة» ، و«المبدأ والمعاد» ، و«مفاتيح الغيب» ، ولايخفى أن فلسفته قائمة على التوفيق بين المشّائيين والإشراقيين وعلى تطابق الشرع والعقل . ترجمه روضات الجنات : ص٣٣١ ، المنجد في الأعلام : ص٣٩٨ ، الموسوعة الإسلامية : ج٥ ص٢٨٠ ـ ٢٨١ .

فلسفة التاريـــــخ
والحتمية التاريخية

مسألة : إنّ الإنسان بما أنّه مريد ، له تقلّبات من حال إلى حال ، بسبب شروط الزمـان والمكـان ، ومـا أشـبه ذلـك ، فليسـت فلسـفة التـاريخ متّصفـة بالحتميّـة التاريخية ، وليس معنى كون الأمر من سنّة الله ﷻ أنّها سنّة دائمـة أو أبديّـة ، لأنّ سنن الله ﷻ تنقسم إلى سنن دائمة ، وسنن متغـيّرة ، لأنّ الله ﷻ جعـل التغـيّر في هذه السنّة ، واكتشاف نفس هذا الشيء ، وإنّه من سـنن الله الدائمـة ، ومـن سـنن الله المتغيّرة أيضاً يحتاج إلى سعة علم ، وإطّلاع ، وملاحظة للمفردات .

مثلاً : قضايا المنطق ، والحساب ، والهندسة من سنن الله الدائمة ، فـلا يعقـل أنْ تتغيّر حالات الجمع ، والضرب ، والطرح ، والتقسـيم ، والجـبر ، والمقابلـة ، أو حـالات المثلّـث ، والمربّـع ، والمخمّـس ، والمعـين ، والمـدوّر ، ومـا أشـبه ، أو حالات الأقيسة الأربعة من كون الصغرى مندرجة في الكبرى ، أو مثل كون الكـلّ أعظم من الجزء ، إلى غير ذلـك . بينمـا تتغـيّر أحـوال الشـعوب قـوّة ، وضعفـاً ، وعلمـاً ، وجهـلاً ، وصحّـة ، ومرضـاً ، وشـجاعة ، وجبنـاً ، وكرمـاً ، وبخـلاً ، وما أشبه ذلك حسب الأسباب والمسبّبات التي جعلها الله ﷻ في هذه الحياة .

حركة التاريخ

أمر بين أمرين

مسألة : ينطبق على فلسفة التاريخ ما ذكره علماء العقائد من مسألة الجبر والتفويض والأمر بين الأمرين .

ومثالاً على ذلك نقول : إنّ أحوال الأمم ليست على نحو التكامل الدائم ، ولا على نحو الانحطاط الدائم ، وإنّما يكون للأمم تكاملٌ في حال ، وانحطاط في حال آخر .

ولمّا كان عدد الكمالات النسبيّة كثيرةً ، فليس من الغريب أن يكون أحد المجتمعات ، أو إحدى المراحل التاريخية ، أكمل من مجتمع آخر ، أو مرحلة تاريخية أخرى من حيث إحدى تلك الكمالات ، ولكنّه أنقص منه من حيث كمال آخر ، فإنّه لا يمكن إثبات كون مجتمع معيّن ، أو مرحلة تاريخية خاصّة في مجتمع معيّن ، أكمل من مجتمع آخر ، أو مرحلة أخرى في جميع الكمالات النسبية التي هي مقدّمة لغيرها .

مثلاً : اليونان القديمة ؛ تكاملت من حيث العلم ، والفلسفة ، والتجارب الإنسانية التي عاصرت تلك الحقبة من الزمان ثمّ سقطت حتّى لا ترى فيها اليوم حتّى عالماً واحداً من أولئك العلماء من أمثال : سقراط [1] ،

---

(١) فيلسوف مثالي ، ولد في أثينا سنة (٤٧٠ق. م) ، وقتل بالسم بعد أن سجن. وكان في سن السبعين. بتهمة ازدراء الآلهة والتأليب ضد الحكم سنة (٣٩٩ق. م) ، من مبادئه أنه نادى بمعرفة النفس من النفس ، وكان يقول عن نفسه : «أنا لا أعرف إلاّ شيئاً واحداً وهو أنّني

وأفلاطون [١] ، وأرخميدس [٢] ومن أشبههم ، بينما أخذت الأمم بالشرق الأوسط وما أشبه ذلك إبّان أخذهم بالإسلام في التكامل حتّى إن أحد العلماء ذكر أنّ في قرن واحد كان من العلماء لمختلف الفنون من الرياضيّات ، والفلك ، والهندسة ، والحساب ، والفقه ، والأصول ، والقانون خمسة آلاف عالم حسب ما حفظه التاريخ ، فمن يزعم أنّ حركة التاريخ تكاملية لا دليل له لا من الماضي ، ولا من الحاضر ، ولا في المستقبل ، حتّى إنّه لو فرض بأنّ مسيرة المجتمعات ، أو الحركة التاريخية ، كانت في الزمان الماضي تكاملية إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّهُ يكون في

لا أعرف شيئاً» ، وكان يدعو إلى نشر الفضيلة ونبذ الخرافات والأفكار الاعتباطية ، لم يترك أي أثر مكتوب، وكان من دأبه التجول في الشوارع والأسواق ؛ ليتحدث مع الشباب والشعراء والسياسيين عن الخير والشر ، ومن تلامذته أفلاطون .

(١) ولد أفلاطون سنة (٤٢٧ ق. م) في أثينا ، ومات سنة (٣٤٧ق. م) ، ويعد من الفلاسفة والمصلحين ، وكان يعتبر التحليل الرياضي طريقة فعالة للتوصل عبر فصل الأفكار إلى معرفة الكون ، ومثل هذه المعرفة في تقديره لا يمكن اكتسابها بالحواس وحدها ، معلّلاً ذلك أن ثمة وراء ظواهر الأشياء حقيقة عليا ، معرفتها هي هدف الفلسفة الحقيقي ، وفي اعتقاده أن العقل وحده يتيح لنا تجاوز عالم الحواس وبلوغ الحقيقة التي يعكسها بطريقة غير مثالية ، وفي رأيه كذلك أن الإنسان السعيد هو الإنسان الفاضل ، فلا بدَّ من معرفة الطريق المؤدية إلى الفضيلة ، ويعدُّ من تلامذة سقراط ، فقد سجل مناقشاته وأدى حبه للدراسة والتعليم إلى تأسيس أكاديمية بأثينا سنة (٣٨٧ ق. م) ، وقد بلغت مؤلفاته الثلاثين منها : «الجمهورية»، «القوانين» ، «المأدبة» ، «فيدو» ، «المحاورات» ، « السياسي» ، «تيمه»، «الاعتذار» .

(٢) ولد أرخميدس بصقلية في مدينة «سيراقوسه» سنة (٢٨٧ ق. م) ، وقتل سنة (٢١٢ق. م)، عالم الرياضيات والفيزياء والفلسفة ، توصل إلى فكرة الوزن النوعي والتي تسمّى بقاعدة أرخميدس ، وتوصل كذلك إلى اختراع جهاز لرفع الماء يسمّى بـ«لولب أرخميدس» . وكذلك توصل إلى مبدأ أرخميدس وهو قانون ينص على أنه حين يغمر جسم في سائل ما ، فإنّ ما يفقده من وزنه يكون معادلاً لوزن السائل المزاح . ، وتوصّل إلى المبادئ الرياضية الناجمة عن استعمال الرافعة ، فالقوة المطلوبة عند نهايتي الرافعة لتحريك ثقل في النهاية الأخرى تتوقف على بعد النهايتين من المحور الموضوع عليه الرافعة.

الآتي هكذا ، وهذا هو الأمر الذي سبب سقوط ماركس [١] في خطئه المعروف من أنّ آخر مرحلة للإنسان هي الشيوعية وستبقى هذه الشيوعية على طول الزمان ثمّ تتسع حتّى تشمل الكرة الأرضية بكاملها .

أمّا اعتقاد المسلمين بأنّه : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٢] ، فذلك بسبب الغيب لا بسبب الموازين التاريخية .

نعم ، ما ذكره تعالى من قوله : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾[٣] ، ومن قوله تعالى : ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[٤] من السنن العامّة التي كانت سابقاً ، وفي العصر الحاضر ، وفي المستقبل إلى أن تبدّل الأرض غير الأرض ، إذ يكون ذلك حينئذ من انتفاء الموضوع لا انتفاء الحكم على اصطلاح الأصوليين . وذلك لوحدة الطبيعة البشرية ، وتماثل الطبائع في القوّة ، والضعف ، والغرور ، والاهتمام ، وقد ذكر أحد العلماء أنّ عامل قيام الحضارة هو نفسه عامل تدهورها وفنائها ، فإنّ العصبية أساس القوّة القبلية ولا تكون الرئاسة إلاّ في أهل أقوى العصبيات ، وإنّ العصبية

---

(١) كارل ماركس الألماني ، مؤسس الحركة الاشتراكية ، ولد بمدينة «ترير» سنة ١٨١٨م، من أبوين يهودين ، ومات في لندن سنة ١٨٨٣م ، دخل العمل السياسي والاجتماعي سنة ١٨٤١م ؛ فأبعد من ألمانيا إلى فرنسا ومنها إلى لندن ؛ فعمل بالصحافة فيها سنة ١٨٤٨م، وكتب مع فردريك إنجلز البيان الشيوعي في نفس السنة ، والذي حددا فيه مبادئ الشيوعية الحديثة ووجها فيه نداءً إلى عمال العالم يدعوهم إلى الاتحاد والتعاون . وقد أصبح هذا البيان أحد الركائز الرئيسية التي قامت عليها الأحزاب الاشتراكية والشيوعية، وخلال تواجده في لندن دوّن الكتب التالية : «نقد الاقتصاد السياسي/سنة ١٨٥٩م» ، وكتاب «نداء إلى الطبقات العاملة في أوربا/سنة ١٨٦٤م» ، وكتاب «رأس المال/سنة ١٨٦٧م» .

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٣ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٣٧ .

(٤) سورة القصص : الآية ٦ .

تهدف إلى الملك وتنقل المجتمع من البداوة إلى التحضّر ، ولكن إذا كان صاحب الدولة قد وصل إلى الرئاسة بمقتضى العصبية ، فإنّ الرئاسة لا تستحكم إلاّ إذا جدع أنوف أهل عصبيّته وعشيرته المتقاسمين له في نسبه . ومن ثمّ فإنّه يدافعهم عن الأمر ولا يطيب له الملك إلاّ بالاستغناء عن العصبية التي اكتسب بها المجد .

فهنا قضيّتان متعارضتان في مسار التاريخ ، في العصبية تتمّ الرئاسة ، ولا تطيب الرئاسة إلاّ بالاستغناء عن العصبيّة ، أو بتعبير آخر أهل العصبية عون لصاحب الدولة في قيامها ، وأهل العصبية مناوئون لصاحب الدولة في رئاسته ، وثمّة مكمّل لهاتين القضيّتين اتّخاذ الموالي والصنائع كبديل عن أهل العصبية . ومن ثمّ تتمّ حركة التاريخ ، وتكون بداية تدهور الدولة .

ومثال آخر في نفس الموضوع : هو أنّ الترف يزيد الدولة في أوّلها قوّة إلى قوّتها ، إنّه غاية الحضارة ، وبالملك تتباهى الدول المتحضّرة ، وبه تقاس حضارتها وقوّتها ، وبه ترهب الدول المجاورة ، ولكنّ الترف هو العلّة الأساسيّة لطرو الخلل في الدولة ، إنّه مؤذن بالفساد ، وإذا حصل الترف ، أقبلت الدولة على التراجع ، فالترف مظهر الحضارة ، والترف هادم للحضارة ، وكذلك الترف غاية العمران ، والترف مؤذن بنهاية العمران . فالترف يرهب الأمم المجاورة ، وهو يغري القبائل وأهل البداوة بالانقراض .

ويجب أن يضاف إلى ذلك ، الهمّة بسبب الضعف ، والغرور بسبب القوّة ، فإنّ الضعفاء يوجّهون همّتهم حتّى يصلوا إلى الحكم وإلى المراتب العالية من السلطة ، فإذا وصلوا إلى الحكم وإلى المراتب العالية يأخذهم الغرور وبذلك يأخذون بالضعف . وقد قال الإمام علي عليه السلام : **(أوحش الوحشة العجب)**[1] ،

---

(١) نهج البلاغة : قصار الحكم : الحكمة ٣٨ ، مشكاة الأنوار : ص٣١٤ ، معدن الجواهر : ص٤٢ ، غرر الحكم ودرر الكلم : ص٣٠٩ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٨ ص١٥٧ ب ٣٨ .

فإنّ المغرور المعجب بنفسه ، يستغني عن هذا ، وعن هذا ، وعن هذا ، وبذلك يكون سقوطه ، فإنّ سقوطه ونهوضه إنّما كان بهذا ، وهذا ، وهذا . وقد شاهدنا ذلك في تاريخ الأمويين والعباسيين والعثمانيين والقاجاريين ، ومن إليهم ، كما شاهدنا مثل هذا الأمر في تاريخ الشيوعية العامّة بل والشيوعية الخاصّة في العراق التي تبدّلت إلى قومية ، والقومية الخاصّة في العراق التي تمثّلت بالبعثية والبعثيين وهم في العراق في هذه الأيّام يلفظون أنفاسهم ، حتّى يتغيّر الأمر إلى الديمقراطية ، أو ما أشبه ذلك[1] .

وعلى كلّ حال : فكون قانون التكامل في الأمم قانوناً ، عاماً ، دائماً ، ضرورياً ، جبريّاً ، مسيطراً على كلّ حركة المجتمع أو التاريخ ، فإنّه إنّما يصحّ على نحو الجزئية لا على نحو الكلّية ، بالإضافة إلى أنّه صادق في بعض أبعاد المجتمع أو التاريخ لا مطلقاً . فإنّ التكامل الذي بمعنى التعقيد المتزايد في علاقات الناس بعضهم ببعض ، وارتباطاتهم الاجتماعية والاقتصادية إنّما يمكن قبوله إذا كان بشكل جزئي لا بنحو قانون عام ، لأنّ ذلك تقتضيه زيادة النفوس البشرية وطبيعة الإنسان بما هو موجود ، تقتضي قدرته على التوالد والتناسل والزيادة السكانية وحبّ الأولاد والأحفاد والأقرباء ، وهكذا . لأنّه كلّما ازداد السكان ، فإنّ الارتباطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والفكرية والعائلية والعسكرية ؛ تكثر بطبيعة الحال .

ولذلك نرى أنّ العلاقات الاجتماعية في المجتمع المدني أكثر وأشدّ تعقيداً من العلاقات في المجتمع القروي ، أو القبلي ، أو الحزبي ، كلّ في بعده . ولهذا يكون المجتمع المدني بحاجة إلى مؤسّسات ودوائر ، يستغني عنها المجتمع القروي ، أو

---

(١) ونحن إذ نهيئ هذا الكتاب للطباعة ؛ زُفّت إلينا أنباء انهيار النظام البعثي في العراق ، وبهذا تحققت أمنية المؤلف تَتَنَّ ، وقد رسم الإمام المؤلف تَتَنَّ ملامح مستقبل العراق: في كتابه «إذا قام الإسلام في العراق».

القبلي . وهذا إنّما يصحّ بالنسبة إلى الدوائر التي تحتاج إليها المجتمعات ، لا إلى الزوائد التي يسبّبها الديكتاتوريون حيث يحتاجون إلى كثرة المصفّقين .

وقد ذكرنا أنّ علماء الإحصاء في الغرب ذكروا عن مصر في عهد عبد الناصر[١] أنّها كانت بحاجة إلى مائتي ألف موظّف حسب الموازين الدقيقة لكنّ الحكومة جمعت حولها مليوناً ومائة ألف ، وجوهر القضية إنما احتاجت إلى تسعمائة ألف من المصفقين والمهللين[٢] ، وما أشبه ذلك .

الاطّراد السكاني والمؤسسات

ومن السنن في هذا الحقل أن النمو التدريجي للسكان يسبب احتياج الإنسان إلى المؤسّسات والدوائر العالمية أيضاً كالمحاكم الدولية ، والأمم المتّحدة ، وما أشبه ذلك . وكلّما تقدّم الإنسان في المدنية والحضارة ، وتقدّم في النمو والزيادة ، اشتدّت التعقيدات ، بحيث تحتاج البشرية لتسيير نفسها ، وتنظيم ذاتها إلى مؤسّسات ، ودوائر أعظم مما عليه الآن .

مثلاً : المدينة الواحدة بحاجة إلى مؤسّسات قليلة بقدر المدينة ، أمّا إذا صارت مدينتان ، فهما تحتاجان إلى مؤسّسة ثالثة هي التي تدير المدينتين وتنظّم العلاقة بينهما .

لكن هذه القاعدة التي ذكرناها إنّما هي فيما إذا اطّرد تقدّم الإنسان في النسل والنمو السكّاني ، وأمّا إذا توقّف هذا الشيء بسبب لا نعلمه ، أو ارتدّ إلى الوراء ؛ ينعكس الأمر حكماً كما انعكس موضوعاً ، إذ حينئذ تتوقّف كثرة العلاقات وتعقّدها بل تتقهقر إلى الوراء .

---

(١) ولد سنة ١٣٣٦هـ (١٩١٨م) وتوفي سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) ، قائد ثورة تموز ١٩٥٢م ، تولّى رئاسة الوزراء سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) ، واتّخذ الاشتراكية كنظام لإدارة البلد ، تولّى رئاسة الجمهورية سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦م) ، واستمر حكمه إلى سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) .

(٢) للمزيد من التفصيل راجع كتاب «إلى حكومة واحدة إسلامية» للإمام المؤلف ﭬ .

وما ذكرناه صادقٌ أيضاً في التقدّم العلمي ، والتجريبي ، والفنّي ، والصناعي ، والتكنولوجي ، وما أشبه ذلك ، وذلك لأنّه من أبرز ميّزات الإنسان أنّه يستغّل علوم السابقين وتجاربهم ليفجّر في نفسه القوى الكامنة بالإضافة إلى تلك الاستعدادات الكاملة ويربّي الطاقات المخبأة ، وبذلك يأخذ في التقدّم ، لكنّ السؤال هل سيستمر هذا التقدّم ، أو ينطفئ بفعل قنبلة ذرية والعياذ بالله ، أو بعوامل أخرى ؟ .

ومن يدّعي أنّ علوم الإنسانية وفنونها قد سارت في طريق التقدّم لحدّ الآن ، فهو كلام بدون دليل ، فإنا لا نعرف عن عمر الإنسان أكثر من عشرة آلاف سنة .

أمّا قبل ذلك كيف سار المجتمع تقدّماً ، أو توقّفاً ، أو تأخّراً ، فلا نعلمه ، وقد أشرنا في بعض كتبنا إلى أنّا نحتمل أنّ عمر الإنسان في الكرة الأرضية أكثر من مائة مليون سنة ؛ كما دلّت على ذلك بعض الشواهد التاريخية . وأمّا بالنسبة إلى الحيوان ؛ فقد دلّت الحفريات ونحوها على أن عمر بعضها أكثر من «٣٠٠» مليون سنة . وبذلك لا نعلم سابق الزمان حتّى نحكم عليه أو له ، أو بأنّه كان كذا وكذا ، لأنّ الحكم تابع للموضوع ، والموضوع تابع للعلم ، ففاقد العلم لا يتمكن من الحكم .

الأمور الضرورية للمؤرّخ

مسألة : من يريد استكشاف فلسفة التاريخ عليه أن يهتمّ بثلاثة أمور «الصغرى ، والكبرى ، والنتيجة» بأن تكون مفردات الصغرى صحيحة واقعية لا خيالية ناشئة عن الأهواء ، والشهوات ، أو الآلات ، أو الاشتباهات ، وأن تكون الكبرى صحيحة واقعية لا ناشئة عن الغلط والخطأ ، وتكون النتيجة أيضاً صحيحة مترتّبة على هذه الكبرى وهذه الصغرى .

مثلاً : إذا قلنا إنّ العالم متغيّر ، وكلّ متغيّر حادث ، فالعالم حادث ، يلاحظ أن تكون صغراه صحيحة بأن كان العالم متغيّراً ، وأن تكون كبراه صحيحة بأن يكون كلّ متغيّر حادثاً حسب المنطق والدليل ، وأن تكون النتيجة التي هي العالم حادث أيضاً مترتّبة عبر اجتماع شرائط أحد الأشكال الأربعة على تلك الصغرى والكبرى ، وإلاّ فإذا أخطأ الإنسان في أحد الثلاثة ؛ لا يصل إلى الفهم الصحيح ، الذي هو طريق إلى الواقع الصحيح .

وبعبارة أخرى ؛ يجب أن تكون صورة القياس ومادّته مطابقةً للواقع وصحيحةً ، فالصورة كما ذكرها علماء المنطق ، والفلسفة ، على أربعة أقسام مشهورة ، والمادّة على ما ذكرها أيضاً هي على الأقسام الخمسة الصناعية ، وكلّ الخلاف في العالم أخذاً من المبدأ إلى المعاد ، وإلى أكبر مجرّة ، وأصغر ذرّة ، إنّما حصل بسبب أحد هذه الثلاثة ، أو أحد هذين الاثنين .

أمّا الاختلاف بسبب اختلاف المصالح ؛ فليس من محلّ الكلام في شيء ، إذ الاختلاف قد يكون اختلافاً في الواقع والجوهر ، مثل إنّ زيداً طبيب أو ليس

بطبيب ، وأنّ عمراً عادل أو ليس بعادل ، وقد يكون باختلاف المصالح مثل تضرّر مصلحة الطبيب والمريض ؛ حيث مصلحة المريض تقتضي أن يراجع الطبيب ولو في نصف الليل ، ومصلحة الطبيب تقتضي أن ينام في هذا الوقت وإلاّ تسبّب له المرض ، فإنّ اختلاف مصالحهما هو الذي يسبّب التضارب ، وكذلك اختلاف البائع والمشتري ، إذ المشتري ؛ مصلحته تقتضي شراء الشيء الرخيص ، بينما مصلحة البائع تقتضي أن يعطي البضاعة غالياً أو فوق الرخص . وهكذا حال مصلحة الزوجين ، وسائر الشركاء .

وقد نُقلَ عن ابن سينا أنّه إذا قيلت له قضيّة صبّ القضيّة في الصغرى والكبرى ، ولاحظ أنّها من أيّ الصناعات الخمس : البرهانيّات ، أو المشهورات ، أو ما أشبه ذلك . ثمّ حكم بصحّتها أو سقمها وفسادها مطلقاً أو في الجملة .

ومن أظهر الأمثلة لذلك ؛ من كانوا يمدحون يزيد أو يذمّونه ، أو يمدحون الحجّاج أو يذمّونه ، أو يمدحون الشيطان أو يذمّونه ، فإنّ هناك فرقةً تعبُدُ الشيطان باعتباره طاووس الملائكة وأنّه أوّل العابدين ، وباعتباره أنّه لم ينخدع بخدعة الله سبحانه وتعالى حسب تعبيرهم . حيث إنّ الله أراد تعليم آدم وحواء أشياء في حال سجود الملائكة فأمرهم بالسجود لكنّ الشيطان لمّا عرف ذلك أبى السجود ، ولذا يعبّرون عنه بسيّد الموحّدين !. إلى غير ذلك من الأمور الغريبة المذكورة في التواريخ . وقد قال الشاعر في حقّ عليّ عليه السلام :

كم بين مَن شكّ في خلافته ... وبين مَن قال إنّه الله

ولم تكن هذه الأمور خاصّة بالزمان السابق بل وحتّى في زماننا هذا ، وهو زمان العلم والنور والذرّة والرحلات الفضائية ، فقسمٌ كبير من الناس ينحدرون عن الجادّة بأبشع انحراف .

مثلاً : صدّام [(١)] وهو الشخص الذي تفوق همجيته همجية الحجاج [(٢)] كما

---

(١) لقد حول صدام العراق إلى جحيم لا يطاق ، فالذي يسلم من السجن والتعذيب والقتل ، لم يسلم من هدر كرامته ، وقد قتل من الشعب العراقي خمسة ملايين وثمانمائة ألف إنسان عدا من قتل في حروبه ، وأطيح به ولله الحمد في ٢٠٠٣/٤/٩م . عن صدام راجع كتاب «تلك الأيام» للمؤلف تنتك : ص٧٩.

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي ، ولد في الطائف سنة ٤١هـ (٦٦١م) ، وانتقل إلى الشام ودخل في خدمة الدولة الأموية ؛ فاشترك في الجيش الذي قاده عبد الملك بن مروان لقتال مصعب بن الزبير ، وفي سنة ٧٠ هـ (٦٨٩م) ولاّه عبد الملك قيادة الجيش الذي أرسله لقتال عبد الله بن الزبير في الحجاز فسار نحو مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق من جبل أبي قبيس وتغلب على ابن الزبير وصلبه ، وظلّ بالحجاز حتى سنة ٧٤هـ (٦٩٤م) ، ثم ولاّه عبد الملك ابن مروان الكوفة ، وقتل سنة ٩٥ هـ (٧١٤م) بعد أن سجن في دمشق ، وعاش ٥٣ سنة ، يعدٌ من أسوأ عمّال بني أمية ، أسهم في توطيد حكمهم ، وقد وصف الحجاج نفسه كما عن ابن سعد في «الطبقات» ج٦ ص٦٦ : «ما أعلم اليوم رجلاً على ظهر الأرض هو أجرأ على دمٍ مني» ، وقد وصفه خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» : «وكان سفاكاً سفاحاً باتفاق معظم المؤرخين» ، وقال عنه اليافعي في «مرآة الجنان» : « إنّ أكبر لذّته سفك الدماء» ، اتّسم حكمه بالقتل والبطش ، ومثال على ذلك فقد قال الحجاج لخالد بن يزيد ابن معاوية : «ولقد ضربت بسيفي هذا أكثر من مائة ألف ، كلهم يشهد أنك وأباك وجدك من أهل النار» انظر مسالك الإبصار : ص١٢٣ ، كما ذكر المسعودي في «التنبيه والإشراف» ص٣١٨ : «إن عدد من قتلهم الحجاج صبراً بلغ مائة وثلاثين ألفاً عدا من قتل في زحوفه وحروبه» ، وفي «تاريخ الخلفاء» للسيوطي و«الإمامة والسياسة» لابن قتيبة ، أن عبد الملك لما كتب إلى الحجاج يأمره بالمسير إلى العراقيين ويحتال لقتلهم ، فلما دخل المسجد في البصرة وقد حان وقت الصلاة صعد المنبر فحمد الله ثم قال : «أيها الناس ، إن الأمير عبد الملك قلدني بسيفين حين توليته إيايّ عليكم سيف رحمة وسيف عذاب ونقمة ، فأما سيف الرحمة فسقط في الطريق ، وأما سيف النقمة فهو هذا» ، فجعل السيوف تبرى الرقاب فقتلوا من المسلمين بضعة وسبعين ألفاً حتى سالت الدماء إلى باب المسجد وإلى السكك . وقد ذكر الميرزا حبيب الله الخوئي في «منهاج البراعة» : ج٣ ص ٣٥٩ ما لفظه : «وأحصي من قتل بأمره - الحجاج - سوى من قتل في حروبه فكان مائة ألف وعشرين ألفاً ووجد في سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة ، ولم يجب على أحد منهم قتل ولا قطع ، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد لا سقف له ، فإذا آوى المسجونون إلى الجدران ؛ يستظلون بها من حرّ الشمس ، رمتهم الحرس بالحجارة ، وكان طعامهم خبز

ذكرنا ذلك في البيانات المرتبطة بالعراق ، نجد من يمدحه أشدّ المدح ، ولا بأس أن ننقل هنا مقالة لأحد العراقيين والموالين له في مجلّة «المجلّة» العربية في السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٨هـ ، وهذا نصّ المقالة :

«يعدّ صدّام حسين أوّل قائد عربي منذ زمن الخلافة العباسيّة ، ينجح في بناء دولة متقدّمة ومجتمع مرفّه ، فالعراق قبل ثورته التي قادها كان فقيراً رغم ثرائه وكان «٨٠٪» من شعبه حفاة أمّيّين ، يفتقرون لأبسط مقومات الحياة ، فانقلب الوضع جذرياً ، وتجلّى ذلك في محو الأميّة ، واستئصال الأمراض الشائعة ، والقضاء على الفقر ، وما ينجم عنه أمراض اجتماعية معروفة ، وتحقيق العدالة الاجتماعية بصورة نموذجية ، وبناء جيش من العلماء ، والمهندسين ، جعلوا العرب قادرين ولأوّل مرّة في تاريخ العصر الحديث على دخول عصر التصنيع في مجالات معقّدة . إنّ هذه بعض وليست كلّ إنجازات صدّام حسين وهي وجوهاً تكفي لجعل كلّ عراقي يتمسّك بقيادة صدّام حسين . وعلى المستوى العربي تميّز صدّام حسين بأنّه صاحب مبدأ ، ورسالة ، وهؤلاء يتميّزون بثبات عليها ، وعدم الوقوع في إغراءات الحياة العابرة ، فإذا نظرنا إلى المسؤولين العرب الآن لوجدنا أنّ الرئيس صدّام يتميّز بالتمسّك بمسيرته وهو لن يتخلّى عن إيمانه بالقومية العربية

الشعير مخلوطاً بالملح والرماد . وقريب من هذا المعنى في كتاب : «شجرة طوبى : ج١ ص١٢٨» ، وقال الشيخ عباس القمي في «وقائع الأيام» : «إنّ ١٥ ألف امرأة من سجنائه كن حافيات عاريات». وقد أذلّ المسلمين ؛ يقول صاحب كتاب «أسد الغابة» : «عندما ولي الحجاج المدينة ثلاثة أشهر ، عبث فيها واستهزأ بأصحاب الرسول ﷺ وختم على أعناقهم بالرصاص» ؛ لإذلالهم أمثال سهيل الساعدي وأنس بن مالك وختم في يد جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه . وقتل : كميل بن زياد وسليم بن قيس وقنبر مولى الإمام علي عليه السلام وسعيد بن جبير الذي كان عمره ٩٩ سنة وعبد الرحمن بن أبي ليلى وابن أم طويل رضي الله عنه . وهو من حواريي الإمام السجاد عليه السلام . بعد أن قطع يديه ورجليه . للمزيد من المعلومات عن جرائمه راجع كتاب «الشيعة والحاكمون» وكتاب «الشيعة في الميزان» لمحمد جواد مغنية.

وهو لم يقبل باسم السلام التخلّي عن «٩٠٪» من الأراضي الفلسطينية التي احتلّت عام «١٩٤٨م» كما فعل بعض العرب ، ولم يغيّر قناعاته بأنّ الصهيونية كانت وستبقى عدوّة العرب اللدود ، وأن أميركا هي الداعم الأوّل لها ، الأمر الذي يتطلّب مواصلة النضال ضدّ الصهيونيّة وأميركا ، واعتبار ذلك معياراً للأصالة ، والصواب ، والحقّ . وقد ارتد أغلب الزعماء العرب عن شعارات وأهداف أعلنوا تمسّكهم بها ، ففرّطوا بمصالح ، وحقوق العرب . ونحن شعب لا يكره شيئاً بقدر كراهية المرتدّين ، فتمسك صدّام برسالته مبعث حبّ وتقدير لدى العراقيين ، وصدّام لم يتوقّف عند حدّ التمسّك بالمبادئ العروبية بل هو القائد الذي حوّل الشعارات إلى أعمال وهو الذي نقل الحرب إلى داخل فلسطين المحتلّة بإطلاق «٤٣» صاروخاً هدمت مرتكزات نظريّة الأمن الإسرائيلية ، وأنهت أسطورة إسرائيل التي لا تقهر . وصدّام هو الوحيد الذي لم يرتعد من وحشية أميركا ، ودخل الحرب العالمية الثالثة ضدّها ومعها اثنتان وثلاثون دولة ، وخرج من الحرب منتصراً بعد أن أحرق الغزو العراق وزرع حكومة عميلة فيه ، وذلك من أعظم انتصارات العرب في كلّ تاريخهم وكانت مظاهرات عشرات الملايين من العرب في المشرق والمغرب استفتاءً حرّاً أكّد أنّ صدّام يتمتّع بثقّة وتقدير الشعب العربي بعكس أغلب الحكّام العرب ، وصدّام من وجهة نظر المواطن العربي العادي هو القائد العربي الوحيد الذي حرّر نفط بلده ، وسخّره لخدمة شعبه ، وأشقائه ، لبناء دولة قويّة ، متحضّرة ، ومتطوّرة في حين أنّ آخرين سخَّروا هذه الثروة لبناء مجتمع استهلاكي ضعيف ولخدمة الأجانب .

وأمّا على المستوى العالمي ، فإنّ صدّام مثَّل أنموذجاً واضحاً للبطولة في عصر الاستذلال والخضوع للديكتاتورية الأمريكية ، فهو وحده من قال لا للهيمنة الأميركية وأردفها بفعل هزّ العالم وسيأتي أثره الإيجابي على مستقبله .

إنّني لا أؤيد صدّام ، فكلمة تأييد هزيلة بل أنا مقاتل ثابت في جيش صدّام

بصفتي عراقياً وعربياً أقدّس الإنجازات والأعمال وحيثما أدرت رأسي وجدت إنجازاً عظيماً حقّقه صدّام ، وتزداد صلتنا قوّة بـه ونحن نلاحظ أنّ الآخرين بلا إنجازات وبلا ماضٍ ولا حاضرٍ ، وتتقاذفهم رياح الضعف والصهينة .

وأخيراً لابدّ من القول إنّ العربيّ الأصيل هو الذي لا يكتفي بعداء الصهيونية وأميركا وحسب ، بل ويختار الوقوف إلى جانب صدّام ، وذلك معيار لا يخطئ أبداً ، فحيثما وقفت أميركا والصهيونية لا يجوز لأيّ عربي أرضه محتلّة أن يصافحهما ، وبخلاف ذلك تكون صداقة أميركا والصلح مع الكيان الصهيوني تَخَلياً عن الهويّة والحقوق والتحوّل إلى مخلوقات لا تمتلك الكرامة الإنسانية ولا احترام الذات ، ومن لا يحترم ذاته لا يحترمه أحد . . إنّنا لكلّ ذلك نحبّ صدّام» ـ انتهت المقالة ـ .

أقول : ولولا أنّ الواقعيّة تقتضي ذكر الأمثلة لكلّ جانب ما كان ينبغي لنا أن نذكرها هنا ، ألم يذكر الله ﷻ تهجّم الكفّار والمجرمين للأنبياء والمرسلين ، فقد قالوا لرسول الله ﷺ الذي هو في القمّة من البشرية إطلاقاً : ﴿**ساحر**﴾ [(١)] ، و﴿**كاهن**﴾ [(٢)] ، و﴿**مجنون**﴾ [(٣)] ، و﴿**مسحور**﴾ [(٤)] ، إلى غير ذلك من الأوصاف . وهكذا ذكر ﷻ مدح بعض الناس للطواغيت ، أو مدح الطواغيت لأنفسهم حتّى قال أحدهم : ﴿**أنا ربّكم الأعلى**﴾ [(٥)] .

نعم ، إنّ أمثال هذا الكاتب ونحوه يستحقّون ما ذكره ﷻ : ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ**﴾ [(٦)] ، فإنّ جهنّم هي خير علاج لهؤلاء

---

(١) سورة يونس : الآية ٢، سورة الزخرف : الآية ٤٩ ، سورة الذاريات : الآية ٣٩ و٥٢ .

(٢) سورة الطور : الآية ٢٩ ، سورة الحاقة : الآية ٤٢ .

(٣) سورة الذاريات : الآية ٣٩ و٥٢ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٤٧ ، سورة الفرقان : الآية ٨ .

(٥) سورة النازعات : الآية ٢٤ .

(٦) سورة البقرة : الآية ٢٠٦ .

المرضى .

وقد قال الحسن البصري [(١)] : إنّه إذا جاء أهل العالم بمجرميهم في صف وجئنا بالحجّاج وحده في صف آخر لكُنّا جئنا بأكثر من جميعهم إجراماً [(٢)] . ومع ذلك نجد الحسن البصري هذا يقول ربّما سمعت خطبة الحجّاج في التقوى فبكيتُ بكاءً مرّاً فكاد أن يخدعني .

أقول : ذكر المؤرّخون أنّ الحجّاج كان ينصح الناس بالتقوى ، ويأمرهم بالطاعة لله تعالى ، وأنّ الدنيا لا اعتبار لها ، وأنّ اللازم ألاّ يعصي الإنسانُ الله حتّى في أصغر صغيرة فإنّ وراءه جهنّم . ثمّ يبكي بكاءً مرّاً حتّى تتقاطر الدموع من لحيته . وكان يلبس عمّة كبيرة جدّاً وكان يقول في شعر له :

أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا متى أضع العمّامة تعرفوني [(٣)]

وصدّام أسوأ من الحجّاج بما نُقِلَ عنه [(٤)] ، وشاهدنا من أعماله في القتل ،

---

(١) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، ولد سنة ١١هـ (٦٣٣م) وقيل ٢١هـ (٦٤٢م) كما عن المنجد في الأعلام وكما في موسوعة المورد : ج١ ص ٦٨ وأقام في البصرة لذلك نسب إليها ، ومات في البصرة سنة ١١٠هـ (٧٢٨م) يعتبره الصوفية من أوئل المتصوفة ويعتبره المعتزلة واحداً منهم باعتبار أن عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء من تلامذته ، وقد ذكرت ترجمته في الجرح والتعديل : ج٣ ص٤٠ ، وميزان الاعتدال : ج١ ص٥٢٧ ، ووفيات الأعيان : ج٢ ص٦٩ ، وسير أعلام النبلاء : ج٤ ص٥٦٣ ، وتهذيب التهذيب : ج٢ ص٢٦٣ والمنجد في الأعلام : ص٢٣٦ ، والموسوعة الإسلامية : ج٥ ص ٢٦٥ .

(٢) وقد ذكر صاحب كتاب منهاج البراعة : ج٣ ص٣٥٨ عمّا اشتهر بين المؤرخين : «لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وفاجرها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم» ، ولايخفى أن الحسن البصري قد عاشر الحجاج عن قرب ، وعندما سمع بموته سجد لله شكراً قائلاً : «اللهم كما أمتّه فأمت عنّا سنته»

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٢٠ ص ١٨٨ .

(٤) للتفصيل راجع كتاب «العراق دولة المنظمة السرية» ، وكتاب «دولة الاستعارة القومية» لحسن العلوي ، وكتاب « الجنرالات آخر من يعلم» لسعد البزّاز ، وكتاب «شبيه صدام»

والتعذيب ، ومصادرة الأموال ، والانسياق وراء الشهوات بل إنّي لا أظنّ أنه جاء في العراق حاكمٌ أطغى من صدّام ، وحتّى هولاكو [1] لمّا أحتلّ العراق ذهب إليه جماعة من العلماء طلبوا منه استثناء مدن الحلة ، والنجف الأشرف ، وكربلاء المقدّسة عن مذابح جيشه فَقَبِلَ منهم ذلك ، وترك الحلّة ؛ لكونها مركزاً للعلماء ، والنجف وكربلاء باعتبارهما مراكز عبادية ، بينما نشاهد أنّ الأسوأ من المغول جعل كربلاء المقدّسة ، والنجف الأشرف ، والحلّة ، مسرحاً لعمليّاته ، وقتله ، وسائر فضائحه ، وقد ورد ذكر بعض ذلك في كتاب «العراق بين الماضي والحاضر والمستقبل» لجماعة من الكتّاب .

وعلى أي حال : فإنّ أي انحراف ولو بحجم صغير لا بهذا الحجم الذي تكاد السماوات يتفطّرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخرّ الجبال هدّاً يوجب خللاً في فلسفة التاريخ التي نحن بصددها ، والآية المباركة وإن كانت في الاعتقاد بغير الله ﷻ ، حيث قال ﷻ : ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَداً ◆ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ◆ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ◆ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَداً ◆ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ◆ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَـٰنِ عَبْداً**﴾ [2] ، إلاّ أنّ هذه الآيات والتي هي من أصول الدين تناسب أمثال صدّام الذي حارب أصول الدين وفروعه على حدّ سواء وإن كان ينطق بالشهادتين فهو من المنافقين الذين قال الله ﷻ فيهم : ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا**

لميخائيل ـ مخلف ـ رمضان ، وكتاب «من مذكرات حردان التكريتي» ، وكتاب «شخصية الطاغوت» للسيد هادي المدرسي .

(١) هولاكو بن قان تولي بن جنكيز خان ، أحد القادة المغول ، الذي عرف بسطوته ودهائه وحبّه للحروب ، احتل مصر سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) وبغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وأباحها أربعةً وثلاثين يوماً ، وبلغ عدد القتلى فيها مليوناً وثمانمائة ألف ، وقتل في هجومه على بغداد المستعصم العباسي ، مات سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) ، وخلف عدة أولاد منهم : أبغى ، منكوتمر، أحمد ، كنجو .

(٢) سورة مريم : الآيات ٨٨ - ٩٣.

آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [(١)] ، فهو كاذب حتّى في ألفاظ الشهادة كما قال ﷻ بالنسبة إلى المنافقين الذين **﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾** [(٢)] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤ .

(٢) سورة المنافقون : الآية ١ .

الفصل الثاني

عناصر روح التاريخ

الفطرة والعقل

مسألة : خلق الله سبحانه وتعالى في الإنسان عنصرين : الفطرة والعقل ، فالفطرة في نفس الإنسان ، وداخله ، وذاته ، والعقل شيء يركّب فيه ، مثالهما مثال السائق وذات السيّارة حيث إنّ ذات السيّارة ركّبت بحيث تتمكّن من التقدّم والتأخّر ، والتيامن والتياسر ، والسرعة والبطء ، وما أشبه ذلك ، ولولا ذلك ؛ لم يتمكّن السائق أن يقود السيارة ، بينما السائق هو الذي يقود السيارة ، وأشير إلى ذلك في قول المعصوم ﷺ : **(كلٌّ ميسّرٌ لما خُلقَ له)** (١) ، فخارج الخلق لا يسر وإنّما اليسر في داخل الخلق ، سواء الإنسان الذي يريد الانحراف أو الذي يريد الاستقامة .

ومن الواضح أنّ المادّة التاريخية ، وعقلية المؤرّخ ، كليهما يؤثّران في الرؤية ، فإن كانت المادة التاريخية مادة صحيحة ، وعقلية المؤرّخ عقلية مستقيمة ، يكون الإنسان قد وصل إلى روح التاريخ ، أمّا إذا كان انحرافٌ في المادّة التاريخية ، أو في عقلية المؤرّخ ؛ بسبب الشهوات ، أو الأهواء ، أو الأعراف ، أو العادات ، أو الرشوة ، أو ما أشبه ذلك ، لم يكن المستفاد من ذلك هو روح التاريخ ، وإنّما يكون شيئاً منحرفاً . وإنكار بعض علماء الغرب لفطرية الأفكار ناشىء من إنكارهم للأفكار المنحرفة التي رأوها عند الكنيسة في حال انحرافها .

والعقل قادر على إدراك الروح العامة للتاريخ كإدراكه للروح الخاصّة لكلّ

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١١ص٨٢ ب٢٠٧ ، التوحيد : ص٣٥٦ ، نهج الحق : ص ١٢٠، بحار الأنوار : ج٤ ص٢٨٢ ب٤ ح١٦ ، كنز العمال : ج١ ص٥١٦ ، الجامع الصغير : ج٢ ص٢٨٧ .

فرد ، إضافة إلى ذلك فإنّه قادر على إدراك الواقعيات التي لا خارجية لها إطلاقاً ، فلو فرض أنّه لا خارجية للحساب من جهة المادّة كان «٤ × ٤ = ١٦» . وكذلك بالنسبة إلى الأشكال الهندسية ، وحسن الإحسان ، وقبح الظلم ، وكون الكلّ أعظم من الجزء ، وكون استحالة اجتماع النقيضين ، أو ارتفاع النقيضين ، أو اجتماع الضدّين ، أو ما أشبه ذلك ؛ كلّها من قبيل العقلانيات .

وبعض علماء الغرب ، الذين أنكروا العقلانيات ، يريدون بذلك عقلانية الكنيسة ، لأنّ علماء الغرب بعد إسقاط الكنيسة هاجموها بأعمالها التي كانت كلّها خلاف العقل والمنطق ، وخلاف ما جاء به عيسى ابن مريم عليهما السلام .

أقسام الإدراكات

وعلى أي حال : فهناك إدراكات عن طريق الحواس الخمس ، ولذا قال ابن سينا : **«من فَقَدَ حساً ، فقد فَقَدَ علماً»** ، كما أنّ هناك إدراكات من جهة التفكّر والتعقّل وإن لم يكن لها وجودٌ خارجي إطلاقاً لا موضوعاً ولا حكماً ، مثل قولنا : شريك الباري ، لأنّ شريك الباري غير موجود إطلاقاً ومحال ، والمحمول المرتّب على هذا الموضوع أيضاً غير موجود إطلاقاً ؛ على ما ذكره الفلاسفة في كتبهم ، وذكرناه أيضاً في شرح التجريد (١) ، وفي شرح المنظومة ، وغيرهما .

والخلاصة : إنّ الطبيعة البشرية على غرار الطبيعة الخارجة عن البشر من هذا الحيث ، وحيث إنّ الأفكار التقليدية والأفكار الزمنية لم يكونا على توافق اصطدم بعضهما ببعض ، وجوبهت آراء جماعة من علماء الغرب مثل آرائهم في الفلك ، وآرائهم في الفيزياء والكيمياء برفض من الكنيسة التي استخدمت حربتها باسم الكتاب المقدّس لرفض العلم ، والإبداع ، والتقدم حيث إنّهم لم يكونوا قد فهموا الكتاب المقدّس حتّى المحرّف منه ، بالإضافة إلى أنّهم لو فهموه لم يكن

---

(١) «القول السديد في شرح التجريد».

مقدّساً في كلّه ، فقد قال تعالى : ﴿**نَسُوا حَظّاً ممّا ذُكِّرُوا به**﴾ [1] ، ولـذا وقـع العلـم والدين في مواجهة وتصادم ، ولما لم يكـن لديـن الكنيسـة جـواب علـى تسـاؤلات العلماء ، نجد أنّه خسر معركته مع العلـم ، هـذا مـا حـدث في الغـرب ، أمّـا عندنـا فالعلم الصحيح لا ينسف الدين ، كما أنّ الديـن الصحيـح لا ينـافي العلـم ، فـهما متكاملان ومتوافقان .

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٣ .

روح التاريخ

مسألة : هل للتاريخ روح عامّة وتحليل وفلسفة ، كما يقول جماعة من العلماء؟ ، أو ليس له مثل ذلك ، بدليل فردية أحداث التاريخ ، وعدم تشابه بعضها مع البعض ، وتعذر استخلاص قوانين كلّية منها أو التنبؤ بها .

ويستدل هؤلاء لذلك بما نشاهد من قضايا فردية تغيّر مصير الأمم ، ـ مثلاً ـ لو كشف الكفّار مكان الرسول ﷺ في غار حراء لقتلوه وتغيّر وجه التاريخ منذ خمسة عشر قرناً تقريباً . وهكذا لو أنّ ابن ملجم [1] لم يضرب علياً عليه السلام على مفرقه الشريف ؛ لتغيّر وجه التاريخ ، ولم تكن هناك حكومة أمويّة ابتداءً من معاوية وانتهاءً بآخر حاكم لهم هو مروان الحمار [2] ، ولم تلفّق آلاف الأحاديث على لسان رسول الله ﷺ التي تعطي مفعولها إلى الآن . وهكذا لو لم يتحرّك الإمام الحسين عليه السلام من المدينة المنوّرة ؛ لتغيّر وجه التاريخ ولم تقع الثورات وما شابه ذلك ، الأمر الذي أدّى إلى نهاية حكومة بني أميّة ، وإقامة حكومة بني العباس بالإضافة إلى حكومات أخرى كالفاطمية [3] في

---

(١) عبد الرحمن بن ملجم المرادي الحميري ، من قيادات الخوارج ، قتل سنة ٤٠هـ . ترجمه لسان الميزان : ج٣ ص٤٣٩ ، الأعلام : ج٣ ص٣٣٩ .

(٢) آخر ملوك بني أمية ، حكم سنة ١٢٨هـ (٧٤٥م) واستمر حكمه إلى سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) ، ولقب بالحمار ؛ لأنه كان يجف له لبد في محاربة الخارجين عليه ، وكان يصل السير بالسير ، وقد ذكر ابن صبري في تأريخ مختصر الدول ص٢٠٥ : «لقب بذلك لصبره في الحروب» . ثار عليه أهل حمص ودمشق وفلسطين وتدمر ، وأخفق في معركة «الزاب» وفر إلى مصر ، وقتله بنو العباس .

(٣) الدولة الفاطمية ، حكمت من ٢٩٧ هـ (٩٠٩م) ، واستمرّ حكمها إلى ٥٦٧هـ (١١٧١م) ، وكان عدد حكّامها أربعة عشر خليفة ؛ وهم كالتالي : ١. عبيد الله «المهتدي بالله» ٢. محمد بن عبيد الله «القائم بأمر الله» ٣. إسماعيل بن محمد «المنصور بالله» ٤. معدّ بن إسماعيل «المعز لدين الله»

مصر ، والأدارسة [1] في المغرب ، والحمدانية [2] في حلب ، وغير ذلك .

---

٥. نزار بن معدّ «العزيز بالله» ٦. منصور بن عبد العزيز «الحاكم بأمر الله» ٧. علي بن عبد العزيز «الظاهر بأمر الله» ٨. معدّ بن علي «المستنصر بالله» ٩. أحمد بن معدّ «المستعلي بالله» ١٠. المنصور بن أحمد «الآمر بأحكام الله» ١١. عبد المجيد بن محمد «الحافظ لدين الله» ١٢.إسماعيل «الظافر بالله» ١٣. عيسى «الفائز بنصر الله» ١٤. عبد الله «العاضد لدين الله» ، في بادئ الأمر حكموا تونس ثم أخضعوا الشمال الإفريقي كله ثم مصر ؛ في عهد الخليفة المعز لدين الله ، الذي مدّ حدود حكمه إلى شواطئ الأطلسي وأنشأ مدينة القاهرة وبسط نفوذه على سورية وفلسطين ولبنان ، ومجموع خلافتهم مائتا سنة واثنتان وسبعون وبضعة أيام ، منها مائتان وثمان سنين في القاهرة ، ومن إنجازاتهم : إيجاد وحدة التكامل السياسي بين المغرب والمشرق ؛ فأصبح المغرب وملحقاته : صقلية وقوصرة وفلورية ، ومصر وملحقاتها : وهي الشام والحجاز واليمن ؛ وحدة سياسية قاعدتها القاهرة . ومن إنجازاتهم أيضاً : وقوفهم في وجه الدولة البيزنطية والروم ، كما أسسّوا جامع الأزهر وجامع الحاكم ودار الحكمة ودار العلم . راجع «المجالس والمسايرات للقاضي النعمان» ، «تأريخ الخلفاء الفاطميين في المغرب» ، «أعيان الشيعة» .

(١) سلالة حكمت المغرب من سنة ١٧٣هـ (٧٨٩م) وإلى ٣١٤هـ (٩٢٦م) ، مؤسّسها إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، الذي نجا من مجزرة «فخ» التي حدثت في عهد الهادي العباسي بعد أن حاصرت قواته مجموعة من العلويين بالقرب من مكة في منطقة اسمها «الفخ» ، وقتل أكثر العلويين ولم ينج منهم إلاّ عدد قليل كان منهم إدريس ، الذي هرب إلى مدينة «وليلي» في المغرب ، واستقبله زعيم قبيلة «أورَبه» سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨م) وبايعه على الزعامة وتبعته بقية القبائل ؛ فاتّخذ مدينة «وليلي» عاصمة له ، ثم وسع نشاطه ودولته في المغرب حتى شملت شمال إفريقيا ؛ ممّا أغاظ هارون العباسي ، الذي رأى أنّ لا قبل له بهزيمته عسكرياً ؛ ففكّر باغتياله بالسُّم سنة ١٧٧هـ (٧٩٣م) ، وقد حكم خمس سنوات ثم تولّى الحكم مولى الأدارسة «راشد» حتى وفاته سنة ١٨٦هـ (٨٠٢م) ثم حكم أبو خالد العبدي إلى أن بلغ إدريس الثاني الذي كان حملاً عند مقتل والده ، ولمّا بلغ إدريس الثالثة عشرة من عمره ، بويع بالخلافة وكان ذلك سنة ١٩٢هـ (٨٠٨م) ، واستمر في الحكم إلى موته سنة ٢١٥هـ (٨٣٠م) ، وعاش ستاً وثلاثين سنة ، ثم قُسّمت البلاد بين أبناء إدريس واستقلّ كل واحد منهم بجزء من البلاد ممّا حدا بالأمويين في الأندلس والفاطميين في مصر من السيطرة على بلادهم .

وبفضل الأدارسة انتشر الإسلام في كثير من مناطق العالم ، وأسست الكثير من المدن وعلى رأسها مدينة «فاس» ، وبفضلهم أنشئت المدارس والمكتبات وتوسع العمران ؛ ممّا أدى إلى تحضّر البلاد وازدهارها .

(٢) أسرة علوية ، حكمت الموصل وحلب والمناطق المحيطة بها وشمال سورية من سنة ٢٧٦هـ (٨٩٠م) وإلى ٣٩٥هـ (١٠٠٤م) ، مؤسّسها أبو الهيجا ، حمدان بن حمدون، الذي كان والياً

ويذكرون من الأمثلة على ذلك أنّه حينما مات الاسكندر ، ملك اليونان ؛ إثر عضّة قرد مدلّل ، أدى ذلك إلى سلسلة من الحوادث الفجيعة إلى حدّ أنّه أشار بعض حكّام الغرب بقوله : «إنّ ربع مليون شخص قد ماتوا بسبب عضّة قرد» .

وهكذا برر تروتسكي [(١)] في صراعه مع ستالين «١٣٤٢هـ» [(٢)] بحمّى أصابته عقب رحلة لصيد البط ، وقال : «يمكنك أن تتوقّع ثورة أو حرباً ، ولكن من المستحيل أن تتنبأ بالنتائج التي ترتبت في رحلة لصيد البطّ البرّي» [(٣)] .

ولو لم ينتخب مجلس ألمانيا هتلر ؛ لما وقعت الحرب العالمية الثانية ، ممّا غيّرت وجه العالم ، إلى غير ذلك من الأمثلة التي يسردها الذين يقولون لا كلّي

على الموصل من قبل العباسيين ، واتّخذ «ماردين» قاعدة له سنة ٢٧٩هـ (٨٩٢م) ، وتولّى بعد حمدان الحكم ابنه الحسن ؛ ويعبّر عنه بـ«ناصر الدولة» ، الذي حكم من سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) واستمرّ إلى ٣٥٨هـ (٩٦٩م) ، ثم جاء بعده «سيف الدولة» ؛ ووسّع حكمه ليشمل «حمص» ، والذي اشتهر بثقافته الرفيعة ورعايته للعلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء وجهاده ضدّ البيزنطيين ، وبلغت حلب في عهده أوج تقدمها وازدهارها .

أبرز الأعمال التي أدّاها الحمدانيون : بذلوا ما بوسعهم في الدفاع عن ثغور المسلمين من شمال سوريا حتى أرمينيا ، خاصةً في عهد «سيف الدولة» ، كما اعتنوا بالعلماء والشعراء والأدباء وبنوا المدارس والجامعات والمساجد ؛ ممّا جعل بلادهم مركزاً للعلوم والآداب .

(١) ليون تروتسكي ، ولد في «خرسون» سنة ١٨٧٩م ، وقتل في ٢١ آب ١٩٤٠م ، وكان في الثالثة والستين من عمره ، تقلّد عدّة مناصب سياسية وحربية ، منها : رئاسة مجلس السوفيات في بتروغراد ، ومفوضية الشؤون الخارجية ، ومفوضية الشؤون الحربية بين سنة ١٩١٨م - ١٩٢٥م . ويعود إليه تنظيم الجيش السوفياتي - السابق - ، أفل نجمه عند موت لينين ، نفاه ستالين إلى الخارج إثر صراع بينهما ؛ فلجأ إلى تركيا ثم المكسيك .

(٢) خريف سنة ١٩٢٣م.

(٣) ولايخفى أن الصراع الذي دار بين تروتسكي وستالين بعد موت لينين كان على أساس السيطرة على الحزب الشيوعي ؛ والذي تغلب فيه ستالين .

للتاريخ ، ولا روح عامّة ولا فلسفة لـه ، فليس الأمر في التاريخ كالحساب ، أو الهندسة ، أو المنطق ، أو ما أشبه ذلك ، حيث لها روح عامّة وفلسفة كلّية ، تسري في جميع مفردات تلك الكلّية .

أمّا المشهور بين العلماء في هذا الباب هو وجود روح عامّة للتاريخ ، وإن ما ذكره النافون من الأمثلة وما أشبه ذلك لا تسقط الروح العامّة للتاريخ ، والفلسفة التحليلية للمفردات التي يجمعها شيء واحد ، فإنّ ما ذكر من الأمثلة الفردية إنّما هي من الشرائط ، ومن الواضح أنّ لكلّ شيء شرائط ؛ إذا توفّرت تتحقق النتيجة ، وإذا لم تتوفّر لا تتحقق النتيجة .

والغالب أنّ هذه الأمثلة سلاح تبريري ، يحمله الفاشلون في الحياة . فقد ذكر أحد الغربيين أنّ اليونانيين كانوا يواسون أنفسهم بسبب هزيمة من الرومان بأنّ ذلك لا يرجع بميزة للرومان عليهم وإنّما إلى حظّهم العاثر . فلو لم يمت الاسكندر شاباً لقهر الغرب ولأصبح أهل روما رعايا لملوك اليونان ، وهذا دليل على الإفلاس في المؤرّخ من جراء مصائب حلّت في بلاده ، فإنّ حال المؤرّخ حينئذ كحال الطلاب الفاشلين الذين يعلّلون رسوبهم بالحظّ العاثر ، ويشبّهون الامتحانات بأوراق اليانصيب ، فإنّه لاشكّ أنّ الدنيا فيها مصادفات ، وفيها غير مصادفات ، فإنّ المصادفات لا تمنع الروح العامة . كما أنّ اختلاف الأفراد في المصادفات لا تمنع كون الإنسان حيواناً ناطقاً ، أو كون الأشجار تمتص الكاربون ، وتعطي الهواء النقي . فالدول إنّما تقوم بالهمم ، وتسقط بالغرور ، فإنّ الجماعات التي ترى فساد البلاد ، وتأخّر العباد ، وتغض الطرف عن ذلك ، حفاظاً على مصالحهم ، وما أشبه ذلك ، لهي جماعات يصيبها الانهيار ، كما أنّ الحكومة التي تسقط إنّما يسقطها الغرور بقوّتها ، وإمكانيتّها ، وسعتها ، وما أشبه ذلك ، فلا تأخذ في العمل الجادّ في التغيير والإصلاح وذلك يوجب سقوطها .

وبالنتيجة العلوم الطبيعية كالهندسة ، والحساب ، والرياضيات ، وما أشبه

ذلك تقوم على منطق الكلّيات دائماً ، بينما يقوم التاريخ على منطق الكلّيات بشرائطها ، فليس معنى الشرائط أنّ لا كلّيات وليس الأمور كلّها بالمصادفة كما يزعم أولئك الذين ينكرون روح التاريخ ، وفلسفة الأحداث العامّة التي هي كالروح السارية في الأبدان المختلفة ، وفي الأشجار المختلفة ، وفي المياه المختلفة ، وما إلى ذلك .

وما ينقل عن أرسطو [1] بفردية وقائع التاريخ وأنّه لا يتعلّق بما هو كلّي ليس معنى ذلك الكلّي وأنّه لا أحكام عامّة ، ولا فلسفة للحضارات قياماً وسقوطاً . فإنّ التاريخ الماضي ، والحاضر ، والمستقبل كلّه بروح عامة . ولذا قال القرآن الحكيم : ﴿**فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ**﴾ [2] ، وقال الإمام علي ﷺ : **(وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا)** [3] ، وقال أحد علماء الألمان : كان من المستحيل قيام الإصلاح الديني في هذا البلد قبل أن تصل التناقضات إلى هذا الحدّ من أن تصل إلى صراع ، والصراع يغيّر الوجوه ، وأنّه كان لابدّ أن يثير التعطش بالتخريب معارضة ناجحة ، وكلّما اشتدّ التخريب كان العداء له أشدّ ، وبهذا الصدد قال رسول الله ﷺ : **(تضايقي تنفرجي)** [4] وذلك متّخذاً من قوله ﷻ : ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً**﴾ [5] .

---

(١) ولد بمدينة «ستاجيرا» ، التي تقع عند الطرف الشمالي لبحر إيجا ، وكان والده طبيباً للبلاط الملكي ، لجدّ الاسكندر الأكبر ، ولد سنة ٣٨٤ ق . م ، وفي سنة ٣٦٧ ق . م ذهب إلى أثينا ودرس فيها على يد أفلاطون مدّة عشرين عاماً ، وتنقّل بين الدول لمدة أربع سنوات ، ودرّس ثلاثة عشر عاماً ، واهتم بالأخلاق ، والمنطق ، وكان مولعاً بالمعرفة ، وكان يميل للملموس والممكن ، وقد ألّف أكثر من ٤٠٠ كتاب تشتمل كتبه على فروع واسعة من النشاط العلمي ، وهو أول من قام بتشريح الحيوانات ، وكشف بذلك بعض الاختلافات في التكوين الداخلي . توفي سنة ٣٢٢ ق . م من مؤلفاته : «الجدل» ، «السياسة» ، «النفس» ، «الخطابة» ، «ما وراء الطبيعة» .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣٧ .

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٣١ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٦ ص٦٢ ب٣١ ، وقريب منه في بحار الأنوار : ج٧٧ ص٢١٩ ب٨ ح٢ .

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٩ ص٢٦٧ ب٣٥٧ .

(٥) سورة الشرح : الآيات ٥ ـ ٦ .

وحينما يتحدّث العالم الألماني عن إخفاق الدعوة العالمية لدى الباباوات ، يقول : إذا لم نخدع أنفسنا فإنّ قانوناً آخر للحياة تمليه الظروف فإنّه لابدّ أن ينشأ من أجل تطوّر العقل الإنساني ، فإنّ الروح العامة في التاريخ كما ذكرناه في المسائل السابقة يكون حصيلة أفراد خاصّة ، وأزمنة خاصة ، وأمكنة خاصّة ، وقضايا مختلفة بحدود عامة ، ولا سبيل للتاريخ أن يتجاوز هذه المقولات إلاّ بالتجريد ، والتأمين ، والكلّية ، وما أشبه ذلك .

ومن هذه الجهة يتنبأ العلماء بالمستقبل ، وإلاّ فكيف يمكن التنبؤ بالمستقبل وهو من الغيب المستور عن الإنسان ، كما قال ﷻ : ﴿**فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ◆ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**﴾[1] .

وقد صار في الوقت الراهن للمستقبل رجال كثيرون ، وخبراء ، وأخصائيون في السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والتربية ، وغير ذلك . وأحياناً يصل عددهم في مختلف البلاد الغربية وغير الغربية إلى «٣٠ ألف» عالم ، ولهم مدارسهم ، واتّجاهاتهم ، وأفكارهم ، ومنازعاتهم ، وسائر قضايا العلوم . حال ذلك حال علوم الفلك حيث لا يتّفق الجميع على أيّ شيء ، إذ ليست علوم الفلك مثل علم الحساب حيث إنّ الضرب ، والجمع ، والطرح ، والجبر ، والمقابلة ، وما أشبه ذلك ، كلّها تأتي بنتيجة واحدة ، وكلّها لها حدود معيّنة في أذهان الكلّ ، والتحليل والعموم لا يجب أن يكون مثل الحساب ، والهندسة دائماً ، إذ التحليل والعموم قد يكون مثل الحساب ، والهندسة ، وقد يكون مثل علم الفلك . والتحليل التاريخي إنّما يكون من قبيل الثاني لا من قبيل الأوّل . وكما أنّ الطبيب قد يخطئ وقد يصيب كذلك المحلّل التاريخي . وقد يتعجّل النبوءة بوقوع الحادثة المتنبّأ بها كقيام الثورات ، ونشوب المعارك قبل ساعة الصفر المحدّدة لها نتيجة انفضاح أمرها وتسرّب أسرارها العسكرية ، وهكذا تفقد النبوءة

---

(١) سورة الجن : الآيات ٢٦ ـ ٢٧ .

قيمتها وأهمّيتها نتيجة ما لها من أثر إيجابي أو سلبي على الحادثة المتنبّأ بها ، وهذا أيضاً تابع لقاعدة كلّية استثنائية ـ مثلاً ـ يقال إنّ الثورات تقوم وتغيّر وجه الحياة في المكان الذي قامت الثورة فيه بشرط ألاّ ينفضح أمر الثورات وألاّ تتسرّب أسرار عسكرية إلى الجهة المضادة حتّى يخنقها في مهدها .

والحاصل : أنّ القائلين بفلسفة التاريخ لا يدَّعون المطلقية فيها كمطلقية الحساب ، أو الهندسة ، وإنّما يدّعون النسبية كعلم الفلك ، وعلم الطبّ ، أو ما أشبه ذلك ، ولذا نرى أنّ الشيوعيين يقولون بفلسفة للتاريخ من وجهة نظرهم ، بينما الرأسماليون يقولون بفلسفة أخرى للتاريخ من وجهة نظرهم . ومن الواضح أنّ كلتا النظريتين ليستا على الصواب ، لاستحالة الجمع بين الضدّين أو النقيضين ، أو ارتفاع النقيضين . فالحقّ لا يكون إلاّ مع إحداهما ، أو في أمرٍ ثالث ، مثل أن يقول إنسان إن «٣ × ٣ = ١٠» ، ويقول آخر «٣ × ٣ = ٨» وكلاهما على باطل ، فإنّ الحقّ واحد والأباطيل كثيرة ؛ كما مثّل لذلك رسول الله ﷺ بمدّ خطٍّ مستقيم على الأرض ، ومدّ خطوط أخرى غير مستقيمة إلى جانب ذلك الخطّ .

أمّا ما يقوله الماركسيون من المادّية الديالكتيكية ؛ فقد أثبت العلم دحضها (١) ، إذ من المستحيل الإقرار بصحّة المادّية الديالكتيكية ، ولم يدحضها العلم في إطارها النظري وحسب بل وتعداها ، وأثبتت الشيوعية فشلها في الواقع العملي ، فهذا الاتّحاد السوفياتي شاهدٌ على فشل الماركسية ، وكذلك الصين ، وأوربا الشرقية ، وغيرها شاهدٌ على هذا الفشل .

إنّ التاريخ حاله حال الاقتصاد ، فإنّه لا ينكر الفردية في النشاط الاقتصادي والروح العامة في جميع مفرداته . مثلاً : من يبني مصنعاً ، أو يؤسّس مصرفاً ، له

---

(١) وقد تعرض الإمام المؤلف ﵀ لنقدها في كتاب : «نقد المادية الديالكتيكية» .

منطقه وفكره ، وكذلك لغيره منطقه وفكره ، وربما يكون ذلك الغير عميلاً لهذا الشخص الاقتصادي ، الباني للمصنع ، أو المؤسّس للمصرف ، ولذا نشاهد أنّ العمّال حينما يضربون لأجل تحسين وضعهم المعيشي ، أو أجورهم ، أو ما أشبه ذلك ، لهم حججهم ، ومطالبهم العادلة بنظرهم ، بينما الرأسماليون الذين بنوا المصنع ، أو أسّسوا المصرف ، لهم منطق آخر ، وفكرة مغايرة لفكرة أولئك العمّال المضربين .

والحاصل : أنّ فلسفة التاريخ والروح العامّة للتحليل لا فرق فيهما بين السياسة ، والاقتصاد ، والأخلاق ، والدين ، والاجتماع ، والتربية ، والجيش ، والأمّة وغير ذلك ، حيث إنّ لمفردات كلّ واحد من هذه الأمور روحاً عامّة تسري في تلك الجهة . وهذه الجهات كلّها مجتمعة تكوّن حضارة من الحضارات . فإذا قلنا حضارة الرومان ، أو حضارة اليونان ، أو حضارة المسيحيين ، أو ما أشبه ، نريد بذلك تقدّمهم الاجتماعي ، والسياسي ، والاقتصادي ، والثقافي ، والتربوي ، والأخلاقي ، والأسري ، والديني . وهكذا إذا قلنا حضارة الشيوعيين إنْ صحّ أن نعبّر عنها بالحضارة بالمعنى الواسع ، وأيضاً حضارة الرأسماليين ، أو حضارة الإسلاميين ، إلى غير ذلك ممّا يسمّى بالحضارات إمّا حقيقة ، أو توسعاً ، أو مجازاً.

من يصنع التاريخ ؟

مسألة : التاريخ يصنع من ناحية الأشخاص ومن ناحية الحضارات ، والشخصيات تصنعها الحضارات أو الأشخاص ، إلاّ إذا كان الشخص مرتبطاً بالغيب ، فإنّ الغيب يصنعه ، وهو الذي يصنع التاريخ ، ولا شأن للحضارة السابقة أو الأشخاص في صنعه وفي صنع التاريخ .

مثلاً : الحضارة الإسلامية بمقوماتها الخاصّة هي التي أوجدت الصفويين [1] ، والصفويون بدورهم هم الذين صنعوا التاريخ ، فكلّ واحد منهما يتفاعل مع الآخر ويكون مكمّلاً للآخر .

---

(١) وهي سلالة إسلامية شيعية ، تأسست على أنقاض الحكم المغولي التيموري ، وتنسب إلى «صفي الدين الأردبيلي» ، المولود سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) والمتوفى سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) ؛ والذي قضى على «الآق قيونلو» واتخذ «تبريز» عاصمة له ، ولقّب بـ«شاه» ، وحكمت هذه السلالة إيران مدة مائتين وخمس وثلاثين سنة منذ سنة ٩٠٥هـ (١٥٠٠م) وإلى ١١٤٠هـ (١٧٢٨م)، ثم جاء بعده «شاه إسماعيل بن حيدر الصفوي» ، المولود سنة ٨٩٣هـ (١٤٨٨م)، والذي حكم من سنة ٩٠٥هـ (١٥٠٠م) واستمر إلى ٩٣٠هـ (١٥٢٤م) ، وقد خاض حروباً متعددة مع العثمانيين ؛ والذين هزموه في معركة «جالدران» قرب مدينة «تبريز» سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤م) ، ثم حكم من بعده ابنه «طهماسب الأول» ، الذي اتّخذ «قزوين» عاصمة له سنة ٩٦٢هـ (١٥٥٥م) ، والذي حكم ٥٤ سنة ، ثم جاء بعده «إسماعيل الثاني» وحكم سنتين ، ثم من بعده «محمد خدابنده بن طهماسب الأول» وحكم عشر سنوات ، ثم «شاه عباس الأول ابن محمد» ، الذي نقل العاصمة إلى أصفهان سنة ١٠٠١هـ (١٥٩٣م) ، وحكم أربعاً وأربعين سنة ، ثم جاء بعده شاه سليمان ، حفيد شاه عباس الأول . وكان آخر ملوكهم «شاه حسين»، الذي حدثت في عهده فتنة «الأفغان» ؛ عندما احتلّ ملكها «شرف الأفغاني» أصفهان ، واعتقل «شاه حسين» وقتله سنة ١١٤٠هـ (١٧٢٨م) وتركه ثلاثة أيام بدون غسل ولا كفن ، وأمر ملك الأفغان بهدم المدارس والمساجد والحمّامات في إيران .

وهكذا بالنسبة للحضارات التي نشاهدها على الأرض سواء كانت حضارة صحيحة ، أو حضارة باطلة ، هذا باستثناء الرسول الأكرم ﷺ ومن أشبه من الشخصيات المرتبطة بالغيب التي صنعها الله ؟ فصنعت التاريخ ، ولم تكن الجاهلية إبان رسول الله ﷺ هي التي صنعت رسول الله ﷺ لأنّ الرسالة لم تكن مربوطة بالجاهلية من قريب ولا من بعيد ، وفي المقابل فرعون ، وهتلر ، وستالين قد صنعوا التاريخ ، بينما الحضارة الخاصّة قبل ظهور هؤلاء هي التي صنعت هؤلاء ، فإن لم تكن الحضارة المصرية قبل فرعون ، والحضارة الألمانية قبل هتلر ، والحضارة الروسية قبل ستالين ، لم يكن هؤلاء أبداً . كما أنّه إذا لم يكن هؤلاء ، لم يصطبغ التاريخ بالصبغة الفرعونية ، والصبغة النازية ، والصبغة الاستالينية .

أقسام الاختيار

ثم إنّ البطل ، والقائد ، والملك ليس ممّن يختاره الله ﷻ بمعنى اختيار الرضى دائماً بل قد يكون اختياره - اختيار الأسباب - ، وإنّما قوله ﷻ : **﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** (١) ، فإنّ الله ﷻ جعل في الدنيا الأسباب ، فمن أخذ بتلك الأسباب وصل إلى تلك المسببات والنتائج . ولذا قال ﷻ : **﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾** (٢) ، فهناك اختيار الرضى وهناك اختيار الأسباب . أمّا اختيار الرضى فهو خاصّ بالأنبياء ، والأوصياء بل والصالحين من عباده أمثال سلمان (٣) ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٢٦.

(٢) سورة النساء : الآية ٧٨.

(٣) سلمان الفارسي : زوربه بن خشفوذان ، وسمّاه الرسول الأكرم ﷺ بـ«سلمان» ، عالم ومحدث وقائد إسلامي ، ترك أهله ووطنه أصفهان ، هاجر في سبيل الوصول إلى المنهج الروحي ، الذي يستقي منه تعاليم الدين ؛ فذهب إلى الشام والإسكندرية والحجاز ولاقى

والمقداد [(١)]، وأصحاب عيسى وأصحاب موسى الطيبين . أمّا الاختيار المطلق

في رحلته هذه من المصائب والمحن ما يعجز البيان عن ذكره . أسلم على يد الرسول ﷺ في السنة الأولى للهجرة ؛ وقال ﷺ في حقه : «سلمان منّا أهل البيت» وآخى الرسول ﷺ بينه وبين أبي ذر ﷺ، واشترك معه في غزواته وحروبه ، فشارك في غزوة الخندق سنة ٥ هـ، وأشار بحفر الخندق ؛ ليقي المسلمين من هجمات قريش ، وشارك في حرب ثقيف بالطائف ؛ وأشار باستعمال المنجنيق ، كما وشارك في فتح المدائن الغربية ـ بهرسير ـ ، وفتح المدائن ـ توسفون ـ ؛ وتولى إمارتها في عهد عمر بن الخطاب وبقي فيها إلى أن وافاه الأجل سنة ٣٤هـ ، وقيل : ٣٦هـ . وعاش على أقل التقادير مائتين وخمسين سنة ، وقيل: ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقيل : إنه أدرك بعض أوصياء عيسى عليه السلام . ترجمه سفينة البحار: ج١ ص ٦٤٨ ، تهذيب الأسماء واللغات : ج١ ص ٢٢٦ ، الاستيعاب بهامش الإصابة: ج٢ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(١) المقداد بن الأسود الكندي ، وهو ابن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة البهرائي ، لُقّب بالأسود ؛ نسبةً لحليفه الأسود بن عبد يغوث الزُهري ، وبالكندي ؛ نسبة إلى حلفاء أبيه ، صحابي جليل ومجتهد كبير وفارس شجاع ، وكان يعادل ألف فارس على حدّ تعبير عمرو ابن العاص ؛ كما ذكر ذلك اليعقوبي في تاريخه : ج١ ص ١٤٨ ، اشترك في غزوة «بدر» سنة ٢ هـ وقد وصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام شجاعته قائلاً : «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد بن عمرو» ، اشترك في معركة «أحد» سنة ٣ هـ و«الغابة» و«خيبر» و«فتح مصر» ؛ كما ذكر ذلك في الغدير : ج٩ ص ١١٦ ، وتهذيب الأسماء : ج٢ ص ١١٢ ، والإصابة : ج٣ ص٤٥٤ . قال عنه الرسول الأكرم ﷺ : «أمرني ربّي بحب أربعة من أصحابي وأخبرني أنه يحبهم . فقيل : يا رسول الله ، من هم؟ قال ﷺ : علي والمقداد وسلمان وأبو ذر» ، وقال ﷺ في حقه : «وذاك منا ، أبغض الله من أبغضه وأحب الله من أحبه» ، وقال ﷺ أيضاً : «الجنة تشتاق إليك يا علي وإلى عمار وسلمان وأبي ذر والمقداد» ، وأشهر ألقابه : «حارس رسول الله ﷺ »؛ كما نقل ذلك مستدرك الوسائل : ج٣ ص ٣٤٨ ، زوّجه الرسول ﷺ بـ(رباعة بنت الزبير بن عبد المطلب) ، وقف في وجه الخط الانحرافي الذي سرى في القيادة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وجاهر بالمخالفة للثلاثة ، وكان يقول : «واعجباً من قريش واستئثارهم بهذا الأمر على أهل هذا البيت ، معدن الفضل ، ونجوم الأرض ، ونور البلاد ، والله ، إنّ فيهم لرجلاً ما رأيت رجلاً بعد رسول الله ﷺ أولى منه بالحق ولا أقضى بالعدل ولا آمر بالمعروف ، ولا أنهى عن المنكر» ، وعارض تصرفات ثالثهم بالخصوص ـ عثمان ـ في نهب أموال المسلمين وتقسيمها بين أقربائه ، توفي سنة ٣٣هـ (٦٥٣م) ، وعاش سبعين سنة .

حسب المشي بالأسباب للوصول إلى النتائج ، فيكون بسبب ، كجمع الجنود ، والأصحاب ، والسلع ، والمال حلالاً وحراماً ، أمثال فرعون ، ونمرود ، وستالين ، وهتلر ، وصدّام ، ومن إليهم .

والأمر ليس بمعنى الجبرية وإنما الأمر بين الأمرين .

إذا عرفت هذا : فالبطل لا يكون إلاّ شجاعاً في ناحية من نواحي حياته سواء الناحية العلمية ، أو الناحية التسليحية ، أو الناحية المالية ، أو ما إلى ذلك من مختلف مناحي الحياة ، فيما إذا كان البطل هو الذي حصل على ذلك .

أمّا إذا لم يحصل على ذلك بنفسه ـ مثلاً ـ في الناحية العسكرية حيث ورثها الابن عن أبيه كما في الملوك . أو الناحية المالية حيث يرث الوارث مورّثه صاحب الملايين فليس ذلك من البطولة في شيء .

نعم ، إذا أحسن الابن أو الوارث التصرّف بحيث كان الامتداد منه يكون حين ذلك بطلاً من هذه الناحية ، فعلى هذا ، فالبطولة قد تكون حقّة كبطولة الأنبياء ، وقد تكون زائفة كبطولة الطواغيت الذين يغتصبون الحكم لأنفسهم اغتصاباً .

معنى البطولة

فليست البطولة بالشعارات ، وإنشاء الخطابات ، والتهريج ، والاستبداد ، والأضواء ، فهذه ليست إلاّ بطولة قسرية أو فرضية التي نجدها عند الطواغيت والجبابرة ، ولا تقاس بطولة وعظمة الرجال بتيجان الملوك وأُبهتهم ، ولا بصليل السيوف ، ولا بترديد الصحف أخبارهم وأسماءهم صباحَ مساء ، وما ذلك إلاّ أكذوبة ، ومظهر باطل ، وعرض زائل ، وبريق باهت ، وإنّما البطولة هي الإدارة القويّة ، وهي الشجاعة والاقدام ، وهي الثبات والاستقامة .

والأمّة البطلة هي التي لا تترك مصيرها في الأوقات الحرجة معلقاً على قرار يصدره فرد واحد يخطئ في الأكثر ويصيب أحياناً .

وليست البطولة باستئثار السلطات ، والعمل على إضعاف المؤسّسات الاستشارية ـ التي يعبّر عنها بالديمقراطية ـ ولا بالقضاء عليها ، كما كان يقول فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ [(١)] أو ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [(٢)] ، فإنّ أمثال ذلك شأن كلّ جاهل مستبد يستولي على مباهج الدنيا ولذائذها .

الديكتاتور والبطولة

ومن شأن الجاهل المستبدّ أنّه يؤثّر على الجماهير بتقديم وعود لهم كما أنّه ينسب كل إنجاز ناجح إلى شخصه ودون غيره حتّى إنّه إذا جاء المحصول الزراعي وفيراً فإنّ ذلك لا يعود إلى ظروف الطقس ، وأتعاب الفلاحين ، والرحمة الإلهية ، وما أشبه ذلك ، وإنّما ينسبه إلى عبقرية نفسه . فكما حكى الله ﷻ عن فرعون حيث قال : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ◆ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [(٣)] ، فلو كانت الحسنة لهم فلماذا لم يفعلوا الحسنة طول عمرهم ؟ بل قال الله ﷻ : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ [(٤)] وقالوا أخيراً بأنّ الحسنات لهم ، بل الحسنات والسيئات من الله ﷻ حيث قال : ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ [(٥)] ، ولذا لمّا وقع عليهم الرجز

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٥١.

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٨ .

(٣) سورة الأعراف : الآيات ١٣٠- ١٣١ .

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٣٣.

(٥) سورة الإسراء : الآية ١٣١.

قالوا: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ◆ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ◆ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [1] .

ولمّا كان الناس يتطلّعون في الأزمات الحرجة من فيضان ، أو زلازل ، أو حروب ، أو قحط ، أو ما أشبه ذلك إلى من ينقذهم فإنّه يبثّ في أذهان الجماهير أنّهم يمرّون بفترة حرجة من تاريخهم ثمّ يثير فيهم الشعور بالحاجة إلى بطل ومخلّص وأنّه هو ذلك البطل الذي سيخلّصهم ، بينما هو كاذبٌ في الحقيقة ، وقد رأينا حكاماً في العراق كيف تحدّثوا عن أنفسهم على أنهم منقذون ومخلصون للشعب العراقي لكن في التطبيق لم يستفد منهم الشعب سوى الديكتاتورية والاستبداد . فقد قضى صدام على كل الزعامات المنافسة له ، فإنه يقدم نفسه باعتباره المخلِّص الوحيد ، وإنّه ممدودٌ بعناية من الله ليخدع الشعب . والجماهير غير الواعية بطبيعتها تيسّر للزعيم أن يصبح حاكماً مطلقاً يأمر كما يشاء ويحكم كما يريد ، لأنّها بطبيعتها تستسلم للحاكم المثير كلّما آثار ضجّة كما كان يفعل هتلر وستالين ومن إليهم ، وعندما يقول كلّ واحد من الناس مقالة أهل الكوفة : «ما لنا والدخول بين السلاطين» سيتحملون مشقّة شروره أكثر من أن يتحمّلوا محاولة عزله ، مع أنّ محاولة العزل قد تكون أيسر بكثير وضريبته أقلّ ، والتاريخ الإسلامي يحدّثنا عن الذين أزالوا الوليد على صعوبته ، أو أزالوا المتوكّل على صعوبة الإزالة ، كان لهم من الخيرات أكثر ممّا لم يزيلوا معاوية [2] حتّى عمل

---

(١) سورة الأعراف : الآيات ١٣٤- ١٣٦ .

(٢) معاوية بن صخر بن حرب بن أمية الأموي ، مؤسس الدولة الأموية في بلاد الشام ، وأمّه هند بنت عتبة ، المشهورة بالزنا والملقبة بـ(آكلة الأكباد) ، أسلم يوم الفتح ، ولاّه عمر بن الخطاب الأردن ثم دمشق معها ، وولاّه عثمان بن عفّان كلّ بلاد الشام ، عزله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من منصبه ثم حاربه في واقعة صفين ، التي كانت الميزان في تشخيص

فيهم ما عمل ، علماً بأنّ رسول الله ﷺ قال : **(إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطب على منبري فاضربوا عنقه)** [1] ، فلو تطوّع واحد أو جماعة لقتله يوم شاهدوه على منبر رسول الله ﷺ لما حدث ما حدث ، إذ لم يكن قتله إلاّ أمراً يسيراً بينما تركوه وشأنه ففعل فيهم الأفاعيل ، حتّى إنّي قرأت في بعض الكتب أنّ

الباغي لدى الصحابة ، حيث قال النبي ﷺ لعمار بن ياسر : «يا عمار ، تقتلك الفئة الباغية» ، مات في دمشق سنة ٦٠هـ (٦٨٠م) بعد أن حكم ٢٠ سنة في الخلافة وحكم أربعين سنة في الإمارة ، أشهر فضائله ؛ كما عن ابن خلكان في ترجمة النسائي ، عندما سئل عن معاوية وما روي من فضائله ، قال : «ما أعرف له فضيلة إلاّ (لا أشبع الله بطنه)» ؛ وهذه الكلمة قالها الرسولﷺ في حقّه ، انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٤ ص٥٥ .
من مثالب معاوية أنه كتب إلى عماله في جميع الأمصار أنْ يسبوا الصحابة أمثال علي بن أبي طالبعليه السلام ، كما أنه حوّل الحكومة إلى استبدادية وشخصية وجعل البلاد إرثاً له ولأقربائه، وجمّد الحركة الفكرية الإسلامية عبر القضاء على الصحابة ؛ فقد قتل عمار ابن ياسر وحجر بن عدي الكندي وأصحابه ومحمد بن أبي بكر ومالك الأشتر وعمرو بن الحمق الخزاعي ﷺ والإمام علي والإمام الحسنعليهما السلام، وقضى على المعارضة الداخلية بتوجيه الناس إلى الحروب الخارجية ؛ وقد أشار لعثمان بذلك حيث قال له : «رأي لك يا أمير المؤمنين ، أنْ تأمرهم بالجهاد يشغلهم عنك وأن تجمهرهم في المغازي حتى يذلّوا لك فلا يكون همٌّ أحدهم إلاّ نفسه» ، وكان يأخذ على التهمة والظنة حتى كان الرجل يسقط بكلمة فيضرب عنقه ، وكتب إلى عماله وولاته في جميع البلاد والأمصار أمثال بسر بن أرطأة ، واليه على المدينة ومكة واليمن ؛ والغامدي واليه على الأنبار ألا يجيز لأحد من شيعة عليعليه السلام ولا من أهل بيته ولا من أهل ولايته ، الذين يرون فضله ويتحدثون بمناقبه شهادةً، وكتب أيضاً : «انظروا من يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان ولا تجيزوا له شهادة» ، وفي كتاب آخر : «من اتهمتموه ـ أنه محب لعلي ـ ولم تقم عليه بينة فاقتلوه» ، وأمر سفيان بن عون الغامدي حين أرسله للعراق : «اقتل من لقيته ممن هو ليس على مثل رأيك واخرب كل ما مررت به من قرى» ، للمزيد راجع تاريخ بغداد : ج١ص٢٠٧ ، أسد الغابة : ج٤ ص٣٨٥ ، الإصابة : ج٣ص٣٣، شذرات الذهب : ج١ص٦٥، تهذيب التهذيب : ج١٠ص٢٠٧ ، الكامل في التاريخ : ج٣ ، وفيات الأعيان : ج١ ص٧٧ ، منهاج البراعة : ج٧ ص١٤٢ـ ١٤٣ .

(١) وقعة صفين : ص٢١٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٤ ص ٣٢ ب ٥٤ ، وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٥ ص١٧٦ ب٢٧، ونهج الحق : ص ٣٠٩ «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه» .

معاوية أحرق في اليمن ذات مرّة أربعين ألف إنسان ، وقضيّة مسرف بن عقبة [١] ومن أشبهه [٢] مذكورة في التاريخ . ولذا فاللازم أن ينظر إلى الزعيم من هذا

---

(١) مسلم بن عقبة وسمي بـ«مسرف» ؛ لكثرة سفكه للدماء ؛ قاد جيشاً من أهل الشام لقتال أهل المدينة قوامه خمسة آلاف في ٢٨ ذي الحجة سنة ٦٤هـ ، وقيل : ٦٣هـ ، حيث قال له معاوية : «واجعل طريقك على المدينة فإن حاربوك فحاربهم وإن ظفرت بهم فأبحهم ثلاثاً». وتقاتل مع أهل المدينة وكان أميرهم عبد الله بن حنظلة ، غسيل الملائكة ، وقُتل عبد الله مع سبعمائة من المهاجرين والأنصار والموالين ؛ كما ذكر ذلك في البداية والنهاية : ج٨ ص٢٢٢، بالإضافة إلى عشرة آلاف شخص من الرجال والنساء والأطفال ، ودخل «مسرف» المدينة وأباحها ثلاثة أيام لجنوده وسرقوا أموالهم وممتلكاتهم وهتكوا أعراضهم وقد ورد في التاريخ أنهم زنوا في المسجد النبوي حتى وَلَدت ألف امرأة بكر من الزنا بعد الواقعة وعرفوا بأولاد«الحرّة» ، وأخذ الناس على أن يبايعوا أنهم عبيد ليزيد ؛ فكان الرجل من قريش يؤتى به فيقال : بايع على أنك عبد قن للخليفة ، فيقول : لا ، فيضرب عنقه ، وبعد أن فعل الأفاعيل بالمدينة ، توجه إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير الذي رفض البيعة ليزيد بن معاوية ، ومات في الطريق في منطقة تعرف بـ «الغدير» ، واستخلف الحصين بن النمير لقيادة الجيش .

(٢) أمثال بسر بن أرطأة العامري ، الذي أرسله معاوية لمحاربة أهل مكة والمدينة سنة ٤٠هـ ؛ حيث قال له : «سر حتى تمر بالمدنية فاطرد الناس وأخف من مررت به وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ممّن لم يكن قد دخل في طاعتنا» ، وعندما دخل المدينة قتل الرجال والأطفال وسبى النساء فكن أول مسلمات سبين في الإسلام ، وقد باع معاوية النساء المسلمات المسبيات في الأسواق ، فكان يكشف عن سيقانهن فأيّها أعظم ساقاً تشترى بثمن غالٍ ، وعندما أرسل معاوية بسر بن أرطأة إلى اليمن وكان عليها عبيد الله بن العباس والي الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، هرب عبيدالله حين أحس بهجوم بُسُر عليه وعندما دخل بُسُر اليمن ، فعل ما فعل بأهل المدينة ، وسبى النساء وقتل الأطفال حتى إنه ذبح القثم وعبد الرحمن ، أطفال عبيد الله بن العباس ، وكانا في حجر أمهما ، وعندما شاهدت أمهما هذا المنظر انهارت وأخذت تنشد :

هـا مـن أحس بابني اللذين هما ... سمعي وعقلي فعقلي اليوم مختطف

حدثت بسراً وما صدقت ما زعموا ... من قبلهم ومن الإثم الذي اقترفوا

انحى على ودجي ابني مرهفه مشحوذة ... وكذاك الإثم يقترف

وفي أيام ولايته على البصرة ، فتك بأهلها وقتلهم حتى ضج الناس لما أصابهم منه .

وأمثال سمرة بن جندب ، الذي بذل له معاوية أربعمائة ألف درهم لروايته أن قوله تعالى:

القبيل نظرة ازدراء وكراهة حتّى لو كان مؤمناً بوطنه مخلصاً لما يرى ، فهتلر فعل في العالم وبألمانيا ما فعل ، ممّا حمّل الشعب الألماني وسائر الشعوب ويلات تلك الحروب إلى الحال الحاضر ، وقد مضى على هتلر نصف قرن .

والغريب في الأمر أنّ الجماهير على ما تشاهده من ديكتاتورية وديكتاتوريين تقدّسهم حتّى بعد موتهم ، إذا لم يُزالوا بسبب حرب ، أو انقلاب ، أو ما أشبه ذلك ، وقد حدّثني بعض الأصدقاء الذين سافروا إلى الصين أن الجماهير تقف كلّ يوم أمام قبر «ماو تسي تونغ» (١) بمقدار ربع ساعة فينظرون إلى موميائه المحنط داخل صندوق زجاجي ، و«ماو تسي تونغ» هو الذي فعل بالصين ما فعل من الجرائم ، حتّى إنّ إذاعة موسكو اتّهمته بأنّه قتل ما يقارب أربعين مليوناً بالإضافة إلى أنّ الشعب الصيني كان جائعاً في زمانه بحيث إنّ تحية بعضهم لبعض إذا رآه بدل السلام عليه أو السؤال عن صحته يقول له هل أنت شبعان أم لا ؟ ، حيث إنّ كلّ الشعب كان في حالة من الجوع ، والمرض ، والفقر ، والجهل ، وما أشبه ذلك ، وإنّما التهريج هو الذي جعل منه بطلاً .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ البقرة ٢٠٤ ، نزلت في حق علي عليه السلام، وأن قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ البقرة ٢٠٧ ؛ نزلت في حق ابن ملجم ، وقد قتل سمرة ثمانية آلاف شخص في الكوفة ؛ فقيل له : «هل تخاف أن تكون قتلت أحداً بريئاً؟ فأجاب : لو قتلت مثلهم ما خشيت» !!، راجع في ترجمته الإصابة : ج٢ ص ٧٨ ، الكافي (روضة) : ج٨ ص ٣٣٢ ، أسد الغابة : ج٢ ص ٣٥٤ ، الجرح والتعديل : ج٤ ص ١٥٤، شذرات الذهب : ج١ ص ٦٥ ، الكنى والألقاب : ج٣ ص ٢٣ ، تهذيب التهذيب : ج٤ ص٢٣٦، تاريخ الطبري : ج٤ ص ٢١٥ ، الكامل في التاريخ : ج٣ ص٤٦٢ و ٤٩٥ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٤ ص ٧٣ ـ ٧٩ .

(١) زعيم صيني ، ولد سنة ١٨٩٣م ، ومات سنة ١٩٧٦م ، قاد ثورة على الحكم سنة ١٩٢٧م وقاد مسيرة سنة ١٩٣٤م ثم تراجع أمام الجيش ، مؤسس الحزب الشيوعي الصيني ، أصبح رئيساً للصين الشعبية سنة ١٩٥٤م ، واستمر في الحكم إلى سنة ١٩٥٩م ، نادى بالثورة الثقافية سنة ١٩٦٦م ، من مؤلفاته: «الكتاب الأحمر».

نعم ، أصلح بعض الأمور الظاهرية ، وجعل بعض الحدائق العامّة ، وما أشبه ذلك ، كما فعله البهلوي الأوّل في إيران فإنّه حطّم مراعي إيران وأشغل الناس ببعض المظاهر كالحدائق العامّة ، والشوارع ، والمتنزهات ، وما أشبه ذلك ، بينما كانت لإيران قبل بهلوي «٣٣ ألف» قناة للمياه تحت الأرض تروي كلّ إيران ، حتّى إنهم لم يكونوا يحتاجون إلى الخارج ، بينما نشاهد بعد ذلك الشعب الإيراني يحتاج إلى الخارج حتّى في لحومه ، وأرزه ، وحنطته .

وعلى كلّ حال: فظهر مما ذكرناه الجواب عن أسئلة متعدّدة وهي : من يصنع الشخصية ؟ ومن يصنع الحضارة ؟ وهل الشخصية تصنع الحضارة أو الحضارة تصنع الشخصية ؟ وما هو محور التاريخ ؟ هل الأفراد أم الحضارة ؟ ولمن يؤرّخ المؤرّخ ؟ هل لشخصيّات يراها صنعت التاريخ وأثّرت فيه أم يؤرّخ للحضارات ؟ ومن الذي يصنع أحداث التاريخ ويؤثر في مساره ؟ هل هم الأفراد أم الجماعات ، أو الحكّام أو الشعوب ؟ وهل الأحداث التي تصل إلى درجة التأثير والفاعلية من خلق ساسة وقادة بلغوا مرتبة البطولة ؟ أم أنّ هذه الحضارة حصيلة بطولة أسهم فيها شعب بجميع أوجه نشاطه الاقتصادي ، والاجتماعي ، والعلمي ، والسياسي ، والفكري ، والفنّي ، والأدبي ، والأسري ، فضلاً عن أنظمته من قوانين ، وعادات ، وتقاليد ، وإن كان كلّ واحد من هذه المفردات محلّ تساؤل واختلاف بين الطوائف المختلفة ، لكن الذي ذكرناه هو مقتضى المنطق والعقل ، فكلّ من الشخصية والحضارة يصنع الآخر ، ولا نريد بالحضارة هنا الحضارة الصحيحة الحقّة المزدهرة بل عموم الحضارة ، وهي تشمل مختلف الحضارات حتّى القائمة على الاستبداد ، والديكتاتورية ، والتخلّف مثل حضارة ، بني أميّة ، وحضارة بني العبّاس إن صح أن نسمي مثل ذلك حضارة ، فهي تسمى أيضاً بالحضارة لغة ؛ لأنّها مأخوذة من الحضر في مقابل البدو الرحل .

البيئة وأثرها في تكوين الشخصية

ثم إنّ الشخصية الكبيرة والبطل المغوار لا يستطيع التأثير في التاريخ ما لم يكن الزمان والمكان مؤاتيين له ، ولما لم تكن الظروف مهيّأة لظهوره ، وإنّ البطولة يحدّدها نوع العالم والبيئة التي ينشأ فيها البطل ، أو الزعيم ، أو الشخصية ، وقد ذكرنا سابقاً هذا باستثناء الأنبياء ومن لفّ لفّهم ، ـ مثلاً ـ هل كان هتلر يصبح هتلر إذا كان يعيش في لندن ، وهل كان ستالين يمكن أن يكون ستالين إذا كان يعيش في باريس ؟ هذا بالنسبة إلى الأبطال المزيفين ، أمّا الأبطال الحقيقيون كالأنبياء فبعضهم لم يكن الزمان أو المكان مؤاتياً لهم ، ولهذا كان الناس يقتلونهم أو يطردونهم ، ـ مثلاً ـ النبي دانيال ، والنبي حبقوق ، طُردوا من مكانهم إلى بابل ثمّ من بابل جاؤوا إلى إيران في قرية صغيرة ، وأخذ كلّ واحد منهم يبلّغ تبليغاً محدوداً ، وهكذا بالنسبة للأنبياء الذين كانوا يُقتلون كما قال الله ﷻ : ﴿**فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[1] . وهكذا بالنسبة إلى أبطال الفكر ، والعلم ، والفلسفة ، والأدب ، والدين ، وما أشبه ذلك ، إذ يحدّدهم ـ إلى حد ما ـ الزمان ، والمكان ، والشرائط ، والمزايا ، فمن المتعسّر أن ينشأ عباقرة الفكر ، وعباقرة العلم ، أو الفلسفة ، أو الأدب ، أو ما أشبه ذلك في أمم على درجة كبيرة من التخلّف الاجتماعي ، أو الاقتصادي ، أو السياسي ، أو ما أشبه ذلك .

والديمقراطية إنّما نشأت في الغرب بعد مقدّمات فكرية قام بها عدد كبير من المفكّرين ، وقد قرأت في كتاب أنّ مجموع ما كتب حول الديمقراطية في الغرب قبل ظهور الديمقراطية قد بلغ عشرين ألف كتاب ، وعشرين ألف كتاب يحتاج إلى عشرين ألف مفكّر إن قلنا أنّ كل واحد كتب كتاباً واحداً .

وتشرشل[2] الذي انتصر في الحرب العالمية الثانية ، لم يكن بوسعه الانتصار

---

(١) سورة البقرة : الآية ٩١.

(٢) ونستون تشرشل ، أحد القيادات السياسية البريطانية ، الذي أنقذ بلاده من الهزيمة إلى

لولا مؤازرة قوى عديدة له ، ولذا لمّا رفضه الشعب البريطاني بعد الحرب بعد أن كان منتصراً في الحرب سقط سقوطاً ذريعاً لأنّ الشعب لم يكن يريده ، وهكذا لمّا رفض الشعب الفرنسي ديغول [١] وقد دخل فرنسا محرّراً لها من بطش النازيين سقط ديغول على أنّه أيضاً انتصر في الحرب ، فاللازم أن تكون هناك قوى مؤاتية زماناً ومكاناً بالنسبة إلى ما يطلق عليه البطل بطلاً ، سواء كان بطلاً واقعياً أو بطلاً مزيّفاً .

وعلى أيّ حال : فإنّ البطل سواء كان واقعياً أو مزيّفاً ، تسبقه ظروف اجتماعية ، واقتصادية ، وسياسية خاصّة ، تبعث إلى الحاجة إليه فيما إذا كانت الحاجة إلى حدّ الأزمة ، فإنّ مثل ذلك يوجب ظهور البطل ، فالبطل هو نتاج المجتمع ، كما أنّ المجتمع أيضاً بدوره هو نتاج البطل ، يؤثّر أحدهما على الآخر كما ذكرنا سابقاً ، وليس للتاريخ حركة حتمية مطلقة وإنّما الحركة تكون حتمية واختيارية معاً . فإنّ نظرية الحتمية الاجتماعية تجعل الفرد أسير قوى تاريخية لا يستطيع أن يفلت منها بل الفرد ضئيل إلى جانب هذه القوى ويكون حينئذ

النصر في الحرب العالمية الثانية والتي عبر عنها: «الحرب التي لا ضرورة لها».
ولد في مدينة أكسفورد في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٧٤م، تخرج ضابطاً في الجيش برتبة ملازم سنة ١٨٩٥م ، تولّى وزارة البحرية سنة ١٩١١م ـ ١٩١٥م ، وتولّى وزارة التموين سنة ١٩١٧م والحربية سنة ١٩١٨م ثم وزارة المستعمرات والمالية ١٩٢٥م والحربية مرّة ثالثة سنة ١٩٣٩م ، أصبح رئيساً للوزراء بين سنة ١٩٤٠ـ ١٩٤٥م وسنة ١٩٥١ـ ١٩٥٥م كما ترأس حزب المحافظين ، مات في ٢٥ كانون الثاني ١٩٦٥ عن عمر يناهز ٩١سنة ، له أكثر من ثلاثين مؤلفاً ، منها : «مذكرات تشرشل» ، «رحلتي لإفريقيا» ، «الأزمة العالمية» ، «أفكار ومغامرات»، «خطوة خطوة» ، «الحرب الكونية الثانية» ، «تاريخ الشعوب الناطقة بالإنجليزية» .

(١) الجنرال شارل ديغول ، ولد سنة ١٨٩٠م ، قائد فرنسي ، دعا إلى مقاومة الألمان بعد هزيمة ١٩٤٠م في نداء مشهور أطلقه من لندن ؛ كما رفض الاعتراف بحكومة فيش في نفس السنة ، ترأس الحكومة المؤقتة بين سنة ١٩٤٤م ـ ١٩٤٦م ، أصبح رئيساً للجمهورية الخامسة بين سنة ١٩٥٩ـ ١٩٦٩م حيث قدم استقالته ، ومات سنة ١٩٧٠م ، من مؤلفاته : «مذكرات ديغول» .

الذي يسمّى بالبطل منفّذاً فقط لحركة التاريخ الحتمية .

والزعم الشيوعي بأنّ حركة التاريخ هي حتمية ، زعم دلّ الدليل على خلافه ، وتحطّم الاتّحاد السوفياتي بنفسه خير دليل على ذلك .

ومن يزعم أنّ أمثال لينين [1] ، وستالين ، ونابليون [2] ، ومن أشبه لو كان غيرهم مكانهم ، لم تظهر تلك الحركات ، والانتصارات ، والانكسارات ، وما أشبه ذلك رجمٌ بالغيب ، فما هو الدليل على ذلك ؟

يقول أحد علماء الغرب : «إنّك إن شئت أن تدرك ، وتفهم خوارق نظام المجتمع ، فإنّك لن تصل إلى ذلك عبر الاعتكاف على قراءة سير الحكّام العظام في التاريخ من القديم حتّى نابليون وفردريك ، ذلك أنّ المرء يجد نفسه تائهاً سائراً إلى طريق مسدود ، لو نسب أي حادث طبع عصراً تاريخياً بطابعه إلى فرد ما ، وقد يلاحظ المؤلّف أنّ فرداً ما ، هو السبب المباشر لواقعة حاسمة ، ولكن على المؤرّخ أن يتجاوز ذلك ليدرس العوامل التي أنتجت هذا الفرد وحتَّمت عليه أن

---

(١) فلاديمير إيليتش أوليانوف ، المشهور ب(لينين) نسبة إلى اسم نهر لينا حيث كان منفياً على ضفافه في العهد الملكي الإمبراطوري ، زعيم وكاتب روسي ، ولد سنة ١٨٧٠م ومات سنة ١٩٢٤م ، دخل المعترك السياسي بتأسيس الحزب الشيوعي في روسيا وقاد الثورة البلشفية سنة ١٩١٧م وأطاح بحكومة كيرنسكي ، أسس الاتحاد السوفياتي السابق وأصبح رئيساً للبلاد بين سنة ١٩١٧م ـ ١٩٢٤م ، أهم مؤلفاته : «الاستعمار أعلى مراتب الرأسمالية» .

(٢) نَابِلْيُون بُونَابَرْت ، ولِدَ سنة ١٧٦٩م في جزيرة كورسِيكَا ، أحد أبرز القادة العسكريين في فرنسا ، قاد الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م ، واستطاع أن يحتل الإسكندرية بعد معارك دامية ثم احتل القاهرة في ٢٧ تموز سنة ١٧٩٨م ، ثم احتل الشام في شباط ١٧٩٩م ثم مدينة «يافا» ، التي أحدث فيها مجازر مروعة ثم حاصر «عكا» في ١٩ آذار ١٧٩٩م ، ولم يستطع أن يحتلها ، كما خاض حروباً مع العثمانيين سنة ١٧٩٩م في «تل طابور» و «أبو قير»، حكم سنة ١٨٠٤م واستمر في الحكم الى سنة ١٨١٤م ، وغزا روسيا ١٨١٢ ، وتنازل عن العرش سنة ١٨١٤م ؛ إثر حربه مع روسيا وبريطانيا والسويد والنمسا الذين شكلوا تحالفاً ضده وانتصروا عليه في معركة «الأمم» سنة ١٨١٣م ، ونفي إلى جزيرة «إليا» ثم إلى «سانت هيلانة» التي مات فيها سنة ١٨٢١م .

يفعل ما يفعل . فالمجتمع هو الذي يشكّل الرجل العظيم قبل أن يستطيع الرجل العظيم أن يعيد تشكيل المجتمع».

أقول : وكما ذكرنا فإنّ كلّ واحد من الشخصية والمجتمع ، يؤثّر أحدهما في الآخر ، ويكون النتاج ما نراه ، سواء كان شخصية دينية أو دنيوية ، مصلحاً كغاندي [1] في بلاد الهند ، أو مفسداً كستالين في روسيا . فمن الضروري أنّ الذي يريد أن يذكر ، ويصل إلى فلسفة التاريخ ، ويحلّل الأحداث ، أن ينظر إلى الأمرين معاً نظير قوله :

مسألة الدور جرت بيني وبين من أحبّ   لولا مشيبي ما جفت لولا جفاها لم أشب

وهكذا نجد الأمر كذلك في كلّ مناحي الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والتربوية ، والعسكرية ، والعائلية ، فالمجتمع هو الذي يوجد الشخص الاقتصادي ، والشخص الاقتصادي هو الذي يوجّه المجتمع إلى الاقتصاد ، سواء كان الاقتصاد سليماً أو منحرفاً بحق أو بباطل ، وهكذا بدا الاقتصاد لماركس كأنّه العامل الأوّل والأخير في تحريك دواليب الحياة ، وكما يرى هيجل [2] من أنّ الروح هي التي تؤثّر ، أو كما يراه فرويد من أنّ الجنس هو المؤثر

---

(١) المهاتما غاندي ، ولد في «بور بند» الهندية سنة ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) ، واغتيل سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) ، بدأ كفاحه السلمي لتحرير الهند سنة١٣٣٧هـ (١٩١٩م) ، وتزعم حزب المؤتمر ، سعت جهوده إلى تحرير الهند من الاستعمار البريطاني ، عبر وسيلة المقاومة السلبية ـ اللاعنف ـ والعصيان المدني والصوم ، وقد كلّفه صراعه أن يدخل السجن عدّة مرات ، من مؤلفاته : «قصة تجاربي مع الحقيقة» .

(٢) جورج ولهام فريد يريك ، المشهور بهيجل ، صاحب النظرية الديالكتيكية أو الجدلية ، ولد سنة ١٧٧٠م ، ومات في برلين بسبب الكوليرا سنة١٨٣١م ، درس في جامعة «هير لبرغ» وبرلين قرابة الخمسة عشر عاماً، له سبعة مؤلفات هي : «موسوعة العلوم الفلسفية»، «منطق وفلسفة الطبيعة»، «فلسفة الجمال»، «تاريخ الفلسفة»، «دروس في فلسفة الدين»، «مبادئ فلسفة الفقه»، «فينومولوجيا الذهن» ؛ والذي يتعرض فيه للظواهر الذهنية

على حياة المجتمعات ، كل ذلك انحراف عن الواقع ، والنظر إلى شيء من زاوية واحدة لا من زوايا مختلفة .

والشخص الذي يكتب فلسفة التاريخ ، لا يمكن أن يعتمد على مثل هذه الأفكار التي تخالف الفطرة البشرية .

نعم ، من الصحيح أنّ الفطرة والعقل هي أساس الحركات الاجتماعية ، فالصحة تكون منهما ، والزيف يكون بالزيغ عنهما .

ومن الواضح أن الزيف إنّما يكون زيفاً عن شيء صحيح . أمّا ما لا صحيح له ، فلا يعقل أن يكون فيه زيفٌ .

مثال ذلك مثل الدينار المزيّف ؛ فإنّه اذا لم يكن ديناراً صحيحاً ، لم يكن ديناراً مزيّفاً ، فإنّ الباطل يظهر نفسه بمظهر الحقّ حتّى يكون له سوق ، وإذا لم يكن هنالك حقٌّ في ناحية من نواحي الحياة ، لم يكن هنالك باطل .

مثلا آخر : الجبان يُظهر نفسه بمظهر الشجاع ، والشجاع كائن خارجاً ، والبخيل يظهر نفسه بمظهر الكريم ، وإذا لم يكن كريم لم يكن هنالك بخيل بهذا المعنى ، وهكذا الأديان المزيّفة والقوانين الفاسدة تظهر نفسها بمظهر الأديان الصحيحة والقوانين المستقيمة .

وهناك بعض الشواهد التاريخية التي تدلل على ذلك ؛ يقول أحد الرواة : رأيت شمراً قاتل الحسين عليه السلام في مسجد الكوفة يصلّي جماعة قبل ظهور المختار فلمّا أكمل صلاته رفع يديه وقال : يا ربّ ، إنّك تعلم أنيّ شريف ! ، فقلت له : ويلك قتلت الحسين ، وسبيت أهله ، وحرقت خيامه ، ومع ذلك أنت شريف ، قال : كنت مأموراً ، والمأمور معذور .

وحتّى شمر بن ذي الجوشن بهذه الجرائم ، يحاول أن يتظاهر بأنه شريف ، لوجود بعض الشرفاء في المجتمع .

وآثارها في حياة الإنسان . للتفصيل راجع حياة هيجل للدكتور عبد الرحمن البدوي.

ومثله قال عمر بن سعد حيث لم يسلّم عليه بُرير ، قال يا بُرير ، لم لا تسلّم عليّ ، أزعمت أنّي لست بمسلم ؟ .

قال له بُرير : ويلك ، تفعل هذه الأفاعيل ثم تزعم أنك مسلم .

فإذا لم يكن هناك مسلم ، ما كان عمر بن سعد يزعم أنّه مسلم ، فإنّ المتاع المزيّف إنّما يروّج نفسه باسم المتاع الصحيح .

والحاصل : أنّ من يريد البحث في فلسفة التاريخ ويدوّن ما يحصل من نتائج بكتابة ، أو مقالة ، فالمفترض أن يراعي الجانبين الشخصي والمجتمع ، فبدون هذه النظرة لا يتمكّن أن يصل إلى رؤية صحيحة للتاريخ .

الأنبياء

صناع التاريخ

مسألة : من الضروري أن تستقيم نظرة الإنسان للتاريخ والحياة ، بأن يعتبر الأنبياء ، والأئمّة ، والأوصياء ﷺ ، المرتبطين بالسماء ، الذين يربطون الحياة بعضها ببعض ، ويبشّرون الناس بالحياة السعيدة ؛ هم صنّاع التاريخ ، فهم فخر البشرية ؛ لأنّهم هَدوا البشرية لطريق الحياة السعيدة ؛ ولأنّهم هم الذين أعطوا حقّ المادّة وحقّ الروح . وعدم اعتراف المادّيين بالحياة الباقية وبالروح لا ينقص الأمر قيمته الواقعية . مثل الإنسان الأعمى الذي لا يعترف بالمناظر ، والإنسان الأصمّ الذي لا يعترف بالأصوات ، ولذا قال الله سبحانه وتعالى : ﴿**بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ**﴾ [(١)] ، فالأعمى أحياناً يشكّ بالآخرة وينتهي إلى العدم الذي عبّر الله عنه بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ** ﴾ [(٢)] ، وهؤلاء عندهم فلسفة واحدة للتاريخ ؛ على ما ذكرناه سابقاً .

المادّيون وحركة التاريخ

والمادّيون ينقسمون في آرائهم إلى نظريتين :

النظرية الأولى : النظرية الهيجلية [(٣)] ، وتقوم على وجود «فكرة» هي سرّ هذا

---

(١) سورة النمل : الآية ٦٦ .

(٢) سورة النمل : الآية ٦٦ .

(٣) نسبة إلى الفيلسوف الألماني جورج ولهام فردريك المشهور ب(هيجل) .

العالم ، فالفكر المطلق المتعالي الحر ، ينبع من الخالق ، وينال في الخارج هويّته ، ومشروعيته ، ومحدوديته ، ولا ينافي ذلك كونه مادّياً ، لأنّهم يعتبرون الإله أيضاً مادّياً ، فهذا العالم عندهم هو ذهن الله ، وبمجرّد أن تتحقق هذه الفكرة في الخارج ، وتنفصل عن صاحبها فإنّها تبتلى بالفراق والغربة عن الذّات ، وهي في حالة مستمرة للتغلّب على هذا الانفصال ، والعودة من جديد للارتباط بأصلها ، وعلى هذا ، فالتاريخ هو قصّة الناي الذي ينوح باستمرار ، والذي أشار إليه المثنوي [(١)] :

أسمع من الناي وهو يحكي الحكايات
وهو يشتكي من ألوان الفراق

فحركة التاريخ عندهم تجلّيات متعاقبة ومتتالية للفكرة المتعالية ، التي هي في نشاط مستمر لفكّ القيود عن قدميها ، وفكّ الأغلال عن عنقها وأيديها ، وهي تبحث عن يوم الوصال ورجوع الإنسان إلى معدنه ، ويمثلون لذلك بانفصال قطرات البحر عن البحر بارتفاعها نحو السماء في عملية تبخير ثمّ إنّها تحاول الرجوع إلى البحر ، فالأمر - إذاً - دوريٌّ . فجوهر الفكرة المتعالية عند هؤلاء تركيبية ، وأساسها هي الحرّية وتحطيم القيود ، إلاّ أنّ دخولها إلى أجواء العالم ، قيّدها ، وللتحرّر من هذا القيد والعودة إلى عالم الحرّية ؛ تحتاج إلى العزم الرّاسخ للفكرة المجهولة السجينة . فالفكرة المتعالية ؛ تعيش حالة صراع مستمرّ مع ذاتها ، فتذبّ عن نفسها درجة من الغربة عن الذات لتقترب خطوة خطوة نحو التحرّر النهائي . فالحوادث سواء كانت فراقاً أو وصالاً ، بُعداً أو قرباً ، اشتياقاً أو هجراناً ، تشكّل مهد الحركة التاريخية العالمية .

والنظرية الثانية : النظرية الماركسية [(٢)] ، وتعتبر «المادّة» أساس العالم وليست

---

(١) بشنو از ني جون حكايت ميكند واز جدائيها شكايت ميكند

(٢) نسبة إلى كارل ماركس ، مؤسس العقيدة الماركسية ، التي تحددت في «البيان الشيوعي»

«الفكرة» كما تقول النظرية الأولى ، ولذا قال ماركس : إنّ هرم التفكير الهيجلي كان مقلوباً حيث كان واقفاً على رأسه فأجلسته أنا على قاعدته ، بمعنى أنّ المادّة هي كلّ شيء وليس الفكر ، فالمادّة هي التي تنتج الفكر ، وليس الفكر ينتج المادّة كما يقول هيجل ، ومحرّك الحركة التاريخية والفلسفة العامّة للتاريخ عند ماركس ليس هو عشق الفكرة المطلقة للتحرّر من الفراق ، وإنّما هو نمو وسائل الإنتاج ونجاح الطبقة الجديدة الناشئة مع الطبقة القديمة ، وهو لا يرى مسيرة التاريخ بعنوان أنّها تجلّيات متنوّعة ومتعاقبة للفكرة المطلقة تحت غطاء الأمم والناس ، وإنّما اعتقاده أنّها مراحل مختلفة لنمو وسائل الإنتاج والأبنية الفوقية المترتّبة عليها والمناسبة لها .

وعلى أساس هذه الفكرة ، يؤمن ماركس بمرحلة الاشتراكية البدائية ، ثمّ مرحلة العبودية ، ثمّ مرحلة الإقطاع ، ثمّ مرحلة الرأسمالية ، ثمّ مرحلة الاشتراكية المنتهية إلى الشيوعية ، فكلّ مرحلة من هذه المراحل تسود وتعم مقطعاً زمنياً معيناً ، يتناسب مع مستوى نضج ونمو وسائل الإنتاج ، فماركس يصرِّح بأنّ هدفه هو التحرّر من الطبقات الاقتصادية . وقد أشرنا إلى مثل ذلك وإلى نقده في جملة من كتبنا الاقتصادية [١] ، وقد تنبأنا بسقوط الماركسية قبل سقوطها بعدّة سنوات [٢] ؛ لأنّها منحرفة أوّلاً ، وقسرية ثانياً ، والقسر لا يدوم كما أنّ الانحراف لا يلائم الحياة ، فإنّ الحياة بنيت على الصحّة والاستقامة ، كما

الذي كتبه ماركس ، وفريد ريك إنجلس في بروكسل ، وأصدرا معاً كذلك كتاب : «العائلة المقدسة» ، وبمساعدة الأخير ، أصدر ماركس الكثير من النظريات الشيوعية والاشتراكية.

(١) راجع موسوعة الفقه : ج ١٠٧و١٠٨ كتاب «الاقتصاد» وكتاب «الاقتصاد بين المشاكل والحلول» وكتاب «ماركس ينهزم» للإمام المؤلف تُنَرَّئُ .

(٢) «ماركس ينهزم» ، وقد طبع سنة ١٤١٠هـ (١٩٩٠م) ، وكان تنبؤ الإمام المؤلف تُنَرَّئُ بسقوطها قبل عشر سنوات من تحقق ذلك ، والجدير بالذكر أنه حددّ زمانها بعشر سنوات وبالفعل حصل ذلك التنبؤ .

قال ﷻ : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [1] ، وليس معناه أنّ الله جسم على صراط مستقيم بل معناه أنّ الله ﷻ جعل كلّ شيء على نحو الاستقامة ، ولذا ورد في الحديث : **(بالعدل قامت السماوات والأرض)** [2] .

تكاملية حركة التأريخ

والنظريتان [3] اللتان ذكرناهما ، وإن كانت إحداهما مثالية ، والأخرى مادّية ، لكن كلتيهما منحرفتان عن الواقع ، وإن كانتا تشتركان في أمور :

١ . أنّهما تعدان حركة التاريخ معلولة للتضاد الداخلي في أعماق التاريخ نفسه ، وليست معلولة بعامل ، أو عوامل خارجية عنه ، فإنّهما تتصوّران حركة التاريخ حركة جدليّة ديالكتيكية ، وليست قسريّة ميكانيكية ، وقد ذكرنا في بعض كتبنا بطلان الحركة الجدلية الديالكتيكية ، وإنّما الصحيح هو المنطق الذي يقوم عليه الإسلام ، وقبل ذلك قام عليه العقل .

٢ . وأنّهما لا تنسبان دوراً لإرادة الإنسان في مجال التأثير على إرادة التاريخ ، وعزمه ، وحركته ، ومبدئه ، ومسيره ، فإنّهما لا تعدان الناس قادرين على إلغاء ، أو تغيير جهة الحركة التاريخية ، وإنّهما تصرّحان بكون هذه الحركة تقدّميّة ، تكامليّة ، وليست رجعيّة داعية إلى التأخّر .

يقول فولتير : «إنّ بعض المؤرّخين اهتمّوا بالحروب والمعاهدات ، ولكنّي بعد الاطّلاع على ثلاثة أو أربعة آلاف معركة ، وبضع مئات من المعاهدات ، لم أجد نفسي أكثر حكمة من قبلها ؛ حيث لم أتعرّف إلاّ على مجرّد حوادث لا تستحقّ عناء المعرفة ، وأيّ حكمة تكتسب من العلم بسيادة حاكم طاغية على شعب بريء لا هم له إلاّ أن يغزو ويدمّر ؟!. إنّ مجال التاريخ يجب أن يتّسع لما هو أهمّ

---

(١) سورة هود : الآية ٥٦ .

(٢) غوالي اللآلي : ج٤ ص١٠٢ ح١٥١ .

(٣) النظرية الهيجلية والنظرية الماركسية .

من ذلك ، ليتتبع سير العقل البشري في الفلسفة ، والبلاغة ، وفي الشعر ، والنقد وفي التصوير ، والنحت والرسم ، وحتّى في النسيج ، وصناعة الساعات ، وكلّ ما يُمثِّل شخصية الشعب ، إنّها أجدر اهتماماً من معرفة جزئية بأخبار الملوك ، وحوادث البلاد . إنّ التقدّم الحقيقي للإنسانية ليس في قادتها العسكريين ، ولكن في فلاسفتها ، وعلمائها ، وشعرائها ، وإن سألت أيّ هؤلاء الرجال أعظم ، الإسكندر ، أم قيصر ، أم تيمورلنك [(١)] ، أم كرومويل [(٢)] ؟ لأجابوك أنّ إسحاق نيوتن [(٣)] هو أعظمهم جميعاً بلا شك ! ذلك لأنّ العظمة الحقّة هي التي تتجلّى في العبقرية التي تجود بها السماء لإنسان ما ، فتمهد الطريق له ولغيره من أبناء المجتمع . ومن ثمّ فإنّ رجلاً مثل نيوتن الذي لا يجود الزمان بمثله إلاّ في كلّ عشرة قرون مرّة واحدة ، أصبح عظيماً بخدماته التي قدّمها للبشرية ، وهي سرّ عبقريته . أمّا هؤلاء الساسة ، والقوّاد العسكريون ، فلا يكاد يخلو منهم قرن بل ليسوا في الحقيقة إلاّ أشراراً ، ومن ثمّ نجد أنفسنا ملزمين أن نحني رؤوسنا إجلالاً إلى ذلك الذي فسّر الكون ، لا أولئك الذين يشوّهونه» .

---

(١) تيمورلنك أحد أحفاد جنكيز خان ، ولد في سمرقند سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦م) ، ومات سنة ٨٠٧هـ (١٤٠٥م) ، ولقب بـ«لنك» وهي كلمة فارسية بمعنى الأعرج ؛ لأنه أصيب بسهم في ساقه ، عرف بقسوته وبطشه وظلمه ، اعتلى العرش واتخذ «سمرقند» عاصمة له ، وفتح بلاد فارس وسوريا ومصر ، وامتد سلطانه من الأناضول غرباً إلى نهر الكنج شرقاً وإلى ما يعرف بتركستان الصينية شمالاً بما فيه خوارزم وكشفر ، دخل في صراع مع العثمانيين في عهد«بايزيد الثاني» في معركة أنقرة سنة ٨٠٤هـ (١٤٠٢م) ، وانتصر عليهم ، ومات تيمور وهو يستعد لإكمال احتلال الصين .

(٢) أوليفر كرومويل ، ولد سنة ١٠٠٧هـ (١٥٩٩م) ، ومات سنة ١٠٦٩هـ (١٦٥٨م) ، سياسي إنجليزي وعضو برلماني ، تزعم حركة المعارضة للملك شارلس الأول وحكم عليه بالإعدام سنة ١٠٥٩هـ (١٦٤٩م) ، تولّى الحكم سنة ١٠٦٣هـ (١٦٥٣م) .

(٣) ولد سنة ١٦٤٣م ، وتوفي سنة ١٧٢٧م ، عالم إنجليزي في الرياضيات والفيزياء والفلك والفلسفة والطبيعة ، اكتشف مبدأ الجاذبية العام بتحليل النور ، واكتشف قوانين الحركة واخترع التلسكوب العاكس ، وله نظرية التفاضل والتكامل ، من مؤلفاته : «علم البصريات» ، «قوانين الحركة» ، «المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية» .

أقول : ولذا قال رسول الله ﷺ : **(أشجع الناس من غلب هواه)** [(١)] ؛ هذا بالنسبة إلى الإنسان نفسه، حيث إنّ من يكون تحت تأثير الهوى لا قيمة له ، وقال الرسول الأكرم ﷺ : **(من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عَمل بها إلى يوم القيامة من غير أن يمحق من أجورهم شيء ، وإنّ من سنّ سنّة سيّئة فله وزرها ووزر مَن عَملَ بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزاره شيء)** [(٢)] ، فالمعيار ؛ إنسانية الإنسان أوّلاً ، ثمّ خدمته للمجتمع وتقديمه للأمام ثانياً.

وهنا سؤال يُطرح علينا : هل يثاب ويؤجر العظماء حتّى لو كانوا كافرين ؟ وهل من المعقول ألاّ يثاب من نفع الناس بعلمه ، بينما هناك أناسٌ يثابون في الآخرة بالرغم من أنّهم لم يقدّموا شيئاً للبشرية بل كلّ ما عندهم لا يتجاوز الصلاة ، والصيام ، والحج .

والجواب واضح : فإنّ ذلك المؤمن العامي إذا عَمِل لله ﷻ فله أجر عند الله ، أمّا إذا بنى إنسان قصراً شامخاً ، ولم يفعل ذلك لأجل الله ، فلا حقّ له في أن يأخذ أجره من الله ، مثال ذلك مثال إنسان يأتي بكنّاس في بيته ليكنس بيته بما قيمته عشرة فلوس ، فإنّ أجر هذا الكنّاس على ذلك الآمر بكنس بيته ، بينما إذا شاهد عند جيرانه إنساناً يبني قصراً شامخاً قيمته مليارات من الدولارات ، فإنّه ليس أجر ذلك البنّاء على هذا الإنسان الذي لا يرتبط البناء به ، أمّا أشخاص من أمثال أديسون [(٣)] ؛ فمن كان عمله لله ﷻ ، فالله يؤجره أيضاً ، أمّا إذا كان عاملاً لهوى نفسه ، أو لشهرته ، أو لزيادة ماله ، فلا أجر له عند الله ﷻ في الآخرة ، وإنما يأخذ أجره في الدنيا ، قال

---

(١) من لا يحضره الفقيه : ج٤ ص٣٩٥ ب٢ ح٥٨٤٠ ، بحار الأنوار : ج٧٠ ص٧٦ ب٤٦ ح٥.

(٢) الكافي (فروع) : ج٥ ص٩ ح١، تهذيب الأحكام : ج٦ ص١٢٤ ب٢٢ ح١٥٥ (بالمعنى) .

(٣) توما أديسون ، ولد سنة ١٨٤٧م ، وتوفي سنة ١٩٣١م ، عالم فيزيائي إمريكي ، مخترع الآلات الكهربائية ومنها المصباح الكهربائي ، وقد سجل له مئتا اختراع .

تعالى : ﴿أنّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ [(١)] ، لذا ورد في الحديث أنّ حاتماً [(٢)] لا يُحرق في النار ؛ لأنّه كان كريماً ، والكرم صفة يحبّها الله ﷻ ، وإن مات كافراً ، وكذلك ورد أنّ كسرى [(٣)] لا يحترق في النار ؛ لأنّه كان عادلاً ، وإن لم يكن عدله لله ﷻ ، وهكذا بالنسبة إلى أبي لهب [(٤)] ؛ حيث أعتق عبده بشارة بولادة رسول الله ﷺ فإنّه في مثل ذلك اليوم من كلّ سنة يخفّف عنه العذاب ، وهكذا ورد في راحي اليهودي ـ بندار ـ الذي لم يسلم حتّى مات ؛ لأنّه كان يحبّ علياً ؑ [(٥)] ، إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة على نحو الكلّية ، أو على نحو الجزئية الشخصيّة .

هذا كلُّه إضافة إلى أن الجاهل منهم بالحقيقة يعاد امتحانه ـ إن كان قاصراً ـ يوم القيامة ، فإنْ نجح فإلى الجنّة ، وإنْ عاند فله ما أراد .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٥.

(٢) حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرؤ القيس بن عدي ، شاعر جاهلي ، اشتهر بشجاعته وسخائه وكرمه وضرب به المثل ، له ديوان شعري ، توفي سنة ٦٠٥م ، وقيل : ٦٠٧م .

(٣) كسرى الأول : ويعرف بـ«خسرو أنو شيروان» ، من ملوك الساسانيين ، حكم من سنة ٥٣١م إلى ٥٧٩م ، حارب «يوستينيانس» واحتل «أنطاكيا» و«لاذق» ، أجبر على عقد هدنة مع البيزنطينيين سنة ٥٥٥م ، استولى على اليمن سنة ٥٧٠م ، امتدت إمبراطوريته حتى البحر الأسود وجبال القوقاز ، اشتهر بعدله ، أهم مشاريعه : مسح الأراضي وإصلاح نظام الضرائب ، توفي سنة ٥٧٩م . راجع موسوعة المورد : ج٦ ص ٥١ ، المنجد في الأعلام : ص٥٨٨ ـ ٥٨٩ .

(٤) عبد العزى بن عبد المطلب ، عم الرسول الأكرم ﷺ ، كان هو وامرأته أشد الكفار بغضاً وكراهية للرسول ﷺ ، نزلت بحقهما «سورة المسد» ، ومن شدة عدائه للرسول الأكرم ﷺ ؛ عندما كان الرسول ﷺ يعرض دعوته في المواسم على قبائل العرب ، كان أبو لهب يسير خلفه ؛ ليصد الناس عنه وكان يقول : « إن هذا ابن أخي وهو كذّاب فاحذروه» ؛ كما ذكر ابن هشام في سيرته واليعقوبي في تاريخه ، توفي سنة ٢هـ بعد واقعة بدر بأيام .

(٥) راجع زبدة المنهاج : ص ٢٩٣ ، وأسرار الشهادة : ص ٤١٩ ، طبعة قديمة .

والحاصل: أنّ التاريخ يصنعه الإنسان، وأعلى مراتبه هم الأنبياء، الذين جعلوا من التاريخ حضارة، وسمواً، عبر القيم الإلهية التي حملوها، فنشروا الأخلاق، والفضيلة، والحرية، وعبر هذا كتب التاريخ النقي. والتاريخ الأسود كتبه الطغاة، والمستبدّون، الذين نشروا الفساد، والرذيلة، والاستعباد، والدمار.

مونتسكيو وفلسفة الحضارة

ومن هذا المنطلق بالذات بحث مونتسكيو فلسفة الحضارة في العصر الحديث، وذلك فيما عرضه في كتابه «روح القوانين»، فقد عرض مونتسكيو العوامل التي تحدّد نظام الحكم في مجتمع ما، بعد أن قسّم أنظمة الحكم إلى استبدادية، وأرستقراطية، وديمقراطية. وقد حمل مونتسكيو حملةً شعواء على الحكومات الاستبدادية، واعتبرها حكومات قد تجرّدت عن الشرف، والفضيلة، ولم تكن حملته على الحكّام فحسب، وإنّما على الحاشية والبطانة، ولذلك يقول تتألّف أخلاق معظم البطانات في كلّ زمان ومكان من الطموح في كنف البطالة، والضعة المتستّرة وراء الكبرياء، والرغبة في الثراء دون عناء، والتملّق، والخيانة في الطباع، والمؤامرات، والتخلّي عن الوعود، وازدراء واجبات المواطن، والفزع إن كان الأمير فاضلاً يتمنّى أن يكون ضعيفاً مع الاستهزاء الدائم من الفضيلة ومعتنقيها. إنّه من المزعج حقّاً أنّ أكثر أكابر الدولة فاقد الأمانة، بينما أصاغرها هم أهل الصلاح. وقد استغرق كتاب مونتسكيو روح القوانين «١٤» عاماً، وحذّره أصدقاؤه من نشر الكتاب، ولكنّه أصرّ على نشره، وقد وضع في القائمة السوداء، ولكنّه أصرّ على نشره، فظهر في سنة ١١٦٣هـ[1]، وطبع عشرين طبعة في عامين. وانتشرت آراؤه في معظم بلاد العالم، وأخذ كتابه

---

(١) «١٧٥٠م».

يدرّس في المدارس ، والجامعات ، وطبِّقت أفكاره في كثير من بلاد العالم[(١)] .

أقول : إنّ أفكار الديمقراطية ، والحرية ، والتعددية ، التي طرحها مونتسكيو في كتابه لمعالجة الفساد ، والاستبداد ، لم تكن جديدة ، فقد طرحها الإسلام قبله بقرون . ففكرة التعدّدية الحزبية ، عمل بها الإسلام من قبل ، فقد قال رسول الله ﷺ : **(أنا مع الحزب الذي فيه ابن الأدرع)**[(٢)] ، و نراه ﷺ يقسّم المسلمين إلى مهاجرين وأنصاراً ، ولا يخفى أنّهما من ألف الإسلام إلى يائه ، كان لهما حكمٌ واحد ، وإنّما قسّمهم الرسول الأكرم ﷺ إلى قسمين كما في القرآن الحكيم ، والروايات ، والسيرة المطهّرة ، حتّى يكون أحدهما منافساً للآخر ، ولقد قال القرآن الحكيم قبل ذلك : ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾[(٣)] ، وقال : ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾[(٤)] ، وقال : ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾[(٥)] .

وقد ورد في التاريخ أنّ الرسول الأكرم ﷺ كان يلتجئ إلى هؤلاء مرّة ، وإلى هؤلاء مرّة حتّى إنّه في وصيّته الأخيرة ، لما قال أحد أصحابه **(إنّ الرجل ليهجر)**[(٦)] ، وكانوا من المهاجرين طردهم وطلب الأنصار . ولولا أنّ بني أميّة ، وبني العبّاس ، وبني عثمان ، جعلوا الحكم قيصرية ، وكسروية ، ضاربين منهج الشورى ، وغيره من مناهج الإسلام عرض الحائط ؛ لكان المسلمون قد سادوا مشارق الأرض ومغاربها في أقصر مدّة ، بينما

---

(١) وبالأخصّ فكرة فصل السلطات . ومن المحتمل أنه أخذ آراءه من الإسلام ، لأن الإسلام سبقه في الكثير من آرائه ، ففي قصّة الإمام علي عليه السلام ، وخصومته مع اليهودي ، وجلوسه إلى جانبه أمام قاضيه شُريح ، دليلٌ على أخذ الإسلام بمبدأ فصل السلطات .

(٢) غوالي اللآلي : ج٣ ص٢٦٦ ، وفيه (أنا في الحزب الذي فيه ابن الأدرع) .

(٣) سورة المطففين : الآية ٢٦ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٤٨، سورة المائدة : الآية ٤٨ .

(٦) كشف الغمة : ج١ ص ٤٢٠ ، كشف اليقين : ص٤٧٢ المبحث السادس والثلاثون .

قال الله ﷻ : ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ [١] ، ثمّ قال ﷻ : ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ [٢] ، إلى غير ذلك .

وقد عدّدت في بعض كتبي « ١٨ » موضعاً ، استشار فيه الرسول ﷺ ، والحال أنه متّصل بالوحي ، وغنيٌ عن المشورة ، وأنّه العقل الكامل ، لا باعتقاد المسلمين فحسب الذين يرونه نبيّاً مرسلاً من قبل الله ﷻ بل برأي جماعة من الغربيين المسيحيين وغيرهم أيضاً ، الذين يعدّونه من أفضل البشر ، حتّى إنّ أحد الغربيين في الأزمنة الحاضرة ، كتب كتاباً حول مائة شخصية غيّرت وجه العالم ، فذكر في قائمة أولئك الرسول الأعظم ﷺ [٣] .

والخلاصة : فاللازم لمن يريد ذكر الحضارات أن يعتبر الأنبياء هم صناع التاريخ ، وأن يلاحظ في تدوين التاريخ الشخصيّات النافعة غير المستبدّة ، أمّا المستبدّون ؛ فلا يستحقّون ذكراً إلاّ للتنفّر من أعمالهم ، وتنفير الناس عن سلوك أمثالهم ، وسلوك أمثال سلوكهم . والمسلمون في العصر الأخير إنّما سقطوا ؛ لأنّهم اتّبعوا الشرق والغرب ، بينما عندهم الإسلام وهو الأفضل من مناهج الغرب ومن مناهج الشرق ، ولا علاج لهم ولا للبشرية إلاّ بالرجوع إلى الإسلام واعتناقها لعقائده ، وأخلاقه ، وآدابه ، وشرائعه ، وسائر شؤونه ، فإنّه الدين الوحيد ، المطابق للعقل ، والفطرة ، والبرهان ، والمنطق .

---

(١) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٣) اسم الكتاب هو «الخالدون المائة» ، للمؤلف الأمريكي مايكل مارت . يقول في كتابه: «لقد اخترت محمداً في أول هذه القائمة ، ولابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ، ومعهم حق في ذلك ، ولكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي ، فهو قد دعا إلى الإسلام ، ونشره كواحد من أعظم الديانات ، وأصبح قائداً سياسياً ، وعسكرياً ، ودينياً ، وبعد ثلاثة عشر قرناً من وفاته ، فإن أثر محمد ما زال قوياً متجدداً» .

مسؤولية الإنسان

مسألة : على الإنسان أن يدين المفسد ، فرداً كان أو جماعة ، حاكماً أو محكوماً ، ويحسّن الأشخاص الذين يفعلون الحسن ، ذلك لأنّ المعيار هو الحُسن والقبح العقليان سواء كانا في الأفكار ، أو الأقوال ، أو الأعمال ، في فرد ، أو جماعة ، أو حكومة ، أو شعب ، أو أمّة ، وكلٌّ مرتهن بعمله إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ ، كما قال الله تعالى : **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ◆ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾** (١) ، وقوله تعالى : **﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾** (٢) .

أمّا المثل الصيني الذي يقول : «الرجل العظيم مصيبة عامّة» ؛ باعتبار أنّ الأبطال قد شقّوا طريقهم إلى العظمة ، وصدارة الأحداث ، في الحروب ، وسفك الدماء ، وباعتبار أن بعض الأبطال قد عرقلوا تطوّر الحضارة ، وتقدّم التاريخ إلى الأمام ، فهو غير صحيح على إطلاقه ، إذ إن كثيراً من العظماء ، ومنهم الأنبياء ، والمصلحين ، ساعدوا على تطوّر الحضارة ، وقدّموا التاريخ إلى الأمام .

وأما قول : « إنه لا يمكن أن تدور عجلة التاريخ دون أن تدفع البشرية ثمن دورانها بعدد من الكوارث والمعاصي» ، وقول هير قليطس (٣) : «الحرب أبو

---

(١) سورة الزلزلة : الآيات ٧ ـ ٨ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٧ .

(٣) فيلسوف يوناني ، ولد سنة ٥٤٠ ق.م ، ومات سنة ٤٨٠ ق.م ، ويعدُّ أحد مؤسسي الديالكتيك.

الأشياء جميعها بملكها ، وإن التنازع لو زال بين البشر ، لتوقفت الحياة ، وسكن الوجود ، فاللازم ألاّ يدان الفاسد إذا كان قائداً عسكرياً ، أو حاكماً مدنياً» ، فهي أقوال غير مدعومة بدليل من الفطرة ، أو العقل ، أو المنطق ، أو العقلاء ، والإمكان غير الرّجحان ، وعدم سلوك الطريق الصحيح المستلزم للنتائج الطيبة ، لا يصحح الدفاع عن سالكي الطرق المنحرفة ، وإنّ الفاسد فاسد سواء كان حاكماً كبيراً له ملايين من الاتباع ، أو فرداً صغيراً لا يملك إلاّ نفسه .

شبهة الآكل والمأكول

وربما يُستدلّ بصحّة المفاسد الكبيرة للحكّام الكبار بما أقرّه الله تعالى في الحياة من معادلة الآكل والمأكول ، كما نشاهد ذلك في الطيور ، والسباع ، والأسماك ، وأنّه لولا ذلك لضعف النسل ، وانتشر المرض ، والوباء ، وما أشبه ذلك .

وفي الجواب نقول : فهو قياس في غير موقعه ، فإنّ الإنسان الحرّ العاقل ، يؤخذ بما لا يؤاخذ به الحيوان الجاهل . وإذا صحّ سحب حالة الحيوان على الإنسان ، يجب أن يصحّ كلّ عمل إجرامي من سرقة ، واختطاف ، واغتصاب ، وقتل ، وما أشبه ذلك .

وقد يقال : ما هي الفلسفة في جعل الله تعالى الحكيم الرؤوف هذه الحالة في الحيوان ؟ ، ألم يكن من الأفضل أن يكون جميع الحيوانات آكلات للعشب ؛ حتى لا يؤذي حيوان حيوانا مهما كان الذي يؤذي صغيرا كالنملة ، والذبابة ، والبعوض ؟ .

وفي الجواب نقول : إن النبات ، والعشب ، أيضا له إحساس ، وألم ، وما أشبه ذلك ، فكان اللازم على هذا الالتزام بعدم أكلها أيضا ، ولا فرق بين الحيواني والنباتي من هذه الجهة أيضا ؛ ثم إن الآلام التي توجب أذية حيوان بحيوان آخر حالها حال الإنسان ، حيث يؤلم بسبب أخيه الإنسان ، فالمؤلمـ

بالكسر ـ يجازى بالعقاب ، والمؤلم ـ بالفتح ـ يجازى بالثواب ، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[١] ، وفي الحديث : **(يقتص للجمّاء من القرناء)**[٢] .

ثم إنه إذا لم يكن الأمر في الإنسان ، والحيوان ، والنبات أيضاً على هذا المنوال ، كان العالم عالماً آخر ، كما هو كذلك في زمان الإمام المهدي عجل الله فرجه ، حسب الأحاديث الواردة عن النبي والأئمّة الطاهرين عليهم السلام ، وكذلك في الجنّة ، وما أشبه[٣] ، وهذا العالم الذي نحن فيه بكلّ شؤونه قسم من العوالم المتطلّب للوجود ، والله تعالى يعطي كلّ متطلّب وجوده ، وكيفياته ، وخصوصياته المختلفة ، فقد قال تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[٤] ، وكما الأمر في الإنسان ، كذلك يكون الأمر في الحيوان ، حيث إن الحيوان أيضاً ، له شعور ، وإدراك ، حسب ما يستفاد من تواتر الآيات والروايات ، قال تعالى : ﴿**يا أيها الناس علمنا منطق الطير**﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿**قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم**﴾[٦] ، وقال تعالى : ﴿**فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه**﴾[٧] ، إلى غير ذلك من الآيات .

نعم ، يفهم من الأحاديث والآيات أن في الآخرة يعطى كل ذي حق حقه بلا زيادة ولا نقيصة ، كما قال تعالى : ﴿**لا ظلم اليوم**﴾[٨] ، ففي الدنيا أن الله تعالى لا يظلم أحدا لكن الناس بعضهم يظلمون بعضا ، بينما في الآخرة لا ظلم إطلاقا

---

(١) سورة التكوير : الآية ٥ .
(٢) بحار الأنوار : ج٧ ص٩١ ب ٥ و ج ٦٤ ص٤ ب١ .
(٣) وقد أسهب الإمام المؤلف رحمه الله في الحديث عن ذلك في موسوعة الفقه كتاب «المستقبل».
(٤) سورة الرعد : الآية ١٧ .
(٥) سورة النمل : الآية ١٦ .
(٦) سورة النمل : الآية ١٨ .
(٧) سورة المائدة : الآية ٣١ .
(٨) سورة غافر : الآية ١٧ .

ولا اختلاف في إعطاء استحقاق كلّ ذي حقّ حقّه إلاّ في الثواب ، ولذا ورد في الدعاء : **(يا من في الميزان قضاؤه)** (١) ، فإنّ قضاء الله ﷻ في الدنيا متساوٍ مع الاختلاف في النفسيّات ، والخصوصيّات ، والأزمنة ، والأمكنة ، والشرائط ، إلى غير ذلك ، فإذا أساء شخص كانت إساءته لنفسه ، إذ يأتي كلّ إنسان هناك فرداً ، كما قال ﷻ : ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ (٢) ، فلا يثاب شخص بعمل شخص آخر ، ولا يعاقب بذنب شخص آخر إلاّ إذا كان الثواب تفضّل كما قال ﷻ : ﴿ **أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ (٣) .

ثم إنّ الثواب والعقاب حسب النفسيّات أيضاً لا الأقوال والأعمال فقط ، ولذا قال ﷻ : ﴿ **قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (٤) ، وقال ﷻ : ﴿ **للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (٥) ، وقال الرسول الأكرم ﷺ : **(إنّما الأعمال بالنيّات)** (٦) ، وهكذا .

ويدلّ عليه أيضاً حديث ذلك العابد ، الذي كان يعبد الله ، فتصوّر ملك من الملائكة أن له أجراً كبيراً ، ولمّا نظر ذلك الملك في حسابه رأى أجره قليلاً ، فسأل الله ﷻ عن وجه ذلك ؟ ، فأذن الله للملك ليهبط إلى الأرض ؛ ليتعرف على

---

(١) البلد الأمين : ص٤٠٦ دعاء الجوشن الكبير ، الدعاء والزيارة : ص١٩٦ للمؤلف تتمّئ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٤ .

(٣) سورة الطور : الآية ٢١ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٢٩ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٨٤ .

(٦) تهذيب الأحكام : ج١ ص٨٣ ح٦٧ ب٤ ، وج٤ ص١٨٦ ح٢ ب١ ، وسائل الشيعة : ج١ ص٤٨ ب٥ ح ٨٩ و ج ٦ ص ٥ ب ١ ح ٧١٩٧ و ج ١٠ ص ١٣ ب ٢ ح ١٢٧١٣ .

ذلك العابد ، فعرف نفسيته ، وأنّه يفكر : حبذا لو كان لله حمار ؛ حتّى لا تذهب هذه الأعشاب هدراً [١] . . إلى غير ذلك من المؤيّدات الواردة في الكتاب ، والسنّة ، والعقل .

وعلى أيّ حال : فهل يصح ألاّ ندين أمثال هتلر ، وستالين ، ونيرون [٢] ، ومعاوية ، وهارون العبّاسي ، والمتوكّل ، وما أشبه ذلك من المجرمين في التاريخ ، الذين قال الله ﷻ فيهم : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ◆ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ◆ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ◆ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ◆ وَفِرْعَوْنَ ذِي**

---

(١) أن رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله عز وجل في جزيرة من جزائر البحر ، خضراء نضرة ، كثيرة الشجر ، طاهرة الماء ، وأن ملكاً من الملائكة مرّ به . فقال : يا رب ، أرني ثواب عبدك هذا . فأراه الله عز وجل ذلك . فاستقله الملك . فأوحى الله عز وجل إليه أن اصحبه ، فأتاه الملك في صورة إنس ، فقال له : من أنت ؟، قال : أنا رجل عابد ، بلغنا مكانك وعبادتك بهذا المكان ، فجئت لأعبد معك ، فكان معه يومه ذلك . فلما أصبح قال له الملك إن مكانك لنزهة ، قال : ليت لربنا بهيمة ، فلو كان لدينا حمار لرعيناه في هذا الموضع ، فإن هذا الحشيش يضيع . فقال له الملك : وما لربك حمار . فقال : لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش ، فأوحى الله عز وجل إلى الملك إنما أثيبه على قدر عقله .

بحار الأنوار : ج١ ص٨٤ ب ١ ح ٦ ، وقريب منه في : ج١ ص ٩١ ب١ ح ٢١ و ج١٤ ص٥٠٦ ب٣١ ح٣٢

(٢) لوسيوس دو ميتيوس والمشهور بـ«نيرون» ، رابع أباطرة وملوك الرومان ، الذين حكموا البلاد بالحديد والنار من سنة ١٤م وإلى ١١٧م والبالغ عددهم اثني عشر شخصاً ؛ وهم : ١. تيبيريوس ٢. كاليغولا ٣. كلوديوس ٤. نيرون ٥. غالبا ٦. أوتون ٧. فيتيليوس ٨. فسيازيانوس ٩. تيتوس ١٠. دومبسيانوس ١١. نيرفا ١٢. تراجانوس . ولد «نيرون» سنة ٣٧م . وحكم أربع عشرة سنة منذ سنة ٥٤م وإلى ٦٨م ، واتّسم حكمه بالاستبداد والديكتاتورية والطغيان والوحشية حتى إنه قتل أمّه سنة ٥٩م وزوجته سنة ٦٢م وأحرق روما سنة ٦٤م ، ومثالا على استبداده أنه : «سأل «آغربين» ، الشاعر ؛ وهو تحت النطع : من أشقى الناس ؟ ، فأجابه معرضاً به : من إذا ذكر الناس الاستبداد ، كان مثالاً له في الخيال» ؛ كما ورد عن طبائع الاستبداد ص٥٨ للكواكبي ، انتحر بخنجر أغرزه في عنقه سنة ٦٨م ؛ بعد أن ثار عليه القادة العسكريون في إفريقيا وإسبانيا ، وعاش ٣١ سنة .

الأوتاد ◆ الّذين طغوا في البلاد ◆ فأكثروا فيها الفساد ◆ فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب ◆ إنّ ربّك لبالمرصاد ﴾ [١].

فقول«كانط» [٢] : «إنّ عدوان الإنسان وحروبه التي تبدو ظواهر لا اجتماعية ولا أخلاقية ، تكشف آخر الأمر عن وجود نظام قانوني ، ليس ذلك تبريراً للحرب ، ولكنّه تخفيف من حكم الإدانة القاسية على الساسة والقواد ، طالما أصبحت الحروب نواميس للوجود ، أو من سمات الحياة الإنسانية »، قولٌ بلا دليل ، بل الدليل على خلافه ، وغاية ما يكشفه ذلك هو أن أولئك الطغاة ، اتبعوا شهواتهم ، وأهواءهم ، واستجابوا لنداء الشيطان ، وأعرضوا عن دعوات الرحمن ، ورجّحوا الحقد ، والعمى على الخلق السامي والهدى ، وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿**أتواصوا به بل هم قوم طاغون**﴾ [٣] ، كما أنّ في أقوال بعضهم مبالغة غير سليمة ، لذلك ينبغي تجنّب المبالغة المفرطة في تقدير دور الرجل العظيم ، فإنّ المبالغة غير صحيحة إلاّ على سبيل المجاز في موقعه البلاغي سواء بالنسبة إلى الرجل العظيم إفساداً ، أو الرجل العظيم إصلاحاً . فقد قال الله تعالى : ﴿**إنّه كان عالياً من المسرفين**﴾ [٤] ، كما قال تعالى في عكسه : ﴿**إنّك لعلى خلق عظيم**﴾ [٥] ، فقد قال تعالى بالنسبة إلى الخيّرين : ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ [٦] .

---

(١) سورة الفجر : الآيات ٦ ـ ١٤ .

(٢) إيما نويل كانط ، ولد سنة ١٧٢٤م ، ومات سنة ١٨٠٤، فيلسوف ألماني ، عمل في جامعة كونيغسبرغ أستاذا للمنطق ، وله مؤلفات في الأخلاق ، والمنطق ، والسياسة ، والميتافيزيقيا . ومن أشهر مؤلفاته : «نقد العقل الخاص» ، « نقد العقل العملي» ، «نقد المحاكمة العقلية» ، «أسس ما ورائية الأخلاق» .

(٣) سورة الذاريات : الآية ٥٣ .

(٤) سورة الدخان : الآية ٣١ .

(٥) سورة القلم : الآية ٤ .

(٦) سورة الأعراف : الآية ٨٥ ، سورة هود : الآية ٨٥ ، سورة الشعراء الآية ١٨٣ .

الجبر والاختيار
وعلاقتهما بالتاريخ

مسألة : إنّ أحداث التاريخ على قسمين :

قسم منها أحداث خارجة عن إرادة الإنسان مثل الزلازل ، والفيضانات ، والصواعق ، والبرد ، والحرّ ، والفصول الأربعة ، وما أشبه ، ممّا ليس للإنسان أي يد في صنعه ، فإنّ الزلازل إذا جاءت هدمّت ، وخربت ، وغيّرت كثيراً من معالم البلد ، وكذلك سائر الأحداث التي ليس للإنسان دخل فيها .

وقسم بيد الإنسان ، يصنعه بإرادته . فلا جبريّة في التاريخ مطلقاً ، ولا اختيارية في التاريخ مطلقاً ، بل التاريخ هو هذان الأمران .

يقول المنطقيّون إن كل حقيقة ممكنة ، لها علة صحيحة ، أو علّة غير صحيحة .

مثلاً : فقد يحارب المحاربون لعلّة صحيحة مثل الدفاع عن أنفسهم ، أو إزالة الديكتاتور الذي يملأ البلاد فساداً ، وقد يحارب المحاربون للاستعمار ، والاستثمار ، والسيطرة على الآخرين ، فالعلّة الأولى علّة صحيحة ، والعلّة الثانية علّة غير صحيحة ، بالنسبة إلى ما تحت اختيار الإنسان .

فالظواهر الاجتماعية ، والحوادث التاريخية ، مثل أيّة ظاهرة أخرى تابعة لأصل العلّية والمعلولية ، وخاضعة لنظام خاصّ جعله الله تعالى في هذا الكون ، مثل كون النار محرقة ، وكون الماء مبرّداً للأشياء ، وكون «٣×٣=٩» ، وإنّما الفرق أنّه في الظواهر ، والحوادث الإنسانية الاختيارية ، التي تشكّل إرادة الإنسان

نفسها جزءاً من أجزاء العلّة التامّة ، فإنّ لبعض الأشياء علّة تامّة ، ولبعض الأشياء علة ناقصة ، ولبعض الأشياء علّية تامّة ، ولبعض الأشياء علّية ناقصة . فإرادة الإنسان من العلّية الناقصة حيث إنّ الإنسان لا يتمكّن من إرادة التنفيذ إلاّ في إطار خاصّ مجعول لله ﷻ .

مثلاً : الإنسان لا يتمكّن أن يخلق حيواناً ؛ لأنّه ليس في إطار قدرته ، وإنّما يتمكّن أن يأتي بالشرط ، أو السبب ، أو المعدّ ، أو المانع ، أو ما أشبه ذلك ، من المقدّمات التي ذكرها الأصوليون في مباحثهم المفصّلة .

ومن هذه الجهة لا يتمكّن الإنسان من التنبؤ المستقبلي إلاّ في حدود خاصّة ، فإنّه مع الاعتراف بشمول أصل العلّية لكلّ العالم سبباً ومسبّباً ، وصحّة كون الشيء ما لم يجب لم يوجب ، ومعنى الوجوب توفّر جميع أجزاء علّته ، لا يمكن القول بإمكانية التنبؤ اليقيني لمستقبل المجتمع والتاريخ حتّى مع الإلمام الكامل بالقوانين الاجتماعية والتاريخية ، وذلك لأنّ الإنسان لا يعرف التدخّلات الخارجية التي لا يعلم بها ، وإلى هذا أشار القرآن الحكيم بقوله : ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ**﴾[1] ، ومشيئة الله قد تكون مباشرة وقد تكون للأسباب التي جعلها الله ﷻ إيجاباً أو سلباً ، فالإنسان له جهتان ، جهة جبرية ، وجهة اختيارية ، فلا يصحّ أن يقال إنّ أفراد الإنسان خاضعون للجبر الاجتماعي ، أو التاريخي ، نعم أفراد الإنسان خاضعون للجبر التكويني . فالناس في الواقع يتمتّعون بحرّية تامّة في المجتمع والتاريخ ، في الإطار الذي حدّده الله ﷻ لهم ، وحتّى إنّهم يستطيعون التحرّك ضدّ مسيرة المجتمع والتاريخ بل إنّهم قادرون على تغيير مسيرة المجتمع والتاريخ .

فاعتقاد بعضهم بالضرورة التاريخية وجبريتها ، وأنّها تشبه تماماً القوانين الطبيعية ، والفيزيائية ، والحسابية ، وما أشبه ذلك ، من حيث ضرورتها ،

---

(١) سورة الإنسان : الآية ٣٠ .

وحتميتها ، غير تامّ ، ولذا لا يتمكّن عالم الاجتماع ، أو فيلسوف التاريخ أن يتنبأ بصورة يقينية حتمية لمستقبل مجتمع معيّن ، أو مستقبل المجتمع البشري بأكمله ممّا يسمّى بالتاريخ .

نعم ، حدود الإنسان وجهاته المخلوقة لله ﷻ ككونه ذكراً ، أو أنثى ، جميلاً ، أو قبيحاً . وكذلك بالنسبة إلى الجمادات ، والنباتات ، والحيوانات ، التي هي موضوع دراسة العلوم الطبيعية ، والفيزيائية ، واقعة تحت هيمنة جبرية القوانين الطبيعية ، والفيزيائية ، ولا يملك الإنسان لها ، أو لنفسه أيّة إرادة .

وما ذكرناه من خصوصيات الإنسان إنّما هي قابلة للتغيير أيضاً في الإطار الذي جعله الله ﷻ مثل تحوّل رجل إلى امرأة ، أو امرأة إلى رجل ؛ كما يقوم به العلم في النادر من الناس ، أو تبديل الجميل قبيحاً ، أو القبيح جميلاً ، باستخدام العمليّات الجراحية التجميلية ، أو ما أشبه ، وذلك أيضاً في إطار محدود جداً ممّا كشف عنه العلم .

وقبال أولئك الجبريين ، يعتقد البعض الآخر أنّ نظرية القوانين الاجتماعية والتاريخية وجبريتها ، لا تصل في شدّتها وقوّتها إلى الحدّ الذي تُسلب فيه اختيار الناس ، وتصادر حرّياتهم . فالإنسان ليس أداة مسيّرة بيد روح المجتمع ، أو التاريخ ، بحيث يوجهه المجتمع أنّى شاء لينفّذوا أهدافه ، وهو يتخيّل أنّه يشبع رغباته الشخصية .

أقول : الناس ليسوا مسلوبي الاختيار والإرادة ، والحرّية ليست وهماً وخيالاً . وقد بيّن الإسلام حدود ذلك بقوله : **(لا جبرٌ ولا تفويض ولكن أمرٌ بين أمرين)** (١) . فالإنسان قادر على أن يكون في مقدّمة القافلة ، وفي مؤخّرتها ، وفي وسطها . ويستطيع أن يسرع في مشيه أو يبطئ ، ويستطيع أن يكون راكباً أو راجلاً ، ويستطيع أن يأكل أو يصوم ، ويستطيع أن يتزوّج أو يبقى عزباً ، إلى

(١) الكافي (أصول) : ج١ ص١٦٠ ح١٣ ، بحار الأنوار : ج٤ ص ١٩٧ ب ٣ ح ٢ (بالمعنى).

غير ذلك في الحدود التي أقرّها الله تعالى للإنسان .

وكذلك بالنسبة إلى الحيوان ، لكن الحيوان يختلف عن الإنسان بأنّه في الدرجة النازلة .

أمّا الجماد ، والذي منه الماء أيضاً ، وإن كان سائلاً ـ بالاصطلاح العام ـ ، فحدوده أقلّ ، وأقلّ من حدود الحيوان ، هذا مع أنّا لا نعرف إطلاقاً عن الحيوان والجماد شيئاً إلاّ القدر الضئيل ، الذي هو أقلّ من واحد في المليار أو أقلّ .

وعلى هذا ، فالقوانين الاجتماعية ، والقوانين الطبيعية ، والقوانين التاريخية ، تحدّ من حرّية الإنسان ، وإرادته ، واختياره ، لكنّها لا تُلغيها ، ولا تفنيها ، إلغاءً مطلقاً ، أو فناءً مطلقاً ، فالقوانين الاجتماعية ، والقوانين التاريخية ؛ لا تصطدم بحرّية الإنسان إلاّ بالقدر المقرّر له ، كما أنّ حرّية الإنسان بالقدر المقرّر له ؛ لا تلغي القوانين الاجتماعية والتاريخية ، فبينهما نسب جزئية لا مطلقاً . فالإنسان مستسلم بقدر فقط وفي بعض الجهات لجبر التاريخ وفلسفته ، وجبر المجتمع .

وهذا أساس كلّ القوانين والأديان سواء كانت سماوية أو غير سماوية ، فإنّ كلّ دين ، وكلّ نظام خلقي ، أو حقوقي ، قائم على كون إرادة الإنسان حرّة ، ولو كان الإنسان غير مختار وغير حرّ ، فكيف يصحّ أمره أو نهيه ، مدحه أو ذمّه ، إنذاره أو تبشيره ، تحذيره أو ترهيبه ، توبته أو عقوبته ، توجيهه أو إرشاده ؟ ولذا نشاهد أن كثيراً من الآيات القرآنية وكثيراً من الروايات فيها تصريح ، أو تلويح ، أو تلميح ، على أنّ القوانين الاجتماعية والتاريخية ، لا تسلب من الإنسان اختياره بأيّ شكل من الأشكال ، قال تعالى : ﴿**قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾[(١)] ، وفي آية أخرى : ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ**﴾[(٢)] ، هذا هو السبب في تحوّل المجتمعات من

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٢٣ .

(٢) سورة المائدة: الآية ١٠٤.

حالة إلى حالة ، مثل تحوّل المجتمع من الإسلام الذي كان سائداً عليه حوالي خمسة قرون إلى مجتمع مسيحي ـ وللإسلام والمسيحية مفاهيم متضادة أحياناً مثل مفهوم التثليث أو التوحيد ، ومفهوم تعدّد الأزواج أو وحدتها إلى غير ذلك ـ ، ثمّ تحوّل الأمر من المسيحية إلى الشيوعية التي لها خصوصيات خاصّة أحياناً تصل إلى حدّ التناقض مع المسيحية ، وهكذا بالنسبة إلى الغربيين من حيث كانوا وطنيين ثمّ تحوّلوا إلى مسيحيين ثمّ تحوّل بعضهم مثل البوسنيين إلى مسلمين ، أو مثل تحوّل المسيحية إلى الشيوعية بالنسبة إلى أوربا الشرقية أو ما أشبه ذلك .

والمقصود من هذا البحث أنّ الذي يريد أن يبيّن فلسفة التاريخ الغابر ، أو روح التاريخ للمستقبل ، عليه أن يلاحظ هذه الخصوصية ، فإنّ كلّ انحراف عن هذا الوسط ، يكون خلاف الواقع سابقاً ، وخلاف المتوقّع مستقبلاً .

حركة التاريخ

بحرية الفرد

مسألة : إنّ التاريخ ينفرد بمنهج خاصّ عن بقيّة أشياء الكون الخاصّ بـه ، لأنّـه يريـد أن يـدرس أفعـال الإنسـان التـي لا تخضـع للضـرورات والحتميـات ، والجامدات ، وإنّما تتميّز بالحرّية بشروطها الزمانية والمكانية ، وغـير ذلـك ، ولأنّ الواقعة التاريخية فردية فريدة في كلّ فرد فرد مشـخّص لا يتكـرّر ، حتّـى إنّ بعـض المنطقيـين قـالوا بـأنّ كـلّ إنسـان كلّـي ، منحصـر بفـرده ، وإن تشـابه بعضـهم مـع بعض ، فكلّ فرد له زمان محدّد ، ومكان معيّن ، وشرائط خاصّة ، والفرد الآخر وإن كان في الزمان نفسه ، أو لنفرض فـي المكـان الوسيع نفسـه ، إلاّ أن شـرائطه وخصوصياته ، تختلف اختلافاً كبيراً ، فمقولات التاريخ هي الإنسان ، والفردية والزمـان ، والمكـان ، والشـرائط ، والخصوصيات ، والمزايـا ، وليسـت كذلـك مقولات العلم الطبيعي المادّة ، والعلّية والمعلولية ، والكلّيـة والجزئيّـة ، ومـا أشبه ذلك. ولذا فالإنسان الذي يريد التوصل إلى فلسفة التـاريخ ، يحتـاج إلـى دراسـة كلّ ذلك في التاريخ القريب ، أو التاريخ البعيد .

وسرّ التقدّم في العلوم الطبيعية هو في وصولها إلى قوانين كلّية تمكّن العـالم مـن التنبـؤ العلمـي الدقيـق ؛ إذ إنّـها ليسـت خاضعـة لحركـة الأزمنـة والأمكنـة ، والخصوصيات والشرائط ، وليست كذلك العلوم الإنسانية ، فتستطيع كلّ العلوم التجريبية أن تقدّم تقريراً عن موضوعاتها في أحكام عامّة . أمّا التاريخ فـلا يتمكّـن أن يستوعب الأفراد بشرط واحد وأمر فارد حتّى تكون نتائج فلسفة التاريخ كنتائج

الفيزياء ، والكيمياء ، وما أشبه ذلك . مثلاً ، كيف يتمكّن المؤرخ أن يفسّر سقوط الشيوعية كما يفسّر الشخص المربوط بعلم طبقات الأرض وقوع الزلازل ؟ . إنّ هناك فرقاً بين الأمرين ، فوقوع الزلازل له فلسفة كونية واحدة ، مثالها مثال «٤ × ٤ = ١٦» ، وليس كذلك مثل التنبؤ بسقوط الشيوعية بالدقّة والاستيعاب ، فإنّه وإن أمكن التخلّف في ظنّ ذلك العالم بطبقات الأرض بالنسبة إلى وقوع زلزال كما حدث ويحدث ، لكن العام دائماً هو المحكّم ، بينما ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى فلسفة التاريخ وبالنسبة إلى الإنسان ، ولذا لا تكون درجة الدقّة في العلوم الإنسانية مثل درجة الدقّة في العلوم الطبيعية ؛ لأنّه يمكن أن توجد تنبؤات ، بعيدة المدى ، واسعة النطاق ، لا تتناول التفصيلات الجزئية ؛ إذ إنّها ثانوية لا تفقد بسببها أصل قيمة التنبؤ .

نعم ، التنبؤات التاريخية تكون في إطار فضفاض ، يتمكّن المؤرّخ الذي وصل إلى روح التاريخ وفلسفة الحياة أن يصل إلى كثير منها .

وقد مثَّلَ أحد علماء الغرب ما ذكرناه بقوله : «إنّه لا يمكنك أن تستحدث إصلاحاً سياسياً أو اجتماعياً دون أن تثير قوى معارضة ، وتتناسب شدّة المعارضة طردياً مع مدى هذا الإصلاح ، وذلك إن كان هناك دائماً مصالح مرتبطة بالوضع القائم المراد تغييره أو إصلاحه . ولا يمكن أن تحقّق ثورة ناجحة إلاّ إذا كانت الطبقة الحاكمة قد اعتراها الوهن نتيجة انقسامها على نفسها ، ونتيجة الهزيمة في الحرب ، وإنّه لا يمكنك أن تمنح إنساناً سلطة على غيره من الناس دون أن يغيّره ذلك بإساءة استخدامها ويزداد الإغراء بإساءة استخدام السلطة كلّما ازدادت هذه السلطة المخوّلة له ولا يقدر على مقاومة إغراء الاستبداد بالسلطة إلاّ القليلون ، ولا يمكنك أن تقيم نظاماً لا يتطرّق إليه الفساد ، لأنّ النظم تعتمد في تركيبها على العامل الإنساني إلى حدّ كبير ، وكلّما كان التخطيط في النظام أكثر شمولاً لمظاهر النشاط البشري كان الخلل الناتج عن العامل الإنساني أكثر تأثيراً ، وهذا يعني أنّ

أفضل الأنظمة تحدث فيها انحرافات في التطبيق نتيجة أهواء الأشخاص الذين يمارسون سلطة التنفيذ ، والأهواء تكون مختلفة ذاتاً لأنّ الله ﷻ خلق كلّ إنسان على شكل خاصّ ومعنويات خاصّة ، ولأنّ الأموال ، والإغراءات ، والضغوط ، وما أشبه ذلك ، تتدخّل في الأفراد القائمين بالنّظام».

أقول: ولهذا نجد أنّ الأقوام تتغير آراؤهم مع تغيّر الزمان والمكان ، مثلاً : في البلد الفلاني الغربي ، نجد أنّ الخمر حرّمت تحريماً قطعياً في برهة من الزمان ؛ بسبب ضغوط جماعة من عقلاء القوم ، ثمّ بعد تلك البرهة ، حلّلت بسبب ضغوط جماعة من نفس القوم أيضاً . وهكذا نجد أنّ مملكةً واحدة ، أو جمهورية واحدة ، تختلف مدنها بعضها عن بعض في قوانين خاصّة ، فهذا يقرّر قانون كذا ، وذاك يقرّر قانوناً خلاف ذلك القانون ، وهكذا بالنسبة إلى التواريخ الماضية ، والتنبؤات المستقبلية ، مثلاً : إذا ازدهرت دولة ما ، وغرقت في الترف ، وجنحت إلى السلم ، وكان إلى جوارها دولة جائعة ، ولكنّها كثيرة التسليح ، أو كثيرة النفوس ، أو تسندها قوّة كبيرة من الدول ، مثلاً : فإنّه لم يمض من الوقت فترة حتّى تجتاح الدولة الجائعة جارتها المترفة حالما تجد مبرراً للهجوم عليها ، إذ الجائع كثيراً لا يمتلك القدرة على التفكير في القبول العام ، وإنّما يفكّر بالنسبة إلى قناعته بنفسه سواء كانت قناعة واقعية ، أو قناعة تبريرية .

وهكذا شأن المنظّمة الديمقراطية التي تحالفت مع منظّمة ديكتاتورية ، تسعى لتحقيق هدفها ، فإنّ المنظّمة الديمقراطية ستصبح مخلب قطّ لأغراض غريبة عن الديمقراطية ، أو ستواجه كارثة تحلّ بكيانها . وهكذا إذا صفّق الناس لدولة حديثة وصلت إلى الحكم بسبب مبرّر ما ، رفعه أولئك الرؤساء لهذه الدولة من مبرّرات لأن يصبحوا ديكتاتوريين ، فيفعلوا كما يفعل سائر الديكتاتوريين ، إلى غير ذلك من الأمثلة . وهذه القواعد عامّة بالنسبة إلى السابق واللاحق ، لأنّ فلسفة التاريخ تهدي إلى مثل هذه القوانين ، فإنّه وإن أمكن الاستثناء نادراً إلاّ أنّ القاعدة العامّة هي ما ذكرناه .

النظام
بين الاستشارية والاستبداد

مسألة : من فلسفة التاريخ ، المفيد للمستقبل ، والكاشف عن الماضي ، كون النفس لحسن ظنّها بذاتها من جهة ، والحرص والجشع من جهة ثانية ، تريد كلّ خير من مال ، وجاه ، وشهوة ، وسلطة لنفسها ، كما تريد دفع كلّ مكروه عن نفسها ، وإذا توجّه المكروه إلى النفس ، أو إلى غيرها دفع المكروه عن نفسها إلى غيرها وحتّى لو كانت نفساً واحدة والغير ملايين كما فعله هتلر ، فإذا خافت النفس شيئاً ، توقّفت عن الأذى ، وإلاّ سارت في غيّها ، والأمر الأول : يسمّى بالاستبداد ، والأمر الثاني يسمى بالديمقراطية ، ثم إنّ إظهار الأمّة لهويّتها التي تبعث على الاستقامة ، أو الانحراف ، لا يكون إلاّ بأحد الأمرين .

هذا في عرف الغرب الذي لا ينطلق من منطلقات الإسلام والشورى ، أما الذي ينطلق من منطلق الإسلام فيسمي الديمقراطية استشارية .

ثم لنا بعض المآخذ على الديمقراطية ، نذكرها بإيجاز : الديمقراطية تشكل ضابطاً ظاهرياً ، ولا تشكل ضابطاً داخلياً ، فهي تضطر الأفراد للسير باستقامة حذراً من الجناح المنافس ، أو رقابة الناس ، وبهذا تمتاز الاستشارية على الديمقراطية ، إذ إن الاستشارية تضيف الرقابة الداخلية ، فالذين يخافون الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر في باطن أمرهم ، يكونون مستقيمين ، وإن لم يخافوا حزباً ، أو جماعة ، بينما الأمر ينحصر بالظاهر في الديمقراطية ، وإنّما سمّينا الديمقراطية

استشارية ، أخذاً من قوله ﷺ : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (١) ، وقوله : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (٢) .

والمأخذ الآخر أن في الديمقراطية ؛ الأكثرية هي التي تضع القوانين ، لذا يتناقض القانون من زمان إلى زمان ، ومن مكان إلى مكان ، بينما في الاستشارية ؛ مصدر التشريع هو الله سبحانه وتعالى ، ولا حقّ لأحد حتّى لو كانوا أكثرية في التشريع .

نعم ، يمكن للأكثرية تقنين اللوائح والقوانين استناداً للأدلّة الأربعة وسنّها بما يناسب الزمان ، والمكان ، والجهات مع ملاحظة الاستثناءات الشرعية كالضرر ، والحرج ، وما أشبه ذلك ، والمستفاد من الأدلّة الأربعة ، له الديمومة والبقاء ، كما قال ﷺ : **(حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة ، وحرامه حرام إلى يوم القيامة)** (٣) .

إذا عرفت ذلك ، فنقول : إنّ الديمقراطية في الاصطلاح الغربي ، أو الاستشارية في اصطلاح المسلمين ، أفضل أساليب الحكم ؛ لأنّها تهيئ الجو الكامل للحرّية ، وفي الحرّية تظهر الكرامة الإنسانية من جانب ، والكفاءة الإنسانية من جانب آخر ، حيث إنّ التقابل بين جبهتين ، يسبّب جمع كلّ جبهة لنفسها ، والاستقامة في طريق الهداية والرشاد . فتكمل الملكات ، وتبرز العبقريات ، ويعمل النقد الأخوي على إظهار عيوب الاستنباطات للجهة

---

(١) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ . هذا ويرى الإمام المؤلف ﰠ بعض الفروق الأخرى بين الديمقراطية الغربية والاستشارية الإسلامية ؛ ولم يذكرهما هنا تماشياً مع البحث أو للاشتراك الإجمالي في بعض الخطوط العامة .

(٣) بصائر الدرجات : ص١٤٨ ب١٣ ح ٧ ، وفي الكافي (أصول) : ج١ ص٥٨ ح ١٩ إضافة قيد «أبداً» .

الأخرى ، ومؤاخذة التطبيقات للقوانين ، وبذلك يظهر في الحياة الأصلح فالأصلح ، والأحسن فالأحسن ، ثمّ منصّة الحكم يتسلّمها الأكفأ فالأكفأ . ويؤثّر ذلك في تقدّم المجتمع والفرد ، لأنّ التنافس في الخير شرط في تقدّم الإنسان ، وقد نبّه القرآن الحكيم إلى ذلك في آيات متعدّدة كقوله تعالى : ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [(١)] ، فإذا كانت الجنّة محلّ التنافس فكيف لا تكون الدنيا هكذا والحال أن **(الدنيا مزرعة الآخرة)** [(٢)] ، وقال تعالى : ﴿**سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [(٣)] ، ومن الواضح أنّ المسابقة بحاجة إلى التنافس والتراقب ، وقال تعالى : ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ [(٤)] ، فإنّ التنافس الدائم بين المتنافسين : يوجب سدّ الإنسان خلله ، وستر عيوبه ، والخوف من ألسنة الحزب المخالف ، وصحفه ، وإعلامه ، وندواته ، وما أشبه ذلك . فتقف السلطة التنفيذية موقف الحذر ألاّ تبدو لها عورة ، فتوجب سقوطها في أذهان الناس فلا ينتخبونها مرّة ثانية ، أو يسقطونها في المرّة الأولى نفسها ، كما حدث لنيكسون ، وغيره ، من الذين سقطوا ، كما أنّ النوّاب لابدّ لهم من عمل جاد مثمر ؛ لأنّهم جاؤوا للمجلس من أجل ذلك ، والذين انتخبوهم ، يراقبونهم ، ويحاسبونهم على كلّ صغيرة وكبيرة ، فإذا حادوا أُسقطت حرمتهم عند الجماهير ، وفضحتهم الصحافة المسؤولة ، ونظير ذلك ما سمّي في الشرع بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الخير ، فقد قال تعالى : ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ**

---

(١) سورة المطففين : الآية ٢٦ .

(٢) كشف الخفاء : ج١ ص٤٩٥ ح ١٣٢٠ ، وسائل الشيعة : ج٣٠ ص١٩٦ ، خاتمة الوسائل الفائدة السادسة ، وفي مجموعة ورام : ج١ ص٩٢ وإرشاد القلوب : ص٨٩ بيان .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٤٨ ، سورة البقرة : الآية ١٤٨ .

الْمُفْلِحُونَ﴾ [(١)] ، وقد ذكرنا في التفسير الموضوعي أنه يظهر من آخر الآية أنّ الأمر لكلّ فرد فرد من المسلمين لا أمّة من المسلمين ، ومراده من قوله ﷻ : **﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ﴾** ، يعني : كونوا كذا لا أنّه لتكن منكم جماعة ، و**﴿مِن﴾** للتبيين لا للتبعيض على اصطلاح النحويين . فإذا عرف كلّ فرد من السلطة أنّه في معرض النقد استقام ؛ لأنّه يعلم أنّه إذا لم يستقم ، انقطع أمله في انتخاب الأمّة له في المستقبل ، أو أنّه يسقط سقوطاً ذريعاً .

ومن الواضح أنّ الاستشارية الإسلامية ، أو الديمقراطية الغربية ، ليست بالألفاظ ، ولا بتسطير دستور يتضمّن الحرّيات ، والعدالة ، وحقوق الإنسان بل الاستشارية الصادقة هي انتخاب الأمّة لنوّابها بكلّ حرّية ، بدون تدخّل الحاكم المستبدّ بسبب ألاعيبه ، ومكره ، وخدعه ، وباستخدامه لأساليب الترهيب ، والترغيب ، وبذلك يستطيع النوّاب أن يؤدّوا مسؤولية النيابة للأمّة بجدارة من إبداء الرأي ، وتأطير القوانين ، وتطبيقها على ما ينبغي ، وأن يعطى كلّ فرد وجماعة حرّيته في نطاق الدستور الإسلامي الذي نحن بصدده ، ولا ترى عندئذ مثل هذه السجون الطويلة العريضة ، ولا تعذيب في السجون إطلاقاً ، فلا تفرقة بين مسلم ومسلم ، ولا إهانة لغير المسلم ، ولا حدود جغرافية ترفع أمام أحد ، مسلماً كان أو غير مسلم ، كما كان الأمر سابقاً في بلاد الإسلام . فالمسلم وغير المسلم يسافرون من أقصى البلد إلى أقصى البلد ، ويسكنون في أيّ مكان شاؤوا ، ولم يكونوا يهانون في مال ، أو عرض ، أو نفس ، وحينذاك يكون الميزان في التقدّم : الكفاءة ، والأفضل فالأفضل ، والكلّ أن يعمل حسب ما يجد في إطار الدستور ، ويكون لكلّ إنسان كرامته ، وحرّيته ، ومجاله الفسيح في العلم ، والمال والسلطة ، وأن يتقدّم ويتقدّم .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

ففي مجال طلب العلم ـ مثلاً ـ إذا لم يقدر الإنسان ، فعلى الدولة أن تجعله قادراً على أن يدخل الابتدائية ، والثانوية ، ثمّ الجامعة ، ثمّ ما فوق الجامعة ، لأنّ العلم من المهد إلى اللحد [١] . وقد ذكرنا في بعض كتبنا أنّ معنى « من المهد» أنّ الإنسان يتعلّم ومنذ خروجه من بطن أمّه كما ثبت في علم النفس بل ويتعلّم وهو في بطن أمّه . وقد ذكر ذلك عبد الرزّاق نوفل في بعض كتبه كما ذكره غيره ، وكذلك ينتهي العلم باللحد لأنّ في اللحد يلقّن الميّت وهو نمطٌ من التعليم أيضاً . وكما في الروايات إنّه يفهم ، ويسمع ، ويحفظ حتّى يجيب الملكين الكريمين نكير ومنكر ، وبشير ومبشّر ، حسب التعبير الروائي .

وبذلك يتوفّر لكلّ إنسان العيش الكريم ، حيث تكون الدولة سائرة على مصلحة الأمّة وتقديمها إلى الأمام ، وفي مثل هذا الجوّ يكون الرفاه من ناحية ، والتقدّم من ناحية ثانية ، حيث إنّنا نشاهد أنّ الغربيين بسبب الديمقراطية والحرّية التي عندهم ، قد وصلوا إلى القمر ، بينما العراق لا يستطيع أن يصنع حتّى الأبرة ، والفرق ليس في الزمان ، أو المكان ، أو في الأفراد ، وإنّما في النظام حيث النظام الديمقراطي في الغرب ، والنظام الاستبدادي في العراق ، وليس العراق إلاّ نموذجاً صارخاً في الاستبدادية ، حيث الغالب على الدول الإسلامية هذه الحالة المتخلّفة ، فالاستشارية حقيقة في باطن الحكم حالها حال الروح السائدة في الجسد لا في الألفاظ ، والإعلام ، والدستور فحسب ، وإلاّ فقد قال ستالين : إنّ الديمقراطية الصحيحة عندنا ! ، كذلك قاله البهلوي الأوّل في إيران ، وقاله عبد الكريم قاسم ، وعبد السلام عارف ، وصدام في العراق ، فإن الدعوة تحتاج إلى الظهور ، فإن ظهرت تلك الآثار التي ذكرناها ، فالاستشارية موجودة وإلاّ فهي مفقودة ، ومجرّد ذكر العسل لا يحلّي الفم ، كما أنّ ذكر الحنظل لا يسبّب

---

(١) إشارة إلى الحديث الوارد : «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» .

مرارته . فالديمقراطي عملاً ، وإن قال أنا مستبدّ لا يكون مستبداً ، والمستبدّ عملاً ، وإن قال إنّي ديمقراطي لا يكون ديمقراطياً ، هذا هو الميزان وهو ما يقوله العقل ، ويؤيّده الإسلام ، وتنساق إليه الفطرة .

وعلى أي حال : فإنّ ما هو قائم في العالم الثالث ويشمل العالم الإسلامي هو الاستبداد وليس الديمقراطية ، وقد ادّعت حكومات الانقلابات العسكرية أنها حكومات ديمقراطية بإعطاء بعض مظاهر الديمقراطية ، لكن في أية لحظة يمكن لهذه الحكومات أن تكشف عن وجهها الطالح ، وتأخذ بالقتل والسجن كوسيلة لتثبيت حكمها . فإنّ بين الاستشارية وبينها تضاداً لا يمكن جمعهما ، فهل الذي جاء إلى الحكم بالانقلاب العسكري ، أو استولى على السلاح ، يمكن أن يقتنع بالاستشارية ، أو يحافظ عليها ، وكما لا ينفع الادّعاء ، كذلك لا تنفع الصورة الديمقراطية الكاذبة ، وإنّما يكمن الحقّ في السلوك والعمل ، وقد جاء في الحديث : **(لا ينظر الله إلى صوركم وإنّما ينظر إلى قلوبكم)**[1] ، وهذا أرفع مستوى للديمقراطية ـ والتي مسمّاها الاستشارية ـ أن يكون الأمر نابعاً من القلب لا عن الخوف الظاهري من الحزب المخالف أو ما أشبه ذلك ، لوضوح أنّ الخوف النابع من القلب والمستقرّ فيه هو الذي يسبّب الاستقامة ظاهراً وباطناً في كلّ زمان ومكان ومع أيّ شرط ، لأنّ الله ﷻ حينئذ يكون رقيباً على الإنسان حسب ما يرى ، فهو دائماً تحت الرقابة الدائمة .

وأظهر دليل على عدم وجود الاستشارية والديمقراطية في تلك البلاد التي يسمّيها الناس بالعالم الثالث عدم العمل بمبدأ حرّية الأحزاب ، تلك الحرّية الواقعية ، وعدم وجود حرّية الصحف ، وعدم وجود العدالة الاجتماعية ،

---

(١) فقد ورد في بحار الأنوار : ج٧٧ ص ٩٠ ب٤ ح ٢ الحديث التالي : قال رسول الله ﷺ : «يا أبا ذر ، إن الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وعدم وجود حرّية بناء المدارس والمعاهد والجامعات والمستشفيات والمساجد والمطارات . وبالعكس يكون الحكم للأقرباء والأصدقاء لا للناضجين والأكفّاء، ويبقى الديكتاتور في الحكم مدّة حياته ينتقل بين الأسماء كما يقول المثل : «حتّى يشيب الغراب» .

وقد ذكرنا في كتاب « ممارسة التغيير» عدداً كبيراً من الآثار السلبية التي يتركها الاستبداد [1] ، وكان ما ذكرناه جملة من الأمور الظاهرة ، فإنّه قد لا يكون الحكم ديمقراطياً بمعنى الكلمة واستشارياً كما أراده الإسلام وإن تظاهر بمظهر الديمقراطية والاستشارية ، وحينذاك يكون منبع السيّئات ، فالذنب يكون تارة على التقنين ، وتارة على التطبيق لا على المبادئ ، حيث قد يكون التطبيق غلطاً ممّا يسمّى بالصغرى ، أو يكون المبدأ خطأ كما يسمّى بالكبرى ، فهو كما إذا قال هذا إنسان ، وكلّ إنسان ناطق ، مع أنّ الصغرى خطأ ، فلم يكن إنساناً . حيث إنّ المتكلّم أشار إلى صورة الإنسان المجسّمة لا الإنسان الخارجي بلحمه ودمه . أو يقول هذا إنسان ، وكلّ إنسان عبقري ، فإنّ الكبرى هي الخطأ ، وإن أشار إلى الإنسان بلحمه ودمه.

بعض المآخذ على الرأسمالية

ويختلف الإسلام عن الديمقراطية الغربية ـ إضافة لما سبق ـ بأنّ الحكم في الإسلام مستند إلى الله ﷻ لا إلى الإنسان ذاته ، حيث قال ﷻ : ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [2] ، وقال ﷻ : ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [3] ، وبذلك نشاهد أنّ رأس المال قد أخذ بأزمّة البلاد

---

(١) للمزيد من التفصيل راجع كتاب «ممارسة التغيير» : ص ٢٧٧ تحت عنوان بحوث في الديكتاتورية .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٨٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤٥ .

الأوربية ، والأمريكية ، واليابانية ، وما إليها . إذ مؤدّى الرأسمال ، صعود البعض في سلّم الغنى حتّى التخمة ، ونزول الآخرين إلى القاع . وقد قرأت في صحيفة غربية أنّ ثلاثين مليون فقير في أميركا ، يعيشون دون خطّ الفقر ، بينما نشاهد أنّ ألوفاً من الناس في أميركا وصلوا إلى أعلى مستوى من الغنى وأصبحت أموالهم تعدّ بالمليارات وليس بالملايين .

فالحكم الرأسمالي لا يمكن أن يكون ديمقراطياً بالمعنى الحقيقي للكلمة ؛ لأنّه يعمل على خلق ظروف التمييز العنصري ، إذ من الواضح أنّ رأس المال يعمل لنفسه لا للبشر سواء كان البشر داخل البلاد الرأسمالية أو خارجها ، ولذا كان البؤس المدقع في الداخل والاستعمار الآخذ بالخناق في الخارج ، ومن هذا المنطلق المنحرف نفسه ، قامت الحربان العالميتان ، ونشبت الصراعات الدولية التي لا تزال تفتك بالبشرية وتهيء للحرب العالمية الثالثة التي لا تبقي ولا تذر إن وقعت والعياذ بالله .

فالغرب الأوربي ، أو الأمريكي ، وإن كان ديمقراطياً من جهة ، لكنّه استبدادي من جهة أخرى ، فهناك الحكمُ برزخٌ بين الحكم الديمقراطي الواقعي وبين الاستبداد المطلق ، بينما الاستشارية الإسلامية تدفع المجتمع البشري إلى أعلى المستويات فلا تجد إنساناً يبيت جائعاً وجاره شبعان . فقد تمثّل أمير المؤمنين بهذا البيت :

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة وحولك أكبادٌ تحنُّ إلى القدِّ(١)

بعض المآخذ على نتائج الديمقراطية

ثمّ إنّه أشكل جماعة على الديمقراطية ومثل ذلك الاستشارية ؛ لأنّه حيث

---

(١) ديوان الإمام أمير المؤمنين : ص ٦٢ ، بناء المقالة الفاطمية : ص ٢٤٧ ، وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٦ ص٢٨٢ (وحسبك عاراً) .

تتوفّر الحرّيات الكثيرة للناس في مثل هذه الحكومات ، سيجد المخرّبون والمتآمرون مآربهم في ظلّ القانون الذي يفقد حرمته عند الحرّيات الكثيرة ، فتنحرف الديمقراطية عن مسيرها الشعبي إلى المسير التآمري ، فلا تعطي ثمارها المتوّخاة ، ولذا كان المحكي عن أرسطو أنّه قال : «إذا كان سهلاً إنشاء حكومة ديمقراطية ، فإنّه يصعب السهر على تقويمها والاحتفاظ بكيانها» ، وقال غاندي : «إنّها أفضل صيغة وصلت إليها البشرية وإن كانت فيها مآخذ» .

ومن أهمّ المآخذ ، أنّ الخطأ يضيع بين الفئات ، والأحزاب التشريعية والتنفيذية والقضائية ، حيث إنّ كلاً منهم يلقي الخطأ على عاتق الآخر ويتنصل من المسؤولية ، فإذا عقدت صفقة أسلحة وظهر خطأ ذلك ، قال كلّ واحد : إن الآخر هو السبب في هذا العقد ، ولا يشخّص المجرم حتّى ينال عقابه الذي يستحقّه ، هذا وإن أمكن تداركه بإظهار المجرم الحقيقي بسبب القضاء العالي ، إلاّ أنّ الغالب إضاعة الخطأ في متاهات السياسة ، وهذا هو المشاهد ، حيث إنّ الأحزاب الحرّة ، تتستر تحت محامين أقوياء ، فتتملّص من العقاب سواء كان مستحقّ العقاب ، حزباً ، أو جماعة ، أو هيئة ، أو فرداً ، بالإضافة إلى أنّ الرقابة والتنافس بين الأحزاب ، والكتل البرلمانية ، وما أشبه ، توجب عدم تقدّم الأمّة حيث إنّ كلّ فئة تتربّص بالفئة الأخرى حتّى لا تتقدّم ، فإنّه كما يكون التنافس في التقدّم ، يكون التنافس في عدم تقدم أحدهما على الآخر ، فيُظهر كلّ حزب عيوب الآخر ، وخوفاً من الوقوع في دائرة العيب ، تعمل الفئات على تجميد نفسها ، بل وأحياناً تنتكس فترفع اليدّ عن مشروع حيوي خوفاً من توجيه النقد أو تحرّزاً عن تفاقم الأمر ضدّ الفئة المتبنيّة للمشروع ، فإنّ عنصر الخوف يسيطر على الساسة وعلى القيّمين في وقت واحد ، حيث يتّخذ كلّ واحد منهم حذره من الآخر ، وذلك سبب آخر من أسباب التجمّد ، وعدم التقدّم بل الانتكاسة .

هذا مضافاً إلى أنّ الدوائر ضدّ الحكم من المتنفّذين ، والأحزاب ، والكتل ،

ومن يجعل من نفسه وجماعته لولباً للضغط تقوم على أنشط ما يكون ، وبذلك أحياناً تتساقط الحكومات ، إحداها تلو الأخرى بدون أيّ مبرّر سوى المؤامرات الحزبية ، والمخادعات الجماعية ، وبذلك تضعف الحكومة .

كما أنّ رأس المال ، والصحافة ، والإعلام ، بصورة عامّة ، تقوم بدور كبير في هذا الأمر ، وإذا ضعفت الحكومة ، لم تتمكّن من القيام بالخطوات الإصلاحية في الداخل ، ولا كبح جماح الأعداء في الخارج ، أو أحياناً تكون الحكومات المتعدّدة التي تتوالى على الحكم هي المسبّبة للضعف في جميع مناحي الحياة الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والتربوية ، والعسكرية .

هذا بالإضافة إلى أنّ الشعب خصوصاً المجرمين منهم في الحكم الديمقراطي ، كثيراً ما يستهينون بالقانون ، وبالقائمين بالحكم ، وذلك لأنّ القانون وخصوصاً الجزائي منه ، يسير في ظلّ الحكومة الديمقراطية سير السلحفاة ، حيث إنّ تشابك الحكّام مع الشعب ، تقف دون إجراء القانون ، فإنّ المحسوبية ، والمنسوبية ، والرشاوى ، والدفاع الكاذب الذي يمارسه بعض المحامين ، تجد في الحكم الديمقراطي سوقاً رائجة . ولذا تكثر الجرائم في الحكومات الديمقراطية ، والسبب ليس الديمقراطية بل النتائج التي يفرزها التطبيق السيئ للديمقراطية .

أقول : لا يخفى أنّ الأمر دائرٌ بين الأهم والمهم ، فإنّ كلّ هذه المشاكل موجودة في الحكومة الديكتاتورية بصورة أوسع وأشمل وأكثر ، بل قد تطغى هذه المشاكل على المحاسن القليلة للحكم الديكتاتوري ، من هنا فالمشكلات في الحكم الديمقراطي هي أقلّ بكثير ممّا هي عليه في الحكم الديكتاتوري ، حيث لا يمكن قياس ذلك .

هذا بالإضافة إلى أنّ الإيمان ، الذي يتمتّع به الحكّام في الدول الإسلامية ، أفضل مقوّم للإنسان ، فإنّ الخوف الداخلي ، الذي ينشأ في الحكومة الديمقراطية المؤمنة ، هو الضمان لسير الحكومة ، وقلّة الجرائم ، والخوف من الله تعالى ،

بالإضافة إلى أنّ القانون الإسلامي نفسه قانون إلهي لا يمكن التلاعب به ، وفي ظلّه لا يمكن الانحراف ، والمنحرف حيثُ يكْرَهُ كُره المجتمع له يحذر من الانحراف ، وهذه عبارة أخرى عن تمثيل الأمّة لقانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإرشاد الجاهل ، وتنبيه الغافل ، وقد ورد في الحديث : **(الدين النصيحة)** (١) ، وغير ذلك من المعايير الإسلامية التي تقف بوجه الانحراف ، ثمّ وجود شورى الفقهاء الذين هم على رأس الحكم حسب الموازين الإسلامية ، حيث قال الإمام الحجة ﷺ : **(فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا)** (٢) ، وقال الرسول الأكرم ﷺ : **(اللهم ارحم خلفائي)** (٣) ، وغير ذلك من صيغ الجمع الدالّة على لزوم الشورى في الفقهاء ، فهؤلاء يكونون المرجع الأوّل والأخير وهم الحصانة ضدّ انحراف الدولة ، وهي تشكّل أفضل عامل للتقدّم إلى الأمام ، فقد قال الإمام الصادق ﷺ : **(من استوى يوماه فهو مغبون . . . ومن كان آخر يومه شرّهما فهو ملعون)** (٤) .

ويمكن إتمام مقولة غاندي بأن يعمل بالقانون الذي وضعه الزعيم الهندي بعد تسلّم حزبه الحكم قائلاً : «لابدّ من بقاء زمرة صالحة من المكافحين خارج الحكم

---

(١) روضة الواعظين : ص ٤٢٤ ، ودعائم الإسلام : ج٢ص ٤٧ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٨ ص١٩٥ ب٥٧ .

(٢) راجع كشف الغمة : ج٢ ص ٥٣١ ، كمال الدين : ص٤٨٤ ، غيبة الطوسي : ص٢٩٠ ، بحار الأنوار : ج٢ ص٩٠ ب١٤ ح١٣ ، أعلام الورى : ص٤٥٢ ، الخرائج : ص ١١١٣ ، وسائل الشيعة : ج٢٧ ص١٤٠ ب١١ ح٣٣٤٢٤.

(٣) من لا يحضره الفقيه : ج٤ ص٤٢٠ ب٢ ح٥٩١٩ ووسائل الشيعة : ج٢٧ ص٩١ ب٨ ح٣٣٢٩٥ ونص الحديث عن أمير المؤمنين ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (اللهم ارحم خلفائي ، قيل يا رسول الله ومن خلفاؤك . قال : الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسنتي) . وقريب من هذا الحديث في بحار الأنوار : ج٢ ص١٤٤ ب١٩ ح٣ وح٤ ، ووسائل الشيعة : ج٢٧ ص١٣٩ ب١١ ح٣٣٤٢٢ .

(٤) بحار الأنوار : ج٧٨ ص٣٢٧ ب٢٥ ح٥ ، وج٧١ ص١٧٣ ب٦٢ ح٥ .

ليكونوا قائمين على سلامة الحكم بدون طمع أو رهبة»، ولذا بقي هو وجماعة آخرون من الذين كافحوا من أجل الاستقلال خارج الحكم ، وكان الحكّام يحترمونهم ، ويسمعون منهم ، ومن هنا فلا صيغة أحسن من الصيغة الديمقراطية ، وبالاصطلاح الإسلامي ، الصيغة الاستشارية .

بالإضافة إلى ما تقدّم ، فالاستشارية الإسلامية وبسبب نزوعها نحو القانون الإلهي السليم ، فهي تؤدّي إلى الاستقامة والتقدّم ، ذلك لأنّ الإسلام لا يقرّ الحدود اللغوية ، والجغرافية ، والجنسية ، مثلما نرى ذلك في الكثير من دول العالم ، فقانون الإسلام هو : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١) .

ومن الواضح أنّ التقولب بجنسية خاصّة ، أو لغة خاصّة ، أو ما أشبه ذلك ، كثيراً ما يكون سبباً في تقدّم المفضول في الأمّة على الفاضل ، أو الفاضل على الأفضل ، بينما موقف الإسلام هو أن يتقدّم الأفضل على الفاضل ، وبالإضافة إلى كون هذه القاعدة عقلية فهي قاعدة شرعية أيضاً .

ومن الإشكالات على الديمقراطية ، أنها تساوي بين العالم والجاهل ، والخبير وغير الخبير ، والشابّ الجديد البلوغ والفتاة المراهقة والمجرّب الذي عمره ستون سنةً ؛ فتجعل الجميع بمنزلة واحدة ؟ .

والجواب كما تقدّم من أنه أفضل الطرق إلى الحكم وأنه الطريق الأقل إشكالاً ومحذوراً هذا بالإضافة إلى أنّ العالم هكذا في كلّ الشؤون ، فالقانون واحدٌ وإن كان من يشملهم مختلفين غاية الاختلاف ولا يمكن جعل ذلك الاختلاف سبباً لاختلاف القانون في جميع القوانين المجعولة ، والسرّ أنّ الله ﷻ لم يجعل العالم الذي نحن فيه إلاّ كذلك ، ولذا إذا سرق ابن شخصية يجزى السارق وإن كان في ذلك إهانة لوالده بل لعائلته ، بينما الوالد أو العائلة ليس لهم يدٌ في ذلك وهم منه

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

براء ، وكذلك في سائر الجرائم المشابهة ، فما ذنب أولئك حتّى تشملهم الإهانة ، إلى غير ذلك من الاختلافات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والعسكرية ، والسياسية ، وغيرها .

وعلى أي حال : فإنّ من يريد ملاحظة فلسفة التاريخ كتابة ، أو خطابة ، أو نحوهما ، عليه أن يلاحظ حالة الأمّة أو الحضارة في الديمقراطية ، أو الاستبداد ، ففي الاستبداد ؛ تكون نفسيات الأمم والحضارات معتادة على النفاق ، والتملّق ، والخضوع ، وإطاعة الأوامر بصورة صارمة ، والتصفيق للحكّام مع أنّ القلوب في واد آخر[1] ، بينما العكس يقع في الديمقراطيات .

ومن المعلوم أنّ المؤرخ الحكيم هو من يقرأ ما وراء المفردات التاريخية ، فليس للمؤرّخ أن يظلم أمّة بما لا إمكانية لها فيه ، ولا بما لا قدرة لها عليه ، وقد قال ﷻ : ﴿**وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ**﴾[2] ، وهكذا يرى العقلاء .

---

(١) أخبر الفرزدق الإمام الحسين ﷺ عندما سأله عن أهل العراق ، قال: «قلوب الناس معكم وسيوفهم عليكم» .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٨٦.

الهجرة ومسيرة التكامل

مسألة : من فلسفة التاريخ أن التغرّب والهجرة هي من عوامل تفجّر الطاقات ، وتحريك الأمم ، وبزوغ الحضارات ، ونمو المواهب ، ولذلك لم يعترف الإسلام بالحدود الجغرافية ، إذ إنّها تحد مسيرة التكامل ، وعلى عكس ذلك ، نجد القوانين الوضعية ، تؤكد مثلاً واستناداً لقوانينها التي ما أنزل الله بها من سلطان أنه لا يسمح للأفغاني أن يكون رئيساً لإيران ، ولا الباكستاني أن يكون رئيساً في العراق ، بينما في إطار المرجعية الإسلامية من الممكن أن يكون المرجع الديني رجلاً من أي بلد إسلامي ، ويمكن أن يكون ضمن شورى الفقهاء أشخاص من باكستان ، وإيران ، وأفغانستان ، والعراق ، ففي تاريخنا المعاصر لاحظنا كيف أصبح الآخوند الأفغاني مرجعاً في إيران ، والسيّد اليزدي مرجعاً للعراق ، وهذه القاعدة ليست حصراً على المرجعية ، فالمتقدّم يتقدّم حتّى في غير مجال الحكم ، كمجال الاقتصاد ، والجيش ، وما أشبه ذلك ، سواء كان المتقدّم حقّاً أو باطلاً . فليس التمايز باللغة ، أو القومية ، وما أشبه ذلك .

ونذكر مثال ذلك في التاريخ الإسلامي في مختلف مناحي الحياة كسلمان الفارسي ، حيث اختير حاكماً للعراق ، وابن عبّاس [(١)] العربي ، حيث اختير

---

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول الأكرم ﷺ ، والمشهور ب(حبر الأمة)، عالم وفقيه ومفسر وشاعر ، ولد بمكة سنة ٣هـ(٦٢٤م) ، لازم الرسول ﷺ وروى عنه ، عدّه الشيخ الطوسي من أصحاب الرسول الأكرم ﷺ تارة . لأنه شهد معه الفتح وحنين والطائف وحجة الوداع . وتارة أخرى من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام . لأنه شهد معه الجمل وصفين والنهروان . استنابه الإمام عليه السلام على البصرة . روى عن النبي ﷺ وأمير المؤمنين وأبيه العباس وأبي ذر الغفاري وغيرهم ، وقد أولى اهتماماً كبيراً بالتفسير ، يقول

حاكماً لإيران وذلك في عهد رسول الله ﷺ ومن بعده ، وظلّت هذه القاعدة جارية حتّى ما قبل قرن من الزمان ، حيث كان الأمراء ـ إلى حد ما ـ يعينّون على أساس الكفاءة وليس على أساس اللسان واللون . ولكن عندما دخلت الأفكار الغربية بلاد المسلمين تغيّر هذا المنهج .

والتاريخ يحدثنا أن نور الدين الزندي[1] التركي ، وصلاح الدين [2] الكردي

عمرو بن دينار: «ما رأيت مجلساً كان أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس، الحلال والحرام والعربية والأنساب والشعر» ، ويقول ابن كثير : «حبر هذه الأمة ومفسر كتاب الله وترجمانه» ، كُف بصره في آخر حياته فسكن الطائف ومات فيها وذلك سنة ٦٨هـ، وقيل : ٦٩هـ، وقيل: ٧٠هـ. ترجمه: تنقيح المقال : ج٢ ص١٩١ ، رجال الشيخ : ص٢٣ و٤٦ ، أسد الغابة : ج٣ ص٢٩٠ ، تذكرة الحفاظ : ج١ ص٤٠ ، شذرات الذهب : ج١ ص٧٥ ، تهذيب الأسماء واللغات : ج١ ص٢٧٤ ، العبر : ج١ ص٧٦ ، البداية والنهاية : ج٨ ص٢٩٠ ، موسوعة المورد : ج٥ ص١٤٦.

(١) محمود بن عماد الدين الزندي التركي ، ويلقب بـ«نور الدين» ، حكم سوريا بعد أن اقتسم البلاد التي كان يحكمها أبوه ، اقتسمها مع أخيه غازي ، الملقب بسيف الدين ، والذي حكم شمال العراق ، فحكم نور الدين سوريا من سنة ١١٤٦م وإلى سنة ١١٧٤م ثم ضم إليها دمشق سنة ١١٥٤م ومصر سنة ١١٦٨م ، وكان أحد قواده في مصر صلاح الدين الأيوبي .

(٢) صلاح الدين بن يوسف بن نجم الدين بن شاذي الأيوبي ، ـ هاجر جده شاذي مع ولديه نجم الدين وأسد الدين إلى بغداد وعين على قلعة تكريت ـ ، مؤسس الدولة الأيوبية والتي أسماها باسم عائلته واستمر حكمها من سنة ١١٦٩م وإلى ١٢٥٠م ، وأطيح بها من قبل المماليك ، وقد حكموا مصر والشام وبعض بلاد العراق والجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب ، وعدد حكامها ثمانية أشخاص أولهم : صلاح الدين وآخرهم نوران شاه ، ولد صلاح الدين في تكريت سنة ٥٣٢هـ (١١٣٧م) ، وعاش في دمشق عشر سنوات ، في عهد نور الدين محمود ثم ذهب مع عمه شيركوه إلى مصر ، استجابةً للخليفة الفاطمي ـ العاضد ـ الذي طلب مساعدته للرد على الصليبيين ، الذين زحفوا على عسقلان حتى وصلوا إلى بليس وهددوا القاهرة ثم تقهقروا عنها دون قتال ، وعندما وصل شيركوه إلى القاهرة عهد إليه العاضد منصب الوزارة ثم من بعده لصلاح الدين ، ولكن صلاح الدين سعى للتخلص من العاضد ، فانقلب على الحكم وقضى على الدولة الفاطمية وخطب للعباسيين واعترف بسلطة الخليفة العباسي سنة ٥٦٦هـ (١١٧١م) ، وقد حكم مصر أربعاً وعشرين سنة من ٥٦٤هـ (١١٦٩م) ، ومات سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) عن عمر يناهز السبع والخمسين سنة ،

المملوكي ، ونابليون الكورسيكي ، وهتلر النمساوي ، وجيفارا الأرجنتيني ؛ أصبحوا قادة ، ورؤساء ، يحكمون شعوباً غير شعوبهم ، وقبل هؤلاء ، كان الإسكندر [(١)] قد أصبح رئيساً لبلدان كثيرة ، كما قاد أبو مسلم الخراساني [(٢)]

اتّسم حكمه بالديكتاتورية والاستبداد وأجبر الناس على اعتناق المذهب الشافعي ، وحارب مذهب الشعب المصري وهو مذهب التشيع ، وحبس علماءهم وكان يتتبع آثارهم لقتلهم ، وعزل قضاة الشيعة وصلب بعضهم أمثال : هبة الله بن كامل وعبد الصمد الكاتب وداعي الدعاة بن عبد القوي ، وكان يقتل كل من يمدح أهل البيت أو يذكر فضائلهم فيقطع لسانه ويديه ثم يرجمه ، وكان يأخذ الضرائب والمكوس من الشيعة لتشيعهم وأقلها خمسمائة ألف درهم وستمائة ألف دينار ، ومن الجرائم التي تفرد بها أنه فرق بين رجال الشيعة ونسائهم حتى لا يتناسلوا ، وجعل يوم العاشر من محرم ـ يوم استشهاد سبط الرسول الأكرم ﷺ ـ يوم عيد ، نكاية بالحسين عليه السلام ، ومنع ذكر حي على خير العمل في الأذان وصادر أموال الناس وأعطاها لجنده وقام بإحراق المكتبات سنة ٥٧٤هـ و جعل بعضها كالتلال في سيناء وصب عليها القير والبعض الآخر أحرقها وغير ذلك مما يندى له جبين كل صاحب شرف وغيرة ودين وإنسانية ، ومن مثالبه أيضاً أنه قسم البلاد بين أولاده أيام الزحف الصليبي على بلاد الإسلام فأعطى لولده عثمان ـ الملقب بالعزيز ـ مصر، وأعطى لولده ، الأفضل دمشق ، ولولده ، الظاهر حلب ، ولابن أخيه حماه ، ولابن عمه، محمد بن شيركوه حمص ، ولأخيه العادل الجزيرة ، ولأخويه اليمن ، وأن أولاده بدل أن يحاربوا الزحف الصليبي حارب بعضهم بعضاً وذلك سنة ٥٩٦هـ (١٢٠٠م) .

(١) الإسكندر ملك اليونان ، الملقب بذي القرنين ، ولد سنة ٣٥٦ق.م ، ومات بالحمى في بابل سنة ٣٢٤ق. م. ، ودفن في الإسكندرية بمصر ، تسلم الحكم سنة ٣٣٦ق. م. ، واستمر إلى سنة ٣٢٤ق.م. ، بدأ فتوحاته سنة ٣٣٤ق. م. ، فخاض حروباً مع «داريوش» ، الملك الفارسي وهزمه وذلك سنة ٣٣٣ق. م. . واستولى على سواحل فينيقيا والقدس وبابل بعد أن قضى على ملكها «دارا بن دارا» وتزوج ابنته ، واحتل مصر سنة ٣٣٢ق. م. ، وامتد ملكه إلى شطر الشرق على ضفاف نهر «هيداسب» في الهند سنة ٣٢٧ ق. م. ، واحتل الهند بعد بلاد فارس وكان حاكمها آنذاك «فور» ونصب حاكماً عليها يسمى «كيهن» ، بنى مدينة الإسكندرية سنة ٣٢٢ق. م. ، ويعد من تلاميذ أرسطو ، وخلف عند وفاته إمبراطورية تمتد من اليونان الغربية إلى الهند ومن الهيلسبونت إلى مصر الجنوبية .

(٢) عبد الرحمن بن مسلم المروزي ، المشهور بأبي مسلم ، مؤسس الدولة العباسية ، ولد سنة ١٠٠هـ (٧١٨م) ، أرسله إبراهيم بن محمد بن علي ـ زعيم الدعوة العباسية قبل ظهورها ـ ، داعية إلى خراسان ووالياً عليها بعد أن كاتبه أهل خراسان فحارب أبو مسلم والي بني

البلاد عربيّها وغير عربيّها ، ولذا نجد كثيراً من المفكرين الغربيين ، يؤكدون على جذب الغرباء ، ونشاط المغتربين ، وحيويّة الأقلّيات ، التي يميّز بها أهل العلوم الاجتماعية بعض مؤسّسي الامبراطوريات ، والدول والعقائد والأشكال ، وهي تكاد تتحول بسبب الاغتراب الجغرافي ، أو الاجتماعي ، أو النفسي إلى الطاقة الاقتحامية غير العادّية .

ولا عجب في ذلك ، فقد قال رسول الله ﷺ عن لسان الله ﷻ : **(وضعت العلم والحكمة في الجوع والناس يطلبون في الشبع)** [1] ، وفي الحديث القدسي أنّ الله ﷻ قال : **(إني جعلت العلم في الجوع والغربة والناس يطلبونه في الشبع والوطن فلا يجدوه)** [2] ، وذلك لأنّ الإنسان المغترب والجائع أكثر اندفاعاً إلى طلب الشيء من غيرهما . وهذا هو سبب التقدّم لا بالنسبة للعلم بل في كلّ

أمية في خراسان علي بن الكرماني وانتصر عليه ثم استولى على نيسابور ، وقد عرف أبو مسلم ببطشه وسفكه للدماء وقد بلغ عدد قتلاه ستمائة ألف ؛ كما عن كتاب «وقائع الأيام» للشيخ عباس القمي: ص٣٧٠ . قتله المنصور الدوانيقي بالسم سنة ١٣٧هـ (٧٥٥م) بعد أن أودعه السجن ، عاش سبعاً وثلاثين سنة .

(١) ونص الحديث : روي عن النبيﷺ أنه قال : «قال تعالى : إني وضعت خمسة أشياء في خمسة والناس يطلبون في خمسة أخرى فمتى يجدون ، إني وضعت العزّ في طاعتي والناس يطلبون في أبواب السلاطين فمتى يجدون ، ووضعت العلم والحكمة في الجوع والناس يطلبون في الشبع فمتى يجدون ، ووضعت الراحة في الجنة والناس يطلبون في الدنيا فمتى يجدون ، وإني وضعت الغنى في القناعة والناس يطلبون في المال فمتى يجدون ، ووضعت رضاي في مخالفة الهوى والناس يطلبون في مخالفتي فمتى يجدون». جامع الأخبار : ص١٨٤.

(٢) وفي عدة الداعي : ص١٧٩ «ففيما أوحى الله تعالى إلى داود ، ياداود إني وضعت خمسة في خمسة والناس يطلبونها في خمسة غيرها فلا يجدونها ، وضعت العلم في الجوع والجهد وهم يطلبونه في الشبع والراحة فلا يجدونه ، ووضعت العز في طاعتي وهم يطلبونه في خدمة السلطان فلا يجدونه ، ووضعت الغنى في القناعة وهم يطلبونه في كثرة المال فلا يجدونه ، ووضعت رضائي في سخط النفس وهم يطلبونه في رضى النفس فلا يجدونه ، ووضعت الراحة في الجنة وهم يطلبونها في الدنيا فلا يجدونها» .

مجالات الحياة .

ولا عجب ، فقد اغترب أكثر الأنبياء وتغرّبوا ، وفي هذا المجال يقول الحديث الشريف : **(ولد الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء)**[(١)] ، وقد رأيت حديثاً رواه العامّة : **(وُلِدَ الإسلام غريباً في أرض غريبة)**[(٢)] ، وقد كان النبي إبراهيم عليه السلام عراقياً لكنّه بلّغ في غير العراق ، ومثل اغتراب الأنبياء ، موسى ، ويوسف ، وعيسى ، اغتراب نبي الإسلام صلى الله عليه وآله فقد هاجر من مكّة إلى المدينة. بل بدأ المسلمون منذ زمن الرسول صلى الله عليه وآله يؤرّخون بالتاريخ الهجري ، إذ اعتبروا هجرة الرسول بداية للحضارة الإسلامية . فالنبي صلى الله عليه وآله الذي وُلدَ في مكّة أنشأ دولته في المدينة .

وجان جاك روسو[(٣)] هو مفكّر سويسري ؛ قاد الشعب الفرنسي فكرياً إلى الثورة، وماركس مفكّر ألماني ، طرح نظريته في روسيا ، وقبلهما كان آريوس ، بطل الثورة الدينية في بيزنطا ، وهو في الأصل من ليبيا ، التي كان منها أيضاً فرعون مصر ، بل قال بعضهم إنّ فرعون مصر كان من إصبهان[(٤)] إيران .

وبالهجرة وفّر الإسلام مناخ التسامح ، والتفكير ، والتأمّل ، والإبداع ، لعشرات المفكرين والفلاسفة من غير العرب كابن سيناء ، والفارابي ،

---

(١) غيبة النعماني : ص٣٢ وص٣٢٠ ، بحار الأنوار : ج٨ ص١٢ ب١٩ ح١٠ «بالمعنى» وقريب منه في إرشاد القلوب : ص٣١٣ ومكارم الأخلاق : ص٤٤٩ والجامع الصغير : ج١ ص٧٧.

(٢) وقريب منه في مصنف ابن أبي شيبة : ج٧ ص ٨٣ ح ٣٤٣٦٦ .

(٣) جان جاك روسو ، كاتب وفيلسوف وعالم اجتماع في عصر التنوير ، ولد في جنيف سنة ١٧١٢م ، ومات سنة ١٧٧٨م ، مهدت مؤلفاته لاندلاع الثورة الفرنسية وانبثاق الحركة الرومانتيكية في آن واحد ، من اعتقاداته : أن المجتمع يفسد الإنسان الصالح بفطرته . كما كان يعتقد بالمذهب التجريدي ، له عدة مؤلفات منها : «العقد الاجتماعي» ، «أصل التعاون بين البشر» ، «الاعترافات» ، «أحلام المتنزه المتوحد» ، «أميل»

(٤) وتعرف حالياً باصفهان .

ومحمد الغزالي [(١)] ، وجمال الدين الأفغاني [(٢)] ، والشيرازيّين [(٣)] ،

---

(١) محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي والمشهور بـ(الغزالي) ، ولد في خراسان سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) ، درس في جرجان ونيسابور وبغداد ، وأخذ يدرس في المدرسة النظامية ببغداد عدة سنوات ثم تنقل بين الحجاز ودمشق وبقي في الأخيرة عشر سنوات ثم انتقل إلى القدس والإسكندرية ثم رجع إلى طوس مرّة أخرى ؛ وتوفي فيها سنة ٥٠٥هـ (١١١١م) ، بلغت مؤلفاته المائتين منها : «إحياء علوم الدين» ، «الحصن الحصين في التجريد والتوحيد»، «تهافت الفلاسفة» ، «الوجيز في فروع الفقه الشافعي» ، «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» ، «المستصفى في أصول الفقه» .

(٢) جمال الدين الأفغاني ، ولد في أفغانستان سنة ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م) وقيل : ولد في أسد آباد من توابع مدينة همدان الإيرانية ، ومات سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) في تركيا ، كاتب وخطيب ومصلح ديني واجتماعي وسياسي وداعية في القرن التاسع عشر الميلادي ، سعى إلى تحرير المسلمين من الاستعمار والتدخل الأجنبي ، وفي عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٧م) ، دعا إلى فكرة الجامعة الإسلامية وأنشأ جمعية أم القرى ، كافح الاستعمار البريطاني في أفغانستان والهند ، وأُبعد إلى مصر سنة ١٢٨٦هـ (١٨٧٠م) ، ثم رحل إلى الهند سنة ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م) ثم انتقل إلى فرنسا سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) وفيها أنشأ مع محمد عبده جمعية باسم «العروة الوثقى» ، ومجلة تحمل نفس الاسم ، كما أنشأ في أنجلترا مجلة «ضياء الخافقين» بعد أن رحل إليها ، ونفي إلى اسطنبول سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩٢م) في عهد عبد الحميد الثاني العثماني إلى أن وافاه الأجل ، من مؤلفاته : «الرد على الدهريين» .

(٣) وهما : أ. آية الله العظمى السيد محمد حسن بن محمود الشيرازي المشهور بـ(المجدد) ، ولد في شيراز سنة ١٢٣٠هـ (١٨١٤م) وتوفي سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٥م) في مدينة سامراء ودفن في النجف الأشرف ، تتلمذ عند العلماء الأعلام أمثال : السيد حسين المدرس والمحقق الكلباسي والشيخ محمد حسن الجواهري والشيخ مرتضى الأنصاري ، تصدّى لمهام المرجعية بعد وفاة الأنصاري سنة ١٢٨١هـ، قارع الاستعمار البريطاني وحكومة ناصر الدين شاه القاجاري في ثورته المعروفة ـ التنباك ـ بعد أن منح الشاه امتياز حصر التبغ لشركة إنجليزية بشروط مجحفة بحقّ إيران بعد أن قادت بريطانيا في ربيع الثاني سنة ١٣٠٩هجيشاً قوامه أربعمائة ألف مقاتل لاحتلال إيران ، وهذه الثورة أيقظت العالم الإسلامي وأعطته الوعي السياسي في تاريخه الحديث ، كما وقف الشيرازي بوجه الفتنة الطائفية التي أحدثها ملك أفغانستان عبد الرحمن خان ؛ حيث أخذ يقتل الشيعة ويجعل من رؤوسهم منائر في كل مكان وأخذ يعتقل النساء ويجعلهن إماءً ويبيعهن بأبخس الأثمان .
ب. آية الله العظمى الشيخ محمد تقي الشيرازي ، قائد ثورة العشرين التحررية في العراق ضد الاستعمار البريطاني ، الذي اغتيل بالسم سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) ، ودفن في حرم

والطوسيّين [١] ، ومن إليهم .

ومثل الغرباء ، كان هناك المغتربون ، من هو سيئ من الذين هاجروا من فرنسا ، حيث عمل هناك ، فانتقل إلى بلاده ، وبدأ بالثورة هناك .

وهكذا كاسترو [٢] ، الذي هاجر إلى المكسيك ، ولينين الذي اغترب في

الإمام الحسين عليه السلام ، له باع طويل في حفظ الحوزات العلمية ونشر علوم أهل البيت عليهم السلام من مواقفه السياسية : إصداره فتوى ضد الاحتلال الإنجليزي للعراق سنة ١٩١٤م وتخطيطه للثورة ضدهم ، وإصداره فتوى سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م) ضد المعتمد السامي الذي نصب نفسه حاكماً على العراق عبر الانتخابات الصورية ، كما أصدر فتوى أخرى جعل الإنجليز يجرون أذيال الخيبة والانكسار ويسحبون جيوشهم من أرض الرافدين ، ومن مواقفه أيضاً استنكاره للمعاهدة البريطانية ـ الإيرانية سنة ١٣٣٦هـ ؛ والذي أدى موقفه إلى إلغائها ، قال عنه السيد حسن الصدر في التكملة : «عاشرته عشرين عاماً فما رأيت منه زلة ولا أنكرت عليه خلة» ، من مؤلفاته : «حاشية على المكاسب» ، «رسالة في صلاة الجمعة» ، «رسالة في أحكام الخلل» . ترجمه أعيان الشيعة ، معارف الرجال ، نقباء البشر في القرن الرابع عشر .

(١) أولهما الشيخ الطوسي ، والذي مرّت ترجمته في ص ٥٢ـ٥٣ ، وثانيهما الشيخ محمد بن محمد بن الحسن الجهرودي الطوسي والمشهور بـ(نصير الدين) ، ولد في خراسان سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) وتوفي في الكاظمية سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) ، عالم وفقيه وفيلسوف ورياضي وفلكي وسياسي ، درس في طوس ونيسابور التي فرّ منها خلال اجتياح جنكيز خان لها ولجأ إلى قلاع الإسماعيليين التي هي الأخرى تعرضت لغزو هولاكو واستسلم من فيها وقتلهم هولاكو جميعاً باستثناء طبيبين والشيخ الطوسي ، وحمل هولاكو الثلاثة معه، وبطريقة ذكية استغل الطوسي هولاكو ؛ فأنقذ الكثير من علماء المسلمين من القتل ، وحفظ الكثير من الكتب الإسلامية من الحرق والتلف عبر إنشاء مرصد في مدينة «مراغة» سنة ٦٥٧هـ، والذي اشتهر بآلاته وراصديه ، وجمع الكثير من العلماء من البلدان وجلبهم ليساعدوه في هذا الأمر وأسس المكتبات والمدارس ، وضمت إحدى المكتبات في زمانه أربعمائة ألف كتاب ، والأكثر من هذا جعل الكثير من المغول يعتنقون الإسلام ، وأسهم في تطوير علم المثلثات ، من مؤلفاته : «شكل القطاع» ، «تربيع الدائرة» ، «تحرير أصول إقليدس» ، «تجريد الكلام» ، «التذكرة النصيرية» ، «تحرير المجسطي» ، «الأخلاق الناصرية» ، «تلخيص المحصل» ، «الفصول النصيرية» ، «شرح الإشارات» ، «الفرائض النصيرية» . ترجمه روضات الجنات : ج٦ ص ٣٠٠.

(٢) فيدل كاسترو ، سياسي كوبي ، ولد سنة ١٩٢٧م ، قاد حرب العصابات وأسقط حكم

سويسرا ، وكانت مهاجر مصر ، وفرنسا ، وأمريكا الشمالية والجنوبية ، مقراً للمفكّرين من العرب ، وغير العرب ، وهكذا أصبح سعدي الشيرازي [١] مغترباً في بغداد ؛ لأنّه درس في المدرسة النظامية ثلاثين سنة . وجبران [٢] ، والريحاني [٣] ، وميخائيل نعيمة [٤] ، وطه حسين [٥] ، وتوفيق

«باتيمتا» سنة ١٩٥٩م ، أصبح رئيساً للوزراء ثم رئيساً للبلاد سنة ١٩٧٦م ولا يزال يحكم البلاد .

(١) مصلح الدين مشرف بن عبد الله المشهور بـ(سعدي الشيرازي) ، شاعر فارسي ، ولد في شيراز سنة ١٢١٣م وتوفي سنة ١٢٩٢م ، هاجر إلى الأناضول وسوريا ومصر والعراق في العهد المغولي ، ودرس في المدرسة النظامية في بغداد ، من مؤلفاته : «كتاب كلستان» - أي حديقة الورد - وهو مجموعة نثرية من القصص الأخلاقية تتخللها أبيات من الشعر ، وكتاب «بوستان» - أي البستان - ويتحدث فيه عن الأخلاق ، وقد ترجمت دواوينه إلى عدة لغات.

(٢) جبران خليل جبران ، ولد في بشري اللبنانية سنة ١٨٨٣م ، ومات في نيويورك سنة ١٩٣١م ، أديب لبناني وشاعر ، هاجر إلى أمريكا وأصبح رئيساً للرابطة العلمية في نيويورك ، برع في فن التصوير ، وتوجد بعض تصاويره في «متحف جبران» في بشري اللبنانية .

من مؤلفاته : «الأرواح المتمردة» ، «الأجنحة المتكسرة» ، «دمعة وابتسامة» ، «النّبي» ، «العواصف» ، «البدائع والطرائف» ، «آلهة الأرض» ، «يسوع ابن الإنسان» ، «المواكب».

(٣) أمين الريحاني ، كاتب ومؤلف ، ولد سنة ١٨٧٦م ، ومات سنة ١٩٤٠م ، من مؤلفاته : «ملوك العرب» ، «تاريخ نجد الحديث» ، «المغرب الأقصى» .

(٤) ميخائيل نعيمة ، أديب ومفكر وشاعر وناقد لبناني ، ولد سنة ١٨٨٩م ، وعاش في المهجر الأمريكي سنوات طوال ، له أكثر من ثلاثين مؤلفاً ، منها : «الغربال» ، «المراجل» ، «زاد المعاد» ، «البيادر» ، «النور والديجور» ، «مذكرات الأرقش» ، «في مهب الريح» ، «في الغربال الجديد» ، «نجوى الغروب» ، «ومضات» ، «مرداد» ، «سبعون» .

(٥) طه حسين ، أديب وناقد مصري ، ولد في الصعيد سنة ١٨٨٩م ، أصيب في السادسة من عمره برمد ؛ ففقد بصره ، انتسب إلى الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨م ونال الدكتوراه سنة ١٩١٤م ، هاجر إلى باريس للدراسة ونال شهادة الدكتوراه فيها سنة ١٩١٨م ، تقلد وزارة المعارف سنة ١٩٥٠م ، وأصبح رئيساً لمجمع اللغة العربية إلى أن وافاه الأجل في القاهرة سنة ١٩٧٣م ، من مؤلفاته : «الأيام» ، «على هامش السيرة» ، «حديث الأربعاء» ، «الفتنة الكبرى» ، «في الشعر الجاهلي» ، «المعذبون في الأرض» ، «من تاريخ الأدب العربي» .

الحكيم [1]، وشبلي شمّيل [2]، وفرح أنطون [3]، وجرجي زيدان [4]، ويعقوب صرّوف [5]، كلّهم هاجروا، وتفتقت قرائحهم في الهجرة [6]، إذ القاعدة لا تنطبق على المصلحين فحسب بل وتشمل المفسدين أيضاً الذين ملؤوا البلاد فساداً، فقد ذكر الأدباء أنّ المثال يقرّب من جهة، ويبعّد من جهة، وهذا هو فلسفة ما قاله الرسول الأكرم ﷺ: **(اطلبوا العلم ولو بالصين)** [7]، وقبل ذلك قال عيسى المسيح عليه السلام: **(الحكمة ضالّة المؤمن يلتقطها حيث وجدها مثل الجوهر في فم كلب)** [8]، فإنّ الإنسان إذا أراد أن يأخذ الجوهرة لا ينظر إلى الظرف، وإنّما ينظر إلى قيمة الجوهرة.

---

(١) توفيق الحكيم، روائي وكاتب مسرحي مصري، ولد سنة ١٨٩٨م، له عدة مؤلفات، منها: «عودة الروح»، «يوميات نائب في الأرياف»، «عصفور من الشرق»، ومن أهم أعماله المسرحية: «شهرزاد»، «أهل الكهف».

(٢) شبلي شمّيل، طبيب لبناني، ولد سنة ١٨٥٣م، هاجر إلى مصر وأصدر منها مجلة «الشفاء» سنة ١٨٨٦م واستمرت في الصدور لخمس سنوات، توفي سنة ١٩١٧م، من مؤلفاته: «فلسفة النشوء والارتقاء»، «آراء الدكتور شمّيل».

(٣) فرح أنطون، كاتب قصصي وصحفي، ولد سنة ١٨٦١م، ومات سنة ١٩٢٢م.

(٤) جرجي زيدان، ولد سنة ١٨٦١م، ومات سنة ١٩١٤م، أديب ومؤرخ وصحفي ومؤلف لبناني، هاجر إلى «مصر» إبان شبابه حيث أصدر مجلة «الهلال» سنة ١٨٩٢م، وله سلسلة روايات عن تاريخ الإسلام وتراجم مشاهير الشرق وتاريخ العرب قبل الإسلام من أهم مؤلفاته: «تاريخ التمدن الإسلامي»، «تاريخ آداب اللغة العربية».

(٥) يعقوب صرّوف، أديب ومترجم، ولد في لبنان سنة ١٨٥٢م، هاجر إلى مصر ومات فيها سنة ١٩٢٧م، أصدر مجلة «المقتطف» المصرية سنة ١٨٧٦م، وساهم في إصدار جريدة «المقطم» سنة ١٨٨٩م، وساهم في ترجمة عدة كتب إلى العربية في الرياضيات والفلسفة.

(٦) وأمثال هؤلاء: العالم النحوي سيبويه، وابن مالك، والشاعر الفارسي ناصر خسرو.

(٧) منية المريد: ص١٠٣، روضة الواعظين: ص١٠، غوالي اللآلي: ج٤ ص٧٠ ح٣٨، مشكاة الأنوار: ص ١٣٥، وسائل الشيعة: ج٢٧ ص٢٧ ب٤ ح ٣٣١١٩، بحار الأنوار: ج١ ص١٧٧، وفي مصباح الشريعة: ص١٣ عن علي عليه السلام.

(٨) وقريب منه عن الصادق عليه السلام في الكافي (روضة): ج٨ ص١٦٧ ب٨ ح١٨٦ ونهج البلاغة قصار الحكم: الحكمة ٨٠، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٨ ص٢٢٩ ب٧٧.

أمّا التقيـد بالقومية ، واللغوية ، والجنسية ، ونحوها ، فذلك ممّا يحدّ من نشاط المصلحين ، ويوجب تقديم المفضول على الفاضل ، والفاضل على الأفضل. ففي الحديث : **(إنّ مثل هؤلاء لا يزال أمرهم إلى سفال)**[1].

(١) الأمالي للصدوق : ص٦٤٤ المجلس الثالث والتسعون .

منطق القوة أم منطق الحقيقة

مسألة : من القواعد العامة المستقاة من روح التاريخ ولها مدخلية أيضاً في الديمقراطية والاستبداد ، أنّ هناك تنازعاً دائماً بين القوّة وبين الحقيقة سواء كانت القوّة قوّة مال ، أو قوّة عشيرة ، أو قوّة سلاح ، أو قوّة علم غير مستقيم .

فالقوّة تريد تزييف الحقيقة واستخدامها في سبيل تحقيق مآربها ؛ كما يفعله الديكتاتوريون والمستبدّون ، والعلماء المنحرفون ، حيث قال ﷻ عنهم : **﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾** (١) ، وقال ﷻ : **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾** (٢) ، بينما الحقيقة تريد استخدام القوّة وترويضها لصالح القوّة الإنسانية والواقع ؛ كما يفعله الأكفّاء الاستشاريون ، والديمقراطيون الذين ينتهجون نهجاً سليماً في الديمقراطية .

والغلبة أخيراً للثاني ، وإن كان الأوّل قد يجول في الساحة ، ولذا ورد : **(للحق دولة وللباطل جولة)** (٣) ، وقد قال تعالى قبله في القرآن الكريم : **﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾** (٤) ، وقال ﷻ في آية

---

(١) سورة الجمعة : الآية ٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٥ .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٩ ص٧٣ ب١٤١ ، بحار الأنوار : ج٥٢ ص٣٦٥ ب٢٧ ح١٤٣ .

(٤) سورة الرعد : الآية ١٧ .

أخرى : ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ ◆ مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [(١)] ، وفي آية أخرى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [(٢)] ، لأنّ الباطل دائماً ينفخ نفسه بما لا واقع له ، فحال الباطل حال البالون الذي ينفخ فيه فيظهر بمظهر الكبير بينما حجمه الواقعي أقلّ من ذلك بكثير ، فهذه الآيات ، والروايات ، تشير في الواقع إلى حقيقة واحدة وهي أنّ الباطل سواء كان في العقيدة ، أو في القول ، أو في العمل ، خلاف نظام الكون المبني على الحقّ ، والعدل ، والصدق . والسائر في طريق الباطل ، يصطدم كثيراً بالقوانين الكونية ، والقوانين الكونية توجب سقوطه في الطريق الذي يسير فيه ، وفي الطريق المنحرف الذي فيه عوج وأمت ، بينما الحقّ والحقيقة ، يسيران في الطريق المفتوح المستقيم ، كما قال ﷻ : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [(٣)] ، ولذا يسيران دائماً في طريق مستقيم وإن انحرف الأمر في الوسط قليلاً ما ، وقصص التاريخ مليئة بالعبر والعظات من هذه الجهة .

والاستشارية دائمة تحاول إخضاع القوّة واستخدامها في سبيل إقامة العدل ، والحقّ ، والحقيقة ، بينما الاستبداد يطلب العكس ، لكنّ ﴿الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [(٤)] كما قال تعالى ، وكما قال الشاعر :

للمتّقين من الدنيا عواقبها ... وإن تعجّل فيها الظالم الأثم

والعاقبة الصحيحة أمّا في الآخرة فللمتّقي إطلاقاً ، وأمّا في الدنيا فتكون العاقبة للمتّقي بأحد أمور : إمّا بانتصار صاحب الحقّ ، كما حدث بالنسبة إلى رسول الله ﷺ انتصاراً واقعياً وظاهرياً ، وإما أنْ يكون الانتصار سمعة ، مثل تحسين

---

(١) سورة آل عمران : الآيات ١٩٦.١٩٧ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٨ .

(٣) سورة هود : الآية ٥٦ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٢٨ ، سورة هود : الآية ٤٩ ، سورة القصص : الآية ٨٣.

صاحب الحقّ كما قال ﷺ : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ (١) ، وإما يكون الانتصار للمبدأ الذي عَملَ لأجله صاحب الحقّ بل الثالث أهمّ أقسام الانتصار ، ولذا قال ﷻ : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٢) ، إذ صاحب الحق إنما يعمل دائماً لأجل الهدف لا لأجل الشخص والسمعة وإن أراد السمعة فإرادته لها لذلك أيضاً.

ومع الغضّ عن الأمثلة المشهورة المستقاة من الكتاب ، والسنّة ، وتاريخ الأنبياء والصالحين ، ممّا هي معروفة لدى الكلّ ، نذكر مثالاً واحداً ، ببقاء الاستشارية ، وانهيار الديكتاتورية والاستبداد ، وهي حكومة أثينا (٣) وإسبارطة(٤) على ما ذكروا .

فالأولى كانت ديمقراطية ، تعمل على تقوية روح الحرّية لإبراز المواهب الإنسانية ، والفكرية ، والعمليّة ، واستخدام القوّة في حفظ العدل وتقديمه إلى الأمام ، وقد أثمرت تلك الجهود في ولادة دولة ديمقراطية ، تنعّمت بالحرّية ، والرفاه ، والسمعة الطيّبة ، وتقدّم فيها العلم ، والمعرفة ، وتفتّقت فيها المواهب الإنسانية وصارت نبراساً للكثيرين منذ عشرات القرون إلى هذا اليوم ، وأصبحت مدينة أثينا الصغيرة تربة خصبة للعلوم ، والعلماء ، والحكماء ، والفلاسفة ، والمفكّرين (٥) .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٨٤ .

(٢) سورة غافر : الآية ٥١ .

(٣) وازدهرت في عهد الحكيم «سولون» الذي ولد سنة ٦٥٨ق.م. والذي وضع القوانين والأنظمة التي تتناسب مع الإصلاح ، وأنشأ ما يسمى بمجلس الشيوخ المؤلف من أربعمائة عضو منتخب من الشعب .

(٤) مدينة يونانية قديمة ، تقع في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة «البيلوبونيز» قرب البلدة الحالية التي تحمل نفس الاسم ، أُنشئت في القرن التاسع قبل الميلاد ولعبت دوراً في صد الغزوات الفارسية خلال الحروب اليونانية ـ الفارسية .

(٥) وإن التقدم الذي أنعمت به أثينا ، أصبح مدعاة لتحريك أسبارطة ومحاولتها لتقويضها ؛

صحيح أنّ الانحراف أصاب البعض منهم ، لكنّ الأشواك تسقى لأجل الورود لفلسفة في الخلقة ، وهكذا بالنسبة إلى المبادئ ، والأشخاص ؛ فأبو سفيان[١] يتنعّم بالإسلام لأجل أبي ذر الغفاري[٢] ، وفرعون يكون مشهوراً مع أنّه

ممّا أدى إلى نشوب حروب بين الطرفين ، دامت ثلاثين سنة .

(١) صخر بن حرب بن أمية ، قاد المشركين في حروبهم ضد الرسول ﷺ كحرب بدر وأحد والخندق ، وما من فتنة إلا وشارك فيها ، أسلم مضطراً يوم الفتح وكان يشتهر بالنفاق ، يقول الزبير لولده عبد الله في حق أبي سفيان: «قاتله الله يأبى إلا نفاقاً» ، عندما أصبح عثمان خليفة ، ذهب بنو أمية إليه ؛ ليباركوا له خلافته ، فقام أبو سفيان خطيباً قائلاً:«هل بيننا من غير بني أمية ؟ فقالوا: لا ، فقال : «تلاقفوها يا بني أمية ، تلقف الكرة ، فالذي يحلف به أبو سفيان ، لا عذاب ولا حساب ولا جنة ولا نار ولا حشر ولا قيامة»، وفي هذا الصدد يقول صاحب الأغاني في ج٦ ص٣٥٤ : «دخل أبو سفيان على عثمان بعد أن كف بصره ، فقال : هل علينا عين ، فقال له عثمان : لا ، فقال : يا عثمان ، إن الأمر أمر عالمية والملك ملك جاهلية فاجعل أوتاد الأرض بني أمية» . مات أبو سفيان سنة ٣١هـ (٦٥٢م) .

(٢) جندب بن جنادة ، من بني غفار ، سمّاه رسول الله ﷺ «عبد الله» ، وهو أول من حيّاه الرسول ﷺ بتحية الإسلام ، جهر بإسلامه في مكة فضرب حتى غشي عليه فأمره الرسول الأكرم ﷺ بالرجوع إلى قبيلته ؛ يدعوهم إلى الإسلام ، ويعد من خيار الصحابة ، قال في حقه الرسول ﷺ : «والله ، ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر» ، حضر غزوة تبوك ، لازم الرسول ﷺ إلى أن وافاه الأجل فقال : «لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلاّ ذكّرنا منه علماً» ، اشتهر بتقواه وبساطته ، عارض بيعة أبي بكر ، ثم عاش في بلاد الشام بعد وفاة الرسول ﷺ قرابة عشر سنوات ، وكان يجمع الناس حوله ويحدثهم بأحاديث الرسول ﷺ في فضائل علي عليه السلام ، ونعى على معاوية الترف والإسراف واللعب بأموال المسلمين ، ولما بنى معاوية قصراً له ، بعث أبو ذر إليه أحداً يقول له : «يا معاوية ، إن كان هذا من مال المسلمين فهي الخيانة ، وإن كان من مالك فهو الإسراف» ؛ فضاق معاوية به ذرعاً واشتكاه لعثمان فأرسله إلى المدينة بصورة يندى لها الجبين . يقول المسعودي في مروج الذهب : «رد إلى المدينة على بعير عليه قتب يابس معه خمسمائة من الصقالبة يطردون به حتى أتوا به المدينة وقد تسلخت بواطن أفخاذه وكاد يتلف» ، وقف بوجه عثمان ، الذي تسلط هو وأقرباؤه من بني أمية أمثال مروان بن الحكم على رقاب المسلمين ، الذين اتخذوا مال الله دولا وعباد الله خولا ودين الله دخلاً ، وكان يمر بالطرقات والأزقّة يحرض المسلمين على عثمان ويقول : ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

لا يستحقّ تلك الشهرة ؛ لأنّه كان من القتلة والسفّاكين والمجرمين ، وشهرته لأنّه وقف قبال موسى عليه السلام .

كما أنّ المطر إذا نزل من السماء ، استفاد منه التفّاح ، والحنظل ، والورد ، والشوك ، والحدائق ، والمزابل ، وعلى حدّ سواء فكذلك الأنبياء ، والأوصياء ، والطغاة ، والمستبدين ، وإنّي لا أستبعد ـ كما ذكرت ذلك في عدة مواطن ـ أن تكون تلك الحضارة مستندة إلى بعض الأنبياء الذين بعثوا فيها ، وقد قال تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١) ، بل قد شخّص بعض علماء الغرب نبي ذلك الزمان بأحد الحكماء المعروفين ، وإنّي أحتمل أن يكون سقراط من الأنبياء إلاّ أنّ بعض تعاليمه حرفت .

وكيف كان : فقد تربّى تحت ظلّ الحرّيات سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، الذين أضاؤوا الحكمة والفلسفة ، وأرخميدس صاحب النظرية الفيزيائية ، وبركليس (٢) السياسي المشهور ، وغيرهم. وقد قال القرآن الحكيم : ﴿أَفَلَمْ

أليم﴾ ، فمنعه أعوان الخليفة من ذلك ، فقال صلى الله عليه وآله : «أتنهونني عن قراءة القرآن ؟ وأضاف : والله ، لئن أرضي الله بسخط عثمان أحب إليّ وخير لي من أن أسخط الله برضا عثمان». ودافع عن المحرومين وكان يصرخ في وجه الحكام قائلاً : «أتتكم القطار بحمل النار ، اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له ، اللهم العن الناهين عن المنكر المرتكبين له» كما جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٨ ص٢٥٧. ومن وصاياه رضي الله عنه : «إن الله قد فضلك فجعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعاً» ، نفاه عثمان إلى الربذة قائلاً له : «اخرج عنا من بلادنا وجوارنا» ، وتوفي فيها غريباً سنة ٣٢هـ (٦٥٢م) . للمزيد راجع الإصابة ، وفرائد السمطين ، وتاريخ اليعقوبي ، وتاريخ الطبري ، والاستيعاب ، وأعيان الشيعة ، والغدير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والموسوعة الإسلامية لحسن الأمين ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

(١) سورة فاطر : الآية ٢٤ .

(٢) بركليس ولد سنة ٤٩٥ق. م. ، حكم أثينا سنة ٤٦٠ ق. م. واستمر في الحكم إلى موته سنة ٤٢٩ق.م. وطد الحكم الديمقراطي وبسط سيادة أثينا على مدن اليونان كلها ، عني بالعمران وشجع الآداب والفنون ، فبلغت أثينا في عهده أوج عصرها الذهبي المشهور

يَسيرُوا في الأرْض﴾ ⁽¹⁾ ، وقال الإمام علي عليه السلام : **(وسر في ديارهم وآثارهم فأنظر فيما فعلوا)** ⁽²⁾ .

وهكذا كلّما لاحت الحرّيات ، وظهرت الاستشاريات ، تفتّقت العبقريات ، وقد قال الإمام علي عليه السلام في فلسفة بعثة الأنبياء هذه الجملة الحكيمة **(ويثيروا لهم دفائن العقول)** ⁽³⁾ ، فيروهم الآيات المقدّرة ، بل قال تعالى : **﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** ⁽⁴⁾ في حكمة بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث حصر أمره في ثلاثة أمور : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحليل الطيّبات وتحريم الخبائث ، ووضع الإصر والأغلال ، فالإصر هي المشاكل والقوانين الاجتماعية ، والأغلال هي القوانين الحكومية ، وهذه الظاهرة نجدها في بلاد الإسلام ، فالحجاز حيث كانت قبل الإسلام بلاد الكبت ، والإرهاب ، ووأد البنات ، وقتل الأولاد الذكور ، لأنّ أهل الجاهلية كانوا يئدون البنات ؛ خوف العار ، ويئدون الذكور ؛ خوف الفقر ، كما ورد في القرآن الحكيم ⁽⁵⁾ ، ولم يكن حال مصر ، والعراق ، وبلاد الشام ، وغيرها ، أفضل من ذلك ، ولمّا ساد الإسلام تلك المناطق بالبعثة النبويّة : **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي**

بـ«عصر بركليس». من آثاره العمرانية البارثينون . انظر المنجد في الأعلام : ص١٧٧.

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٩ ، سورة الحج : الآية ٤٦ .

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٣١ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٦ ص٦٢ ب٣١ .

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١ ص١١٣ ب ١ ، بحار الأنوار : ج١١ ص٦٠ ب ١ ح٧٠ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٥) إشارة إلى الآيات : ٨ ـ ٩ من سورة التكوير ﴿وإذا الموؤدة سُئلتْ ❖ بأي ذنب قتلت﴾ وإشارة إلى قوله تعالى :﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾ الإسراء : ٣١ ، وقوله تعالى ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ﴾ الأنعام : ١٥١.

﴿ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [1] ، صارت تلك البلاد مُنطلقاً للعلم ، والحكمة ، والنور ، وكلّ فنون المعرفة ، ونبغ فيها من العلماء من كلّ لون وصنف في مختلف أبعاد الحياة ممّن هم مفخرة العالم إلى اليوم وسيبقون على ذلك إلى ما شاء الله تعالى .

أمّا أسبارطة ، التي اعتمدت الديكتاتورية ، واحتمت بالسلاح فقط لتقوية نفسها ، واشتغلت بالثورات والحروب ، وقضت على الحرّية والعدالة ، فقد ذهبت أدراج الرياح وتحطّمت شرّ تحطّم ، حتّى إنّ العديد لا يعرفون عنها علماً ولا فضلاً . ولم يبق منها سوى ذاكرة كبت الحرّيات ، وخنق الأصوات ، واتّباع الشهوات ، فلا عين منها بقيت ، ولا سمعة طيّبة ، ولا هدف يتصاعد ويستضاء به ، بينما آثار أثينا نقلها المسلمون كضميمة أضافوا إليها من عبقرياتهم وهدايات دينهم إلى كلّ العالم ممّا أخذ منهم العالم الصناعي اليوم ، ولذا نجد العالم الصناعي يسمّي المسلمين آباء العلم ، كما اعترف بذلك راسل [2] ، ولوبون [3] ، وغيرهما من فلاسفة الغرب والشرق ممّا لسنا بصدد بيان ذلك حتّى نستوعب

---

(١) سورة الجمعة : الآية ٢ .

(٢) برتراند راسل الإنجليزي ولد في ويلز سنة ١٨٧٢م ومات سنة ١٩٧٠م في سن الثامنة والتسعين أديب وفيلسوف وعالم منطق ساهم في تطوير المنطق الرياضي الحديث ، وقد كتب العديد من الأعمال الفلسفية وعن مشكلات العلم الطبيعي وساهم في السنوات الأخيرة من حياته في حركة نزع السلاح النووي وحكم عليه لذلك بالسجن والغرامة المالية مرتين كانت الأخيرة في سن التسعين وبيعت مكتبته للوفاء بالغرامة ، حاز على جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٥٠م ، ألف أكثر من خمسين مؤلفاً منها السلطة والفرد ، تحليل العقل ، تاريخ الفلسفة الغربية

(٣) غوستاف لوبون ، ولد في النورماندي سنة ١٨٤١م ومات في باريس سنة ١٩٣١م ، طبيب وعالم اجتماعي ومفكر فرنسي ، دعا إلى تفسير السلوك الاجتماعي بالمقارنة بين نفسيات فردية ، وكتب في مجالات علمية كثيرة ، وبلغت مؤلفاته الخمسين منها : «سيكولوجية الجماهير» ، «علم النفس في الأزمنة الجديدة» ، «حضارة الهند» ، «الحضارة الأولى» ، «الآراء والعقائد» ، «حياة الحقائق» ، «الثورة الفرنسية وسيكولوجية الثورات» ، «القوانين النفسية لتطور الشعوب» ، «حضارة العرب» ، وقد اختصره السيد الشيرازي باسم «موجز تاريخ الإسلام» .

البحث حوله .

ولا يخفى : أنّ الله ﷻ خلق القوّة كسبب تكويني ، فإذا استعملت لأجل تقويم الباطل ، وتوجيه الفرد والمجتمع للطريق المستقيم وللوصول إلى الحقيقة ، أعطت ثمارها الصحيحة ، وإلاّ فإن استعملت القوة في وجه الحقّ والحقيقية ، والنيل منهما كان أخيرها الفشل سواء كان لها مدّة ، دامت المدّة أو لم تدم، وقد لخّص الله ﷻ اندثار الباطل أمام الحقّ في الآية التالية : ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ◆ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ (١) ، وفي آية أخرى قال ﷻ : ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا**﴾ (٢) ، إلى غيرهما من الآيات الدالّة على أنّ الغلبة أخيراً لأهل الحقّ . فالحقّ المجرّد عن القوّة المادّية يكون له الغلبة أخيراً ، وينقلب الميزان لصالح الحقّ ، فالحق يجعل إماماً ووارثاً ، والباطل ومستشاروه وقدراته يكون مصيره في النهاية إلى الهلاك والجحيم كما قال ﷻ : ﴿**وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ (٣) على نحو حال حكاية ماضية ، وفي آية أخرى : ﴿**أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً**﴾ (٤) ، إلى غير ذلك في كثير من الآيات التي تدلّ على أنّ العاقبة كانت للأنبياء والصالحين في هذه الدنيا قبل الآخرة .

وهكذا وجدنا ذلك في ذاكرة عمرنا القصير حيث رأينا كيف تحطّمت الحكومات الديكتاتورية ، وأخذت مكانها الحكومات الاستشارية ولو بقدر ، وما جرى في أوربا الشرقية والاتّحاد السوفياتي ـ السابق ـ في هذه السنوات الأخيرة

---

(١) سورة القصص : الآيات ٥ ـ ٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٣٧ .

(٣) سورة القصص : الآية ٦ .

(٤) سورة نوح : الآية ٢٥ .

ليس ببعيد عنّا ، وما ذكرناه أكّد لنا أنّ الديمقراطية والاستشارية بمنزلة الروح من الجسد للحكم ، وأنّ من يريد ذكر فلسفة التاريخ كتابة أو خطابة ، يلزم أن يلاحظ هذا الأمر بدقّة متناهية ، وإلاّ لم يعرف فلسفة التاريخ ، وروح الحضارة ، ومستقبل الحياة .

عصور التخلف

مسألة : من الضروري لمن يريد كتابة فلسفة التاريخ أن يلاحظ الواقع والروح العامة في الأمم والحضارات ، وأن يكون حيادياً في تقييمه وتقديره للأحداث ، وأن ينظر إلى العوامل الموضوعية التي تؤدي إلى الانتصار أو الهزيمة .

ومن يتصفح التاريخ ، يرى أن أكثر عصور التاريخ تدهوراً وركوداً تاريخ ما قبل النبي ﷺ لا بالنسبة إلى البلاد العربية فحسب بل وحتّى بالنسبة إلى الفرس والروم ، وهما دولتان متحضرتان على اصطلاحهم . أمّا القرون الوسطى التي هي عبارة عن القرون المتخلّفة بالنسبة إلى أوربا وما أشبهها فكانت أكثر عصور التاريخ تدهوراً وركوداً حيث الحرب التي أثارها التعصّب الأعمى من البابوات ، ورجال الكنيسة ، فيقتلون الناس بالألوف ، ويحرقون المفكّرين وكتبهم [(١)] ، ويصادرون الأموال ، ويهتكون الأعراض ، حتّى إنّي رأيت في كتاب يسمّى بـ«كاترين» صادر من لبنان أنّ البابوات أنفسهم كانوا يهتكون أعراض أقربائهم من أمّهات ، وأخوات ، وبنات ، وحيث الفضائح المشينة التي نتجت عن تلك الحروب ممّا يقلّل قيمة الإنسان والإنسانية إطلاقاً . فقد كانت الأحقاد متحكّمة ،

---

(١) ففي سنة ١٥٥٣م أحرقوا الطبيب سيرفيه ميغل الذي كانت له اكتشافات هامة في ميدان الدورة الدموية واعتبروه خارجاً عن الكنيسة ، وفي سنة ١٥٥٧م بناءً على أوامر البابا بولس الرابع نشرت محكمة التفتيش لائحة بالكتب المحظورة قراءتها واقتناؤها ، وتتوزع المؤلفات الممنوعة هذه على ثلاث فئات هي : ١. الكتب التي ينشرها كتّاب مجهولون وتعتبر رديئة .
٢. أعمال الكتّاب المحظورة كتبهم .
٣. الكتب المحظورة التي يضعها كتّاب معروفون .
وأرفق باللائحة جدول باثنين وستين طباعاً ، قاموا بطبع مؤلفات هرطوقيه .

والأهواء سائدة ، ولم يكن هناك مجال لتحكّم العقل أو المنطق أو الدليل ، وحتى منطق الكتاب المقدّس الذي عندهم ، فكانوا يلبسون مسوح الرهبان وهم سفّاكو دماء ، متحالفون مع ملوك مستبدّين طغاة ، فكان يقول الملك للبابا : «يا صاحب القداسة» ، وهو يردّ عليه بقوله : «يا صاحب النيافة» .

وقد ارتكبوا أفحش الفواحش ، وغرّروا بالجماهير الساذجة ببيع العفو عن المعاصي وصكوك الغفران ، فكان البابوات والقساوسة ، ومن إليهم ، يبيعون مناطق في الجنة بمالٍ حرام ، أو ببنت حرام ، أو بقتل حرام . ولذا كان عقلاؤهم يقولون لهم : اسحقوا الفجور من أجل إزاحة أكبر عقبة في سبيل تقدّم الجنس البشري . وقد كانت الخرافة ، والتناقض ، والشهوة هي المحكّمة في العصر الوسيط ، الذي كان خالياً من أيّة فضيلة أو إنسانية ، ولم يكن للفلسفة عين ولا أثر ، ولا من النبوّة بصيص أو نور ، حتّى قال أحدهم إنّ الفلسفة المدرسية ابنة غير شرعية لفلسفة أرسطو ، بعد أن شابتها ترجمة مشوهة ، وسوء فهم ، ومن ثمّ أساءت إلى العقل أكثر ممّا نفعته .

والعهد القديم والعهد الجديد ، بالإضافة إلى كونهما مليئان بالخرافات وما هو ضدّ العقل ، فإنّهما يتجاهلان ما لشعوب الشرق من الحضارات العريقة ، ويوجّهان عناية مبالغ فيها إلى العبرانيين ، كما لو كانت تلك الحضارات لا قيمة لها إلاّ من حيث علاقتهم باليهود مع أنهم ليس لهم في التاريخ إلاّ وضع وضيع ، وقد ذكر التاريخ أنّ أفضل طائفة من الشعب اليهودي هي طائفة من السّاميين الرُّحّل ، عاشوا في صحراء ممتدّة بين مصر وسوريا ، وذكر بعضهم : إنّ أحد ملوك مصر قد طرد من بلاده قبيلة فيها أشخاص مصابون بالجذام ، فارتدّت نحو الصحراء ، كما أنّ مؤرّخاً يشير : لمّا خاض ملك مصر غمار الحرب في أراضي الحبشة ، هاجمت مصر أثناء غيابه عنها جماعة من قطّاع الطرق ، وأعملت فيها النهب ، فألقى الملك القبض عليهم وقت عودته ، وقطع أنوفهم ، وآذانهم ،

ونفاهم إلى صحراء سيناء ، حيث صنعوا الشّباك بخيط السّمان . وهؤلاء هم أجداد اليهود ؛ كما يصرّح بذلك جملة من المؤرّخين الغربيين .

يقول أحد كتاب فلسفة التاريخ : «من الخطأ الظنّ أنّ اليهود مضطهدون في دولة رومية ، أو غيرها ، لقولهم بإلهٍ واحد في عالم وثني بل لأنّهم يمقتون الأمم الأخرى . إنّهم برابرة يقتلون أعداءهم المغلوبين بلا رحمة . إنّ هذا الشعب الجاهل العاطل عن الإبداع الفكري ، كان يزدهي أكثر الأمم حضارةً ، إنّهم قطاع طرق ، ممقوتون ، منحرفون ، همجيّون ، منحطّون في الفقر ، إذا كُتب لهم الظفر ، فتكوا بالمغلوب ، وبطشوا بالنساء والأطفال في نشوة جنونية ، فإن كتبت عليهم الهزيمة فتجدهم في مذلّة مشينة ، ومهانة مزرية ، فهل شمل الله بعنايته هذا الشعب الوضيع كما تقول التوراة ليكون شعب الله المختار أو ليكون مخلّص الجنس البشري ».

أقول : لكن لا يخفى أنّ اليهود في زمان موسى عليه السلام كانوا مفضّلين على العالمين حسب تعبير القرآن الحكيم ؛ لأنّهم كانوا موحّدين في قبال فرعون الطاغية الذي كان يقول : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [1] ، الذي كان يذبّح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، وارتكب معهم من الفضائع ما لا يعدّ ولا يحصى ، فتسبّب لهم الانطواء ، وبعث فيهم الحقد نحو سائر الأمم ، وإلاّ فهم بشر مثل سائر البشر .

فإنّ طبيعة البشر واحدة وإن كان هناك اختلاف ، فإنّ الاختلاف إنّما يكون بحسب الزمان ، أو المكان ، أو الشرائط ، أو العوارض الخارجة عن ذات الإنسان ، وقد أسلم كثير منهم في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله ممّن ذُكروا في القرآن الحكيم أو في السنّة المطهّرة . كما أنّ الرسول صلى الله عليه وآله عاملهم كأهل كتاب وإن كانوا قد حرّفوا الكتاب : ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا

---

(١) سورة النازعات : الآية ٢٤ .

به﴾[١] .

وعلى كلّ حال ، فمن يريد كتابة فلسفة التاريخ عليه ألاّ يميل حسب الأهواء ذات اليمين أو ذات الشمال ، يمدح قوماً أو ديناً فوق واقعهم ، أو يذمّهم فوق واقعهم . فإنّه على المؤرّخ مطلقاً ، وعلى من يريد كتابة فلسفة التاريخ أن يكون حيادياً بالنسبة إلى التاريخ الذي يريد تدوينه إمّا بمفرداته ، أو بالروح العامة .

وما أجمل التعبير القرآني الذي يقول : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**[٢] . ثم أكّد ذلك بقوله : **﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**[٣] .

وهذا ليس خاصاً بمجلس القضاء ، والنزاع بين الشريكين ، والمالك والمستأجر ، والفلاح والملاك ، والزوجين ، وما أشبه ذلك ، بل إنّها مصاديق خاصّة ، وأولى بتلك المصاديق الحكم على الأمم والجماعات والشعوب والقبائل .

إذاً : ففلسفة التاريخ لا تلاحظ القرون الوسطى المسيحية ، كما لا تلاحظ القرون قبل الإسلام من فرس ، وروم ، وعرب الجزيرة ، وما إلى ذلك إلاّ بلحاظ العوامل التي تبعث نحو هذه الانتكاسة . بل همّها استكشاف الواقع والروح العامة الذي ساد أمّة أو قبيلة أو دولة أو ساد المجموع من حيث المجموع كما أشرنا إليه فيما سبق .

ومن هذا المنطق أيضاً لا يجد الإسلام مبرّراً للرهبنة والعزوف عن الدنيا كما لا يجد مبرّراً للانغماس فيها والغرق في المادّيات الزائفة ، بل يقول : **﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ**

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٣ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٨ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٩ .

يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ◆ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ (١) ، لأنّ غاية الإنسان هي الدنيا والآخرة ، لأنّه جسم وروح ، ولكلّ متطلّباته ، فالإنسان يجب أن يكون عادلاً في إعطاء الكل حسب تقبّله . ولذا ورد في الحديث : **(ليس منّا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه)** (٢) ، وفي القرآن الحكيم : **﴿ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾** (٣) ، وهذا تعبير دقيق جداً ، فاللازم أن يكون الهمّ منصبّاً على الآخرة ، فإنّ الدنيا مزرعة الآخرة (٤) .

---

(١) سورة البقرة : الآيات ٢٠١. ٢٠٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه : ج٣ ص١٥٦ ب٢ ح٣٥٦٨ ، وسائل الشيعة : ج١٧ ص٧٦ ب٢٨ ح٢٢٠٢٥.

(٣) سورة القصص : الآية ٧٧ .

(٤) إشارة إلى الحديث الوارد : «الدنيا مزرعة الآخرة» كشف الخفاء : ج١ ص٤٩٥ ح١٣٢٠، وسائل الشيعة : ج٣٠ ص١٩٦ ، خاتمة الوسائل الفائدة السادسة .

علينا
أن نمنع الغرب من السقوط

مسألة : من الضروري الاهتمام بالمجتمع الإسلامي حتّى ينطلق من جديد وبالمجتمع الغربي حتّى لا يسقط ، وسقوط المجتمع الغربي بسبب بعده عن القيم السماوية وبسبب استعماره للآخرين ، ذلك أن عدم نهوض الأوّل [١] معناه حرمان البشريّة عن الروح ، وسقوط الثاني [٢] معناه سقوط حضارة الآلة والجمال والنظام ـ وكلها نسبية كما لا يخفى ـ إلى أمد غير معلوم .

ويتم ذلك بحقن المجتمع الإسلامي بمحاسن المجتمع الغربي ـ التي أخذها بالأساس من تموجات الحضارة الإسلامية كالشورى والتعددية و . . . ـ حتّى يكمل الجسد إلى جانب كمال الروح ، فيكون إنساناً كاملاً بجسده وروحه ، ويكون إنساناً بدنياه وآخرته ، كما يكون بحقن المجتمع الغربي بمعنويّات الإسلام وقيمه ومثله العليا في الفرد والعائلة والمجتمع ، وفي الدين والأخلاق والدنيا الصحيحة والآخرة السعيدة ، وبذلك يمكن أن نصل إلى روح الحضارة البشريّة وفلسفة الحياة الإنسانية .

إنّ ما نلمسه اليوم من المجتمعات الغربية أنها في طريقها إلى السقوط والاضمحلال بالإضافة إلى ما تعاني من المشاكل والضياع في الحال الحاضر .

لقد كتب بعض علماء الغرب عن الحضارة الغربية قائلاً : « إنّ مصير البشرية

---

(١) أي المجتمع الإسلامي .

(٢) أي المجتمع الغربي .

معلّق على مسلك الحضارة الغربية ، وهذه معلّقة بإصبعي رجلين أحدهما في موسكو والآخر في واشنطن بحيث أن مجرّد ضغط أحدهما على الزر كافٍ لكي تهدّم الحضارة الغربية وربّما البشريّة جميعاً » .

أقول : قرأت في تقرير أنّ الحرب العالمية الثالثة إذا قامت ستكون حرباً نووية ، والحرب النووية تقتل في الساعات الأولى أربعمائة مليون من البشر بالإضافة إلى الدمار والخراب غير المسبوق في العالم .

ثمّ يضيف التقرير : فهل يمكن تجنّب هذا المصير الرهيب ؟ إنّه من الملاحظة أنّ البشريّة تحاول الاهتداء إلى السلام الدائم في طريق يحفّه نقيضان عقيمان ، الصراع الرهيب بين دول إقليمية والسلام القائم على الرعب النووي . إنّ مشكلة الحضارة الغربية كمشكلة الحضارات السابقة في التردي إلى عبادة وثن من صنع المجتمع ، إنّه تاريخ الدولة السائدة الآن بين أربعة أخماس سكّان العالم ، فقد أدّى هذا التأليه إلى تدمير أربع عشرة وربّما ستّ عشرة حضارة سابقة من عشرين حضارة . وتأليه اليوم أشدّ رعباً لأنّه تتزعمه البرجوازية وتدعمه التكنولوجيا الحديثة سواء في مسائل الإعلام أو غيرها .

والقول بأنّ هزيمة النازية وتوأمه الفاشية في الحرب العالمية الثانية قد أدّت إلى القضاء على النزعة الحربية موضع شكّ كبير .

أقول : وذلك لأنّ الإنسان المنحرف عن سبيل الله سبحانه وتعالى الذي لا يخاف الله واليوم الآخر هو السبب في بروز هذه النزعات مثل نزعة هتلر وموسيليني[1] بالإضافة إلى ستالين ، وهذا الانحراف موجود .

---

(١) بنيتو موسيليني ، ولد سنة ١٨٨٣م ، وقتل في ٢٨ نيسان ١٩٤٥م ، مؤسس الحزب الفاشي الإيطالي في ميلانو سنة ١٩١٩م ، زحفت ميليشياته على روما سنة ١٩٢٢م وأسندت إليه الوزارة ، أصبح رئيساً لإيطاليا في نفس السنة ، أنشأ مع هتلر محور روما ـ برلين سنة ١٩٣٦م ، تحالف مع هتلر في الحرب العالمية الثانية ، وأدّت هزيمة قواته إلى سقوطه ، أُقصي من الحكم سنة ١٩٤٣م ثم أعاده الألمان إلى الحكم مرة أخرى سنة ١٩٤٤م .

ومن يقول إنه بعد مدّة ولو خمسين سنة أو ما أشبه ذلك لا تعود النزعة إلى الظهور؟ فاللازم أن ننزع فكرة الانحراف حتّى تأمن البشريّة .

ثمّ يقول هذا العالم في تقريره : « تعدّ هذه الأنظمة تأليهاً للدولة لأنّ النظم الديكتاتورية تعد صورةً مماثلة لعبادة قيصر أو عبادة يهوا فضلاً عن أنّها تُعدُّ غيرها شعوباً بربرية» .

أقول : وذلك أنّ الغربيّين ومن إليهم يعدون غيرهم ـ وهم قلّة وغيرهم كثرة ـ أناساً متوحّشين ، فإنّ ذلك وإن كان غير صحيح في الجملة إلاّ أنه صادق في الجملة أيضاً لما نشاهد من بعض الحروب المدمّرة بين هذه الأقلّيات حروباً إقليميّة وما أشبه ذلك . إلاّ أنّ الأمر ليس بتلك الشدّة التي يرى الغربيّون إيّاها في سائر الشعوب حتّى إنّ بعض الشعوب كبعض البلاد الغربيّة إذا أرادوا إرسال إنسان إلى بلاد غيرهم أعطوه حقّ التوحّش ، لأنّه يعيش مع المتوحّشين .

ثمّ يضيف في تقريره : «ولا زال الفراغ الروحي مستبدّاً بالنفوس في الغرب فنفتح الأبواب لتدخل شياطين التعصّب للدولة وتستبدل لعبادة الله الواحد وثناً واحداً اسمه عبادة الدولة ، كما تستبدل بالأديان الدول من صنع المجتمع ، إنّ افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي فيضطره إلى التماس فتات العزاء الديني على موائد لا تملك منها شيئاً ، ولقد أراد بعض الفلاسفة إحلال أفكار فلسفية كبديل عن الدين كفكرة دين الإنسانية لدى «أوجست كونت» ولكنّها بدت عقيدةً باهتة منسوخة ومن ثمّ لم تلق قبولاً على أن عقول العالم مفتونةً اليوم بأيديولوجية أشدّ خطراً ممثّلة في الماركسية وهذه تُناظر اليهودية إلى حدّ كبير ، ليس لأنّ المبشّر بها يهوديٌّ فحسب بل لأنّها أحلّت عبادة الشيوعية محلّ الإله يهوا كما جعلت البروليتاريا مناظرة بشعب الله المختار ، والخارجون عن البروليتاريا كشعوب الأمميّة لدى اليهود وعدوا الناس بفردوس على الأرض بديلاً عن نعيم الحياة ، لقد تكالبت الجماهير على مثل هذه الإيديولوجيات كبديل عن

الدين ولكن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، فدنس المجتمع الغربي هو في جوهره دنس الروحية وليست مادّيّة» .

أقول : فالروح إنّما تكتمل باتّخاذ الدين الصحيح منهجاً لـه والدين الصحيح هو الإسلام وحده الذي أتى به رسول الله ﷺ بالقرآن الحكيم وبالسيرة العطرة وإلاّ فكيف يمكن للروح أن ترتوي من غير هذا المعين .

وعلى كل حال : إذا أردنا منع الحضارتين الإسلاميّة والغربية ـ الأولى بروحياتها والثانية بمادياّتها ـ من السقوط لم يكن بُدٌّ إلاّ الرجوع إلى الإسلام والأخذ من منبعه حيث قال رسول الله ﷺ : **(إنّي مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي)** (١) ، ولو فرضنا ورود الرواية

---

(١) فقد ورد الحديث بألفاظ مختلفة ، نذكر بعضها :

١- قال رسول الله ﷺ : (إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن تضلوا ما تمسكتم بهما ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا) ، بحار الأنوار : ج٥ ص٦٨ ب ٢ ح١ .

٢- قال رسول الله ﷺ : (إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كهاتين ، وضمّ بين سبابتيه) ، بحار الأنوار : ج٢٣ ص١٤٧ ب٧ ح١١١.

٣- قال رسول الله ﷺ : (إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما) ، بحار الأنوار : ج٢٥ ص٢٢١ ب٧ ح٢٠.

٤- قال رسول الله ﷺ في يوم الغدير : (إني مخلف فيكم الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما . قال الراوي : قلنا يا رسول الله وما الثقلان ؟ قال ﷺ : الثقل الأكبر كتاب الله سبب بيدي الله وسبب بأيديكم فتمسكوا به لن تهلكوا وتضلوا ، والآخر عترتي وإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) ، بحار الأنوار : ج٣٧ ص١٩٠ ب٥٢ ح٧٤ .

٥-قال رسول الله ﷺ : (إني تارك فيكم أمرين أحدهما أطول من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض طرف بيد الله وعترتي ، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) ، كمال الدين : ص٢٣٦.

٦- قال رسول الله ﷺ : (إني قد تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما إن تمسكتم بهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فإن اللطيف الخبير قد عهد إلي أنهما لن يفترقا حتى يردا

الأخرى : **(كتاب الله وسنّتي)** [(١)] ، فإنّ كلا الحديثين يؤدّي معنىً واحداً ، لأنّ من سنّة الرسول العترة ، كما أنّ المراد بالعترة المفسّرة للسنّة أيضاً .

والخلاصة : أنّ روح الحضارة وفلسفة التاريخ إنّما تكون بالواقعيّات لا بالأوهام والتعصّبات والقوميات والجغرافيات أو ما أشبه ذلك ، فإذا اكتشفنا هذه الروح وصلنا إلى هذه الفلسفة ولو عملنا بذلك ونشرناه في طول البلاد وعرضها لأوقفنا السقوطين ، وإلاّ فيمكن أن تصل الإنسانية إلى السقوط الكامل حيث الآن تعيش في الحافّة كما قال القرآن الحكيم : **﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾** [(٢)] ، النار الدنيويّة التي هي عبارة عن الفقر والمرض والجهل والفوضى ، والنار الآخرة الموقدة **﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ◆ إِنَّهَا عَلَيْهِم**

عليّ الحوض كهاتين وجمع بين مسبحتيه) ، الكافي (أصول) : ج٢ ص٤١٥ ح١.

٧- قال رسول الله ﷺ : (إني مخلف فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، هما الخليفتان فيكم ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) ، إرشاد القلوب : ص٣٤٠ .

٨- قال رسول الله ﷺ : (إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا) ، فقه القرآن : ج١ ص٦٣ .

٩- قال رسول الله ﷺ : (إني تارك فيكم الثقلين ، الثقل الأكبر والثقل الأصغر ، فأما الثقل الأكبر فكتاب ربي ، وأما الأصغر فعترتي أهل بيتي ، واحفظوني فيهما فلن تضلوا ما إن تمسكتم بهما) ، بحار الأنوار : ج٨٩ ص٢٧ ب١ ح ٢٩.

١٠- قال رسول الله ﷺ : (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) ، نهج الحق ص٣٩٤ الفصل الثاني .

١١- قال رسول الله ﷺ : (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي) ، رواه مسلم والترمذي والحاكم وأحمد.

(١) فقد ورد في كمال الدين : ص٢٣٥ الحديث التالي : قال رسول الله ﷺ : (إني قد خلفت فيكم شيئين لم تضلوا بعدي أبداً ما أخذتم بهما وعملتم بما فيهما كتاب الله وسنتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) ، وقريب منه في بحار الأنوار : ج٢٣ ص١٣٢ ب٧ ح٦٦.

(٢) سورة التوبة : الآية ١٠٩ .

مؤصدة ﴿ في عمد ممددة ﴾[١] ، لأن نار الدنيا تنتهي إلى نار الآخرة ، كما أن جنة الدنيا تنتهي إلى جنة الآخرة ، فهما من إله حكيم قدير ، أحدهما مقدم على الآخر ، ولذا ورد في الحديث : **(الدنيا مزرعة الآخرة)**[٢] فليس من المعقول أن يزرع الزارع الحنظل ويحصد السكر وكذلك العكس ، وقد قال شاعر :

لا يجتني الجاني من الشوك الرطب ولا من الحنظل يجتني الرطب

(١) سورة الهمزة : الآيات ٧ ـ ٩ .

(٢) كشف الخفاء : ج١ ص ٤٩٥ ح ١٣٢٠ ، وسائل الشيعة : ج ٣٠ ص ١٩٦ خاتمة الوسائل الفائدة السادسة ، وفي مجموعة ورام : ج١ ص٩٢ وإرشاد القلوب : ص٨٩ «بيان» .

الفصل الثالث

الأسباب التاريخية

إمداد الله للإنسان

مسألة : من فلسفة التاريخ أنّ سنّة الله ﷻ بعد إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وهداية الناس هداية عامّة ، هي أنّه يمدّ كلاً من المؤمن وغير المؤمن ، فيزداد المؤمن إيماناً ، والكافر كفراً ، والله ﷻ يعين ويساعد الذين يطلبون الآخرة ، والكمالات المعنوية ، والدنيا الصالحة ، كما أنّه سبحانه وتعالى يعين الذين يطلبون الدنيا ، والكمالات المادية ، والذين يمشون في طريق الضلال ، ومثالهما مثال الحنظل وقصب السكّر ، فكلّ واحد منهما يمتدّ طولاً ، وعرضاً ، وعمقاً ، وهذا المثال المادّي ومثال معنوي الهداية والضلال ، فالّذين آمنوا بالله ﷻ ورسله ، وأخذوا يتقدّمون في طريق الحقّ ، والخير ، والكمال ، يوفّر الله ﷻ لهم وسائل التقدّم ، وكذلك بالنسبة إلى الذين يسيرون في طريق الشرّ ، والضلال ، والانحراف ، كما قال ﷻ : **﴿كُلا نُمدُّ هَؤُلاَء وَهَؤُلاَء منْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾** [١] ، وقال ﷻ بالنسبة إلى المتّقين والمؤمنين الصادقين : **﴿وَمنهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفي الآخرَة حَسَنَةً وَقنَا عَذَابَ النَّار ◆ أُولَئكَ لَهُمْ نَصيبٌ ممَّا كَسَبُوا﴾** [٢] في مقابل الذين لا يريدون إلاّ الدنيا وزينتها فقط . قال ﷻ : **﴿فَمنَ النَّاس مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتنَا في الدُّنْيَا وَمَا لَهُ في الآخرَة منْ خَلاَق﴾** [٣] ، ولفظ **﴿من يقول﴾** أعمّ من العمل والقول ، كما هو واضح في اللغة العربية ؛ إذ يستعمل القول بمعنى الكلام وبمعنى العمل ، فمن

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٠ .

(٢) سورة البقرة : الآيات ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٠ .

قال : بيدي هكذا ـ فيما إذا أشار ـ ، أو قال : بعينه كذا ، إلى غير ذلك .

وهناك آيات كثيرة وروايات متواترة بالإضافة إلى الإجماع ودليل العقل ، تدلّ على وجود هذا الإمداد للطرفين .

العطاء حسب الاقتضاء

ثم إن العطاء الرباني ، يكون حسب الاقتضاء ، يقول ﷻ : **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ◆ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ◆ كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾** [١] ، فالله ﷻ يعطي كُلاً حسب تطلّبه الامكاني ، فيمتدّ امتداداً في حدود ما جعله الله ﷻ له من الامتداد ، حاله حال الحيوانات ، والأشجار ، وما أشبه ذلك ، فمن الحيوانات ما يكون بقدر الفراشة ، ومنها ما يكون بقدر العصفور ، ومنها ما يكون بقدر الحمامة ، وهكذا . كما أنّ من الأشجار هكذا ، فمنها نبتة ، ومنها شجيرة ، ومنها شجرة ، ومنها شجرة كبيرة باسقة ، قال ﷻ أيضاً : **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾** [٢] ، والمراد بالحرث هنا النتيجة التي ينتهي إليها كل عمل ، فالنتائج الدنيوية تكون لمن طلبها ، مؤمناً أو كافراً ، أو صالحاً أو طالحاً ، أما بالنسبة إلى حرث الآخرة ونتائجها ، فإنما يكون بالنسبة إلى المؤمنين الصالحين ، وقال ﷻ : **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ◆ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [٣] ، فإن الإنسان الذي يريد حرث الدنيا

---

(١) سورة الإسراء : الآيات ١٨ ـ ٢٠ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٠ .

(٣) سورة هود : الآيات ١٥ ـ ١٦ .

وزينتها فقط ، يصيبه ما أراد بقدر عمله ولا نصيب له من الآخرة ، فمثله كمثل من يبني داراً في مدينة ما ، فإنه لا دار له في مدينة أخرى .

ومن الواضح أن الأعمال الدنيوية فقط تُحبط ؛ لأنها محدودة خاصة ، وتبطل ؛ لأنها ليست موافقة للحركة الكونية التي جعلها الله ﷻ فيها .

فالإمداد الإلهي لطالبي الدنيا والراغبين فيها والصارفين نظرهم عن الآخرة ، يكون محدوداً محصوراً في عطائه في هذه الدنيا فقط وفي الأبعاد الثلاثة المعروفة ، ولذا قال ﷻ : ﴿ما نشاء﴾ [1] ، وقال ﷻ : ﴿ما نريد﴾ [2] ، وقال ﷻ : ﴿نؤته منها﴾ [3] ، أمّا الإمداد الذي يمدّ به طالب الآخرة ، لا حدّ محدود له في هذه الدنيا ، وإنّما يمتدّ إلى جنّة عرضها السماوات والأرض ، ولذا قال ﷻ : ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ [4] ، وقال ﷻ : ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه﴾ [5] .

لا يقال : إنّ الإمداد الدنيوي أيضاً تكون عاقبته النار في جهنّم ؟ .

لأنّه يقال : هذا وإن كان صحيحاً لكن الكلام في أنّ الفائدة المرجوة منها إنّما تكون في هذه الدنيا . أمّا بعد هذه الدنيا ابتداءً من القبر وانتهاءً بجهنّم فجميعها في ضرر الإنسان وألمه . ثم إنّ ميول ، وأهواء ، ورغبات أهل الدنيا ، متزاحمة ، ومتعارضة ؛ لأنّها محدودة ومحصورة ، وليس من الممكن إشباعها جميعاً ، كما أنّه ليس من المصلحة أن تكون الدنيا غير محدودة بينما طلبات الآخرة لا تزاحم بينهما ولا تعارض ؛ لأنّ الجنّة والأمور المعنوية والروحية لها من السّعة الشيء الذي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر [6] ، ولذا يتمكّن كلّ

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٨ .

(٢) سورة هود : الآية ٧٩ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٤٥ ، سورة الشورى : الآية ٢٠ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ١٩ .

(٥) سورة الشورى : الآية ٢٠ .

(٦) إشارة إلى الحديث الوارد : (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ،

واحد من أهل الآخرة أن يصل إلى فوق ما يريد ، بينما أهل الدنيا لا يتمكّنون من أن يصلوا من الدنيا إلى قدر ما يريدون فكيف فوق ذلك .

الشكر سمة طلاّب الآخرة

ومن الواضح أنّ الذين يعملون للآخرة ، يكونون شاكرين لله على نعمه عليهم ، سواء النعم المادّية أو المعنوية في مواضعها ، والله ﷻ يقول : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [(١)] ، فالشكر له فوائد كثيرة ، ويجني الإنسان منه عدة أمور ، منها أن الشكر يوجب زيادة النعمة عبر زيادة النعم المعنوية والأخروية والمادّية والدنيوية وبتحبيب الإيمان وتزيينه في قلوبهم ، وبالانتصار على الأعداء ، ويولد الراحة للقلب كما أُشير إلى ذلك في القرآن الحكيم ، حيث قال ﷻ بالنسبة للأوّل : ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً﴾ [(٢)] ، وفي آية أخرى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [(٣)] ، وفي آية ثالثة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [(٤)] ، وتكفير السيّئات غير الغفران ، فإنّ تكفير السيّئات عبارة عن إسقاطها ، والغفران عبارة عن الستر ، حيث إن الإنسان إذا عصى معصية يكون له أمران : الفضيحة ، والنتيجة السيّئة ، وبخصوص المؤمنين يفعل الله ﷻ ضدّهما ، فيكفّر عنهما سيّئاتهم ، ويغفر لهم .

وقال الله ﷻ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ

الأمالي للصدوق : ص٤٣٢ وص٥٣٦ ، فضائل الأشهر الثلاثة : ص٢٧ وص٣٧ ، ثواب الأعمال : ص٥٦ ، غوالي اللآلي : ج٤ ص١٠١ ، عدة الداعي : ص١٧٢ .

(١) سورة إبراهيم : الآية ٧.

(٢) سورة مريم : الآية ٧٦ .

(٣) سورة محمد : الآية ١٧ .

(٤) سورة الأنفال : الآية ٢٩ .

بإيمانهم﴾[1] ، يعني بسبب إيمانهم يكونون مهتدين ، والهداية قابلة للزيادة والنقيصة ، وكذا سائر الصفات النفسية ، فإن الشجاع يكون شجاعا بمقدار مواجهة شخص ، أو شخصين ، أو ثلاثة ، أو ألف ، أو عشرة آلاف ، وهكذا بالنسبة إلى الكرم بدينار ، أو بعشرة ، أو بألف ، أو مليون ، وهكذا تكون الهداية .

وفي آية أخرى : **﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بالله يَهْدِ قَلْبَهُ﴾**[2] ، فإنّ القلب هو القائد الذي يقود الأعمال التي تصدر عن الحواس .

وقال ﷻ بالنسبة إلى زيادة النعم المادّية والدنيوية : **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾**[3] ، وقد ذكرنا وجه ذلك في التفسير الموضوعي .

وإنّ النعم تكون بسببين : بسبب معنوي ، وبسبب مادّي من التعاون ، والسعي الدائب ، والعمل المستمر ، كما قال ﷻ بهذا الصدد أيضاً : **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾**[4] ، وبركات السماء : المطر ، والهواء النقي ، والطيور ، وما أشبه ذلك . وفي آية أخرى : **﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ◆ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾**[5]، والفرق بين الاستغفار والتوبة ، أنّ الاستغفار طلب الستر ، والتوبة الرجوع إلى الله ﷻ .

وفي آية أخرى : **﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ◆ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ**

---

(١) سورة يونس : الآية ٩ .

(٢) سورة التغابن : الآية ١١ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦٦ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٩٦ .

(٥) سورة هود : الآيات ٢ ـ ٣ .

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (١) .

أمّا الذين لا يمشون في طريق الله ﷻ فإنهم تبتر أعمارهم فلا يؤخّرون إلى الأجل المسمّى الذي قدّره الله ﷻ للإنسان المستقيم في عقيدته ، وعمله ، وقوله .

وقال ﷻ : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ◆ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ◆ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (٢) ، ومن الواضح أن المراد بالاستغفار ليس لقلقة اللسان ، وإنّما المراد ذوبان الإنسان في الله ﷻ ، نيّةً ، وتفكيراً ، وقولاً ، وجوارحاً ، وسلوكاً . قال ﷻ : ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً ﴾ (٣) .

وبالنسبة إلى الأمر الثاني وهو تحبيب الإيمان ، وتزيينه في القلوب ، قال ﷻ : ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ (٤) ، فالكفر في العقيدة ، والفسوق هو الخروج عن الجادّة ، والعصيان هو المشي في الجادّة لكن لا مشياً مستقيماً ، كما قال ﷻ : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥) .

وبالنسبة إلى الأمر الثالث وهو الانتصار على الأعداء ، قال ﷻ : ﴿ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ◆ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٦) .

وبالنسبة إلى الأمر الرابع : قال ﷻ : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (٧) ،

---

(١) سورة نوح : الآيات ٢ ـ ٤ .

(٢) سورة نوح : الآيات ١٠ ـ ١٢.

(٣) سورة الجن : الآية ١٦ .

(٤) سورة الحجرات : الآية ٧ .

(٥) سورة الملك : الآية ٢٢ .

(٦) سورة الأنفال : الآيات ٧ ـ ٨ .

(٧) سورة التغابن : الآية ١١ .

وقال ﷻ : ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [١]، فالإنسان المستقيم الذي يواكب الحياة حسب ما أمره الله به يكون مرتاح القلب ، ومطمئن النفس ، وهادئ البال ، أمّا الأشخاص الذين يكونون منحرفين لكن ضمن أكثرية مستقيمة ، يصبحون طفيليين على وجود أهل الحقّ ، وتكون لهم النعم والفضل ، بالإضافة إلى أنّ ذلك من باب الإملال والاستدراج ، كما قال ﷻ : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [٢] ، وتكون النعم الدنيوية بالنسبة إلى أهل الله ﷻ نعماً باستحقاقهم ، ويتبع تلك النعم حسن العاقبة وخير الآخرة ، بينما الكافرون المتنعمّون من باب الإملال والاستدراج ، كما قال ﷻ : ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [٣] ، فكما أنهم أهانوا الحقّ وأهل الحق ، سينالون الهوان هناك ، وبالإضافة إلى عذابهم الجسدي ، يكون لهم عذاب روحي أيضاً .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٨٢ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٧٨ .

لئن شكرتم لأزيدنكم

مسألة : زيادة النعمة ؛ نتيجة لشكرها ، إحدى السنن الإلهية ، التي تشكّل الفلسفة الإسلامية حسب المنظور القرآني حيث قال ﷻ : **﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾** [1] ، أمّا التنقيص ؛ بسبب الكفر ، فالظاهر أنّه ليس من السنن الإلهية ، حيث قال ﷻ : **﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾** [2] ، ولم يقل لأنقصنّكم ؛ إذ من الممكن أن يكون كفر النعمة سبباً لنزول العقاب والعذاب ، ويمكن أن يكون بسلب النعمة ، ولا يلزم أن يكون أحد الأمرين فوراً ، لأنّ هناك إملالاً ، واستدراجاً ، وإمهالاً ، وأموراً أخرى ، تتدخّل في الأمر . فالنعمة باقية للكفّار والكافرين ، وربّما تزداد النعمة عند الكفر ، فما يفهم من قوله ﷻ : **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾** [3] ، إنّ ذلك ليس على نحو الإطلاق والكلّية بل على نحو الشرط ، كما يفهم من سائر آيات القرآن التي فيها الإمهال ، أو الاستدراج ، أو الإملال ، أو ما أشبه ذلك . فإنّ البشر إذا انتقلوا من حال الإيمان ، والشكر ، والتقوى ، والإطاعة ، إلى حالات أخرى ، كالعصيان ، والكفر ، والطغيان ، والمعصية ، فإنّ الله ﷻ يغيّر نعمهم بالآخرة وإن لم يكن التغيير في وقت سابق مقارناً لتغييرهم ، قال ﷻ : **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً**

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٥٣ .

﴿فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[1] ، لأنـه ليـس فـوق إرادة الله ﷻ إرادة .

ولا يتوهّم الإنسان أنّه يتمكّن أن يقف أمام القدرة الإلهية والإرادة الربانية ، فالأمر ليس خاصاً بالسوء ، فإنّ الله إذا أراد بقوم خيراً ، فلا مردّ له أيضاً ، وإنّما ذكر السوء فقط ؛ لأنّ الغالب أنّ الناس يغيّرون حالهم من دين إلى لا دين ، ومن طاعة إلى عصيان ، وما أشبه ذلك . فإنّ الله لا يسلب من الناس النعمة التي منّ بها عليهم إلاّ إذا غيّروا أوضاعهم وأحوالهم الباطنية ، والمعنوية ، والمادّية ، والخارجية ، فأخذوا الباطل عوض الحقّ ، وعملوا بالمعصية بدل الطاعة ، وكفروا بعد أن كانوا مؤمنين ، وارتدّوا بعد أن كانوا في طريق الرشاد . فإذا فعلوا ذلك ، أراد الله بهم سوءاً ، وبمجرّد أن يريد الله بأحد سوءاً ، فإنّ أي موجود مادّي ، أو معنوي ، لا يتمكّن أن يحول دون إرادة الله سبحانه وتعالى ، فما دام الإنسان يسلك طريق الإيمان ، والشكر ، والتقوى ، والطاعة ، والاستقامة ، فإنّ النعمة لا تسلب منه ، وإنما تسلب النعم منه ، إذا انحرف عن طريق الله ﷻ . أما نعمة الحياة ؛ بالنسبة إلى الذين هم على الجادة المستقيمة ، فإنه تقدير الله ﷻ ، وتقدير الله لا يُغيَّر ولا يُبدّل ، فلا يقال إنّ الآية ليست عامة ، وإنّما قد تعارض بسنّة أخرى .

والحاصل : أن كلا من الجملتين ، ليست مطلقة غير مشروطة ، ولا عامّة غير مخصّصة ، فمادام الناس شاكرين للنعم الإلهية ، فإنّهم سوف لن يفقدوها إلاّ بتقدير من الله ﷻ ، وهكذا العكس .

والإنسان مهما بلغ من العلم ، فإنّه لا يتمكّن أن يستوعب كلّ الشرائط ، والخصوصيات ، في أيّ سنّة من سنن الله ﷻ ، وفي حديث أنّ الإمام المهدي عليه السلام إذا ظهر ، أظهر للناس سبعةً وعشرين حرفاً بينما أنّ الحرف المتداول بين الناس من

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١ .

أوّل الخليقة إلى اليوم حرفان فقط [١] .

وحتّى إنّ النبي الأعظم ﷺ كان يقول : ﴿**وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾ [٢] ، وفي جملة من الروايات : (**لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما يكون إلى يوم القيامة** . حيث إنّه ﷻ قال : ﴿**يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [٣]) [٤] .

فلا يقال : كيف تكون الملاءمة بين أمثال هذه الآيات والروايات ، وبين قولهم ﷺ : إنّهم يعلمون ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة .

---

(١) ونص الحديث : (العلم سبعة وعشرون جزءاً ، فجميع ما جاءت به الرسل جزءان ، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الجزأين ، فإذا قام القائم أخرج الخمسة والعشرين جزءاً فبثها في الناس وضمّ إليها الجزأين حتى يبثها سبعة وعشرين جزءاً) ، الخرائج والجرائح للراوندي : ج٢ ص٨٤١ ح ٩٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٨٨.

(٣) سورة الرعد : الآية ٣٩ .

(٤) بحار الأنوار : ج٤ ص١١٨ ب٣ ح٥٢ ، تفسير العياشي : ج٢ ص ٢١٥ في تفسير سورة الرعد .

مقومات الحضارات

مسألة : إنّ الحضارات تصنعها القيم السماوية والمبادئ المتينة ، التي تنسجم مع العقل ، والفطرة ، والرجال الصّلحاء ، وليس الاستغلال ، والرجال الطّلحاء .

وفي توضيح ذلك ؛ نقول : تقوم بعض الحضارات الكبرى أو الصغرى في مختلف البلاد على الحقّ ، والعدل ، والشفقة ، والإحسان ، والمساواة ، والحرّية ، والعطف على الضعفاء والمرضى والجائعين ، وما أشبه ذلك ، كما هي سمة الأديان السماوية ، فقد قال رسول الله ﷺ : **(ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائع)** (١) ، وقال ﷺ : **(اتّقوا الله في الضعيفين الأيتام والنساء)** (٢) ، إلى عشرات بل المئات من الروايات ، وقبل ذلك في القرآن الحكيم آيات كثيرة ، منها قوله ﷻ : **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ◆ فَكُّ رَقَبَةٍ ◆ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ◆ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ◆ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ◆ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ◆ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾** (٣) .

وفي مقابل ذلك ، نرى بعض المفكّرين الغربيين يرون غير ذلك ، فقد قال الدكتور عبد الرحمن البدوي في بعض كتبه : «إنّ الحضارات الكبرى قد نشأت في التاريخ بأنْ قامت طائفة من الأرستقراطيين المنتهزين على شكل حيوانات

---

(١) الكافي (أصول) : ج٢ ص٦٦٨ ح١٤ .

(٢) من لا يحضره الفقيه : ج٣ ص٣٩٢ ب٢ ح٤٣٧٩ ، الكافي (فروع) : ج٥ ص٥١١ ح٣، الخصال : ص٣٧ .

(٣) سورة البلد : الآيات ١٢ ـ ١٨ .

مفترسة ، تزرع الأرض في آسيا ، وأوربا ، وجزر المحيط الهادي ، مغيرة على كلّ الأراضي التي تعترض سيرها ، فارضة بذلك على كلّ الشعوب التي تمرّ بها ، وهكذا نشأت الحضارات اليونانية ، والرومانية ، والجرمانية» .

ولا يخفى أن كلام البدوي شبيه لما ذكره هيجل ، ونيتشه [١] ، وميكافيلي [٢] ، ومن أشبه ، فقد فصل هيجل بين أخلاق الدولة وأخلاق الفرد ، فوجد أنّ لأخلاق الدولة مبررّاتها من فلسفة للتاريخ ، والفرد يجب أن يكون في أخلاقه عادلاً ، صابراً ، صادقاً ، خدوماً ، وما أشبه ذلك ، وأمّا أخلاق الدولة ؛ فيجب أن تكون على العكس من ذلك بأن تكون مهمّة الدول الوصول إلى الحكم ثمّ الإبقاء على الحكم كائناً ما كان .

وهكذا فإنّ نيتشه مزّق تلك الغلالة الرقيقة من القيم الأخلاقية التي كان بعض أبطال التاريخ لا يزالون متسترين خلفها . والشجاعة جنون ، والكرم إسراف ، والعطف على الضعيف هو أمرٌ نابع من ضعف . ومع أنّ نيتشه يعني في فلسفته للفرد والدولة بأنّ الإنسان الأعلى كما رسم صورته لابدّ أن يكون مستنداً إلى

---

(١) فردريش نيتشه ، ولد في ألمانيا سنة ١٨٤٤م ، ومات في مشفى للأمراض العقلية بعد إصابته بانهيار عصبي سنة ١٩٠٠م عن عمر يناهز الست والخمسين سنة ، فيلسوف ألماني أخذ بمذهب التطور وقال : «إن الحياة ليست غير تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، وإن «الإنسان الأعلى» هدف يجب الوصول إليه» . دعا إلى إنكار القيامة والبعث والحساب . ويعد من مؤسسي العرقية الجرمانية ، ويتلخص مذهبه بما يدعى «إرادة القوة» . من مؤلفاته : نشأة المأساة وروح الموسيقى ، المسافر وظلّه ، هكذا تكلّم زرادشت ، مدائح ديونيزوس ، إرادة القوة ، فيما وراء الخير والشر . ترجمه المنجد في الأعلام : ص٧٢٠ ، موسوعة المورد : ج٧ ص١٣٠ .

(٢) لنيكولا ميكا فيلّي ، أديب وسياسي وكاتب مسرحي ومؤرخ إيطالي ، ولد سنة ١٤٦٩م ومات سنة ١٥٢٧م ودخل سلك الحكومة الإيطالية بضع سنوات ، فتولى فيها مناصب إدارية ودبلوماسية وعسكرية ويعد من منظري البرجوازية ، ومن مؤلفاته كتاب «فن الحرب» وكتاب «الأمير» .

منطق القوّة ، إذ ليس في الحياة شيء ذو قيمة يؤخذ إلاّ بالقوّة . ولقد أدان ما أسماه أخلاق العبيد بأنّها تهدف إلى سيطرة المنحطّين من البشر وقيمهم ، ولا غرض لهم من ذلك إلاّ إخضاع السادة لهم لما يعلنونه من مبادئ الرحمة ، والشفقة ، والحرّية ، وما أشبه ذلك ؛ وليست هذه إلاّ أكاذيب كبرى في وجه طبيعة الأشياء التي تقضي زيادة القوّة ، فالحقّ عنده مع القوي وكونه قويّاً هو حقّ ولا حقّ سواه .

أمّا ميكافيلي ؛ فقد ذهب إلى أبعد من ذلك فقد قال في جملة كلام له : الحرب والسياسة أمان ، فمن أراد أن ينذر في الحرب فعليه أن ينذر في السياسة ، فعلى الأمير أن يكون له طبع الأسد والثعلب معاً ، فالأسد لا يعرف الشراك التي تنصب له بينما تعرفها الثعالب ، وهذه لا تستطيع مقاومة الذئاب ، فعلى الأمير أن يكون ثعلباً ليعرف الشراك ، وأنّ يكون أسداً ليخيف الذئاب ، ولا يصحّ من الأمير حفظ العهود إذا كانت ضدّ مصلحته أو انقضى عهدها ، ولن يفقد الأمير الحيل المشروعة لنقض العهود وكثير من الأمراء قد نزحوا بذلك ، المهمّ أن يتظاهر الأمير بغير ما يفعل ، وتذاع عنه الفضائل دون أن يتّصف بها ، والناس سذج يخدعهم المظهر ولا يعرفون المخبر ، ويجب على الأمير أن يكون سهل التحوّل حسب مقتضيات الظروف للاحتفاظ بالحكم ومن ثمّ فكلّ الوسائل المؤدّية إلى ذلك مشروعة ومباحة . من هذه الوسائل مثلاً أنّه لا بأس على الأمير أن يتّخذ الرجال أدوات لتحقيق أهدافه ثمّ ينبذهم نبذ الأموات إذا ما اقتضت المصلحة الاستغناء عن خدماتهم بل يتّخذهم كبش الفداء حين يشتدّ سخط الناس ، وذلك ما فعله الأمير سيزاردي الذي استخدم وزيره في إرهاب الناس والقسوة عليهم ثمّ قتله ليزفّ إلى الناس بشرى مصرعه من أجل العدالة » ، إلى غير ذلك من كلماته .

أقول : من الواضح أنّ أمثال هذه الكلمات ليست إلاّ وسيلة وضيعة لرؤية

الأشياء مقلوبة وهي تبرّر الظلم وفضائعه ، وانتهاك العرض ، ومصادرة المال ، والسجن ، والتعذيب ، وما أشبه ذلك ، وكون الحقّ مع القوّة في قبال كون الحقّ حقّاً سواء كان فيه قوّة أو فيه ضعف .

وعلى كلامهم فإنّ كلّ الحقائق التي تقدّمت في الحياة أو التي ينادون فيها اليوم كحقوق الإنسان وحقوق الأجيال القادمة و . . . لم تكن في يوم ما إلاّ ضعفاً وجهلاً بل مثل هذا الكلام يوجب التناقض ؛ حيث إن الضعيف لا حقّ له ، أمّا إذا جعل الضعيف من نفسه قويّاً صار له الحقّ .

وأمثال هذه الكلمات هي التي شجّعت الديكتاتوريين والمستبدّين على أن يفعلوا كلّ شيء . ومن الغريب أنّ مثل هذه الكلمات نجدها عند بعض الشعراء كسعدي الذي يقول في أبياته الفارسية [١] : كل عيب يرضى به السلطان فنٌّ .

ومن الملاحظ أنّ الفنّ فن بشرط ألاّ يكون عيباً ، والعيب عيب سواء كان فنّاً أو غير فنّ ، وقد دلّت الدنيا على ما ذكره القرآن الحكيم بقوله : ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ [٢] ، هذا بالإضافة إلى أنّ المشاهد في الكون قديماً وحديثاً هو المنطق الواقعي ، فإنّ الزبد لا حقيقة له ، وما لا حقيقة له لا يستقرّ ولا يستمرّ ، وأمّا ما ينفع الناس فله حقيقة ، ولذا الناس يلتفّون حوله ، وبهذا المنطق العقلي تقدّم الأنبياء والمصلحون ، ولتشجيع هذه الطريقة ذكر القرآن قصصاً كثيرة من أخبار الأنبياء الماضين من الأمم السالفة ؛ حتّى يرجع الناس إلى فطرتهم ، فيكونوا مع الحقّ والصدق ، كما قال ﷻ : ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ**﴾ [٣] ، وقد نادى الناس الحكماء بما نادى به الأنبياء على طول التاريخ ، والقانون الخلقي هو سرّ سلطة التاريخ وهيبته ، والتاريخ حاكم بين

---

(١) وأصل الشعر بالفارسية : هر عيب كه سلطان ببسندد هنر است .

(٢) سورة الرعد : الآية ١٧ .

(٣) سورة الزمر : الآية ٣٣ .

المتخاصمين ودليل للحائرين .

القيم أولا

وممّا ذكرناه ظهر أنّ جعل بعضهم شخصيّات التاريخ السياسية والعسكرية فوق مستوى القيّم الأخلاقية وفوق المستوى الأخلاقي للعبيد والمتوسّطين كالكسبة ، والزارعين ، وما أشبه ذلك ، كلامٌ لا يمت للحقيقة بصلة بل قام الدليل على خلافه . فإنّ مثل هذا الكلام ردّ فعل على الذين لم يجعلوا للسياسيين والعسكريين أيّة قيمة في التاريخ وفي غير التاريخ .

ومن الواضح أنّ كلّ فعل له ردّ فعل يساويه في المقدار ويعاكسه في الاتجاه ـ إلاّ ما استثنى ـ، ولذا من جعل علياً عليه السلام عديم الأخلاق والفضيلة ، وصوّر لجنوده أنه لا يصلّي ، ولعنه على سبعين ألف منبر ، وصولاً إلى«لامانس» الذي قال : إنّي لا أجد في عليّ وبنيه أيّة فضيلة ولا أجد في معاوية وبنيه أيّة رذيلة ؛ فمن الطبيعي أن يكون ردّ فعل مثل هذا القول أنّ جماعة ألّهوا علياً عليه السلام ، وكلّما كان الفعل أشدّ وأكثر إغراقاً ، يكون ردّ الفعل مثله في الجانب الآخر ، وبينما يقول جماعة إن التاريخ السياسي والعسكري هو التاريخ فقط وهم الذين يستحقون الذكر ، وإنّ التاريخ مقصورٌ على هؤلاء ، يقول آخرون إنّ السياسيين والعسكريين أشخاص لا يستحقّون عناء الدرس ، قال فولتير : «لكني بعد الإطلاع على ثلاثة أو أربعة آلاف معركة وبضع مئات من المعاهدات ، لم أجد نفسي أكثر حكمة من قبلها حيث لم أتعرف إلاّ على مجرد حوادثٍ لا تستحق عناء المعرفة ، وأيّة حكمة تكتسب من العلم بسيادة حاكم طاغية على شعب بريء لا همّ له إلاّ أن يغزو ويدمّر؟» .

ويقول آخرون : «أليست المعارك الحربية وأحداث الحرب والهزيمة هي التاريخ وحدها أو أهم وقائع التاريخ وأكثره فاعلية وتأثيراً ، ولذا كان أجدرها في الدراسة التاريخية» .

وعلى أيّ حال : فيجب أن تقاس شخصيات التاريخ فردية كانت أو جماعية ، سياسية أو عسكرية ، أو اقتصادية أو اجتماعية ، أو عقيدية أو غير ذلك بمقاييس القيم الأخلاقية والموازين الإنسانية .

معايير حركة التاريخ

ومن الخطأ النظر إلى القوّة العسكرية على أنّها المظهر الوحيد للقوّة ، فإنّ هناك قوى أخرى كالقوّة العلمية ، والقوّة الاقتصادية ، والقوّة الدعائية ، والقوّة العقيدية ، والقوّة الاجتماعية ، وغيرها ، فإنّه ليست القوّة العسكرية والسياسية أبرز القوى دائماً ، لأنّ أكثر القوى فاعلية تختلف من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان ، مثلاً القوّة الكهنوتية والقوّة الدينية ـ التي تسمّى بالقوّة الاعتقادية ـ هي القوّة التي كانت أكثر القوى فاعلية في العصور المتقدّمة ، وما انتشار الإسلام بعد قضائه على أكبر إمبراطوريتين في سنوات معدودات إلاّ مظهر لقوّة العقيدة ، وإلى هذا أشار القرآن الحكيم حيث قال : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ (١) ، ومعنى «إذن الله» : الإذن التكويني لا الإذن التشريعي ، وفي آية أخرى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢) ، وذلك لأنّ الإنسان إذا تهيّأت له الأسباب الظاهرة كما قال ﷻ : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (٣) ، وكان مزوّداً بالقوّة المعنوية ، يكون له الغلبة في قبال الأشخاص الذين هم مزوّدون بالقوّة المادّية فقط ، ولذا انتصر المسلمون في بدر مع أنّهم لا يعدّون إلاّ ثلث عدد الكفّار .

نعم ، في عصرنا الحديث صارت القوّة الاقتصادية أيضاً تساوي القوّة العسكرية

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٩ .

(٢) سورة الحج : الآية ٣٩ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

أو تكون مقدّمة عليها في بعض الأحيان .

وعلى أيّ حال : فمن أراد أن يكتب روح التاريخ ، فعليه أن يلاحظ الأمور حتى في الحاكم وفي الشعب في مختلف القوى . ففي عقيدتنا أنّ الدين هو المنتصر أخيراً ؛ لأنّه موافق للعقل والفطرة ، كما قال ﷻ : ﴿**فطْرَتَ الله الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ [(١)] ، وقد أشار القرآن الحكيم إلى ذلك بقوله : ﴿**ليُظْهرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه**﴾ [(٢)] ، ولهذا كان الرسول ﷺ يخبر بغلبته و أنّه سينتصر في حال كونه في غاية الضعف المادّي ، وفي حرب الخندق قال رسول الله ﷺ : **(إنّي أرى قصور كسرى)** [(٣)] ، أيّ إنّهم سيغلبون كسرى ، ومثل ذلك بالإضافة إلى أنّه موافق للفطرة حيث إن الفطرة هي التي ستنتصر موافقة للعقل أيضاً ، ألا يحقّ لمن اخترع الكهرباء أن يقول إنّه سينتصر على النفطيّات ، ومن اخترع السيّارة والطائرة أن يقول إنّهما سيتقدمان على الدوابّ ، فإنّ الإنسان دائماً يسير إلى الفطرة ، والعائق لا يكون إلاّ قسراً ، وقد قال الحكماء : «القسر لا يدوم»، والفطرة بطبيعتها بالإضافة إلى الواقعية تأمر دائماً باليسير كما أشير إلى ذلك في القرآن الحكيم حيث قال ﷻ : ﴿**يُريدُ اللهُ بكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُريدُ بكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [(٤)]، وقال الرسول الأكرم ﷺ فيما روي عنه : **(يسّروا ولا تعسّروا)** [(٥)] ، فإنّ الإنسان لا يتمكّن أن يحمل على كتفه مائة كيلو غرام في غالب الأفراد ، لكنّه يتمكّن أن يحمل خمسة كيلو غرامات .

وهذا هو الموضوع الذي أشار إليه بعض العلماء بقوله : إنّ تقييم الحركات

---

(١) سورة الروم : الآية ٣٠ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٣ ، سورة الفتح : الآية ٢٨ ، سورة الصف : الآية ٩ .

(٣) وفي بحار الأنوار : ج٢٠ ص١٩٠ ح٢ ب١٧ ورد : (أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى) .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم : ص٤٨٣ ، غوالي اللآلي : ج١ ص٣٨١ .

التاريخية يجب أن يكون وفقاً لمعايير حقيقية ، ولا يصح أن يكون من بينها النصر والهزيمة حتّى لا تضطرب المقاييس ولا تلتبس ، وإنّما تقاس حركات التاريخ وأعمال شخصياته بمدى ما حققته من إسهام حضاري ، إذ لا يمكن أن يكون نشر الدمار ، وسفك الدماء ، والفساد في الأرض عملاً يرفع صاحبه باسم النصر ، فالإنجازات الروحية والفطرية والفكرية هي وحدها التي ينبغي أن تكون معياراً لا لتقييم الأفعال فحسب بل إنّما هي وحدها التي تلعب الدور البارز في مسار التاريخ .

ومن الواضح أنّ الإسهام الحضاري لا يكون إلاّ بخلفيّات نفسية متينة ، فإنّ النفس هي التي تتحرّك أوّلاً ثمّ تبني الحياة ، وإذا سار الإنسان في الحياة رأى المفكّرين المضطهدين هم الذين يصبحون أصحاب أعلام رفيعة في كافّة المجتمعات بينما السياسيّون وقادة الحروب لا أثر لهم إطلاقاً ، فلو حاول جماعة إحياءهم لم يكن ذلك إلاّ وقتياً كما حاول عبد الناصر إعادة فرعون من جديد ، وحاول بعض حكّام العراق المنحرفين إعادة نمرود .

إنّ المادّيين لهم المادّة في حياتهم فقط ومستحيل أن تكون المادّة أسوة ، لأنّ المادّة لا تتعدّى إلى الآخرين لا زماناً ولا مكاناً ، بينما المستضعفون الذين عندهم الروح ، والفطرة ، والعقل ، والمنطق ، يتوسعون وجوداً أو عطاءً إلى مختلف الأزمنة ومختلف الأمكنة ، وهكذا كان الرسول الأعظم ﷺ الذي تمكّن من السيطرة على مختلف الشعوب ، وكذلك كان عيسى المسيح عليه السلام والأئمّة عليهم السلام ، فالمعنويات هي التي تتّخذ أسوة .

إنّ الباطل مهما تزيّا بزيّ الحقّ ، لا يتمكّن من الاستقامة والبقاء ، وبعكسه الحقّ ، فكلّما هرّج ضدّه المهرّجون ورموه بمختلف الاتّهامات ، يبقى ويستقيم ويلتفّ الناس حوله ، بل هما متعاكسان بالنسبة إلى الاقتراب والابتعاد أيضاً ، وقد ورد أنّ الباطل كلّما اقترب الإنسان إليه رآه أبشع وأسوأ ممّا كان يتصوّره من

بعيد ، وأنّ الحقّ كلّما اقترب إليه الإنسان ، رآه أحسن وأفضل ممّا كان يتصوّره من بعيد ، وورد في حديث آخر : أنّ الدنيا والآخرة كذلك ، فكلّما اقترب الإنسان إلى ملاذ الدنيا وشهواتها لم يجدها بتلك الصورة المثالية التي كان يتصوّرها ، كما أنّ الآخرة إذا دخلها الإنسان رآها أجمل وأفضل ممّا كان يتصوّرها [(١)] ، وقد ورد في كلمة حكمية بالنسبة إلى الجمال أنّ الإنسان كلّما اقترب إلى الجميل رآه بغير ذلك الجمال الذي كان يتصوّره .

والخلاصة : أن القوّة العسكرية والقوّة السياسية التي يمتلكها العسكريّون والسياسيّون ليست هي الشيء الواقعي إلاّ إذا انضمت إلى الواقع ، فالقوّة العسكرية والقوّة السياسية التي تلبّس بهما رسول الله ﷺ والإمام عليّ عليه السلام أو نحوهما من سائر المصلحين إنّما كانتا واقعيتين ؛ لأنّهما قائمتان على الحقّ ، بينما قوّة هتلر ، أو موسليني ، أو ستالين ، هي على الباطل ، ولهذا نبذهما التاريخ ،

---

(١) فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : (يا هشام ، مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله) بحار الأنوار : ج٧٣ ص٧٩ ب١٢٢ ح٤٠، وقريب منه في ج١ ص١٥٢ ب٤ ح٣٠ .

وورد أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : (يا هشام ، إن مثل الدنيا مثل الحية مسها ليّن وفي جوفها حاء قاتل ، يحذرها الرجال ذوو العقول ويهوى إليها الصبيان بأيديهم) بحار الأنوار : ج٧٨ ص٣١١ ب٢٥ ح١، وورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٣ ص١٢٨ عن علي عليه السلام : (فإنما مثل الدنيا مثل الحية ليّن مسها ، قاتل سمّها فاعرض عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها لما أيقنت به من فراقها وتصرف حالاتها ، وكن آنس ما تكون بها أحذر ما تكون منها ، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخصته إلى محذور أو إلى إيناس أزالته عنه إلى إيحاش) .

وورد أيضاً : (الدنيا والآخرة ضرّتان كلما أرضيت إحداهما أسخطتَ الأخرى) كشف الخفاء : ج١ ص٤٠٨ ، وورد أيضاً : (الدنيا والآخرة ضرّتان بقدر ما تقترب من إحداهما تبعد عن الأخرى) . غوالي اللآلي : ج١ ص٢٢٧ ح١٠٦. وورد عن السيد المسيح عليه السلام أنه قال: (مثل الدنيا والآخرة كمثل الرجل له ضرّتان إن أرضى إحداهما سخطت الأخرى) . روضة الواعظين : ص٤٤٨ .

وكذا بالنسبة إلى السابقين أو المعاصرين من أمثال فرعون ، وهامان ، ونمرود ، أو أمثال بهلويان ، وياسين الهاشمي [١] ، وأمان الله خان [٢] ، ومن إليهم .

وزعم بعض المؤرّخين أنّ الشخصية التاريخية تجسيد لشخصية الأمّة ، فالنيلُ منها نيلٌ من الأمّة ، هو كلامٌ فارغ ؛ فإنّ الأمم لا تسير تحت ركاب القوّة الظالمة إلاّ بالاضطرار ، ويفكّرون في نزعها في أقرب وقت ممكن ، وحتّى إذا لم تتمكّن الأمّة من نزعها وإسقاطها ، يتدخّل الله ﷻ لإسقاطها لأسباب غيبية . وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر الطغاة الذين أكثروا من الفساد ، فتدخّل الله ﷻ لإسقاطهم إمّا غرقاً ، أو عذاباً سماوياً ، أو ما أشبه ذلك .

---

(١) ياسين حلمي سلمان الهاشمي ، ولد في بغداد سنة ١٨٨٤م ومات سنة ١٩٣٧م ، ودفن في سوريا ، عينه الملك فيصل الأول رئيساً للأركان أيام حكومته في سوريا سنة ١٩١٨م ، شغل عدة مناصب وزارية في العراق كالأشغال والمواصلات والأوقاف والمالية ، وشغل منصب رئيس الوزراء سنة ١٩٢٤م وسنة ١٩٣٥م . يعد من أعمدة الاستعمار البريطاني في العراق ، تقول عنه الجاسوسة البريطانية ، مس بيل :«أعتقد أن ياسين رجل القدر». أطلق عليه العراقيون لقب «أتاتورك العراق» ، لقساوته وعنفه وطغيانه ، فقد أخذ على عاتقه تصفية الحوزات العلمية وحل جميع الأحزاب ومنع إجراء مراسم الشعائر الحسينية واستخدم العنف في تطبيق التجنيد .

(٢) أمان الله بن حبيب الله خان ، ولد سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) ، ومات في إيطاليا سنة ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م) ، حكم أفغانستان بعد مقتل أبيه بين سنة ١٣٣٧هـ ـ ١٣٤٧هـ(١٩١٩م ـ ١٩٢٩م) ، يعد من ركائز الإنجليز في الشرق الأوسط ، عقد سنة ١٣٣٩هـ (١٩٢١م) اتفاقية مع أنجلترا ألزم البلاد بموجبها شراء الأسلحة والذخائر من بريطانيا فقط ، وأعقبها اتفاقية ثانية سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) جعلت أفغانستان سوقاً تجارياً للبضائع الإنجليزية ، وفي سنة ١٣٦١هـ (١٩٤٢م) أمر بتطبيق التقاليد والأعراف الغربية المنافية للتقاليد الإسلامية واستخدم العنف في تطبيق ذلك ، كما أصدر مرسوماً أجبر الرجال فيه على ترك زيهم التقليدي وإجبارهم على ارتداء الزي الغربي والقبعة الإنجليزية ، وأجبر النساء على التبرج والخلاعة ، وطارد المفكرين والعلماء وأودعهم في غياهب السجون . نحي عن العرش سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٩م) وعين أخوه مكانه .

ملاك المؤرخ

ثمّ لا يخفى أنّ الوجود الواقعي الخارجي هو لأفراد الإنسان ، وكلّ فرد مسؤول اجتماعياً ، وتاريخياً ، ودينياً ؛ بما فعله ، فإنْ خيراً فخيراً ، وإنْ شراً فشراً ، وهؤلاء يكتسبون وحدة اعتبارية صغيرة وكبيرة مثل وحدة هيئة ، أو جمعية ، أو حزب ، أو حكومة ، أو حكومات ، إذا تحقّقت بينهم علاقات متبادلة خاصّة ، وعلى هذا الأساس يمكن إطلاق عنوان المجتمع على مجموعهم ، فليس المجموع شيئاً خارجاً عن الأفراد .

نعم ، المجموع يملك ما لا يملكه الفرد ، مثلاً صخرة كبيرة لا يتمكّن من حملها إنسان ، أو اثنان ، أو ثلاث ، بل يتمكّن من حملها عشرة ، أو مائة ، أو ألف ، وكذلك الجيش قد ينهزم إلاّ إذا كان عدد أفراده عدداً متكاملاً .

إذاً : فالمجتمع بنفسه لا يتمتّع بالوجود ، والوحدة ، والشخصية الحقيقية الخارجية ـ بالمعنى الفلسفي لا بالمعنى الحقيقي ـ والتاريخ هو من هذا القبيل ، فالمؤرّخ يجب أن يؤرّخ للأفراد ، ويؤرّخ للجماعات ، ويؤرّخ للحكومات ، أو مجموعة الحكومات مثل الوحدة الأوربية ، أو الوحدة الإفريقية ، أو الوحدة العربية ، أو الوحدة الإسلامية ، فلا يصح الحديث عن روح المجتمع إلاّ بهذا المعنى . وكذلك روح التاريخ ، فليس هناك روح حقيقيّة تهيمن على جميع الناس ، وتسخّرهم لمقاصدها ، وتدبّر شؤونهم حسب رغباتها ، فإذا كان التاريخ هكذا يكون روح التاريخ أيضاً كذلك ، فأساس الإسلام ، أو أيّ دين سماوي آخر واقعي ـ لا الدين الذي نُسب إلى السماء وليس بسماوي ـ وكلّ نظام خلقي ، وكلّ نظام حقوقي ، أو عبادي ، أو ما أشبه ذلك هو قائم على كون إرادة الإنسان حرّة وأنّ الإنسان له أن يفعل وأن يترك ، وإذا كان الإنسان غير مختار فكيف يصحّ أمره ، أو نهيه ، أو مدحه ، أو ذمّه ؟ وأغلب الآيات القرآنية مبنيّة على هذا الاختيار ، وهذه الآيات يفهم منها بوضوح أن العلل التي تسيّر الظواهر

الاجتماعية والحوادث التاريخية ليست مستقلّة تماماً وإنما هي متّصلة بإرادات أفراد الإنسان ومشتملة عليها ، وبناءً على هذا يصبح من الميسور الاتعاظ بمصير الماضين ، حتّى يرتّب الآخرون أعمالهم الاختيارية بشكل لا تترتّب عليه العوارض السيّئة غير المطلوبة ، وقد أشرنا سابقاً أن وجود هذه الإرادة بالإضافة إلى العوامل الخارجة عن إرادة الإنسان كالزلازل ، والأمطار ، والفيضانات ، والبراكين ، وما أشبه ذلك ، يجعل التنبؤ الإقليمي بمستقبل المجتمع بل حتّى مستقبل الفرد أمراً متعذّراً ، فكم من إنسان كان في الصباح سليماً ومات في الليل أو بالعكس ، فمستقبل الموجودات المختارة ومن جملتها الإنسان لا يمكن التنبؤ به ؛ بسبب الإرادة الحرّة ، وتلك الحتمية المتوفّرة في العلوم الطبيعية مثل علوم الفيزياء ، والأحياء ، وما أشبه ذلك ، المفقودة في العلوم الإنسانية ، وهذا ناشئ من كون الجمادات فاقدة للاختيار . ولو كانت هذه الظواهر الطبيعية تحت سيادة الإنسان ، وخاضعة لتأثيره وتدبيره ، لأصبحت غارقة في ظلمة من الإبهام . فمثلاً لو كان للإنسان قدرة التصرّف في حركات كواكب المنظومة الشمسية لغدا من المستحيل التنبؤ الإقليمي بالخسوف والكسوف وأوّل الشهر وآخر الشهر . أمّا العوامل الفيزيائية ، والميكانيكية ، وما أشبه ، فهي قابلة للتنبّؤ ؛ لأنّه لا تصرّف لإرادة الإنسان فيها ، وإن لم تكن قابلة من جهة ثانية حيث إرادة الله ﷻ ، وقد قال الشاعر :

ما بين غمضة عين وانتباهتها   يقلّب الله من حالٍ إلى حال

من هنا ظهر أنّ الذين يقنّنون المجتمع تقنيناً دقيقاً ، ويرون المستقبل مستقبلاً قطعياً ـ لأنّهم وصلوا في تصوّرهم للقوانين الاجتماعية ، والفردية الجبرية والضرورية ، وحيث يستحيل التخلّف عنها لأيّ أحد ، ولذا يتمكّنون من التنبّؤ القطعي بالمستقبل ـ ليس كلامهم وفكرهم إلاّ بمنأى عن الواقع .

نعم ، يمكن ذلك عن طريق علم الغيب الذي خصّ الله نفسه به ، وقد أعطى بعضه لبعض رسله وأوليائه ، وذلك أيضاً يدخل في دائرة مسألة البداء التي ذكرناها في كتاب العقائد [(١)] .

وقد قال الإمام عليه السلام : **(لولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة** ثمّ تلا قوله تعالى : **﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾** [(٢)])[(٣)] ، وهناك فرق واضح بين من يعتمد على ما يعلمه الله له فيخبر عن الغيب كالأنبياء مع وجود الاستثناء بقوله تعالى : **﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾** [(٤)] بالنسبة إلى المستقبل والتاريخ كلّياً أو بعض خصوصيّاته الاجتماعية ، أو الاقتصادية ، أو السياسية ، أو ما أشبه ذلك ، وبين من يعتمد على القوانين الاجتماعية والتاريخية فيتنبأ بالمستقبل .

وقد ألمعنا في بعض كتبنا إلى قصّة عيسى عليه السلام وإخباره عن موت العروس [(٥)] كما أنّ هناك قصّة مشابهة بالنسبة إلى نبي الإسلام وقوله بموت هذا الحطّاب [(٦)] .

---

(١) للمزيد راجع موسوعة الفقه كتاب فقه العقائد : ص ٣٠٧ للمؤلف قدس سره .

(٢) سورة الرعد : الآية ٣٩ .

(٣) فقد ورد عن زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام : أنه قال : (كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول : لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما يكون إلى يوم القيامة . فقلت له : أية آية ؟ قال : قول الله تعالى : ﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ بحار الأنوار : ج٤ ص ١١٨ ب٣ ح٥٢ وتفسير العياشي : ج٢ ص ٢١٥ في تفسير سورة الرعد .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١١١ ، سورة الكهف : الآية ٢٤ ، سورة يوسف : الآية ٧٦ .

(٥) راجع وسائل الشيعة : ج٩ ص ٣٨٨ ب٩ ح١٢٣٠٦ ، بحار الأنوار : ج٤ ص ٩٤ ب٣ ح١ .

(٦) راجع مستدرك الوسائل : ج٧ ص ١٧٥ ح٧٩٦٣ .

العلة التاريخية والعلة الفلسفية

مسألة : يختلف التعليل التاريخي عن التعليل في فلسفة التاريخ ، وذلك نتيجة الفرق بين التاريخ وفلسفة التاريخ ، فالتاريخ عبارة عن مفردات من الأحداث مترابطة بزمان خاصّ ، ومكان خاصّ ، وفرد خاصّ . مثل أحوال العلماء ، والخطباء ، والقادة ، والساسة ، والاقتصاديين ، وما أشبه ذلك .

كما نجد ذلك في كتب التاريخ ؛ أمثال : ابن الأثير (١) ،

(١) علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ، الملقب ب(عز الدين) ، والمكنى ب(أبي الحسن) ، عالم ومؤرخ ، ولد في الموصل سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) ، ومات فيها سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م) ، زار بغداد عدة مرات ورافق صلاح الدين الأيوبي في احتلاله لسوريا ثم عاش في حلب ودمشق مدة من الزمن ، من مؤلفاته : الكامل في التاريخ ، أسد الغابة في معرفة الصحابة . ترجمه وفيات الأعيان لابن خلكان ، البداية والنهاية لابن كثير ، العبر للذهبي .

ولابن الأثير أخوانِ أحدهما الأكبر منه واسمه مبارك والملقب ب(مجد الدين) والمكنى ب(ابي السعادات) وهو محدّث ولغوي ، تولّى الخزانة في عهد سيف الدين الزنكي ، ولد سنة ٥٤٤هـ مات سنة ٦٦٠هـ ، من مؤلفاته : جامع الأصول ، النهاية في غريب الحديث . ترجمه الكامل في التاريخ ، معجم الأدباء ، وفيات الأعيان .

والأخ الثاني أصغر منه واسمه نصر الله والملقب ب(ضياء الدين) والمكنى ب(أبي الفتح) وهو أديب ، ولد في الموصل سنة ٥٨٨هـ ومات في بغداد سنة ٦٣٧هـ ، من مؤلفاته : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، الوشي المرقوم في حل المنظوم .

وقد نظم أحد الشعراء ـ كما عن الزبيدي في تاج العروس ـ فيهم :

وبنو الأثير ثلاثة ... قد حاز كلٌّ مفتخر
فمؤرخ جمع العلو ... م وآخر ولي الوَزَر
ومحدث كتب الحديث ... له النهاية في الأثر

واليعقوبي [١]، وتبعاً لهذه المفردات يذكرون العلل ، لماذا انتصر فلان ، أو انهزم فلان ، أو تقدّم فلان ، أو تأخّر فلان ؟ ، وما أشبه ذلك ، وهذا هو التعليل التاريخي ، أمّا التعليل في فلسفة التاريخ فذلك تعليل للروح العامة التي سبّبت تقدّم الأمم ، أو تأخّر الأمم ، أو علم الأمم ، أو جهل الأمم ، كما مثّلنا في الفصل الثاني بأثينا وسبارطة ، أو قيام حكومة بني أميّة أو سقوطها ، أو قيام حكومة بني العبّاس أو سقوطها ، أو قيام حكومة بني عثمان أو سقوطهم .

فالتعليل التاريخي ؛ تجريبي ، أي إنّ المؤرّخ يستخرج الأسباب بعد دراسة منهجيّة تفصيلية للواقعة التاريخية التي هي موضوع دراسته .

وأمّا التعليل في فلسفة التاريخ ؛ فتأمّلي قبلي ، فلذا يقول أحد علماء الغرب المرتبطين بهذه الجهة : «إنّ فلسفة التاريخ تأليفاً وتركيباً أكثر منها تسجيلاً وتقريراً ، وإنّ المؤرخين إذ يضعون تاريخاً لكلّ الأمم والحضارات ، تحدوهم عادة فكرة مسبقة لحلّ مشكلة ثالثة معاصرة لزمن الفيلسوف ومن يسخّر التاريخ كلّه ماضيه وحاضره ، للمستقبل من أجل تأييد فرضه الذي يضعه لحلّ هذه المشكلة ، مثلاً أراد سانهوسطين فرض سيطرة الكنيسة على الدولة ، فكانت فكرته عن مدينة الله ومدينة الأرض ثمّ سخّر الحضارات القديمة كلّها لتلائم هاتين المدينتين ، وسخّر هيجل التاريخ كلّه من أجل فكرة ميتافيزيقية سيطرت عليه هي تعبير الروح عن حرّيتها عن مسار التاريخ ، وتحامل ماركس على الرأسمالية في بعض البلاد الرأسمالية في عصره فسخّر تفسيره الاقتصادي للتاريخ من أجل تأييد

---

(١) أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح ، كاتب ومؤرخ وجغرافي في دولة بني العباس ، قضى بعض حياته في أرمينيا وخراسان ثم هاجر إلى الهند والمغرب ومصر ، توفي في مصر سنة ٢٨٤هـ (٨٩٧م) ، من مؤلفاته : تاريخ اليعقوبي ؛ وفيه تحدث عن تاريخ الشعوب ما قبل الإسلام وتاريخ الإسلام حتى سنة ٢٥٨هـ (٨٧٢م) ، وكتاب البلدان؛ وتحدث فيه عن كبريات المدن في بلاد الإسلام .

فكرته» .

ولذا كان هناك فكرتان : فكرة سيطرة الكنيسة على الأمة ، وفكرة سيطرة الحكومة على الأمّة ، وقد كان بين هاتين الفكرتين في الغرب تنافر وتجاذب وتحارب ، ومن أجل ذلك رأى علماء الغرب أنّه كيف صار حال الإنسان ، فكلّما سيطرت الكنيسة ، قتلت الناس ، وهتكت الأعراض ، وصادرت الأموال باسم الله تعالى ، وإذا كان الدور لسيطرة الدوقات كانوا يعملون الأعمال نفسها باسم الوطن ، فيقتلون الناس ، وينتهكون الأعراض ، ويسلبون الأموال باسم الوطنية ، فرأوا أن المشكلة مشكلة الديكتاتورية فكتبوا كتباً كثيرة متعدّدة ، حتّى إنّ بعضهم أحصاها إلى عشرين ألف كتاب ، فعرف الغرب أين الداء وأين الدواء من غير فرق بين بلادهم المختلفة من ألمانيا ، أوفرنسا ، أو بريطانيا ، أو النمسا ، أو بلجيكا ، أو غيرها ، وبذلك استراحوا من المشكلتين مشكلة هتك الأعراض وسلب الأموال وقتل النفوس ، ومشكلة التخلّص من التخلف ممّا نشاهد مثل ذلك في البلاد الديكتاتورية في العالم الثالث سواء منهم من كان يسمّى دينياً أو دنيوياً .

وهناك اختلافٌ أيضاً بالنسبة إلى تعليل التاريخ ، والتعليل في فلسفة التاريخ ، من جهة وحدانية العلّة ، فالعلل في التاريخ تكثر بكثرة الجهات وتعدّدها ، وإنّه قد يثبت المؤرّخ للحادثة الواحدة مجموعة من الأسباب أو العلل ، أمّا فلاسفة التاريخ فليست مادّتهم وقائع ملموسة ، إنّهم خلّفوا الوقائع وراءهم ظهرياً ، وأقاموا ادّعاءً مسبقاً فاعتبروه علّة ، مختزلين سائر العلل ، ولما كانت علّة واحدة لا تصلح لتفصيل جميع وقائع التاريخ فإنّ هؤلاء الفلاسفة يحاولون سدّ الثغرات ثغرة ثغرة ، ثغرة تتعلّق بعصر ما قبل التاريخ ، وثغرة تتّصل بالمستقبل ، والتاريخ لا يتعلّق بالمستقبل بل عندما يجد الإنسان الروح العامّة للتاريخ الماضي فإنه بمقدوره حينئذ التعميم للمستقبل ، وقد قال الإمام علي عليه السلام لولده : **(انظر ما مضى**

بالدنيا) [١] فإنّ مراده ﷺ الروح العامة بالقياس إلى المفردات وهي غير المفردات قطعاً .

ومن قال : «إنّ التاريخ يعيد نفسه» يريد الروح العامة ، كما أنّ من قال : «إنّ التاريخ القريب غير التاريخ السابق» أراد المفردات .

والدينيّون يرون الدين من بداية الخلق إلى يوم القيامة ، كما أنّ الماركسيين يرون المجتمعات البدائية وإلى يوم القيامة الفردوس الأرضي الذي قالوا عنه بأنّه مجتمع لا طبقي تسوده العدالة والمساواة ، مجتمع يقوم على المشاركة وليس على سلطة الدولة .

ولاشكّ أنّ ما ذهب إليه هيجل وماركس يتناقض مع الفطرة البشرية ؛ فهما يتصوّران تاريخ النوع البشري بعنوان كونه تياراً عريضاً وشاملاً من التقدّم والتكامل على طول الخط . والنكسات التي انهالت على البشرية هي قليلة ، أو موضعية زمانية أومكانية خاصّة . ومثل هذا الفكر وإن كان بطلانه يظهر مما ذكرناه هنا إلاّ أن فريقاً ليس بقليل من علماء الغرب يرون مثل فكرتهم ، لكنّ الحقيقة أنّه لا يعتقد أيّ عاقل بالتقدّم والتكامل في خطّ مستقيم من دون أيّ انحراف أو التواء ، أو انقطاع أو توقّف ، أو عودة إلى الوراء ، فمن البديهي وجود مراحل الركود والسير القهقرائي ، وكلّ ما يزعمه هؤلاء هو أن منحى السير الاجتماعي وحركة التاريخ وإن كان يلاقي كثيراً من حالات الصعود والهبوط لكنّه في النهاية يكون صعودياً ونحو الأعلى ، فمن الواضح أنّ مثل هذه الفكرة غير صحيحة كما يحدّثنا التاريخ البعيد والقريب .

نعم ، نحن المسلمين لا نشكّ في أنّه يأتي اليوم الذي سيفرض الله ﷻ دين الإسلام على كلّ البشريّة وتصبح البشرية في حالة هدوء ورفاه وتقدّم ، ولكنّنا

---

(١) وقد ورد في بحار الأنوار : ج١ ص ١٤٤ : (انظر في تصرف الدهر وأحواله فإن ما هو آت من الدنيا كما ولى منها فاعتبر بها) .

لا نقول بأنّه مستمر ، وإنّما نقول بأنه يأتي بعد ذلك اليوم ما يكون مثل يومنا هذا في التخلّف والتبعثر وعلى أولئك الناس تقوم القيامة .

وفي قبال أمثال أولئك العلماء يوجد قديماً وحديثاً مفكّرون لا يعتقدون بتقدّم المجتمع البشري والتاريخ دائماً بل يقولون إنّ مرحلة العمر المتكوّنة من الولادة ، والطفولة ، والمراهقة ، والشباب ، والنضج ، والكمال ، والكهولة ، والشيخوخة ، ثمّ الموت ، لا تختص بأفراد النباتات ، والحيوانات ، والإنسان ، وإنّما هي تصدق أيضاً في مجال المجتمعات ، والحضارات ، والثقافات ، وتاريخ البشرية ، بل لعلّ هذا التفكير صادقٌ في كلّ العوامل ، وقد ترسّخت هذه الفكرة منذ الأزمان الموغلة في القدم واستخدمها أفلاطون لتفسير انحطاط وسقوط النظام اليوناني ، وكذلك بالنسبة إلى بعض البلاد الأُخرى ، وقد استخدمها بعض علماء الغرب أمثال إنجلز [(١)] ، وتوينبي [(٢)] ، ومن أشبههم . ولذا جزع كلّ من إنجلز وتوينبي على مصير الحضارة الغربية بعد الحرب العالمية الأولى . فكان مذهباهما في فلسفة التاريخ قد جاءا في أصعب الفترات ؛ إذ يطلعنا التاريخ ـ وليس التاريخ العادي هو الذي نعنيه وإنّما فلسفة التاريخ ـ بأنّه لكي يصل التاريخ بالإنسان إلى مرتبة الوعي لابدّ من حالة انحلال أو تدهور حتّى تثير في المفكّر القلق على المصير ، والقلق على المستقبل الذي يدفعه إلى التفكير في الماضي . أمّا التاريخ العادي فإنّه يستبعد المستقبل تماماً ؛ لأنّ الدراسة فيه تتوقف عند الماضي

---

(١) فردريك إنجلز: ولد سنة ١٨٢٠م ، وتوفي سنة ١٨٩٥م ، يعد من الأصدقاء الحميمين لماركس ومساعده ، ولهما معاً: «البيان الشيوعي» ، و «العائلة المقدسة» ، ومن مؤلفات إنجلز الخاصة «الاشتراكية المحال والاشتراكية العلمية».

(٢) أرنولد جوزيف توينبي ، مؤرخ وفيلسوف إيطالي ، ولد سنة ١٨٨٩م ومات سنة ١٩٧٥م ، صاحب نظرية التحدي والاستجابة والتي تطرق إليها في كتابه : «دراسة للتاريخ» ، الذي يقع في اثني عشر مجلداً . وخلاصة النظرية : «أن الحضارة تنشأ في البيئة الصالحة وفي شعب له قابلية واستعداد للاستجابة لذلك التحدي ، وإن انهيار الحضارة يتم عبر انهيار العبقرية» ومن مؤلفاته أيضاً : «تاريخ البشرية». راجع موسوعة المورد : ج١٠ ص ١٥ـ ١٦.

الذي يلاصق اللحظة الحاضرة ، بينما يرتبط المستقبل بالماضي عن طريق الحاضر ارتباطاً عضوياً في فلسفة التاريخ ، لوضوح أنّ الحاضر حصيلة الماضي ، فالتاريخ الماضي هو الذي جعلنا على ما نحن عليه في الحاضر .

والحاصل : أنّ التاريخ سلسلة متكاملة مترابطة الحلقات بعضها مع بعض سواء كان انحطاطاً أو صعوداً ، وإن أسباب الصعود في الماضي تنتهي في الصعود في الحال الحاضر . كما أنّ أسباب الصعود في الحاضر تنتهي إلى الصعود في المستقبل ، وهكذا العكس ، فإنّ أسباب التنزّل والانحطاط في الماضي تنتهي إلى الانحطاط في الحال ، وأسباب الانحطاط في الحال تنتهي إلى أسباب الانحطاط في المستقبل .

وبهذا تبين أنّه يجب ألاّ تكون المادّة التاريخية في فلسفة التاريخ مشتتة مجزّأة كما هو الحال في موضوع علم التاريخ ، وإنّما أن يقدّم تاريخ الإنسانية ككلّ .

وكلّما كان التاريخ العالمي أكثر شمولاً ، كان فهمنا لحالتنا الحاضرة أشدّ عمقاً ، كما أنّه يكون فهمنا للمستقبل أيضاً أحسن وأقرب إلى الظنّ بالواقع ، ولذا قال بعض علماء الغرب : «يحتاج عصرنا إلى تاريخ الإنسانية بأكمله ليزوّدنا بمعايير يمكن أن نفهم بها معنى ما هو هادف في عصرنا »، وكما قال آخرون :« يجب أن نفهم التاريخ المعاصر حتّى نتمكّن أن نتنبّأ بالمستقبل» ، فإنّ فهمنا للحال يحتاج إلى فهمنا للماضي ، كما أنّ فهمنا للمستقبل يحتاج إلى فهمنا للحاضر ، فإنّه من لا يفهم قوّة الجار لا يتمكّن أن يهيئ للمستقبل ما يوجب عدم تمكّنه من السيطرة على بلادنا ، كما أنّا إذا لم نكن نفهم الماضي لا نفهم الحال بأنّه كيف نكون الآن . فهناك قاعدتان فلسفيتان صادقتان حتّى في هذا المورد قاعدة تقول«يعرف المثل بالمثل» ، وقاعدة تقول«يعرف الشيء بالضدّ» ، وهاتان القاعدتان لهما مصاديق كثيرة في التاريخ ، يمكننا من خلالهما استخلاص العديد من القواعد والسنن .

السيطرة على التاريخ

مسألة : روح التاريخ وفلسفته هي الحاكمة دائماً على الشعوب ، كما وأنّ الفلسفة والروح هي الموافقة للفطرة ، والعقل ، والمنطق ، والدليل ، ومن الواضح أنّ قوّة المعارضة لهذه الأمور إنّما تكون وقتية لا قوّة دائمة ، والرسول الأكرم ﷺ بنفس هذا المنطق قد تقدّم في الحياة ، فإنّه تقدّم في الحياة بسبب العدل والإحسان ـ كما قال ﷻ : **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾** [١] ـ والصدق والأمانة وما إلى ذلك من الأنظمة والنفسيّات الرفيعة .

والرسول الأعظم ﷺ وإن كان ينشر المعاجز ذات اليمين وذات اليسار حتّى إنّ بعضهم ذكر أنّ المعاجز التي كانت في زمن الرسول ﷺ هي أربعة آلاف معجزة [٢] ، لكنّ الرسول بالمعجزة لم يتقدّم ـ بنحو الأصل الأولي ـ وإلاّ لو أراد أن يتقدّم بالمعجزة فما باله في ثلاث عشرة سنة في مكّة لم يؤمن به إلاّ أقلّ من القليل حتّى إنّ بعضهم عدّوهم «١٥٠» شخصاً ، وقد قُتل بعضهم ، وهاجر أكثرهم إلى الحبشة ، ولو كان الرسول ﷺ قد تقدّم بالخوارق فماذا يقال في شأن الإمام علي عليه السلام فهل تقدّم في الحياة وأسّس الحكومات على طول التاريخ للخوارق والمعجزات ؟ وماذا يقال عن الإمام الحسين عليه السلام حيث دكّ عروشاً وأقام صرح

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٢) كما ذكر ذلك العلامة المجلسي قدس سره في كتابه بحار الأنوار ، وللتفصيل عن معاجز الرسول ﷺ راجع «إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات» ؛ للحر العاملي ، و«مدائن المعاجز» ؛ لشمس المحدثين .

الإسلام ، ولو حارب المعسكر المعادي بالمعجزة لقتلهم وقضى عليهم بإشارة واحدة.

والمسلمون إنّما تأخّروا ؛ لتأخّرهم في الأخذ بأسباب التقدّم ، وقد ظلّ المسلمون يحرصون على الصلاة ، والزكاة ، والحج ، لكنّهم فقدوا سنّة التقدّم في الحياة من العدل في موضعه والمساواة في موضعها [١] . وقد رُوي أنّ هارون العبّاسي سأل أحد فقهاء زمانه ، قال له : قصّ عليَّ كيف كان رسول الله ؟.

فقال : كان يحكم بالعدل بين الناس .

وهكذا أجاب حتّى وصل إلى عليّ عليه السلام وأجاب بنفس الإجابة ، فسأله عن معاوية فقال : كان يأخذ المال من حقّه ويضعه حيث شاء.

فقال هارون : سنّة معاوية هي التي أعجبتني.

أقول : لكن الواضح من كلام هذا الفقيه أنّه نصف الحقّ لا كلّ الحقّ ، فإنّ معاوية كان يأخذ المال من غير حقّه ويضعه في غير حقّه .

وعلى كل حال : لو كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يريد أن يتقدّم بالخوارق لدعا الله تعالى أن يقتل المشركين في مكّة ، أو يجبرهم على الهداية ، أو يحفظ المسلمين الذين

---

(١) مثلاً : إن سياسة معاوية في فصل الدين عن السياسة أوجدت انفصال التشريع الإسلامي عن الحكم ، يقول حسن الأمين في الموسوعة الإسلامية : ج٦ ص ١٩٨- ١٩٩ ، نقلاً عن مالك بن نبي في هذا الصدد : «منذ خرج علي بن أبي طالب دفاعاً عن القرآن ، وخرج معاوية بن أبي سفيان طمعاً في السلطان ، ثم كان انتصار معاوية انتصاراً للسلطان ، منذ ذلك الحين حدث الانقلاب الأول في التاريخ الإسلامي. وقد كان هذا الانقلاب أعمق وأخطر ممّا نتصور ، لأن حدود التغيير الذي أحدثه امتدت إلى رقعة أوسع بكثير ممّا رصده المؤرخون ، ذلك أن الانقلاب السياسي ، أفرز انقلاباً فكرياً على نفس المستوى ، فانفصال القرآن عن السلطان أقام بمضي الوقت حاجزاً ما بين العقيدة والشريعة ، وانتصار السلطان على القرآن ، أدى تلقائياً إلى تزايد الاهتمام بفقه العبادات وتعطيل نمو فقه المعاملات . وتلك نتيجة منطقية ؛ إذ إن غيبة التطبيق الأمين للشريعة ، لابد أن ترتب إحدى نتيجتين : إمّا أن يتأخر نمو رصيدها الفكري ، أو أن ينمو هذا الرصيد نمواً غير طبيعي ، في غير الاتجاه الصحيح».

آمنوا بـه مـن أعدائـهم حتّـى لا يعذّبوهـم ، ولا يقتلوهـم ، ولا يطـاردوهم ، ولا ينفوهـم من بلادهـم ، فالرسـول ﷺ لـم يفعـل ذلـك ، وإنّمـا كـانت المعجـزة لأجل إقامة الدليل على نبوّته .

وهكذا كـان موسـى عليه السلام ، ولـو كـان موسـى يريـد إثبـات الحـقّ تطبيقـاً للحكـم بسبب الخوارق لأمر عصاه بأن تأكل فرعون وهامان وجنودهما في لحظة واحـدة ، فقد رأيت في التاريخ أن عصا موسى أكلت في وجبـة واحـدة في يـوم الزينـة سبعين ألفاً من الحبال والعصي التي كانت تخيّل إليهم من سحرهم أنّها تسعى ، ومع ذلك كانوا مضطهدين أشدّ الاضطهاد ، حتّى نجّاهم الله تعالى بغرق فرعـون وجماعته في القصّة المشهورة .

وهكذا كان نوح عليه السلام من قبل ، فلم يكن يأتي بالمعجزة إلاّ لإثبات نبوّته ، وهذا يختلف عن استخدام المعجزة كطريق للتقدّم .

وكذلك كان عيسى عليه السلام ، وقد ورد أنّ عيسى عليه السلام ذات مرّة شفى «٥٠ ألفـاً» مـن المرضـى مــن العمــى ، والصـمّ ، والبُكــم ، وذوي العاهــات ، والمجــانين ، والمبروصين ، ومن أشبه ذلك (١) ، ومع ذلك لم يستخدم المعجزة في الحفـاظ على نفسـه ، وإنّمـا رفعـه الله إليـه تخلّصـاً مـن اليـهود ، ومكـائدهم ، وهـيردوس (٢) ، وبيلاطس (٣) ، ومن أشبههم ، من الكفّار المحاربين له .

---

(١) راجع الكشكول للشيخ البهائي .

(٢) هيردوس انتيباس ، ولد سنة ٢٠ ق. م ومات سنة ٣٩ م ، وحكم من ٤ ق. م وإلى ٣٩م ، بعث إليه بيلاطس النبطي بالسيد المسيح عليه السلام ليحاكمه ، ولكنه استنكف عـن تحمـل مسؤولية إدانته وأعاده إلى بيلاطس الذي أصدر الحكم بقتله وهو ابن هيردوس الكبير ملك اليهود في ظل الرومان والمولود سنة ٧٢ ق. م والمتوفى سنة ٤ ق. م والذي أمر قبل موته بذبح جميع أطفال بيت لحم في محاولة لقتل الطفل المسيح عليه السلام، راجع المنجد في الأعلام : ص٧٣٦.

(٣) الحاكم اليهودي الروماني ، حكم من سنة ٢٦م إلى سنة ٣٦م في أيام السيد المسيح عليه السلام وقد حكم على السيد المسيح عليه السلام بالقتل ، وانتحر بروما .

والغربيون إنما تقدّموا ؛ بسبب أخذهم للديمقراطية وليس بسبب المعجزة. وقد قال رسول الله ﷺ في حديث مروي عنه باختلاف الألفاظ في كتب العامة والشيعة **(واتّبعوا سنن من كان قبلكم حتّى لو دخلوا جحر ضبّ ودخلتموه . فقلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال : فمن)**(١) .

والمسلمون إنّما تأخّروا ؛ بتركهم الإسلام ، وقد قال جمال الدين الأفغاني قولته المشهورة : «ذهبت إلى الغرب فرأيت فيه الإسلام ولم أرَ فيه المسلمين ، وجئت إلى الشرق فرأيت فيه المسلمين ولم أجد الإسلام» ، كناية عن أنّهم إنّما أخذوا بقسط وافر من الإسلام في نظام الحكم ، والشورى ، والعدل الاجتماعي ، والاستقلال القضائي ، وتحكيم المنطق والعقل ، لا أنّهم يؤدّون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويحجّون البيت ، ويصومون شهر رمضان ، بينما المسلمون في الشرق الإسلامي يفعلون كلّ ذلك ، لكن عندما يصلون إلى الحكم لا يعملون بالعدل والشورى ، وما أشبه ذلك .

وعلى أيّ حال : فاللازم على المسلمين الذين أرادوا الرجوع إلى عزّتهم ، وسيرتهم ، وسيادتهم ، أن يرجعوا إلى سنن رسول الله ﷺ التي قالها ، وعمل بها ، وأنزل الله القرآن وفقها ، حتّى يرجعوا إلى ما كانوا عليه من العزّة ، والسيادة ، والتقدّم ، والاستقلال .

والمسلمون إنّما تأخّروا ؛ لتركهم سنّة رسول الله ﷺ الموجودة في الكتاب جلياً ، فقالت بعض زوجاته : «كان خُلُقه القرآن » ، وما ذكره للمسلمين قولاً ، وعملاً ، وتقريراً ، فهل المسلمون اليوم يعملون بقوله ﷻ : ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى**

---

(١) وقد ورد في الإفصاح في الأعلام : ص٥٠ وكمال الدين : ج٢ ص ٤٨٠ وكنز الفوائد : ج١ ص١٤٤ الحديث التالي : (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لتبعتموهم ، فقالوا : يا رسول الله، اليهود والنصارى ؟ . قال : فمن إذن !) ، وقريب منه في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٩ ص٢٨٦ .

بينهم﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ (٤) ؟ ، وقد ذكرنا في بعض كتبنا (٥) أنّ هذه الكلمة هي دليل الحرّية في القرآن الحكيم التي تشمل كافّة أنواع الحرّيات والتي لم يصل إليها الغرب بعد ، أو بقوله تعالى : ﴿إنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة﴾ (٦) ، فهل الحدود الجغرافية بين البلاد الإسلامية من الأمّة الواحدة ؟ وقوله تعالى : ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾ (٧) ، فالعربي في بلاد الفرس ، والفارسي في بلاد العرب ، وكلاهما في بلاد الترك ، وكلّهم في بلاد الهند ؛ تعدّ أمّة واحدة ، فالجميع سواسية ، وشركاء في الأخذ ، والعطاء ، والشركة ، والزراعة ، والتجارة ، والملكية ، والتزويج ، والتزوّج ، وألف شيء وشيء ، أو هل عمل المسلمون بقوله تعالى : ﴿ادخلوا في السلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ (٨) ، فغير السلم استثناء ، أو هل عمل المسلمون بقوله تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (٩) ، أو بقوله تعالى : ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (١٠) ، وكان ممّا أتى به ﷺ أنْ زوّج

---

(١) سورة الشورى : الآية ٣٨.

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٢.

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٥) راجع موسوعة الفقه كتاب الفقه الحريات وكتاب الحرية الإسلامية للمؤلف ﷺ .

(٦) سورة المؤمنون : الآية ٥٢ .

(٧) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

(٨) سورة البقرة : الآية ٢٠٨ .

(٩) سورة المائدة : الآية ٢ .

(١٠) سورة الحشر : الآية ٧ .

الصديقة فاطمة عليها السلام وهي بنت تسع سنوات ، كما تزوّج عائشة وعمرها تسع سنين ، وكان ممّا أتى به أنّه قال : **(من سبق إلى من لم يسبق إليه مسلم فهو أحق به)** (١) ، وقال أيضاً : **(الأرض لله ولمن عمّرها)** (٢) ، وقال صلى الله عليه وآله : **(من ترك مالاً فللوارث ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ)** (٣) ، إلى ألف حكم وحكم حيث لو أردنا إحصاءه لاحتاج ذلك إلى مجلّد ضخم .

والذي يشاهد حال المسلمين في بلادهم ، يشاهد عكس كلّ ذلك ، ولهذا انحسر الإسلام ، بينما نشاهد أنّ جماعة من الغربيين أخذوا ببعض هذه الأحكام ؛ فتقدّموا وقدّموا .

وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى ذلك حيث قال : **(الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم)** (٤) ، فلم يرد سبق الغير للصلاة والصيام والحج ، وما أشبه ذلك ، وإنّما أراد بذلك ما أشار إليه القرآن الحكيم في قوله : ﴿ **هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ (٥) .

---

(١) غوالي اللآلي : ج٣ ص٤٨٠ .

(٢) الكافي (فروع) : ج٥ ص٢٧٩ ح٢ ، الاستبصار : ج٣ ص١٠٨ ب٧٢ ح٣ ، تهذيب الأحكام : ج٧ ص ١٥٢ ب ٢٢ ح٢١.

(٣) من لا يحضره الفقيه : ج٤ ص٣٥١ ب٢ ح ٥٧٥٩ ، وسائل الشيعة : ج٢٦ ص٢٥١ ب٣ ح٣٢٩٤٣ ، وقريب منه في كشف الغمة : ج٢ ص١٣٤ وتفسير القمي : ج١ ص٢٧٨ و ج٢ ص١٧٦ ودعائم الإسلام : ج٢ ص٣٩١ ووسائل الشيعة : ج١٨ ص٣٣٧ ب٩ ح٢٣٧٩٧.

(٤) نهج البلاغة: الكتاب ٤٧ من وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولديه الحسن والحسين عليهما السلام، تحف العقول : ص١٩٧ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٧ ص٥ ب ٤٧ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٣٨ .

معرفة الأسباب

مسألة : اللازم على من يريد ذكر فلسفة التاريخ وروحه العامّة أن يكون عارفاً بأسباب التقدّم وأسباب التأخّر ، وأسباب النهوض وأسباب السقوط ، وأن يكون عارفاً بكل شيء من الاجتماع ، والاقتصاد ، والسياسة ، والتربية ، والفكر ، وما أشبه ذلك ، فإنّ الدنيا كلّها تقوم على عللٍ ومعاليل ، فالمريض يمرض لوجود علّة المرض فيه ، والصحيح يصحّ بعد المرض لوجود سبب الصحّة فيه ، وهكذا بالنسبة إلى الغني والفقير ، والعالم والجاهل ، والقوي والضعيف ، والتقدّم والتأخّر ، إلى غير ذلك .

ومن الواضح : أنّ العلّة إذا اكتملت شرائطها وفقدت موانعها ، يكون المعلول ضرورياً ، ولذا قال الفلاسفة«الشيء ما لم يجب لم يوجد» ، فهل يعقل أن تكون نارٌ بلا احتراق ، أو احتراق بلا نار ؟ أو هل يعقل أن يكون تبريد بلا ثلج ، أو ثلج بلا تبريد ، مع وجود سائر الشرائط وفقد سائر الموانع ؟ .

أمّا ما يعترض عليه بعض المؤرّخين من استخدام مقولة«العلّية» في التاريخ بأنها تفيد الضرورة من جهة ، ولأنّها تلحق التاريخ بالعلوم الطبيعية من جهة أخرى . وقد اتّخذ بعض علماء الغرب تجارب المؤرّخين الذين يحاولون توكيد كيان التاريخ إزاء طغيان العلوم الطبيعية ومنهجها في القرن التاسع عشر المسيحي وتمهما بأنه يستبدل مقولة العليّة بمقولة أخرى يراها أكثر ملاءمة لفهم صياغة التاريخ أنّها مقولة«المصير» .

أقول : لم يعرف ماذا قصد أولئك الذين أشكلوا على العليّة في التاريخ ، فإنّ

هذا من الضرورة بمكان ، والمحذوران المذكوران بقولهم «إنها تفيد الضرورة من جهة ولأنّها تلحق التاريخ بالعلوم الطبيعيّة من جهة أخرى» ، لم يعرف المراد منها .

وقد فسّر بعضهم «المصير» الذي ذكره ذلك البعض من المؤرخين بـ« شعور الإنسان بذاته إزاء قوّة إنسانية أخرى تتحداه وتجعل وجوده في خطر حينئذ تتدفّق الطاقات الكافية فيه ، فمن أجل تأكيد الوجود تقتضي فطرة المصير أيضاً عاملين : وجود ذات مستقلة لها كيانها وتابعها المستقل ، ثمّ وجود أحداث خارجية بينها وبين الذات علاقة تحدٍّ في أغلب الأحيان ، فإنّ التحام نوع من التفاعل يتحدّى سلوك الذات لسنوات وليس كلّ حدث يمسّ المصير ، وهناك أحداث كثيرة في حياة الفرد لا تمس إلاّ القشرة الخارجية لحياته ، وإنّما لابدّ أن ينفذ الحدث إلى المركز الباطني الذي يشكّل جوهر الذات ، حينئذ تكشف الروح عن جزعها إذا ما يهدّد شخصيتها جزعٌ مصدره الجهل بالمصير ، لأنّ أخصّ خصائص الزمان استحالة الإعادة وما يستحيل عوده يولّد في النفس الجزع ، ويختلف«المصير» بهذا المعنى عن«العليّة» بما في ذلك العلّة الغائية ، لأنّ العلّية أشبه بقانون مجرّد يمكن تفسيره بالعقل ويعبّر عن التجربة العلميّة الآتية ، أمّا المصير فيعبّر عن جزع الروح لما يهدّد وجودها ، أو كيانها ، وتفاعلها من أجل إثبات الذات ، وفي ذلك تعبير عن الحياة ، ولا يمكن إدراك فكرة المصير إلاّ بالتجربة الحيّة ، فلا يمكن تعريفها بمنطق العلم » ، انتهى .

أقول : ولا يخفى أنّ هذا التفسير أبعد من المفسَّر «بالفتح »؛ إذ لم يعرف الربط بين جملها ولا اتساقها ، ولا ربطها بالمفسَّر (بالفتح) وهو إدخال ما ليس مرتبط بالمقام في البحث . وبالجملة : فكلام المرسل أكثر ارتجالاً ، وإن تمّ كلام القائل .

ثم إن قول بعضهم : إنّ التاريخ العالمي يمثل ثماني حضارات رئيسيّة على الأقلّ هي : الحضارة المصرية ، والهنديّة ، والصينيّة ، والكلاسيكيّة ،

واليونانيّة ، والرومانيّة ، والإسلاميّة ، والغربية ، وإن كلّ حضارة منها قد اتّخذت دورة نمو ، ثمّ شباب ، وكهولة ، ثمّ شيخوخة ، أعقبها فناء ، وعدّ الحضارة الإسلامية من ذلك القبيل ، قول أيضاً بغير تحقيق . فمن أين جاؤوا بالقول إنّ العالم من ابتدائه إلى اليوم اشتمل على ثماني حضارات ؛ إذ ليس عندنا من التاريخ إلاّ الشيء القليل بالنسبة إلى ما قبل التاريخ المدوّن ، فلعلّ هناك كانت ألوف الحضارات ، أو ما أشبه ذلك ، ثم إن جعل الحضارة الإسلامية كذلك ، قولٌ بغير دليل ، فإنّ الحضارة الإسلامية قائمة إلى اليوم ، والمسلمون يعتقدون أنّها في حالة ضعف ، ثمّ تتقوى بظهور الإمام المهدي ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [1] ، كما أنّ الحضارة الإسلامية قبل مجيء المغول [2] من الشرق ، ومجيء الصليبيين [3] من الغرب ، قد ضعفت ضعفاً بالغاً ممّا جعلت البلاد الإسلامية فريسةً سائغةً للغزاة ، ثمّ تقوّت قوّةً كبيرة بل نحن نعتقد أنّ الأمر هكذا ولو لم نجد قوّة الإسلام بعد ضعفه ؛ لأنّ طبيعة الإسلام موافقته للفطرة ، والعقل ، والبرهان ؛ ولأنها كانت هكذا ، لا يمكن فناؤها بل الممكن فقط ضعفها

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٣ ، سورة الفتح : الآية ٢٨ ، سورة الصف : الآية ٩ .

(٢) غزا المغول البلاد الإسلامية وحكموا أجزاءً واسعة منها وهي على قسمين :

١. قسم أسسه جنكيز خان ووزعه بين أبنائه ومنهم : جغتاي .

٢. قسم أسسه بابر وهو من أحفاد تيمورلنك وعرف بـ«مغول الهند» ؛ لارتباط تيمورلنك من جهة أمه بجنكيزخان ، وحكمها تسعة عشر ملكاً من سنة ١٥٢٦م وإلى سنة ١٨٥٨م أشهرهم : بابر ، همايون ، أكبر ، جهانكير ، شاه جهان ، أورنك زيب . وآخر ملوكهم : بهادر شاه الثاني ، الذي عزله الإنجليز . راجع موسوعة المورد : ج٧ ص ٤٥.

(٣) جاؤوا عبر الحروب التي شنوها على بلاد الإسلام وعرفت بالحروب الصليبية واستمرت قرنين من الزمن منذ سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) وإلى سنة ٦٩١هـ (١٢٩١م) وعددها ثمانية ، وخلال هذه الحروب ذهب الكثير من المسلمين بين مقتول وبين أسير ومعاق ، وانتهكت الأعراض وأحرقت المكتبات وهدمت البلاد ، وبواسطة هذه الحروب نقل الغربيون الهندسة الحربية والنمط الهندسي المعماري الإسلامي والحرير والأنسجة الدمشقية والأرجوان والمرايا والكثير من الكتب الإسلامية إلى بلادهم .

ثم قوّتها ، ولذا وردت كلمة عن الإمام علي عليه السلام مضمونها : أنّ المسلمين يتركون العمل بالقرآن ، فيضعفون ، ثمّ يرجعون إلى القرآن ، ويأخذون بالعمل به ، فيقوون .

وعلى أيّ حال : فالقول بعدم التأثير والتأثّر ، والعلّيّة والمعلوليّة ، والسببيّة والمسببيّة ، شيء يخالفه الوجدان والبرهان ، ولا نحتاج في ذلك كما ذكر ذلك بعض المعاصرين من أنّ القول بالتأثّر والتأثير كان يعوزه الأسس الميتافيزيقيّة حتّى جاءت نظريّة هيجل ليمدّه بسند فلسفي ، ذلك : أن فكرة الروح المطلقة التي تتغلغل في مسار التاريخ ، وتظلّ على مدد الزمان ، ثمّ يندفق عنها وفق قانونها دولة في كلّ عصر ، قد جعلت الإنسانية بذلك وحدةً مطلقة ؛ إذ تتحكّم في كلّ أحداث التاريخ روح واحدة . كذلك نظريّة العناية الإلهية التي جعلت المؤرّخين ينسّقون وقائع التاريخ ليبدؤوا فيه النظام المعبّر عن مقاصد الله ، ولكن في ذلك تجاهلاً للصيرورة والتغيير الدائم في حركة التاريخ ، انتهى .

أقول : وهذا الكلام غير تام بل قد ذكرنا في بعض المسائل السابقة أنّ هناك من يقول بالمادّة فقط ، ومن يقول بالروح فقط ، ومن يقول بهما وهو الصحيح . ولا شكّ بوجود العناية الإلهيّة من النسبة إلى الخلق والحكم كما قال تعالى : ﴿**لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ (١) ، فإنّه يخلق ما يشاء ويختار ، كما أنّه يأمر بما هو مصلحة الإنسان وينهى عمّا هو مفسدة له ؛ والوحدة في كلّ الحضارات أيضاً موجودة ، لكن لا وحدة بالدقّة الهندسية ، أو الحسابية ، أو ما أشبه ذلك .

وعلى أيّ حال : فإنّ الحضارات ؛ وإن اختلفت في خصوصيّاتها ومزاياها ، حالها حال أفراد الإنسان ، فإنّ أفراد الإنسان ؛ وإن اختلفوا في بعض المزايا ، والخصوصيات ، والشخصيّات ، لكن جميعهم مشتركون في أمر واحد يسمّيه المنطقيون بالحيوان الناطق وما أشبه ذلك . وهكذا الحضارات ؛ فإنّها وإن اختلفت

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

في الخصوصيّات ، والمزايا ، والشخصيّة ، فلكلّ حضارة خصوصيّات ومزايا وشخصيّة ، لكن الروح العامة فيها شيء واحد ، كما أنّ الأنبياء هم كذلك ؛ ولذا قال رسول الله ﷺ **(الأنبياء أخوة من أمّهات شتى)**[1] ، وإنّما لم يذكر الآباء ؛ لأنّ المسيح ولد من غير أب . فالحضارات كأفراد الإنسان لها مشابهات ، ولها مفارقات ، وغالب المؤرّخين يقارنون بين الحضارات في أوجه المشابهة وأوجه الاختلاف . ولكن ما قيمة هذه المقارنة بين الحضارات ، وما أهمّية التعرّض على المظاهر المتعاصرة فيما بينها ؟ .

وقد ذكر بعض العلماء أنّه سيكون في استطاعتنا بعد أن نستعيد تركيب عصور مرّت ولم نعلم عنها شيئاً .

أقول : إنّ إعادة تركيب الماضي على هذا النحو ، يكشف إمّا عن عجز الآثار والوثائق في الكشف عنه ، بالإضافة إلى أنّه يمكن بمنهج التعاصر التعرّف على إيقاع التاريخ ، ومساره ، ومرماه ، ومن ثمّ يمكن أن نتجاوز الحدود الحاضرة للتنبّه بالمستقبل تنبهاً علمياً والتعرّف عمّا ستكون عليه الأدوار القائمة للحضارة الأوربية بعد أن أمكن تتبّع سياق تطوّرها ، ومسارها ، ولا تبدّل مفاجئ في أدوار التاريخ ، فليست الحرب العالمية الأولى حادثاً استثنائياً ولدته نزاعات السيطرة والسيادة لدى بعض الأمم أو الأفراد فلا تفسّر في نوع العوامل الاقتصادية وحدها إنّما تمثّل بذلك نقطة تحوّل في الحضارة الأوربية ، تناظر الانتقال من العصر الهيليني[2] إلى العصر الروماني . وهكذا بالنسبة إلى الحرب العالمية الثانية ،

---

(١) فقد ورد في بعض الكتب عن الرسول ﷺ : (الأنبياء أخوة لعلات دينهم واحد وأمهاتهم شتى) كنز العمال : ج١٤ ص ٣٣٦ ح٣٨٥٦٦ ، تفسير القرطبي : ج١٦ ص١٠٦ ، جامع البيان : ج٣ ص٣٩٦ ، وقريب منه في مسند الطيالسي : ج١ ص٣٥٥ وتفسير ابن كثير : ج٢ ص٦٧ وتحفة الأحوذي : ج١٠ ص١٤ ومصنف ابن أبي شيبة : ج٧ ص ٤٩٩ .

(٢) الذي يمتد من وفاة أرسطو حتى نهاية الأفلاطونية المحدثة ، أي من سنة ٣٢٢ق. م. وإلى سنة ٥٠٠م .

وهكذا بالنسبة إلى ما يمكن أن تقع من حرب في المستقبل ـ والعياذ بالله ـ ، فإنّه سمّة التناظر الغريب بين حرب طرواده والحروب الصليبية . وكذلك بين الحرب البولينزية والحرب العالمية الأولى والثانية ، وبين أثينا وباريس ، وبين أرسطو والفارابي ، وبين النزعة العالمية بعد فتوح الاسكندر وبين الاستعمار الأوربي .

والسبب ؛ ما ذكرناه من وجود الروح العامّة خيراً أو شرّاً ، ومن وجود المزايا والخصوصيّات .

ومن أمثلة الروح العامة في الأفراد أن الرسول الأكرم محمداً ﷺ يشبه موسى وعيسى عليهما السلام ، وإن أبا جهل [1] وأبا لهب يشبهان فرعون وقارون وبيلاطس وهيردوس ، وهكذا ، فالأشرار على طريقة واحدة ، والأخيار على طريقة واحدة في الروح العامّة ، ولذا قال تعالى بالنسبة إلى الذين كانوا يقاومون الأنبياء ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [2] ، بعد أن قال تعالى في الآية السابقة كذلك : ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [3] ، وقال تعالى في آية بعد ذلك : ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [4] ، وهكذا نجد كثيراً من آيات القرآن تذكر مشابهة الطغاة بعضهم لبعض ، ومشابهة الأنبياء والمؤمنين بعضهم لبعض ، وفي ذلك قال بعض العلماء المعاصرين : «إنّه

---

(١) عمرو بن هشام المخزومي ، سمّاه الرسول ﷺ بـ«أبي جهل» ، ويعبر عنه بفرعون هذه الأمة ، يعدّ من أشد الناس عداوة للرسول الأكرم ﷺ ، وقد أشار على المشركين في «دار الندوة» أن تشترك بطون قريش كلها في قتل الرسول ﷺ ليلة هجرته إلى المدينة المنورة : لكيلا تقع مسؤولية ذلك على أي منها فلا يستطيع بنو هاشم الطلب بدم الرسول ﷺ فيختاروا الدية على القتل ، وقد عذّب عمار بن ياسر وأباه وأمّه سمية ، وقتل أبو جهل سمية ، التي أضحت أول شهيدة في الإسلام ، قاد المشركين في حرب «بدر» رمضان سنة ٢هـ (٦٢٤م) وقُتل فيها .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٣.

(٣) سورة الذاريات : الآية ٥٢ .

(٤) سورة الذاريات : الآية ٥٩ .

لابدّ من عوامل خارجيّة مستثيرة ؛ حينئذٍ تصبح هذه العوامل ظروفاً ملائمة لميلاد حضارة جديدة انبثقت فجأة وتستيقظ فيها روح جديدة زاخرة بإمكانيّات فخمة وتظهر الحضارة وتخرج إلى حيّز الوجود في بيئة يكون كلّ ما حولها في فوضى مطلقة وتمتدُّ في خطوط رائعة في شتى المجالات لتفرغ إرادتها بالقوّة على الفوضى المطلقة التي حولها محطّمةً ما يعترض سبيلها بما لديها من طاقات كامنة مبدعة في شتى المجالات من لغة ودين وعلم وفنّ وما إلى ذلك ، وحينئذ تصبح الإنسانية في حقبة معيّنة مطبوعة بطابعها وتظلّ هذه الروح تطلق ما لديها من إمكانيّات على هيئة تشريع وسياسة ومذاهب دينيّة وفنون وعلوم ما دامت زاخرة بالطاقة الذاتية ، إذ الحضارة روح تكمن فيها القوى الخصبة المتوثّبة للتحقّق تخرج إلى الوجود في بيئة خارجيّة في حالة فوضى مطلقة فتطبع النظام وتطبع ما حولها بطابعها» .

أقول : ذلك ؛ لأنّ الأمم الضعيفة اتّخذت من الأمم القويّة أمثولةً في كلّ مناحي الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والتربوية ، كما وجدنا ذلك بالنسبة إلى الإسلام وغير الإسلام ، فإنّ غير المسلمين اتّخذوا من المسلمين قدوة لهم في مناحي الحياة في حقبة طويلة من الزمن حيث كانت الدولة الإسلامية قائمة ، ولمّا سقطت الدولة الإسلامية نتيجة ممارسات الحكّام الغارقين في الشهوات ، والمتلبسين بالعجب والغرور ، أخذ الغرب الزمام ، والتفت الأمم الضعيفة حولها حتّى الأمّة الإسلامية التي لها مبادئ حيّة ، أصبحت تابعةً للغرب في مختلف مناحي الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والتربوية ، والعسكرية ، والتكنولوجية ، وغيرها ، حيث إن الضعيف دائماً يقلّد القوي ، فإذا رأى القويّ في جانب ، انتحى ذلك المنحى ، أملاً أن يجلب له قوّة ويخلصه من المشاكل التي يتّصف بها الضعيف عادةً .

الفصل الرابع

سنن الله تعالى

السنن الإلهية

هي الأسباب الجامعة

مسألة : السنن الإلهية هي القضايا الجامعة التي جعلها الله ﷻ مطلقة أو مقيّدة في أمور متشابهة ، كما يقال إنّ السنة الإلهيّة في الطير أنّه يبيض ، والبيض ينتج عنه الطير ، وإنّ شجرة التفّاح لابدّ أن تمنحنا ثمر التفّاح لا الموز ، وإنّ الإنسان الذكي يستوعب ما لا يستطيع أن يستوعبه الإنسان الغبي ، وإنّ الغرور نهايته السقوط ، وإنّ العجب يبعث الإنسان على العزلة في الحياة حيث لا يستطيع العيش مع الآخرين كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : **(لا وحشة أوحش من العجب)** (١) .

وهكذا بالنسبة إلى الصفات الحسنة ، مثل أنّ التواضع سبب لرفعة الإنسان ورقيّه كما ورد في الدعاء : **(في جميع الأحوال متواضعاً)** (٢) أيّ في حال الصحّة والمرض ، والغنى والفقر ، والعلم والجهل ، والحكومة وعدمها ، إذ من طبيعة بعض البشر إذا كانوا فقراء كانوا متواضعين ، وإذا أصبحوا أغنياء تكبّروا ، قال ﷻ : ﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ◆ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾ (٣) .

وتذكر السنن الإلهية أن من أراد أن يكون عالماً أصبح متواضعاً ، أمّا إذا كان

---

(١) من لا يحضره الفقيه : ج٤ ص٣٧٢ ب٢ ح٥٧٦٢ ، كشف الغمة : ج١ ص ٣٨٤، غرر الحكم ودرر الكلم : ص٣٠٨ ح٧٠٨٨ ، بحار الأنوار : ج١ ص ٨٨ .

(٢) مصباح الكفعمي : ص٥٥٦ دعاء كميل ، مصباح المتهجد : ص٨٤٥ ، البلد الأمين : ص١٨٨ ، الدعاء والزيارة للإمام المؤلف قدس سره ص ١٢٤ .

(٣) سورة العلق : الآيات ٦-٧.

جاهلاً فقرينه في الجهل هو التكبّر ، والعكس صحيح - بنحو المقتضي - .

أمّا عن تسمية هذه القواعد التي نستنبطها من حركة الأحداث بالسنن الإلهية لأنّها تعبّر عن إرادة الله في خلقه وطريقته في تصريف الأمور في هذه الدنيا .

أمّا كيف ستصبح هذه السنن في الآخرة وماذا سيكون مصيرها بعد الحياة الدنيا أو في سائر العوالم ، هل ستستمر أم ستتوقّف ، لا علم لنا بذلك ، إذ من المتوقّع أن نرى شجرة التفّاح وهي تمنحنا تفّاحاً تارةً وتارةً برتقالاً ، وقد لا تكون قامة الإنسان بهذه الحدود التي نعرفها ، فالآخرة تخضع لمقاييس خاصة تختلف اختلافاً كبيراً عن مقاييس الدنيا . ولا يمكننا معرفة ما سيجري هناك إلاّ بعد أن نذهب إلى هناك بإذن الله ﷻ . وقد ورد في الحديث الشريف في صدد ما يراه الإنسان في الجنّة : **(ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)** [(١)] . وإنّما لم يخطر على قلب بشر لأنّه من نوع آخر ، حال ذلك حال من رأى الجامد طول حياته ، فإنّه لا يستطيع أن يتصوّر شكل السائل ، ومن شاهد طيلة حياته نوعاً من الأسماك يصعب عليه تصوّر الأنواع الأخرى .

سنن الله تعالى

والقرآن الكريم تارة ينسب السنة إلى الله ﷻ ، وطوراً ينسبها إلى الإنسان ، وقد ورد ذكر السنّة في القرآن بألفاظ متعددة ، فتارة يقول تعالى : **﴿سنة الله﴾** [(٢)] ، وطوراً : **﴿سنتنا﴾** [(٣)] ، ومرّة يأتي الخطاب بصيغة : **﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾** [(٤)] ، ومرّة أخرى يأتي الخطاب على صيغة : **﴿سُنَنَ**

---

(١) الأمالي للصدوق : ص٤٣٢ وص٥٣٦ ، فضائل الأشهر الثلاثة : ص٢٧ وص ٣٧ ، ثواب الأعمال : ص٥٦ وص ٢٩٢ ، عدة الداعي : ص١٧٢ ، غوالي اللآلي : ج٤ ص ١٠١ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٨ ، سورة الفتح : الآية ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٧٧ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٧٧ .

﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [(١)] للدلالة على أنّ الله ﷻ لا كيفية خاصة له في الاجتماعات ، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ [(٢)] ، ومعنى الكلمتين أنّ سنّة الله في النار هي الحرارة فلا تتبدّل إلى البرودة ، كما وأنّ الحرارة لا تتحوّل من النار إلى الماء ، وهكذا .

هذا بالنسبة إلى جانب الفاعل ، وكذلك بالنسبة إلى جانب القابل ، لأنّ السنّة لابدّ أن تكون بين فاعلٍ وقابل ، سواء كان القابل إنساناً ، أو نباتاً ، أو حيواناً ، أو جماداً ، أو نحو ذلك .

ويمكن أن تكون السنّة سنّة أوّلية ، أو تكون ثانوية ، وقد تكون ثالثية ، ورابعية ، إلى العاشرية ، أو أكثر من ذلك ، أي إنها تكون معطياتها حسب تعامل الإنسان معها ، كما نشاهد أن سنّة الله ﷻ هي الانتصار بالنسبة إلى من أعدّ بمختلف الأسباب .

فالنصر هو حليف الإنسان في نهاية المطاف ، كما وأنّ الإنسان قد ينهزم في نهاية سلسلة من الأحداث ، سواء كان هذا الانتصار أو الانهزام مادّياً أو معنوياً ، ولا فرق بينها سواء كان المنتصر أو المنهزم من أصحاب الحقّ أو أصحاب الباطل . وقد قال ﷻ : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [(٣)] ، فمن المحتمل أن يكون أهل الحقّ أذلّة لعدم توفّر الأسباب ؛ إمّا لأنّهم لم يهيئوا الأسباب بالشكل المطلوب ، أو أنّهم أخذوا بالأسباب لكنّهم لم يكونوا ممّن تحدّث عنهم القرآن الكريم : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ [(٤)] .

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٦ .

(٢) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٢٣ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٤٩ .

السنن الدنيوية

مسألة : الظاهر أنّ سنن الله ﷻ علـى ثلاثـة أقسـام ـ بغـض النظر عـن الفـاعل والقابل ـ: فهناك سننٌ في الدنيا ، وسننٌ في الآخرة ، وهناك سننٌ مشتركة في الدنيا والآخرة .

فالسنن الأخروية ؛ هي الثواب والعقاب لقاء ما يقولـه الإنسـان مـن الأقـوال ، وما يرتكبه من الأعمال ، وما ينتجه مـن الأفكـار ؛ لأنّ الأفكـار أيضاً في معـرض الحلال والحرام ، ثـمّ الثواب والعقـاب ، وليس المراد مـن العقـاب جـهنّم بـل انحطاط الدرجات كما قال ﷻ : ﴿**لله مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (١) ، فلا يقال لا حساب على النيّة كما في الروايـات ، وقـد ذكرنا تفصيل ذلك في الأصول .

أمّا القسم الثالث ؛ وهي السنن المشتركة الدنيوية والأخروية ، فقد ورد ذكرهـا في الكتاب والسنّة . منها **(الراحمون يرحمـهم الرحمـن يوم القيامـة ارحـم مـن في الأرض يرحمك من في السماء)** (٢) ، و**(المؤمن تحت ظلّ صدقته يـوم القيامـة)** (٣) ، ومثل هذه السنن كثيرة .

والسنن الدنيوية ؛ وهي ما نشـاهدها بكـثرة في كـلّ خطوة مـن حياتنـا ، ولعـلّ

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٤ .

(٢) بحار الأنوار : ج٧٧ ص١٦٩ ب ٧ ح٤.

(٣) فقـد ورد في وسـائل الشـيعة : ج٩ ص٣٦٩ ب١ ح١٢٢٥٨ عـن الصـادق عليه السلام عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله قال : (أرض القيامة نار ما خلا ظل المؤمن فإن صدقته تظله).

هناك المليارات من هذه السنن المحيطة بنا أو بغيرنا ونحن لا نشعر بها ، فإن الاكتشاف ، والاختراع ، وما أشبه ذلك من هذه الألفاظ ، إنّما هي اكتشاف لسنّة من سنن الله ﷻ في بُعد من أبعاد الحياة .

وتنقسم السنن الدنيوية إلى : سنن في الاقتصاد ، والاجتماع ، والتربية ، والعزّة ، والذلّة . ولو عددنا معطيات الحياة على كثرتها لوجدنا وراء كلّ واحدة منها سنة ، وقد تكون هذه السنة مرتبطة بالفرد ، وقد تكون مرتبطة بالاجتماع ، وقد تكون مرتبطة بكليهما ، وعلى أساس ارتباط هذه السنن ، نستطيع أن نقسمها إلى قسمين اثنين : قسم يرتبط بالمجتمع ، وقسمٌ يرتبط بالفرد ، فالقسم المرتبط بالفرد لا يدخل في موضوعنا .

أقسام السنن الاجتماعية

أمّا السنن المرتبطة بالمجتمع ، فهي على قسمين :

١ . سنن تتعلّق بالله ﷻ .

٢ . سنن تتعلّق بالعرف والعادة ، مثل قولهم إنّ عادة أهل الهند كذا ، وعادة الغربيين كذا ، وعادة أهل الصين كذا ، فقد تكون هذه العادة التي هي سنة عند أولئك الأقوام حسنة ، وقد تكون عادة سيّئة .

وهذه السنن ليست مطردة وإنما تختلف حسب الأزمنة ، والأمكنة ، والخصوصيات ، فلربما كانت سنّةً حسنةً عند البعض هي سنّة سيّئة عند البعض الآخر .

والكثير من التصرفات القائمة على العادة ليست سنناً إلهيّة ؛ لأنّها قد تكون مخالفة للعقل والشرع ، فوأد البنات كانت سنة رائجة في الجاهلية . حيث النساء كنّ يئدنَ البنات حتى الأمهات منهن كما كان يفعل الرجال من وأد البنات ، وعندما جاء الإسلام قلب هذه السنة إلى سنّة احترام المرأة ، فلو كانت السنن

الاجتماعية القائمة على العادة من الله لكانت سنة وأد البنات من الله أيضاً .

ومن نافلة القول : الإشارة هنا إلى الفرق بين العادة والعرف ، فالعادة ما كانت مستمرّة ، بينما العرف لا يشترط فيه الاستمرار ، فلربّما كان ابتدائياً مثل : عرفية الوقوف عند الإشارة الحمراء ، والسير عند الإشارة الخضراء ، حيث يعتبر ذلك عرفاً ، وليس بعادة ، ولو استمر ذلك لأصبح عادة أيضاً على ما ذكرنا تفصيله في موسوعة الفقه كتاب القانون وغيره .

سنة بعث الأنبياء

مسألة : من السنن التي نجدها في التاريخ البشري منذ خلق الله آدم عليه السلام ، بل ومنذ خلق الجن أيضاً ، أنّ الله تعالى بعث لكلّ مجموعة من الناس سواء كانوا في قرية ، أو مدينة ، أو كانوا أمّة ـ بالمعنى اللغوي ـ ، أو غير ذلك ، نبيّاً أو نذيراً ؛ ليهديهم إلى الصراط المستقيم ، وهذه الهداية المطلقة والسنّة الدائمة هي التي أشار إليها القرآن الحكيم ابتداءً من أوّل الخليقة وانتهاءً بيوم القيامة ، فقد قال تعالى : ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ**﴾ (١) ، وقال أيضاً : ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً**﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ (٣) ، وذلك لتتوافق الهداية الخارجية مع الهداية الداخلية ، فقد فطر الله تعالى الناس على معاني الخير الواقعي سواء كان ألوهية ، أو رسالة ، أو قيامة ، أو أخلاقاً ، أو معاملات صحيحة ، أو ما شابه ذلك ، فقد قال تعالى : ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ (٤).

وهذا ما يشاهده كلّ فرد في داخله ، بالإضافة إلى ما ذكرناه في كتب الاعتقادات من الفطرة الإلهية الّتي هي في أعماق الإنسان ، والفطرة لعلها أعمّ من العقل ، فالعقل هو رسول في الباطن ، كما أنّ الرسول هو عقلٌ في الظاهر ، وليس معنى قوله : ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ (٥) أن في كلّ قرية يكون

---

(١) سورة يونس : الآية ٤٧ .

(٢) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٣) سورة فاطر : الآية ٢٤ .

(٤) سورة الروم : الآية ٣٠ .

(٥) سورة فاطر : الآية ٢٤ .

نذير ، لأنّ الله ﷻ يقول في آية أخرى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾[1] بل أحياناً كثيرة يكون النذير في أمّ القرى وليس في القرى المتناثرة ، قال ﷻ : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾[2] .

والعذاب الإلهي ؛ لا يكون على الأمّة إلاّ بعد الإنذار والتحذير كما قال ﷻ : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[3] ، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[4] ، فمخالفة الأحكام العقلية وإن كانت عند العقلاء توجب العقاب إلاّ أنّ الله ﷻ بلطفه وفضله لا يعاقب إلاّ بعد الإنذار الخارجي فهو يبعث الرسول ، أو وصيّه ، أو من أشبه ذلك .

ويشهد لذلك ، عقاب العقلاء لمن خالف الأمر العقلي ، فالسيّد الذي يدخل بيته ويتفاجأ بأن ابنه وقع في البئر ولم ينقذه عبده الذي في الدار ، فمن حقّه أن يعاقب هذا العبد ؛ بسبب عدم إنقاذه الطفل بالرغم من أنّه لم يأمره بإنقاذ ابنه ، وتوجيه السيد العقاب إلى العبد ؛ لأنّه خالف أمره العقلي ، وكذلك فيما أشبه ممّا هو كثير ، لكن الله ﷻ إذا رأى الناس يخالفون معطيات عقولهم ، لا يعذّبهم بل يتركهم وشأنهم ، حتّى يبعث الأنبياء .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٥١ .

(٢) سورة القصص : الآية ٥٩ .

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٦.

(٤) سورة الإسراء : الآية ١٥.

العقاب بعد البأساء والضراء

وبمجرد بعث الأنبياء وإتمام الحجّة ، لا يعاقب الله ﷻ ، بل بعد أخذ الناس بالبأساء والضرّاء كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ (١) ، وقال في آية أخرى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ (٢) .

وفي أحيان كثيرة يأخذ الله الأمم بالبأساء والضرّاء ، وبالحسنة ، فيمنحهم الله ما يشاؤون من الخيرات والنعم ، أو الشرور ؛ حتّى تكتمل عليهم الحجّة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۞ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ** ﴾ (٣) ، والسرّاء والضرّاء هو الاختبار والامتحان ، فكأنّ الله يريد أن يقول لهم : أعطيناكم الحسنات فلم تؤمنوا ، وأرسلنا عليكم السيئات ولم تؤمنوا ، فتمّت عليكم الحجّة البالغة .

أمّا قوله ﷻ : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ (٤) ، فلربّما أشار إلى الهداية الخارجية كما يفعله الأنبياء والأئمّة عليهم السلام ، ولربّما قصد منه الهداية الباطنية ، ومقصودنا العقل والفطرة ، لكن الظاهر أنّ الآية أعمّ منهما ، فإنّ إطلاق المطلق يفيد الإطلاق إذا لم يكن هناك تقييد ، وقد ذكرنا أنّ الهداية الخارجية تكون مؤيّدة للهداية الداخلية ، وأنّ الله ﷻ يهدي كلّ إنسان إلى الخير بعوامله الداخلية كالعقل ، والفطرة ، أو بعامل خارجي

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٤٢ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٣٤ .

(٣) سورة الأعراف : الآيات ٩٤ ـ ٩٥ .

(٤) سورة البلد : الآيات ٨ ـ ١٠ .

كالأنبياء .

إذاً : من سنن الله ﷻ الهداية بسبب الأنبياء ، وما نشاهده من ضلال في بعض الأمم لا يدلّ على عدم وجود المُنذر والرسول ، فلربّما بعث الله المنذرين والرُسل كما ورد في القرآن الكريم وكما دلّت الروايات على ذلك لكنهم انحرفوا ، فالأنبياء هم طريق للهداية قد تأخذ بها الأمم فتسير في الطريق القويم ، وقد تعرض عن ذلك فتنحرف وتسقط .

أمّا أنّ الهداية بسبب الرسول ؛ إذا جاءت تكون شاملة للجميع فلا ضرورة لذلك ، لأنّ الله ﷻ جعل الحياة في هذه الدنيا حسب السبل العادية ، والظاهر أنّ الزائد والناقص سيتمّ تصفيتهما في القبر ، لذا قال ﷻ : **﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾** [١] .

وقد بيّنا في فقه العقائد والذي هو مقدّمة لفقه العبادات والمعاملات أنّ الله ﷻ خلق أناساً سيكون مصيرهم النار ، وخلق أناساً سيكون مصيرهم الجنّة كما قال سبحانه : **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾** [٢] ، وقال سبحانه : **﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾** [٣] .

وعلى أيّ حال : فمن سنن الله تعالى في هذه الأرض الهداية بواسطة الأنبياء والأوصياء .

---

(١) سورة السجدة : الآية ١٣ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٩ .

(٣) سورة القصص : الآية ٨ .

الابتلاء في الدنيا

مسألة : ومن سنن الله في عباده الابتلاء ، ويشترك في ذلك جميع الأمم والأفراد ، على حد سواء ، وبجميع وسائل الخير والشر ، واليسر والعسر ، وما أشبه ذلك .

توضيح ذلك : أنّ الله تعالى خلق الحياة للإنسان وفيها آلام وآمال ، وخيرات وشرور ، وهذه هي وسائل الابتلاء ، وهناك أشياء يحبّها الناس ، ويميلون إليها ، ويطلبونها ، ويدافعون عنها ، كما وأنّ هناك أشياء لا يحبّونها ، ولا يرغبون فيها ، ولا يريدونها ، ويدفعونها عن أنفسهم ، والإنسان بين هذا وذاك حرّ يتمكّن أن يستعمل هذا أو ذاك ، يستطيع أن يتحلّى بالشجاعة أو الجبن ، ويتّصف بالكرم أو البخل ، الغيرة أو اللامبالاة ، ذلك لأنّه مختار ، وباستطاعته أن يفعل ما يريد ، قال سبحانه : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [(١)] أي الطريقين الواضحين : طريق الشيطان ، وطريق الرحمن .

وقد كلّف الله الناس أن يقطعوا النظر عن الملذّات المحرّمة إلى الملذّات المحلّلة ، وأن يصبروا على الآلام إلاّ المحرّمة فيها ، وبهذا الأسلوب يتمّ امتحانهم ، هل يأخذون بالرخص ، أو يأخذون بالمحرّمات ، فإنّ الملذّات ، والسعادة ، والآلام ومشتقّاتها ، هي أساس الحياة الدنيوية ، كما قال سبحانه : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [(٢)] . والله تعالى لم يرد أن يكون جميع الناس سعداء ، ولا جميع

---

(١) سورة البلد : الآية ١٠ .

(٢) سورة هود : الآية ٧ .

الناس أشقياء ، بل فسح المجال لكلا الأمرين .

وهناك أسباب لظهور الآلام سواء آلام البدن كالأمراض ، أو خارج البدن كالزلازل ، والفيضانات ، والصواعق ، وما أشبه ذلك .

والجامع لجميع الأمم الذي هو بمنزلة المادّة أو الجنس هو استواء الأمم والأفراد في الامتحان ؛ إذ قد تكون الامتحانات في الأمّة بمجموعها أو قد تستولي على الأفراد كالمرض ، والجهل ، والفقر ، والفوضى ، وقد قال تعالى : ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً**﴾ [1] ، فالفقير فتنة للغني ،والغني فتنة للفقير ، والعالم فتنة للجاهل ، والجاهل فتنة للعالم ، والقوي فتنة للضعيف ، والضعيف فتنة للقوي ، إلى غير ذلك ، وهذا موجودٌ في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، منها : ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**﴾ [2] ، لكن هذه الأمور هي أسباب الامتحانات ، كذلك نقيضها أي الأمن ، والشبع ، وكثرة الأموال والأنفس والثمرات .

وامتحانات الإنسان عديدة وكثيرة ، قد يسقط البعض فيها وقد يحدث العكس ، ومن الابتلاء : الجوع ، والنقص في الأموال والأنفس والثمرات ، وهكذا بالنسبة إلى ما لم يذكر في هذه الآية كالفوضى ، وإن كانت الفوضى أيضاً توجب الخوف ، والجوع ، ونحو ذلك .

حتى استيأس الرسل

ومن السنن التي جعلها الله تعالى في هذه الحياة ، أن ينزّل نصره بعد مجموعة من المشكلات ، قال تعالى : ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٢٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٥٥ .

مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[١] ، وقال سبحانه : **﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ◆ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ◆ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾**[٢] ، فالأيّام مداولة بين الناس ، فقد يكون هذا الفرد غنياً ، وقد ينتقل الغنى إلى فرد آخر ، وقد يكون الفرد حاكماً ، وقد ينتقل الحكم إلى فرد آخر ، وهكذا الأمر بالنسبة إلى المنظّمات ، والأحزاب ، والهيئات ، والأمم ، فقد تتقدّم أمّة في الصناعة ، والزراعة ، والتجارة ، وما أشبه ذلك ، بينما تتراجع أمّة أخرى نتيجةً لإهمالها لهذه الأمور ، وقد تتحوّل الأمّة من مغلوبة إلى غالبة ومن فقيرة إلى غنية ومن جاهلة إلى عالمة ، وهذه أيضاً هي سبل وطرق الامتحان ، يقول الشاعر :

إنّما الدنيا عوارٍ والعواري مستردّة
شدّة بعد رخاء ورخاء بعد شدّة

ومنطق القرآن صريح في هذا المجال حيث يقول : **﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾**[٣] ، والإنسان يُمتحن بالمال سواء كان غنياً أو فقيراً ، ويُمتحن بالنفس أيضاً سواء كان مريضاً أو سليماً ، والمراد «بالأنفس» في الآية : نفس الشخص ، أو زوجته ، أو أولاده ، أو أقرباؤه ، أو ما أشبه ذلك ، ثمّ قال تعالى في آية أخرى : **﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾**[٤] ، لأنّ الإنسان يُمتحن بالمال ، هل يبذل أو يبخل ، هل يصرفه في الحرام أو الحلال ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله : **(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتّى يسأل عن خمس : عن ماله من أين**

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآيات ١٤٠ ـ ١٤٢ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٨٦ .

(٤) سورة التغابن : الآية ١٥ .

اكتسبه وفيما أنفقه) [١] .

وهكذا بالنسبة إلى الأولاد ، فهم فتنة ، وهم من باب المثال ، وإلاّ فإنّ الزوجة فتنة ، والزوج فتنة ، والأقرباء والأصدقاء والجيران هم فتنة ، لأنّ الإنسان يُمتحن بهم .

قال ﷻ في آية أخرى : ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [٢] ، فقد يعمل الإنسان عمل المؤمنين وقد يعمل عمل المنافقين حيث ظاهره شيء وباطنه شيء آخر ، إذ باطنه يتّخذ وليجة فيكون مع هؤلاء تارة ومع أولئك أخرى ، وهؤلاء المنافقون يمتحنون في الدنيا كما يمتحنون في الآخرة ، حيث قال ﷻ : ﴿**انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ◆ لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**﴾ [٣] ، فإنّ مثل هذا الإنسان المنافق له ثلاث جماعات :

الجماعة المؤمنة التي يحاول المنافق أن يتظاهر أنّه منهم .

الجماعة الكافرة وهي جماعته الحقيقة .

---

(١) الكافي (فروع) : ج٣ ص٢٤١ ح١٥ ، وقريب منه في إرشاد القلوب : ص١٥ الباب الأول ، وفي معدن الجواهر : ص٤٩ باب ذكر ما جاء في الخمسة : (لا يزول ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه وما عمل فيما علم) ، وورد في بحار الأنوار : ج٧٧ ص١٦٢ ب٧ ح١ : (إذا كان يوم القيامة لم تزل قدما عبد حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وعمّا اكتسبه ومن أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن حبنا أهل البيت) ، كما ورد في كتب العامة : (لا تزول قدما عبد ـ يوم القيامة ـ حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه وعن محبتنا أهل البيت) راجع مناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي : ص١١٩ ح١٥٧ ، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي : ص١٠٩ ، المناقب للخوارزمي : ص٥٣ ، مجمع الزوائد : ج١٠ ص١٤٦ ، مقتل الحسين للخوارزمي : ج١ ص٤٢ ، ينابيع المودة للقندوزي : ص١١٢.

(٢) سورة التوبة : الآية ١٦ .

(٣) سورة المرسلات : الآيات ٣٠ ـ ٣١ .

الجماعة المنافقة التي يتلوّن بلونهم .

وقال ﷻ في آيات أخر : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ◆ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [1] ، تتضمن هاتان الآيتان سنناً عديدة لا مجال لذكرها هنا .

ومن سنن الله ﷻ : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾[2] ؛ حيث إن السير في الأرض والإطّلاع على الأمم السالفة ، الذين أخذوا بالعذاب ، يحمل الدليل على أن تلك الحالة نفسها جارية في هذه الأمّة ، فاللازم أن يعلم الناس ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[3] من دار الدنيا كما أنّها خير للمتّقين من غير المتّقين ، وكلمة «الخير» من باب الأصل لا من باب أفعل التفضيل ، كما قال ﷻ : ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ [4] ، وقال : ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ [5] تطميناً للمبشرين رسلاً كانوا أو غير رسل ، فاللازم أن يبلّغوا حتّى يظنوا أنّهم قد كذّبوا وأنّه بعد ذلك لا يفيد مع الأقوام علاج لهدايتهم إلى الصراط المستقيم وحينذاك يكون نصر الله ﷻ ، ونصر الله بنجاة من يشاء من المؤمنين وإهلاك المجرمين .

ونجد في آية أخرى يقول الباريء ﷻ : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [6] ، فإنّ الشرّ مرض ، أو فقر ، أو عدو ، وما أشبه ذلك ، والخير من مال ، وولد ، وأمن ، ورفاه ، وغير ذلك ، كلّها تصبح فتنة للإنسان وامتحاناً له .

---

(١) سورة يوسف : الآيات ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٢) سورة غافر : الآية ٨٢ ، سورة محمد : الآية ١٠ .

(٣) سورة يوسف : الآية ١٠٩ .

(٤) سورة القيامة : الآية ٣٤ .

(٥) سورة يوسف ، الآية ١١٠.

(٦) سورة الأنبياء : الآية ٣٥ .

ماذا يعمل مع الشرّ ؟ ، وماذا يعمل مع الخير ؟ .

هل يستقيم في طريق الله ﷻ المقرّرة لهؤلاء ، أو يمشي في طريق الباطل والانحراف ؟ .

وفي آية أخرى يقول ﷻ : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ◆ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (١) ، فلا ينفع الإنسان أن يقول آمنّا بل يجب أن يستقيم في الامتحان والافتنان ، وكيف يمكن أن يترك الله ﷻ قوماً لمجرّد قولهم آمنّا بينما فتن الذين من قبلهم ، وبالفتنة يعلم أنّ المؤمن في ظاهره هل هو صادق في إيمانه ومستقيم في طريقته ، أو أنه كاذب ومنحرف .

وفي آية أخرى يقول ﷻ : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (٢) ، وقد ذكرنا أنّ المال والولد من باب المثال اللاصق بالإنسان وإلاّ فكلّ شيء بالنسبة إلى الإنسان فتنة له وامتحان .

---

(١) سورة العنكبوت : الآيات ٢ ـ ٣ .

(٢) سورة التغابن : الآية ١٥ .

الامتحان سنة شاملة

مسألة : إنّ سنّة الامتحان جارية في الشؤون الفردية ، وفي الشؤون الاجتماعية ، وفي الشؤون الاقتصادية ، وفي الشؤون السياسية ، وفي الشؤون التربوية ، وفي غير ذلك ، وإنّه لا مفرّ ولا مهرب لأيّ فرد ، أو جماعة ، أو مجتمع ؛ من الامتحان ، حتّى يظهر باطنه هل هو مستقيم كما قال ﷻ : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ [(١)] .

ثم إن وسائل الامتحان والاختبار عبارة عن الخيرات ، كالمال ، والنفس ، والولد ، والعزّة ، والغنى ، والسلطة ، وما أشبه ذلك ، وعبارة عن الشرور ، كالنقص في الأموال والأنفس والثمرات ، والصعوبات ، والعسر ، والجوع ، والخوف ، وما أشبه ذلك ، فتلك كلّها محيطة بالإنسان يمتحنه الله ﷻ بهذه الأمور حتّى يرى أنّه هل يتعامل مع العسر واليسر معاملة المؤمنين أو معاملة الكافرين ، وعند ذلك يكون مستحقاً للرقي أو الانحطاط ، ففي المثل« عند الامتحان يكرم المرء أو يهان» . وبنتيجة الامتحان يتميّز المؤمنون ، المجاهدون ، الصابرون ، الصادقون ، الصائمون ، العاملون بأوامر الله ﷻ عن مدّعي الإيمان والجهاد والصبر والصدق . وورد في الحديث : **(إنّ أقلّ شيء قسّمه الله بين العباد العقل والصبر والشكر)** ، وكلّ يزعم أنّه وصل فيها إلى درجة الكمال .

وكيف كان : فإنّ الله ﷻ يبتلي الناس بشكل من أشكال الامتحان هل يسرف عند النعمة أو يجزع عند النقمة ؟ .

---

(١) سورة فصلت : الآية ٣٠ .

ومن الواضح أنّ هذه الحالات المتناوبة على الإنسان كلّها امتحان سواء كان رفاهية ، وراحة ، ورخاءً ، وحكماً ، وعلوّاً ، وسلاحاً ، وما أشبه ذلك ، أو كان بنقائضها .

مثلاً : الإنسان المنعّم ربّما يستبدّ به الغرور ، أو العجب ، أو الغفلة ، أو الطغيان ، أو البغي ، وقد قال تعالى : ﴿ **فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ** ﴾ [1] ، و﴿**الغرور**﴾ اسمٌ للشيطان ؛ لأنّه يغرّ من يتبعه في ماله ، وأولاده ، وقوّته ، وسلاحه .

وكذلك بالنسبة إلى الابتلاء بالنقائص ، والشدائد ، والمشاكل ، فهل يتنبّه الشخص المبتلى ، وهل يصبر ، وهل يطلب الفرج من الله تعالى ؟ ، وفي الوقت نفسه هذان الأمران ، يصبحان عبرةً أيضاً للآخرين ، حيث ينظر الثري إلى قارون ، وينظر الفقير إلى الفقراء الذين كانوا مع الرسول ﷺ والذين صبروا على الفقر ، وهكذا بالنسبة إلى الحكّام والمحكومين . فكلّ مبتلى بالآخر ، وهذه بأجمعها تشكّل أرضية اختبار وامتحان للشخص المبتلى بالشيء الحسن ، أو المبتلى بالشيء السيئ .

وفي الحديث بالنسبة للأئمة الطاهرين عليهم السلام : **(الباب المبتلى به الناس)** [2] ، هل يعرف الناس نعمة وجودهم ويستفيدون منها ، أو يتركونهم ، ويعادونهم ، ويؤذونهم ، ويشرّدونهم ، ويسجنونهم ، ويقتلونهم ، إلى غير ذلك . والله تعالى مع ذلك لا يعطي لكلّ إنسان بالقدر الذي يريده ، حيث قال تعالى : ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ [3] .

---

(١) سورة لقمان : الآية ٣٣ . سورة فاطر : الآية ٥ .

(٢) تهذيب الأحكام : ج٦ ص٩٨ ب٢٢ ح١، من لا يحضره الفقيه : ج٢ ص٦١٣ ب٢ ح٣٢١٣، عيون أخبار الرضا : ص٢٧٤، البلد الأمين : ص٣٠٠.

(٣) سورة الشورى : الآية ٢٧ .

وقد قال أحد العلماء: «إنّ الجهل والفقر من نعم الله تعالى»، وأراد بذلك أنّ الإنسان لو علم بشيء لربما أضرّه، وكذلك لو كان غنياً لربما أضرّه، وفي قصّة موسى عليه السلام مع ذلك الفقير الذي قال له: اطلب من الله تعالى أن يبدّل فقري غنىً، فأخبره الله أنّه ليس من صالحه الغنى، إلاّ أنّ الفقير أصرّ، ولمّا رجع موسى من الطور رأى إنساناً يأخذ الشرطة بتلابيبه، فلّما اقترب رأى صاحبه الذي طلب منه الغنى، فسأل عن شأنه فقالوا: إنّه مات شخص من أقربائه فورثه، وبمجرّد أن ورثه، أخذ بعض أموال المورّث، وشرب الخمر، واشترى به سكيناً، وقتل إنساناً، وقد مسكت به الشرطة؛ لتأخذه إلى المحكمة؛ لينال عقابه. فقال موسى في نفسه: وهذا هو السرّ الذي أراده الله أن يكون فقيراً[1].

والحاصل: أنّ إرادة الله تعالى تعلّقت بوجود أفراد مختلفين في ذكائهم، وجمالهم، ومكانتهم الاجتماعية، وما أشبه ذلك من الأمور الطارئة من الغنى أو الفقر، والمرض أو الصحّة، والحاكمية أو المحكومية، حسب ما قضى سبحانه وقدّر، فإنّ الفرق بين القضاء والقدر: أنّ القضاء هو الحكم، والقدر هو الهندسة والتقدير، وليس فيه شيءٌ من الجبر.

نعم، في القضاء: الإنسان مجبور ـ تشريعاً ـ على إطاعة الله سبحانه وتعالى وإلاّ عوقب لمخالفته، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾[2] أي أعطاكم من الاختيار، فهل الكلّ يؤمنون بالله، ورسوله، واليوم الآخر، ويعملون صالحاً، أو ليسوا كذلك؟، وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿**رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَات لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾[3]. فإنّ الإنسان الذي هو في الدرجة السفلى هل يحسد الذي في الدرجة

---

(١) ونظير هذه القصة حدثت لسعد في زمن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنظر الكافي (فروع): ج ٥ ص ٣١٢ ح ٣٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٦٥.

العليا أو يغبطه ، وكذلك الذي هو في الدرجة العليا هل يأخذ بيد الذي بالدرجة السفلى أو يتركه وشأنه بل يدفعه إلى النزول فالنزول ، وهكذا .

وفي آية أخرى : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ (١) ، فإن الناس إذا كانوا جميعاً أغنياء ، لم تكن هناك فئات أخرى تحقق التكامل الاجتماعي الغام ، وتفي بالغرض الاجتماعي للإنسان ، ولبطلت فلسفة الامتحان والابتلاء ، ولفقدت الصناعات والحرف ، فلا يوجد خبّاز أو حدّاد ، أو عطّار ، أو نجّار ، وما أشبه ذلك من تنوع الطبقات والمراتب من السيّد والمسود ، والحاكم والمحكوم . فكلّ هذه الأمور المتنوعة والمتناقضة هي امتحان للإنسان ، فالامتحان أحاط بالإنسان من كلّ جوانبه وفي جميع أحواله حتّى يمتلئ بما قدّر الله ﷻ له من وعاء الجسم والنفس وحتى يحقق الكمال والتكامل، كما قال الإمام علي ﵇ : **(إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها)** (٢) ، وكما قال ﷻ : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (٣) ، فالذي له إناء يأخذ مدّاً من غيره من دون استحقاق ، غير الذي يأخذه وله عشرة أمداد أو ألف مدّ وهكذا ، فإذا امتلأت تلك الأواني بالخير أو بالشرّ أخذه الله ﷻ إلى الدّار الآخرة ، ومن مات قبل ذلك فإنّه يُمتحن في القبر وفي المحشر حتى تكون نهايته الجنّة أو النار «نعوذ بالله من النار» .

وقد نظم ابن الصيفي في هذا المعنى أبياتاً فيها إشارة لحياة الأمويين ،

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

(٢) كمال الدين : ص٢٨٩ و ص٢٩٢ ، روضة الواعظين : ص١٠ ، تحف العقول : ص١٦٩ ، الإرشاد : ج١ ص٢٢٧ ، الأمالي للمفيد : ص٢٤٧ ، أعلام الدين : ص٨٥ ، غرر الحكم ودرر الكلم : ص٦٧ ، الغارات : ص٨٩ ، كشف اليقين : ص١٨٤ ، خصائص الأئمة : ص١٠٥ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٨ ص٣٤٦ ب١٤٣ .

(٣) سورة الرعد : الآية ١٧ .

والعباسيين :

ملكنا فكان العفو منّا سجيةً فلما ملكتم سال بالدمّ أبطح
وحلّلتم قتل الأسارى وطالما غدونا على الأسرى نعفو ونصفح
وحسبكم هذا التفاوت بيننا وكلّ إناء بالذي فيه ينضح(١)

فإنّ مثل الإنسان في هذه الحياة بالنسبة إلينا مثل الورود ، والأزهار ، والنباتات ، فبعض الأزهار كبيرة ـ فهناك زهرة في ألمانيا بحجم الإنسان ـ ، وبعضها صغيرة لا يتجاوز حجمها رأس إبرة ، وبعضها جميلة غاية الجمال ، وبعضها لا تسرّ ناظرها كالوردة ذات الأشواك المؤذية ، وبعضها يخلو عن الجمال ، وضدّه ، وهكذا ، وبعضها ذات رائحة طيّبة وخاصية حسنة ، وبعضها ليس كذلك إمّا ذات رائحة خبيثة وخاصية سمّيّة أو لا طيب ولا خصوصية لها فيكون متوسّطاً بين القسمين ، وبعضها ذو مذاق طيّب ، وبعضها ذو مذاق مرّ كالحنظل .

وقد ذكرنا في كتاب العقائد أنّ الأعمال ، والأقوال ، والنيّات الباطلة ، يعاقب الإنسان عليها بقدر ذلك كما قال تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾(٢) ، فالله يجازي العقائد الحسنة ، والأعمال الصحيحة ، والنيّات ، والأقوال الطيّبة

---

(١) الفصول المهمة : ص١٩٤ ، وإن ابن الصيفي هو سعد بن محمد والمعروف بـ(حيص بيص) والمتوفى سنة ٥٧٣هـ . ونقل الشيخ عباس القمي في وقائع الأيام أن أحد ثقاة أهل السنة قال : رأيت علي بن أبي طالب عليه السلام في المنام . فقلت له : يا أمير المؤمنين : أنت الذي قلت لقريش عند فتح مكة : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» . وفي قبال هذا الإحسان ، ماذا فعل ابنه بابنك . فقال الإمام عليه السلام : أما سمعت أبيات ابن الصيفي؟ فقال: لم أسمع. فقال : خذ الجواب منه. وما أن استيقظت من منامي حتى أسرعت إلى بيت ابن الصيفي فقصصت عليه الرؤيا ، فلما سمع منامي شهق من البكاء . وقال : أقسم بالله إنني نظمت هذه القصيدة التي ذكرها أمير المؤمنين في الليلة نفسها ، ولم تخرج من لساني حتى الآن ، ولم أكتبها إلى أحد ، فأخذ ينشد تلك الأبيات .

(٢) سورة الشورى : الآية ٤٠ .

بأكثر ممّا جاء به ، يقول ﷻ : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [1] ، كما ذكرنا هناك مسألة القيود وشدّة العذاب بما لا يمكن الإشكال فيه .

(١) سورة الأنعام : الآية ١٦٠ .

التاريخ ارتداد مستقبلي

مسألة: إن الله خير مطلق ، ولا يصدر منه سوى الخير ، فالشرّ يرجع إلى فاعله من غير فرق بين النيّة ، والقول ، والعمل . والرجوع قد يكون قريباً ، وقد يكون بعيداً ، وقد يكون متوسّطاً ، مثل ذلك مثل الأشجار حيث تعطي بعضها الثمرة سريعاً ، أو متوسّطاً ، أو بعد سنوات ، فقد قال ﷻ : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ**﴾ (١) ، وقال ﷻ : ﴿**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**﴾ (٢) ، وفي كثير من الأحيان أنّ الخير والشرّ يرجع إلى فاعله في هذه الدنيا ، وقد يرجع إلى أولاده ، وأقربائه ، وما أشبه ذلك ؛ كما ذكرنا فلسفته في التفسير الموضوعي ، فلو فرض أنه لم يرجع إليه ولا إلى ذرّيّته فإنهما يرجعان إليه في القبر والمحشر ثم الجنّة أو النار ، ولذا قال ﷻ : ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ◆ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ◆ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى**﴾ (٣) ، فإنّ الجزاء في الدنيا ليس كاملاً كالجزاء في القبر والمحشر ، والجنّة والنّار ، ولذا سمّاه ﷻ بالجزاء الأوفى .

وقد ذكرنا في بعض كتبنا أنّ المحاكم عشرة سواء في الدنيا ، أو في القبر ، أو في المحشر ، أو في الآخرة ، وفي هذه المحاكم العشرة يُحاسب الإنسان على كلّ خير وشرّ ، ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ◆ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾ (٤) .

---

(١) سورة يونس : الآية ٢٣ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٧ .

(٣) سورة النجم : الآيات ٣٩ ـ ٤١ .

(٤) سورة الزلزلة : الآيات ٧ ـ ٨ .

حقيقة

الشّرور وموضوعيتها

مسألة : إنّ الشرور التاريخية قد تكون موجبةً لإنجازات تاريخية ، كما أنّ الإنجازات التاريخية قد تكون موجبة لشرور تاريخية ، فاللازم على المؤرّخ أن يجمع بين الأمرين ، ويجعل بينهما الأهم والمهم .

مثلاً : كثيراً ما تسبّب الحروب ـ وهي لاشكّ من الشرور ـ تقدّم الصناعة ، والزراعة ، والعلم ، والتكنولوجيا ، وما أشبه ذلك ، كما أنّ تقدّم العلم كثيراً ما يوجب شروراً ولو بالنسبة ، فإنّ التقدّم العلمي إنّما يكون بعد التجارب ، والتجارب وإن كانت على أجسام الحيوانات ، لكنّ التجربة على جسم الحيوان أيضاً نوع من الشرّ ، وقد قال رسول الله ﷺ : **(دخلت امرأة النار في هرة ربطتها)** (١) ، وكما قال ﷺ : **(وإنّ مومسة دخلت الجنّة في كلب سقته)** (٢) .

---

(١) وفي كتاب الجعفريات : ص١٤٢ عن الرسول الأكرم ﷺ قال : (ورأيت في النار صاحبة الهرة تنهشها مقبلة ومدبرة كانت أوثقتها فلم تكن تطعمها ولم ترسلها تأكل من حشاش الأرض) ، وفي كتاب مستدرك الوسائل : ج٨ ص٣٠٣ ب٤٤ ح٩٥٠٥ ، وبحار الأنوار : ج٦٤ ص٢٦٧ ب١٠ ح٢٥ ، وج٢٥ ص٦٤ب١ ح٢٣ ، وج ١٠٤ ص٣٧٧ ب١ ح٤٤ بهذا المضمون .

(٢) ونص الحديث ، قال رسول الله ﷺ : (اطلعت على الجنة فرأيت امرأة مومسة فسألت عنها . فقيل : إنها مرت بكلب يلهث من العطش فأرسلت إزارها في بئر فعصرته في حلقه حتى روي ، فغفر الله لها) المبسوط : ج٦ ص ٤٧ ، جواهر الكلام : ج٣١ ص٣٩٥ . وفي كتاب الجعفريات : ص١٤٢ ، ووسائل الشيعة : ج٧ ص ١٥٢ ب ٤٥ ح ٨١٧٥ ، ومستدرك الوسائل : ج٨ ص٣٤٣ ب٤٤ ح٩٥٠٢ : (دخلت الجنة فرأيت فيها صاحب الكلب الذي أرواه من الماء) .

وكثيراً ما تكون الحرب في سبيل الله والمستضعفين موجبة لقتل الناس ، أو هدر أموالهم ، وقد ذكر الفقهاء أنّه لو تترس الكفّار بالمسلمين جاز للمسلمين أن يحاربوا أولئك الكفّار وإن كانت تلك الحرب سبباً لإضرار أولئك المسلمين المترّس بهم ؛ من باب الأهمّ والمهمّ، سواء قلنا بضمان بيت المال لأولئك المسلمين المقتولين والمجروحين ، أو ما أشبه ذلك ، أو لم نقل بذلك ، حيث إنّ في المسألة الفقهية قولين : قولاً يقول : بالضمان ؛ لأنّه لا منافاة بين الحكم الوضعي والحكم التكليفي ، وقولاً يقول : بعدم الضمان ؛ من باب ما على المحسنين من سبيل . مثال ذلك من يأخذ حبل الغير لإنقاذ الغريق مع أنّ ذلك الغير ليس راضياً في أن يؤخذ حبله ، فمن الفقهاء من يقول : إنّ إجارة الحبل على المنقذ ، فإنّ الإنقاذ الواجب لا ينافي الأجرة لصاحب الحبل ، وقسم يقول : لا أجرة ؛ بدليل ما على المحسنين من سبيل .

ولا يخفى أنّه لا فرق بين أن نقول بالأجرة من كيس المُنْقَذ ـ بالفتح ـ ، أو من كيس المُنْقِذ ـ بالكسر ـ ، أو من بيت المال .

وهكذا يمثّل الفقهاء بما إذا ركب في السفينة عشرة ـ مثلاً ـ وكانت السفينة مشرفة على الغرق ممّا اضطر من في السفينة لإلقاء نصفهم في البحر ؛ لنجاة نصفهم الباقي ، فإنّه يجوز الإلقاء في البحر ، مع الضمان أو بدون الضمان ، فإنّ الإلقاء شرٌّ لابدّ منه من جهة مسألة الأهم والمهمّ ، وقد ذكرنا هذا البحث في كتاب القواعد الفقهية (١) .

فاللازم على المؤرّخ الفقيه ، الذي يريد تفقّه المسألة لإصدار الأحكام ، أن يتحقّق من الواقعة كما هي ، ولا يسمع للتبريرات الواهية ، ولا يتأثّر بالدعايات المغرضة .

---

(١) انظر كتاب القواعد الفقهية ، بحث الأهم والمهم للإمام المؤلف ﭭ. وعن أصل مسألة «التترس» راجع موسوعة الفقه : ج٤٧ ـ ٤٨ كتاب الجهاد .

فبناءً على ذلك : لا يصح أن يجد المؤرّخ حرجاً في أن يدين أمثال نيرون ، وجنكيز ، وتيمور لنك ، بل اللازم أن يدينهم ؛ لأنّ أعمالهم لم تنطو على أيّة قيمة حضارية بل على العكس هدمت كلّ مظاهر الحياة ، لكنّ اللازم أن يلاحظ المؤرّخ في فقه هذه المسائل جانب الحياد ؛ إذ ليست الحرّية وحدها هي التي ارتكبت باسمها الكثير من الجرائم بل إن الكثير من المسلّمات الأخلاقية ارتكبت باسمها أيضاً الكثير من الجرائم سواء كانت مطلقة ـ كالعدالة ، والأمن ، والقضاء على الفتنة أو الكارثة ـ أم لا ، ومن المفاهيم كالديمقراطية ، والتقدّم ، والاشتراكية ، وما أشبه ذلك . ومرادنا بالاشتراكية ليس المعنى المصطلح في هذا الزمان بل روح المشاركة والتعاون التي قرّرها الإسلام حيث ورد في جملة من الروايات أنّ الله شرّك بين الأغنياء والفقراء .

ومن الواضح أنّ التشريك على قسمين : قسم أصلي ناشئ من إعطاء الخمس ، والزكاة ، والجزيّة ، والخراج ، وقسمٌ ضروري حيث إنّ في حال الضرورة يجب على الغنيّ أن يواسي الفقير ؛ حتّى لا يموت جوعاً ، أو لا يمرض بسبب الجوع ، وما أشبه ذلك . فاستخدام المفاهيم الخيرة في طريق الشر لا يعني أنها شرٌّ ، بل الشر الأعظم هو استغلال أهل الشر لهذه المفاهيم من أجل تشويهها ، وتحقيق مطامعهم . فالمؤرخ يجب أن يكون موضوعياً في دراسة الوقائع .

اللاعقلانية في أن الغاية تبرر الوسيلة

ومن الواضح أن ما ذكره بعض علماء الغرب الانتهازيين [1] من أنّ «الغاية تبرّر

---

(١) وهو لنيكولا ميكيافيلّي في كتاب «الأمير» ، الذي كتبه سنة ١٥١٣م ، وطبع بعد عدة سنوات ، وقد دعا فيه إلى فصل السياسة عن الأخلاق ، وسوّغ فيه مبادئ الحكم المنافية للآداب ، والقيم الإنسانية ، وسوغ للحكام طغيانهم ، واستحسن مسلك مجرميه.

الوسيلة» غير صحيح ، بل الميزان هو «قانون الأهم والمهمّ » ، الذي قرّره العقلاء والشرع ، وبينهما بون شاسع ، وليس من شأن قانون الأهم والمهمّ أن يميّزه كلّ مستبدّ ، وديكتاتور ، وطاغية ، بل أن يميّزه العقلاء بما هم عقلاء حتّى لو لم يكونوا متديّنين ، أو أن يميزّه المتديّنون ، الذين يخافون الله واليوم الآخر ، وإلاّ فكلّ مفسد وفاسد يقول هذا من الأهمّ والمهمّ . ومن الواضح أنّ بين القاعدتين (١) عموماً من وجه على اصطلاح المنطقيين .

وإن ما قاله هذا العالم الغربي من أن «الغاية تبرّر الوسيلة» ، يقصد منها أنّ منطق الدولة يقتضي المحافظة عليها بأيّ ثمن ، وبأيّة وسائل مشروعة أو غير مشروعة ، فإنّ تأسيس دولة من القانون والنظام إنّما يكون من المسائل غير القانونية وأنّ الحاكم من أجل الاحتفاظ بالسلطة للدولة يتصرّف بدون رحمة ، وبدون أخلاق ، ومن غير إخلاص . فاللازم على الحاكم أن يتجرّد عن الإنسانية ، والعقل ، وعن تعاليم الدين ، فكلّ شيء راجع بالنسبة إلى أخلاق الدولة ؛ لأنّ كسب السلطة والاحتفاظ بها ثانياً هو الهدف أوّلاً وأخيراً .

ومن نافلة القول نقول : إنّ تشرشل مرّ ذات يوم مع صديق له على مقبرة في بريطانيا ، فرأى مكتوباً على قبره «هذا قبر السياسي المحنّك الذي كان صادقاً في جميع أموره» ، فضحك تشرشل قائلاً لصديقه : كأنّه نام في هذا القبر نفران أحدهما السياسي المحنّك والآخر الصادق الذي لم يكذب في عمره أبداً، إشارة إلى أنّ السياسي لا يمكن أن يكون صادقاً إطلاقاً .

المصالح الحقيقية هي الأساس

وأمّا قول بعضهم لا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة وإنّما مصالح

---

(١) قاعدة الغاية تبرر الوسيلة وقاعدة الأهم والمهم .

دائمة[1] ، فإنها قاعدة غير صحيحة على إطلاقها ، والصحيح هو أن المصالح إذا كانت أهمّ من الوسائط والمقدّمات وكانت مصالح حقيقية عقلائية ، يكون الأمر من باب الأهمّ والمهمّ . وليست هذه القاعدة كليّة أيضاً ، وإن كانت أقرب إلى الصواب من كون الغاية تبرّر الوسيلة .

(١) وهي نظرية الشيوعيين في الحكم .

الفصل الخامس

التاريخ صراع بين الحق والباطل

انتصار الحق على الباطل

مسألة : الحقّ دائماً ينتصر على الباطل ، وهذا ما تدلّ عليه فلسفة التاريخ في مختلف القصص ، وما نراه اليوم في العالم من نصرة الحقّ في مختلف أبعاده من حرّية ، وقوّة ، وإعطاء كثير من الناس حوائجهم ، وتقارب الأمم بعضهم إلى بعض ، إلى غير ذلك كلّه من هذه الفلسفة ، التي هي الروح العامة بالنسبة إلى التاريخ ، ولو لم تكن هذه الروح العامة ، لم تكن هناك حرّية ، ولا أخوة ، ولا مساواة في مواردها ، ولا أمن ، ولا ما أشبه ذلك ، لأن التأريخ في فلسفته وحقيقته قائم على مبادىء معنوية ، تستهدف فهم الحقيقة ، والفصل بين الحق والباطل ، وإلاّ فإن السرد المادي للتاريخ لا يمثل إلاّ وسيلة لاستنتاج الحقائق المعنوية. فقد ذكر القرآن الحكيم آيات بهذا الصدد ، مثل قوله تعالى : ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**﴾ [1] .

ومعنى ﴿**كَانَ زَهُوقاً**﴾ ما من طبيعته الاضمحلال ، لأنّ الباطل لا يساوق الحياة العامة حسب تقرير الله ﷻ ، ولذا ليس من طبيعة الباطل البقاء ، وإنّما البقاء بجهة القسر ، والقسر لا يدوم ، كما قاله الحكماء .

وقال ﷻ : ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ [2] أيّ: زهوقاً مظهرياً ، وإن كان في واقعه هو عدم وسراب .

وقال ﷻ : ﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ◆ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا**

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨١ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٨ .

يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (١) .

وقال ﷻ : ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ (٢) ، فإنّ محو الله الباطل ، تكويني وتشريعي ، حيث إنّ الله ﷻ جعل الحياة بصورة لا يدوم فيها الباطل ، فإذا دام ، فهو وقتي .

وقال ﷻ : ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٣) .

وقال ﷻ : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤) ، وهذه هي طبيعة الحياة ، وهذه هي جوهر فلسفة التاريخ ، حيث يموت الباطل باندثار سلطانه المادي ، ويخلد الحق بمبادئه وقيمه .

ولا يقال : إنّ النبي الفلاني قتل أو ما أشبه ذلك ، حيث قال ﷻ : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥) ، وقال ﷻ : ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (٦) .

لأنا نقول : إنّ نصر الإنسان لله ﷻ هو الذي يواكب الحياة حسب ما قرّره الله ﷻ .

وقال ﷻ : ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧) نصراً مادّياً ومعنوياً ، ولكن من الواضح أنّ الله تعالى جعل الدنيا دنيا أسباب ، فاللازم أن يتّبع المؤمنون الأسباب حتّى يصلوا إلى النصر .

وقال ﷻ : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ◆ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ◆

---

(١) سورة سبأ : الآية ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٤ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٥٦ .

(٤) سورة يونس : الآية ١٠٣ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٩١ .

(٦) سورة الحج : الآية ٤٠ .

(٧) سورة الروم : الآية ٤٧ .

﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١) ، ولاشكّ أنّ المرسلين وجند الله هم الغالبون وإن كان في طريق ذلك بعض المشكلات .

وقال ﷻ : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ (٢) ، ففي الحياة الدنيا ينصرون بالتقدّم العسكري والعلمي ، أمّا يوم يقوم الأشهاد فهو يوم المحشر ، فالنصر للرسل وللذّين آمنوا بدون أيّ تأخير .

وقال ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٣) ، فانْ علم الذين آمنوا بأنّ الله ينصرهم ، وأنّ الحقّ لهم ومعهم ، وأنّ الغلبة في النهاية على الأعداء من نصيبهم ، فإن هذا يثبّت أقدامهم ويقيم أمورهم ، كما قال ﷻ : ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (٤) ، وقال ﷻ : ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ (٥) .

وقال ﷻ : ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (٦) ، ولاشكّ أنّ الغلبة لله ﷻ ، فإنّ الأمر لا يفوته مهما طال الزمن .

وقال ﷻ : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧) ، وثواب الدنيا عبارة عمّا يعود إلى المرسلين والمؤمنين ، من ثاب

---

(١) سورة الصافات : الآيات ١٧١ ـ ١٧٣ .

(٢) سورة غافر : الآية ٥١ .

(٣) سورة محمد : الآية ٧ .

(٤) سورة فصلت : الآية ٣٠ .

(٥) سورة فصلت : الآية ٦ .

(٦) سورة المجادلة : الآية ٢١ .

(٧) سورة آل عمران : الآيات ١٤٦ ـ ١٤٨ .

يثوب ، يعني : رجع ، هذا بالنسبة إلى ثواب الدنيا المحدودة . أمّا بالنسبة إلى ثواب الآخرة فحسن ثواب الآخرة من نصيبهم . والآية الكريمة تشمل النصر ، والغلبة ، والفتح ، وخيرات الدنيا .

ثم إن الغلبة ليست غلبةً أخروية فقط بل تشمل الغلبة الدنيوية ، كما قال ﷻ : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١) ، وقال ﷻ : ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . . . وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (٢) ، فإنّ الصبر مفتاح الفرج (٣) ، والإنسان الضعيف دائماً يوفّر لنفسه أسباب القوّة والغلبة ، ولهذا يرث طرف الشرق وطرف الغرب من بلاده سواء كان مصر ، أو العراق ، أو إيران ، أو غير ذلك .

وقال ﷻ : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤) ، فإنّ الإنسان المتّقي هو الذي ينجح ويغلب كما قال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ♦ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٥) ، وقال ﷻ : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (٦) ، فالملائكة من وراء الذين يستغيثون ربّهم في إنجاحهم وإنجازهم .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠١ .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ١٢٨ و١٣٧ .

(٣) إشارة إلى الحديث الوارد (الصبر مفتاح الفرج) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج٢٠ ص ٣٠٧ ب ٥١٤.

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٢٣ .

(٥) سورة الطلاق : الآيات ٢ ـ ٣ .

(٦) سورة الأنفال : الآية ٩ .

إنْ قلت : كيف قتل الإمام الحسين عليه السلام مع جميع هذه الوعود الإلهيّة ؟ .

قلت : إنّ الإمام الحسين عليه السلام هو الذي اختار الشهادة ؛ ليكون رمزاً للمظلومية ، وليكون دين الله هو الحاكم ، ويزهق الحكّام الأمويون ومن أشبههم على طول التاريخ بدمائه الزكيّة الطاهرة ، وقد انتصر الإمام عليه السلام ؛ لأنّ نهضته امتدت عبر القرون لتنتج ثورات وانتفاضات ، رافعة شعارات الحرية بوجه الاستبداد ، والطغيان ، والظلم ، ولازال الأحرار في العالم ينتهلون من معين قيمه ومبادئه .

وقال تعالى : ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**﴾ [1] ، فإنّ العجب لا يوجب النجاح بل يوجب السقوط ، كما قال علي عليه السلام : **(أوحش الوحشة العجب)** [2] .

وقال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [3] ، وكلّ شيء في الكون جند لله تعالى ، قدّر الله لها أن تسير مسيرة خاصّة في الحياة .

ومن الواضح : أنّ الشخص الذي يواكب الحياة هو الذي ينجح في النهاية وإن تأخّر ذلك زماناً ما ، وقد يكون انتصاره بعد أجيال تحقق انتصاره المادي والمعنوي .

وقال تعالى : ﴿**فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ◆ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا**﴾ [4] ، ومن الواضح أنّ المغانم هنا ليست مغانم حربية وحسب ، فكلّ

---

(١) سورة التوبة : الآية ٢٥ .

(٢) نهج البلاغة قصار الحكم : الحكمة ٣٨ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٨ ص١٥٧ ب٣٨ ، غرر الحكم ودرر الكلم : ص٣٠٩ ، مشكاة الأنوار : ص٣١٤ ، معدن الجواهر : ص٤٢ .

(٣) سورة الفتح : الآية ٤ .

(٤) سورة الفتح : الآيات ١٨ـ ١٩.

شيء يستفيده الإنسان في حياته هي غنيمة وفائدة .

وقال تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ (١) ، فإنّ الإنسان الذي يسير في مسير الله تعالى ، تكون في قلبه السكينة ، والاطمئنان ، والهدوء ؛ لأنّه يعلم ارتباطه بالله تعالى ، ويعلم أنّه يسير في مسير الحياة الصحيحة ، ويواكب التقدير الإلهي .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ♦ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ♦ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ (٢) ، فمن الواضح أنّ الهجوم عليهم من فوق ومن أسفل ليس خاصّاً بذلك الوقت بل من يكون مع الله تعالى يكون نصيبه الغلبة حتّى إذا جاءهم الأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم ، وحتّى إذا زاغت أبصارهم بسبب الرعب وبلغت قلوبهم الحناجر ، حيث إنّ الإنسان الذي يخاف خوفاً شديداً ؛ تتوتّر أنفاسه ، وينشأ من ذلك ضغط الرئة على القلب فيرتفع القلب إلى الحنجرة قليلاً ، وهكذا قوله تعالى : ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ (٣) ، فالأعداء دائماً مرعوبون مهما كان عددهم وعدّتهم بينما المؤمنون دائماً في سكينة ، وهدوء ، واطمئنان .

فأهل الآخرة وأهل الحقّ دائماً يصيبهم خير الدنيا والآخرة ، بينما أهل الباطل وأهل الدنيا فقط ليس من نصيبهم ذلك ، قال تعالى : ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٦ .

(٢) سورة الأحزاب : الآيات ٩ ـ ١١ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٢٦ ، سورة الحشر : الآية ٢ .

﴿كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (١) ، حيث إنّ الإنسان الذي يعلم أنّه على الحقّ وأنّه ينتصر في النهاية ، له من الأمور العزم والجزم .

وقال تعالى : **﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ◆ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** (٢) ، فإنّ **(الصبر مفتاح الفرج)** (٣) ، والتوكّل على الله هو سبب الغلبة ؛ كما قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لأبي ذر : **(يا أبا ذر ، إن سرّك أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله)** (٤) ، وليس المراد لقلقة اللسان فقط بل الأخذ بموازين التوكّل عملياً ، ونفسياً ، وروحياً ، وفكرياً .

وقال تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ◆نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** (٥) ، فإنّ الإنسان المتعلّق بالله ، والمستقيم في العمل ، يبعث له الله تعالى الاطمئنان ، وعدم الخوف والحزن ، والملائكة التي هي أرواح من قبل الله تعالى تتنزّل عليه بتقوية قلبه في قبال الذين تتنزّل عليهم الشياطين ، كما قال تعالى : **﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾** (٦) .

وقال تعالى : **﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** (٧) ، فإنّ رحمة الله أمرٌ تكويني وخارجي ، وكلاهما من نصيب من يطيع الله ورسوله .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨٦ .

(٢) سورة النحل : الآيات ٤١ ـ ٤٢.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ٢٠ ص ٣٠٧ ب ٥١٤ .

(٤) للإطلاع التفصيلي على وصية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لأبي ذر رضي الله عنه راجع تنبيه الخواطر : ج٢ ص٣٠٠ ـ ٣١٤ .

(٥) سورة فصلت : الآيات ٣٠ـ ٣١ .

(٦) سورة الأنعام : الآية ١٢١ .

(٧) سورة آل عمران : الآية ١٣٢ .

وقال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [1] ، فهو خير عاجل وأول حسن ، لأنّ الأولى لمثل هؤلاء الأفراد جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتّقين .

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

سُنة انتصار أهل الحق

مسألة: من سنن التاريخ أنّ أهل الحقّ دائماً منتصرون وغالبون ، لأنّ الحقّ يواكب الحياة ، فكلّ شيء في الحياة مبني على الحقّ ، والعدل ، والصدق ، والواقعية ، وأهل الحقّ أهل هذه الأمور . فلذا فهم منتصرون وغالبون في هذه الحياة الدنيا ، وهذا أصلٌ كلّي أوّلي ، بينما ما يكون خلافه استثناءً وثانوياً ؛ نظير الأمور الطبيعية ، فإنّ الأصل في الدواء هو الشفاء لكن قد لا يشفيه ، والأصل في موجبات الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ؛ المزاجية ، أن تكون الأمور على وفقها ، والاستثناء هو العكس ، وكذلك بالنسبة إلى سائر الأصول الأوّلية ، فإنّ معنى الأصل هو الأوّلية والدائمية ، ويكون خلاف الأصل من الاستثناء لا من القاعدة .

وعلى كلّ حال : فإنّ جملة من الآيات تدلّ على هذه الحقيقة ، فقد قال تعالى : **﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** [1] ، ومن الواضح أنّ شرط العلوّ أن يكون الإنسان مؤمناً ؛ لأنّ المؤمن هو الذي يواكب الحياة لا غير المؤمن ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : **(الإسلام يعلو ولا يعلى عليه)** [2] .

هذا بالنسبة إلى الأمور المادّية ، وأمّا بالنسبة إلى الأمور المعنوية فأهل الحقّ دائماً هم الأعلون ؛ لأنّهم هم الواقعيون ، قال تعالى : **﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ**

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣٩ .

(٢) المناقب : ج٣ ص٢٤١ ، غوالي اللآلي : ج١ ص٢٦٦ ح ١١٨ وج٣ ص٤٩٦ ح١٥، نهج الحق : ص٥١٥ الفصل الحادي عشر ، مستدرك الوسائل : ج١٧ ص١٤٢ ب١ ح٢٠٩٨٥، وسائل الشيعة : ج٢٦ ص١٤ ب١ ح ٣٢٣٨٣ ، متشابه القرآن : ج٢ ص ٢١٢ .

آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ◆ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ◆ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ◆ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [١] ، فإنّ الله ﷻ يدافع عن الذين آمنوا ، ودفاع الله مادّي ومعنوي ، كما أنّ الإذن للذين يقاتلون بأن يتقدّموا ويرتفعوا ؛ لأنّهم ظُلموا ، والمظلوم دائماً يكون في تحفّز وواقعية ، بينما الظالم يكون في غرور وانحراف. والذي يقاتل حيث إنّه ظُلِم ، يكون منصوراً ، فالقدرة من الله ﷻ ، والتحفّز من الإنسان المظلوم ، وهما يسيران به إلى رفع الظلم .

ومصداق الذين ظلموا : ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ**﴾ [٢] ، ولا يقولون : ﴿**ربّنا الله**﴾ بمجرّد اللفظ وإنّما بالعمل أيضاً كما تقدّم ، فإنّ القول باللغة العربية يطلق على العمل أيضاً .

ومن الواضح : أنّه لولا أن الله ﷻ يدفع غير المستقيم بسبب المستقيم لهدّمت صوامع للمسيحيين ، وبيع لليهود ، وصلوات للمجوس ، وهؤلاء هم أصحاب الأديان الأولى ، وإن حرّفوا ، وبدّلوا ، ونسوا حظّاً ممّا ذكّروا به ، ومساجد للمسلمين ، ولينصرنّ الله من ينصره فإنّ من ينصر الله يواكب الحياة ويكون واقعياً حقيقياً ، ومن الواضح أنّ الذي يواكب الحياة ويكون حسب موازين الكون يكون منصوراً ، ومنهم الذين ينصرون الله هم الذين مكّنهم الله ، وصار بيدهم الحكم ، والسيادة ، والسلاح ، والعزّة ، فإنّهم : ﴿**أَقَامُوا الصَّلاَةَ**﴾ [٣] ،

---

(١) سورة الحج : الآيات ٣٨ ـ ٤١ .

(٢) سورة الحج : الآية ٤٠

(٣) سورة الحج : الآية ٤١ .

الارتباط بين الإنسان والله ، و : ﴿آتُوا الزَّكَاةَ﴾ [١] ، الارتباط بين الإنسان والإنسان ، ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [٢] ؛ حتّى تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى ، ولله عاقبة الأمور ، لأنّ كلّ شيء ينتهي إلى الله ، كما قال ﷻ : ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [٣] .

وفي آية أخرى : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ◆ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٤] ، فإنّ رحمة الله إنّما تشمل مثل هؤلاء الأفراد .

وقد ذكرنا سابقاً أنّ غير هؤلاء طفيليون بالنسبة إلى هؤلاء ، حيث إنّ غير هؤلاء وأمثالهم لا يستحقّون الحياة المرفّهة والرحمة .

وقال ﷻ : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ◆ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [٥] حتّى يكونوا هم سادة الأرض ، وبيدهم المال ، والسلاح ، والحكم ، وغير ذلك .

وقال ﷻ : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ◆ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [٦] ، فإنّ أهل الباطل هم الذين يريدون أن يقولوا قولاً ضدّ الحق ، ويريدون إطفاء نور الله بالقول ، وهيهات أن يطفأ نور الله بالقول ، كما أنّ

---

(١) سورة الحج : الآية ٤١ .

(٢) سورة الحج : الآية ٤١

(٣) سورة النجم : الآية ٤٢ .

(٤) سورة النور : الآيات ٥٥ ـ ٥٦ .

(٥) سورة القصص : الآيات ٥ ـ ٦ .

(٦) سورة الصف : الآيات ٨ ـ ٩ .

نور الشمس وهو شعبة من شعب نور الله ﷻ لا يمكن أن يطفأ بسبب ما يروّج من أقاويل وأراجيف .

وقال ﷻ : ﴿إنّ الأرضَ لله يُورثُها مَنْ يَشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتّقين﴾ [١] ، فإنّ الباطل وإن مشى مدّة وهرّج زماناً ، لكن العاقبة للّذين يواكبون الحياة ويتّقون الله في أوامره ونواهيه ، كما أنّ العاقبة للذين يستعملون الدواء وإن كان غير مستعملي الدواء يهرِّجون بأنّهم برئوا وأنّ الحقّ معهم .

وفي آية أخرى : ﴿ولَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُور منْ بَعْد الذِّكْر أنَّ الأرْضَ يَرثُهَا عبَاديَ الصَّالحُونَ﴾ [٢] ، وهم الصالحون للحياة أيضاً ، والله ﷻ بعد أن ذكّر بالأحكام ، والعقائد ، والأخلاق ، وما أشبه ذلك ، في كتاب الزبور ، الذي هو كتاب داود ، كما قال ﷻ : ﴿وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ [٣] ، ذكر هذه الحقيقة بأنّ الأرض تكون للصالحين من عباد الله ﷻ ، الذين يصلحون للحياة . وقال ﷻ : ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقبَةَ الَّذينَ أسَاءُوا السُّوأى أنْ كَذَّبُوا بآيَات الله وكَانُوا بهَا يَسْتَهْزئُونَ﴾ [٤] ، فإنّ الضلالة تزيد عليهم ، كما أنّ الهداية تزيد عليهم ـ على ما ذكرناه سابقاً ـ حيث إنّ كلّ شيء من الماديات والمعنويات في حالة تنامٍ ، فمن الطبيعي أن يكون الذين يعملون السيئات ينتهي حالهم إلى التكذيب بآيات الله ، فالذين يكذبون بآيات الله ويستهزئون بها فثمرة عصيانهم وظلمهم أنّهم يسلب منهم نور الهداية مطلقاً فيتجهون للتكذيب ، والكفر ، والانحراف ، والاستهزاء ، وتكون عاقبة مثل هؤلاء السقوط في الدنيا والآخرة ، كما قال ﷻ في آيات أخرى : ﴿اللهُ يَسْتَهزئُ بهمْ ويَمُدُّهُمْ في طُغْيَانهمْ يَعْمَهُونَ﴾ [٥] ، وقال

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٢٨ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٠٥ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٥٥ .

(٤) سورة الروم : الآية ١٠ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٥ .

تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [(١)]، فإنّ المنحرف في أعماله، ينحرف في قلبه أيضاً، كما جاء في الحديث: **(فجعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه)** [(٢)].

ومن الواضح: أنّ الله تعالى لا يشمل الفاسقين برعايته وعنايته، وإن كانت الهداية العامة تشملهم جميعاً، فإنّ الهداية عامّة وخاصّة، فالهداية العامّة هي تذكير الأنبياء ومن إليهم بموازين الهدى، ثمّ قد يقبل بعض الناس ذلك، وقد لا يقبل كما قال تعالى: ﴿أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [(٣)].

أمّا الهداية الخاصّة؛ فهي الإيصال إلى المطلوب من الحقّ، والعدل، والسعادة، وخير الدنيا والآخرة.

ومن الواضح: أنّ المنحرفين يزيّن لهم الشيطان أعمالهم، فيمضون في طريق الجهالة والشر، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ♦ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [(٤)]، وفي آية أخرى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [(٥)]، وفي آية أخرى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [(٦)]، وفي آية أخرى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [(٧)]، فإنّ الشركاء الذين هم ينسبونهم إلى كونهم شركاء الله، زيّنوا

---

(١) سورة الصف: الآية ٥.

(٢) فقد ورد عن علي عليه السلام: (إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد، الجهاد بأيديكم ثم بألسنتكم ثم بقلوبكم، فمن لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكر منكراً قلب قلبه فجعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه) نهج البلاغة: قصار الحكم الحكمة ٣٧٥، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٩ ص٣١٢ ب٣٨١، مستدرك الوسائل: ج١٢ ص١٩٤ ب٤ ح١٣٨٥٩.

(٣) سورة فصلت: الآية ١٧.

(٤) سورة الحجر: الآيات ٣٩ ـ ٤٠.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٤٣.

(٦) سورة النمل: الآية ٢٤.

(٧) سورة الأنعام: الآية ١٣٧.

لهم قتل أولادهم ذكوراً وإناثاً ؛ الأنثى بسبب العار ، والذكر بسبب الفقر على الأغلب ، وفي آية أخرى : ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ (١) ، والقرناء هم من الجنّ ومن الإنس ، فالجنّ يوسوس في قلوبهم ، والإنس يقول لهم ويعمل ما يسبّب لهم الانحراف ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (٢) .

وبعد أن تتمّ الحجّة على جميع الناس ؛ نتيجة عمل الأنبياء ، والرسل ، ونصر الأنبياء والأوصياء ، وإنزال الكتب ، يتّخذ أهل الباطل طريق الانحراف والضلال ، بمحض اختيارهم وإرادتهم ، وحينئذ ينشط الشيطان للوسوسة لهم ، ويصوّر أعمالهم في أعينهم بأشكال جميلة وحسنة ، كما قال تعالى : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (٤) .

إذاً : فترك الله تعالى الإنسان بعد إتمام الحجّة عليه إنما يكون مستنداً إلى الله المقدّر في إطار القدر ، ولذا نسب هذا التزيين الشيطاني في بعض آيات القرآن إلى الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ

---

(١) سورة فصلت : الآية ٢٥ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٣٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١١٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٢١ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ١٠٨ .

(٦) سورة فصلت : الآية ٢٥ .

(٧) سورة النمل : الآية ٤ .

الدُّنيَا﴾[(١)] ، وقال تعالى : **﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[(٢)] ، وقال تعالى : **﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾**[(٣)] ، وقال تعالى : **﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[(٤)] ، والمراد بالإسراف الانحراف عن طريق الله تعالى ، كما قال بالنسبة إلى فرعون : **﴿لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾**[(٥)] ، وقال تعالى : **﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾**[(٦)] ، لأنّ الهداية خاصّة بالله تعالى ، إذ لا هداية فيما سواه ، كما قال تعالى : **﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾**[(٧)] ، وقال تعالى : **﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾**[(٨)] ، وقال تعالى : **﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾**[(٩)] ، والتزيين يكون ابتداءً من النفس الأمّارة بالسوء ، ومن الشيطان ، ينتهي إلى الله تعالى ، كما تقدّم وجه ذلك ، ومثل هؤلاء الأشخاص يستدرجون إلى النتيجة النهائية وهي العقاب ، والعذاب ، والانحراف في الدنيا ، والنار في الآخرة ، كما أنّه يملي لهم ، قال تعالى : **﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**[(١٠)] ، فما يعطون من المال ، والأولاد ، والأنفس ، والعزّة ، والجاه ، وما أشبه ذلك ، كلّه إملاء ، واستدراج ، وليس خيراً كما يزعمون

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٢ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٣٧ .

(٤) سورة يونس : الآية ١٢ .

(٥) سورة يونس : الآية ٨٣ .

(٦) سورة الرعد : الآية ٣٣ .

(٧) سورة الأعلى : الآية ٣.

(٨) سورة فاطر : الآية ٨ .

(٩) سورة محمد : الآية ١٤ .

(١٠) سورة آل عمران : الآية ١٧٨ .

ويزعم غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (١) ، وفي آية أخرى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ◆ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (٢) ، فإنّهم لا ينسون نسياناً حقيقياً بل ينسون نسياناً واقعياً ، كما قال تعالى : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (٤) ، إلى غير ذلك ممّا استعمل فيه النسيان بمعنى الترك .

وقال تعالى في آيات أخرى في صدد ما ذكرناه من سنن التاريخ : ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥) .

وقد شاهدت خلال حياتي كم أخذ الله بغتة في الحرب العالمية الثانية حيث أدركت سنن الله في وقائع هذه الحرب من أوّلها إلى آخرها ، وكذلك بالنسبة إلى الذين ماتوا أو قتلوا فجأة كعبد الكريم قاسم الذي قتل فجأة ، وعبد السلام عارف الذي صعد إلى السماء واحترق ، وكذلك أحمد حسن البكر الذي مات فجأة نتيجة زرق صدّام له إبرة مسمومة (٦) ، إلى غير ذلك من أمثال أتاتورك (٧) ،

---

(١) سورة القصص : الآية ٧٩ .

(٢) سورة الأنعام : الآيات ٤٤ ـ ٤٥ .

(٣) سورة الحشر : الآية ١٩ .

(٤) سورة طه : الآية ١١٥ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ٩٥ .

(٦) وكان ذلك بواسطة الدكتور صادق علوش حيث زرقه إبرة تؤدي لارتفاع السكر الذي كان قد ابتلي البكر به ، وقد تطرق الإمام المؤلف ﷺ إلى هؤلاء في كتابه «تلك الأيام» .

(٧) قول آغاسي مصطفى كمال أفندي المشهور بـ(أتاتورك) ، ولد سنة ١٢٩٨هـ (١٨٨١م) وحكم تركيا بعد انقلاب عسكري سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) واستمر في الحكم إلى أن أدركه الموت سنة ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) ، حكم بسمات عديدة أبرزها الفاشية والاستبداد وقتل المفكرين

وياسين الهاشمي ، وغيرهم ، وكذلك يحدّثنا التاريخ عن أخذ الله الكفّار بغتة مثل : فرعون ، ونمرود ، وقارون [(١)] ، وغيرهم ، وقال ﷻ : ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ◆ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ [(٢)] ، فإنّ الله ﷻ يمكر ، ومكره سريع المفعول ، ولذا سمّاه كيداً ، قال ﷻ : ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ**﴾ [(٣)] ، وقال ﷻ : ﴿**يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾ [(٤)] ،

والعلماء ففي سنة ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م) أصدر ثلاثة قرارات : أ. إلغاء الخلافة وطرد جميع أفراد آل عثمان خارج البلاد . ب. إلغاء وزارة الأوقاف والأمور الشرعية . ج. توحيد التعليم . وبموجب هذه القرارات ألغى التشريعات الدينية من الأنظمة الحقوقية والمحاكم وقلص دور المؤسسات الدينية وجعلها تحت إشراف الدولة العلمانية لضبط حركة العلماء وأئمة الجمعة والجماعة والخطباء والمؤلفين ، وضبط حركة التدريس لمنع المناهج الدينية في المدارس ، ومنع التمثيل في الجانب السياسي بإلغاء الأحزاب الدينية . وفي سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م) أجبر الشعب التركي على تقليد الغرب ؛ فأصدر «قانون الملابس» بإبدال الطربوش بالقبعة وبدأ تطبيقه بالتدريج على حرسه الخاص ثم على الجيش ثم على الشعب ، ونصب محاكم عسكرية في المدن ؛ لتحكم على مئات الناس من لم يقبلوا بقراره بالشنق والرمي بالرصاص والسجن . و لا يخفى أن الاستعمار البريطاني ولأجل تغيير عقول الناس بأفكارهم وعاداتهم وأزيائهم وأساليب حياتهم وبكل شيء يرتبط بنشأتهم الدينية الإسلامية وبماضيهم ؛ نصب أربعة عملاء في الشرق الأوسط وفي فترة زمنية متقاربة وهم : أمان الله خان في أفغانستان ، ورضا بهلوي في إيران ، وياسين الهاشمي في العراق ، وأتاتورك في تركيا . راجع «الذئب الأغبر» للمؤلف هـ. س. أرمسترونج، و«العثمانيون في التاريخ والحضارة» د. محمد حرب، و«الرجل الصنم» لضابط تركي .

(١) قارون : ثري من أثرياء العبرانيين في أيام النبي موسى عليه السلام استكبر على موسى وحاربه فترة طويلة ، وقد ذكره القرآن في عدة آيات ، منها : ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليه﴾سورة القصص ، الآية ٧٦ ،﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾سورة القصص، الآية ٧٩ ،﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات﴾ سورة العنكبوت ، الآية ٣٩ ،﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾سورة غافر ، الآية ٢٤. قتل قارون سنة ٥٤٦ ق. م. بعد أن ابتلعته الأرض .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ١٨٢. ١٨٣ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٥٤ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٤٢ .

وقال تعالى : ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ (١) ، فإنّ سهم الله سيصيبهم قبل أن يبدؤوا بإطلاق سهامهم .

وفي آية أخرى : ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَاب﴾ (٢) ، ألم يشاهدوا ما أخذناه من المجرمين والمفسدين . وقال تعالى : ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيث سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ◆ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٣) ، لكن من شأن الله تعالى أنّه لا يأخذ أهل الباطل بسرعة ، لأنّ الله لا يمكن الفرار من حكومته .

ثم إنّ تأخيرهم لعلّهم يرجعون ، وإن كان الله تعالى ليعلم أنّهم لا يرجعون ، فالإمهال سنّة الله تعالى وفلسفة التاريخ ، فإنّه لا يستعجل في معاقبة أهل الباطل وإنّما يعجل من يخاف الفوت . وعدم العجلة لمراعاة مجموعة من المصالح ، مثل إتمام الحجّة أو لعل جميعهم أو بعضهم يندمون ويرجعون ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٤) ، والتاريخ مليء بقصص الذين أمهلوا ثم رجعوا كما حدث في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وزمن الإمام علي عليه السلام ، وزمن الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام ، ورأينا أمثال الحرّ الرياحي (٥) ، وغيره ، من الذين تابوا إلى

---

(١) سورة يونس : الآية ٢١ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٣٢ .

(٣) سورة القلم : الآيات ٤٤ ـ ٤٥.

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٦٤ .

(٥) الحر بن يزيد بن ناجية بن فعنب بن عتاب ، يعد من أشراف الكوفة ورؤسائها ، وإن جده الأعلى «عتاب» كان نديم النعمان بن المنذر ، ملك الحيرة ، ومن سلالة الحر صاحب الوسائل ، الحر العاملي . ندبه عبيد الله بن زياد بألف فارس لحرب الإمام الحسين عليه السلام وعندما خرج من القصر في الكوفة نودي من خلفه : «أبشر يا حر بالجنة» . فالتفت الحر فلم ير أحداً . فقال في نفسه : «والله ، ما هذه بشارة وأنا أسير إلى حرب الحسين بن علي» . وفي يوم العاشر من محرم سنة ٦٠هـ توجه إلى الإمام الحسين عليه السلام مع ولده «بكير»

الله ، ورجعوا إلى الحقّ ، ولولا إمهال الله ﷻ لم يرجعوا .

قال ﷻ : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١) ، فالأجل يأتي في وقته بلا تأخير أو تقديم ، فهو يتحقّق في الوقت الذي قدّره الله ﷻ ، وقال سبحانه : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

تائباً ، وهو يقول : «اللهم إليك أنت... فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيك» . فلما دنا من الحسين ، قلب ترسه وقال : «أنا تائب إلى الله مما صنعت» ، ثم خاطب الجيش الأموي قائلاً : «يا أهل الكوفة ، لأمكم الهبل والعبر ؛ إذ دعوتموه وأخذتم بكظمه وأحطتم به من كل جانب فمنعتموه التوجه إلى بلاد الله العريضة حتى يأمن وأهل بيته ، وأصبح كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، وحلأتموه ونساءه وصبيته وصحبه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهود والنصارى والمجوس وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه وهاهم قد صرعهم العطش ، بئس ما خلفتم محمداً في ذريته لا سقاكم الله يوم الظمأ». ثم برز للقتال وهو ينشد :

إني أنا الحر ومأوى الضيف ... أضرب في أعناقكم بالسيف
عن خير من حل بأرض الخيف ... أضربكم ولا أرى من حيف

وعند قتاله كان يقول :

آليت لا أقتل حتى أقتلا ... أضربهم بالسيف ضربا معضلا
لا ناقل عنهم و لا معللا ... لا عاجز عنهم و لا مبدلا

أحمي الحسين الماجد المؤملا

ثم قتل ابنه سبعين فارساً وقتل هو نيفاً وأربعين ، وقيل كما عن دلائل العصمة للسبزواري : الفاً ومائة ونيفاً وخمسين ثم استشهد . وكان أول من قتل من أصحاب الإمام ، وأبّنه الإمام عليه السلام قائلاً : «بخ بخ يا حر ، أنت حرّ كما سمّتك أمّك وأنت الحر في الدنيا وسعيد في الآخرة» . راجع تاريخ الطبري : ج٦ ص٢٤٤، بحار الأنوار : ج٤٥ ص١٤، مثير الأحزان لابن نما ، أسد الغابة ، إبصار العين في أنصار الحسين ، معالي السبطين في أحوال الحسن والحسين ، روضة الواعظين ، ينابيع المودة للقندوزي : ج٣ ، مناقب آل أبي طالب : ج٣ ، الأمالي للصدوق ، اللهوف في قتلى الطفوف لابن طاوس ، مقتل الحسين لابن مخنف ، مقتل الحسين للمقرم ، نفس المهموم للشيخ عباس القمي .

(١) سورة النحل : الآية ٦١ .

بمَا كَسَبَتْ أيْدي النَّاس ليُذيقَهُمْ بَعْضَ الَّذي عَملُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجعُونَ﴾ [١] ، والله يعلم أنّه يرجع أو لا يرجع ، لكن حيث إنّ المكان مكان **﴿لعلّ﴾** جاء الله ﷻ بهذه الكلمة ؛ إذ لا مجهول لله ﷻ حتّى يقول ليت أو لعلّ بالنسبة إلى نفسه وإنّما يقول ذلك بالنسبة إلى الجري المعهود .

وفي آية أخرى : **﴿وَلَوْ يُؤَاخذُ اللهُ النَّاسَ بمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا منْ دَابَّة وَلَكنْ يُؤَخّرُهُمْ إلَى أجَل مُسَمى فَإذَا جَاءَ أجَلُهُمْ فَإنَّ اللهَ كَانَ بعبَاده بَصيراً﴾** [٢] ، والمراد بالدابّة إمّا الإنسان ، وإمّا الأعمّ حتّى من النمل ، وما أشبه ذلك من الحيوانات الصغيرة ، وإنّما يؤخذون بذنب الإنسان حيث إنّ من في الدار التي فيها الوباء يصيبه الوباء ، وإمّا بسبب أنفسهم حيث إنّه ورد : **(ما من طير يصاد إلاّ بتركه التسبيح)** [٣] في ذلك اليوم .

ثم إنّ الظاهر من الآيات والروايات أنّ الحيوانات أيضاً تطيع الله وتعصيه ، كما قال ﷻ : **﴿وَالطَّيْرُ صَافَّات كُلٌّ قَدْ عَلمَ صَلاتَهُ وَتَسْبيحَهُ﴾** [٤] ، هذا في مجال الطاعة ، أمّا في مجال المعصية ، فمن قصّة الهدهد وسليمان عليه السلام إلى غير ذلك من الآيات والروايات ، يمكننا أن نستنتج أنّ الحيوانات تطيع الله وتعصيه أيضاً .

وقال ﷻ : **﴿وَمَا أصَابَكُمْ منْ مُصيبَة فَبمَا كَسَبَتْ أيْديكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثير﴾** [٥] ، لأنّ الله إذا لم يعفُ أخذ ، وإذا أخذ لا تكون مهلة ، ومن الحكمة

---

(١) سورة الروم : الآية ٤١ .

(٢) سورة فاطر : الآية ٤٥.

(٣) الكافي (فروع) : ج٣ ص٥٠٥ ح١٨ ، وفي غوالي اللآلي : ج١ ص٢٧٠ ، الحديث التالي عن الإمام الصادق عليه السلام : (والذي خلق الخلق وبسط الرزق أنه ما ضاع في بر ولا بحر إلا بترك التسبيح في ذلك اليوم ، وأن أحب الناس إلى الله تعالى أسخاهم كفاً وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله له في ماله) .

(٤) سورة النور : الآية ٤١ .

(٥) سورة الشورى : الآية ٣٠ .

والعقل أن يعطي الله المهلة للعصاة والمخالفين ، لكن ترك الله ﷻ العصاة ، والمخالفين ، والكفرة ، ليس بدون ابتلائهم بالمصائب ، والله ﷻ يبتلي أهل الباطل بالمصائب ، والمشاكل ، والمعاكسات ، والضيق ، لعلّهم ينتبهون ، ويتوبون إلى الله ، ويرجعون عن غيّهم إلى الصراط المستقيم ، كما قال ﷻ : ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[1] ، وحدّ القارعة قريباً من دارهم للاعتبار والتخويف .

قال ﷻ : ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾[2] ، وسنة الأوّلين هي فلسفة التاريخ العامّة في كلّ الأمم ابتداءً من آدم إلى يوم القيامة ، وإحاقة المكر السيئ بأهل المكر ؛ لأنّ طبيعة الحياة أنّ الإنسان يرى ما فعله من خير أو شرّ ، كما قال ﷻ : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[3] ، وهذه المصائب تكون للتأديب والتنبيه ، وهذه تكون غالباً مؤقّتة محدودة وجزئية خاصّة وليست بعامّة ومطّردة ، وقد تحدث بسبب آثار كونية كالصاعقة والزلازل كما قال ﷻ : ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[4] ، وأحياناً تحدث بواسطة أناس آخرين ، أو بواسطة أشياء أخر ، كما أنّ «سدّ مأرب» هدمته الفئران وما أشبه ذلك ، كما لو اندفع أهل الحقّ ، أو فئة أخرى من أهل الباطل لقتال مجموعة من أهل الباطل فتسبّبوا في شدائد الحروب والثورات كمصاعبها ومضاعفاتها وما أشبه ذلك . فإذا لم يعمل التنبيه الغيبي ،

---

(١) سورة الرعد : الآية ٣١ .

(٢) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٧ .

(٤) سورة الرعد : الآية ١٣ .

أو الحيواني ، أو الإنساني ، أو ما أشبه ذلك ، ولم تحصل لأهل الباطل الندامة ، والاستغفار ، والرجوع ، ولم يبق أمل في عودتهم إلى طريق الحقّ وأخذهم بالواقع ، فإنّ هؤلاء يستحقون عندئذ عذاب الاستئصال ، كما قال ﷻ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ◆ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١) ، ومعنى ﴿ليمكروا﴾ العاقبة لا العلّة كما ذكرناه في قوله ﷻ : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (٢) ، وفي آية أخرى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (٣) ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية المباركة بأنّ إرادة الله ﷻ تعقب مخالفة الأوامر العقلية ، والله يأمرهم بأوامره التي تصلحهم ، فهم يخالفون ويفسقون ، كما يقول الطبيب : أمرته فخالفني ، أو فعصاني ، أو خالف أمري ، وحينئذ يستحقّون العقاب والتدمير ، والتدمير يكون بالأخذ بكلّ الجوانب لا بجانب واحد من جوانب الإهلاك ، والإذلال ، والخزي ، والخذلان .

وعلى أيّ حال : فهذه سنن الله التي سنّها في عباده ، وهي تشكّل بمجموعها ما يسمّى بفلسفة التاريخ .

---

(١) سورة الأنعام : الآيات ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٢) سورة القصص : الآية ٨ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ١٦ .

حتمية استئصال الباطل

مسألة: إنّ الكفر ، والفسوق ، والفجور ، والظلم ، والتعذيب ، تؤدّي إلى حتمية الاستئصال [(١)] ، حيث إنّ الله لا يؤخّر عقوبة الكافرين والفاسقين إلى الآخرة بل سيشملهم العذاب في الدنيا أيضاً ، ثمّ في القبر وأحياناً يصل عذابهم إلى النار الكبرى ، التي لا يموت فيها الإنسان ولا يحيا ، وهو ما يسمّى استئصالاً . وهو من فلسفة التاريخ ، وهو إحدى السنن الإلهيّة القطعية التي لا تتخلّف في أمّة عن أمّة ، ولا في جماعة عن جماعة ، وعند ذلك يكون النصر النهائي لأهل الحقّ والعقيدة الصحيحة والعمل الصالح ، والهزيمة والتقهقر لأهل الباطل والعقيدة الفاسدة ، ولذا أمر الله ﷻ الناس بأن يسيروا في الأرض وينظروا ؛ ليعرفوا ماذا كانت نتيجة أعمال أهل الباطل ، وماذا كانت نتيجة أعمال أهل الحقّ ؟ .

ومن الواضح : أنّ القوانين الكلّية العامّة تشمل المؤمن والكافر ، والعاصي وغير العاصي ، وبذلك يكون أهل الحقّ القليلون حتّى إذا كانوا ينهون عن المنكر ونحو ذلك ، أيضاً يشملهم العقاب إلاّ الشواذ والنوادر كما في لوط والمؤمنين به ، وفي نوح والمؤمنين به ، والله ﷻ يجازي بالإحسان أولئك القليلين الذين شملهم العقاب ، وقد ذكرنا في التفسير الموضوعي أنّه لماذا يكون قانون الله سبحانه وتعالى عاماً يشمل غير المستحقّين للعقاب والعذاب ؟ ، لأنّ ذلك مبنى العالم

(١) أن منشأ هذه الحتمية: الظواهر التي تحدد وقوعها شروط لا تسمح بالاستثناء وهو قائم على افتراضات أن هناك نظاماً في الكون وهذا النظام متكرر الوقوع في اطّراد، ويحكم ذلك الاطراد العلاقة بين العلة والمعلول والسبب والمسبب.

وإلاّ لانهدم ، ووجب أن يكون شيئاً آخر ، وانهدام العالم هو خلاف المصلحة ، وأن يكون شيئاً آخر أمرٌ لم يرده الله تعالى في هذا الكون ، ولعل لله تعالى أكواناً يكون فيها الاستثناء ؛ لأنّ لله تعالى ألوف الأكوان والعوالم ، كما دلّت على ذلك متواتر الروايات .

قال تعالى : ﴿إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنيَ عَنهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ الله شَيْئاً وَأُولَئكَ أَصْحَابُ النَّار هُمْ فيهَا خَالدُونَ ◆ مَثَلُ مَا يُنْفقُونَ في هَذه الْحَيَاة الدُّنْيَا كَمَثَل ريح فيهَا صرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلمُونَ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَد اسْتُهْزئَ برُسُل منْ قَبْلكَ فَحَاقَ بالَّذينَ سَخرُوا منْهُمْ مَا كَانُوا به يَسْتَهْزئُونَ ◆ قُلْ سيرُوا في الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الْمُكَذّبينَ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا منْ قَوْمه للَّذينَ اسْتُضْعفُوا لمَنْ آمَنَ منْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالحاً مُرْسَلٌ منْ رَبِّه قَالُوا إنَّا بمَا أُرْسلَ به مُؤْمنُونَ ◆ قَالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا بالَّذي آمَنْتُمْ به كَافرُونَ ◆ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْر رَبِّهمْ وَقَالُوا يَا صَالحُ ائْتنَا بمَا تَعدُنَا إنْ كُنْتَ منَ الْمُرْسَلينَ ◆ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارهمْ جَاثمينَ ◆ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكنْ لاَ تُحبُّونَ النَّاصحينَ﴾ (٣) ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي هي فوق حدّ التواتر ، وإن كانت الآيات لا تحتاج إلى التواتر بل الآية الواحدة التي تشمل حتّى ألف حكم هي حجّة كاملة ، وإنّما التواتر لقرع آذان الإنسان المنحرف بمختلف الآيات لعلّه يرجع . وهكذا هناك آيات عامّة وآيات خاصّة في أقوام خاصّة

(١) سورة آل عمران : الآيات ١١٦ ـ ١١٧ .
(٢) سورة الأنعام : الآيات ١٠ ـ ١١ .
(٣) سورة الأعراف : الآيات ٧٥ ـ ٧٩ .

كقوم لوط ، وقوم نوح ، وقوم صالح ، وقوم شعيب ، وغيرهم من الأنبياء ، والأمم السابقة ، فإنّهم بسبب كفرهم ، أو عصيانهم أصابهم عذاب الاستئصال . وهكذا حال أصحاب فرعون ، وأصحاب السبت ، وأصحاب الرّس ، وأصحاب القرية ، وقوم تُبّع ، وأصحاب الفيل ، وغيرهم .

وفي كثير من الآيات ذُكر بعد هلاك الأقوام الذين تمّت عليهم الحجّة قوله تعالى : **﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** [1] ، فإنّ الأكثر لم يكونوا مؤمنين وإن كانت هناك أقلّية مؤمنة .

ثمّ إنّه دائماً يتلقّى أعداء الله وأعداء دينه الهزيمة والهلاك ، لكن ليس معنى ذلك أن تقع الهزيمة في يوم ، أو في شهر ، أو في سنة ، بل إنّ الله تعالى جعل موازين للكون والتي نحن بصددها من فلسفة التاريخ وكلّ يأتي دوره في الوقت المقرّر له ، فكما لكلّ أمّة أجل ، كذلك لكلّ عذاب أجل ، والأجل في الأوّل بمعنى المدّة ، والأجل الثاني بمعنى الانتهاء ، لأنّ الأجل يستعمل في المعنيين في القرآن الحكيم كما في اللغة ، قال تعالى : **﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ◆ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ◆ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ◆ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ◆ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾** [2] ، فإنّ في بني إسرائيل وقع فسادان كبيران من التكفير بأحكام الله تعالى والاعتقادات المنحرفة ، والتعالي في الأرض بغير حقّ . فكان جزاء الاعتداء الأوّل أن بعث الله لهم عباداً له أولي بأس

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ٨ ، ٦٧ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ، ١٩٠ .

(٢) سورة الإسراء : الآيات ٤ ـ ٨ .

شديد من الكفّار ، وبعضهم قالوا : إنّه نبوخذ نصر ، فالكفّار أيضاً عباد الله ﷻ ، والله الذي من رأفته أن يبعث الأنبياء حيث قال ﷻ : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [1] ، هو الذي أيضاً يبعث عباداً كفرةً فجرة ؛ ليذيقوا المعتدين مختلف أنواع الإهانات والعذاب ، وقد ورد في الحديث أن نبوخذ نصر [2] قتل من بني إسرائيل «٧٠ ألفاً» ، كما أنّه هجّرهم من بلادهم ، وأسرهم ، حتّى وصلوا إلى «بابل» ، وعاشوا هناك ، ثم إنّ ملكاً في إيران دعاهم ليعيشوا في أرضه ، وكان من جملة هؤلاء المطاردين والمشردين ، الأنبياء أيضاً ، فحبقوق النبي ، الذي قبره الآن في إيران في منطقة تسمّى «تويسركان» التابعة لهمدان ، ونبي آخر في شوش يسمّى دانيال ، وأنبياء لبني إسرائيل مقابرهم في قزوين . وذلك حسب ما ذكرناه في السابق من أن العقاب الدنيوي يشمل الأخيار كما يشمل الأشرار.

وقال ﷻ : ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ◆ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [3] ، فإنّ الجبهة الموالية للحقّ لو أخذت بأسباب النجاح ولو كانت فئة قليلة ، تغلبت على

---

(١) سورة الجمعة : الآية ٢ .

(٢) نبوخذ نصر الثاني - بخت نصر - بن بلو بولاسر ، مؤسس الإمبراطورية الكلدانية في بابل ، حكم من سنة ٦٠٥ ق. م. وإلى سنة ٥٦٢ ق. م. ، احتل مصر سنة ٦٠٥ق. م. بعد أن قتل فرعون الأعرج وهزم قواته في معركة«قرقميش» واحتل سوريا وفلسطين واحتل القدس سنة ٥٨٦ ق. م. ، وجاء في التاريخ أنه قتل سبعين ألفاً من بني إسرائيل ونهب أموالهم وسبى ثمانية عشر ألفاً من ذراريهم إلى بابل وقيل سبعين ألفاً بما فيهم ألف نبي ، وهو الذي أخذ التوراة وما كان في الهيكل من كتب الأنبياء فجعلها في بئر وأضرم عليها النار ، وقد ألقى الجيف في المسجد ، ومن الطرائف التي وردت في التاريخ أنّ أرميا النبيعليه السلام قال : «اللهم إني لأعلم من عدلك ما لا يعلمه غيري فعلام سلّطت بخت نصر على بني إسرائيل ؟ فأوحى الله إليه : إني إنما أنتقم من عبادي إذا عصوني بشرار خلقي» .

(٣) سورة الفتح : الآيات ٢٢ - ٢٣ .

الفئة الكثيرة التي تخالف الله ﷻ ، ولذا أكّده الله ﷻ وإن ذلك من فلسفة التاريخ ومن سنّة الله التي خلت من قبل : ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ (١) ، فسنّة الله لا تتبدّل كما أنّها لا تتحوّل ، قال الله ﷻ في آية أخرى : ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (٢) أي : غالبين عليهم حيث كان لهم الغلبة والظهور .

والمهم حسب ما يستفاد من هذه الآية وآيات أُخر أنّ الحقّ يخاصم الباطل من غير فرق أن يكون كلاهما في خطّ واحد مختلف أم في خطّين مختلفين ، فبنو إسرائيل ليسوا شعب الله المختار ، وإنّما هم كأيّ فئة أخرى ، ينقسمون إلى فريقين ، هما : أهل الحقّ وأهل الباطل ، وإذا نشبت حرب بين طائفتين إحداهما مع الحقّ وإحداهما مع الباطل سواء كان من خطّين أو من خطّ واحد ، فإنّ الله ﷻ يوالي الحقّ ويؤيّد الطائفة التي على الحقّ على الطائفة التي هم على الباطل .

ومن الواضح : أنّ الكون بيد الله تعالى في ظاهره وباطنه ، حيث ﴿لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (٣) ، وفي آية أخرى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (٤) ، فإنّ الكون كلّه جنود الله سبحانه وتعالى من أرضها ، وسمائها ، ومائها ، وحيوانها ، وغير ذلك ، ولذا يستطيع الله ﷻ استخدام وسائل متنوّعة لهزيمة أهل الباطل وانتصار أهل الحقّ .

وفي آيات كريمة أشار الله ﷻ إلى عوامل الغلبة لأهل الحقّ على أهل الباطل ، مثل : إلقاء الرعب في قلوب أهل الباطل وخوفهم ، وإنزال السكينة والاطمئنان على قلوب المؤمنين ، واختلاف نظرة كلّ واحد من الطرفين عن الآخر ، فأهل

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٣ ، سورة الأحزاب : الآية ٦٢ .
(٢) سورة الصف : الآية ١٤ .
(٣) سورة الفتح ، الآية ٤.
(٤) سورة المدثر : الآية ٣١ .

الباطل يحاربون أهل الحقّ وإنّهم يرونهم قليلين مما لا يدفعهم للأعداد الأكبر والتهيؤ الأكثر . وأهل الحقّ يحاربون أهل الباطل لأنّهم يرونهم قليلين فلا يتخوفون أو يرعبون منهم .

قال ﷻ : ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ [(١)] ، وقال في آية قبل هذه الآية : ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ [(٢)] .

هذا ، بالإضافة إلى العوامل الطبيعية الخارجية مثل المطر ، والريح ، والزلزلة ، والفيضان ، وقلّة الماء ، وما أشبه ذلك ؛ ممّا ذكر بعضها في الآيات القرآنية ، بالإضافة إلى الجنود غير الطبيعيين كالملائكة إلى غير ذلك من أسباب نصر جانب وهزيمة جانب . فهذه وما أشبه من المذكورات في القرآن الحكيم وفي السنّة المطهّرة من سنن الله ﷻ ومن فلسفة التاريخ والروح العامّة في هذا الجانب أو في ذلك الجانب .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٤ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٤٣ .

تعدد العنوان ووحدة المعنون

مسألة : العناوين الموجودة لأهل الحقّ وأهل الباطل في القرآن الحكيم متعدّدة مثل : المهتدي ، والمؤمن بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله ، والموحّد ، والمربّي ، والربّانيون يعني : المنتسبون والمربوطون بالربّ ﷻ ، والمتّقون ، والمطيع لله وأنبيائه ، وأولي الأمر ، والصالح ، والمحسن ، والتائب ، والمستغفر ، والمستعين بالله ، والمتوكّل على الله ، والمقيم للصلاة ، والمستقيم على الطريقة ، والصابر ، والمؤتي للزكاة ، والداعي إلى الخير ، والآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، وولي الله تعالى ، والمهاجر في سبيل الله ، والمقاتل في سبيل الله ، وما أشبه ذلك .

كما أن هناك عناوين لأهل الشرّ والباطل في القرآن والسنة مثل : أهل الباطل ، وحزب الشيطان ، والمحرّفين للكلم ، والمشرك ، والكافر ، والزائغ ، والمكذّب بآيات الله ، والمستهزئ بآيات الله ، والمتبّع للأهواء ، والمكر السيئ ، والمكابر ، والمترف ، والمسرف ، والعالي في الأرض ، والفاسق ، والمذنب ، والمجرم ، والمسيء ، والظالم ، وما أشبه ذلك من العناوين المنطبقة على أهل الباطل ، سواء كان الحقّ والباطل في مجال العقيدة ، أو في مجال القول ، أو في مجال العمل .

وهذه ألفاظ وصفات ، تكون معرّفات لأهل الحقّ ، ومعرّفات لأهل الباطل .

والجامع أنّ أهل الحقّ هم المؤمنون بالله واليوم الآخر ، وهم يريدون الآخرة بالإضافة إلى الدنيا ، كما قال ﷻ : ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**

وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١] .

والجامع أنّ أهل الباطل هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً كاملاً بل هم يريدون الحياة الدنيا وزينتها فقط ، فيتهالكون عليها في هذه الأبواب [٢] .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠١ .

(٢) وقد ذكر الإمام المؤلف ﷺ بعض سنن الله تعالى في كتابه الرجوع إلى سنن الله تعالى.

الفصل السادس

محكمة التاريخ

الإنسان

يتحمّل تبعات أعماله

مسألة : من سنن الله الشاملة للدنيا والآخرة ، أنّ عمل الإنسان سواء كان خيراً أو شرّاً ، يعود إلى نفسه ، وأحياناً إلى ذريته . قال ﷻ : **﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** (١) ، فالزهرة التي يشاهدها المؤمن في الجنّة مثلاً هي **﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾** نفسها ، لكن تصوّر بصورة أخرى ، وكذلك العقارب التي في جهنّم التي تلدغ الكافر والمنافق هي أذى الكافر نفسه وسيئاته ، وهذا تابع لتجسيم الأعمال ، كما ذكرنا تفصيله في كتاب التفسير الموضوعي ، وقال ﷻ : **﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾** (٢) ، فالإحسان والإساءة تعودان إلى المحسن والمسيء نفسه .

وفي الحديث : **(المؤمن تحت ظلّ صدقته يوم القيامة)** (٣) ، فالصدقة تصبح كالمظلّة ، وقال ﷻ بالنسبة إلى المنافق : **﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ﴾** (٤) ، وقد تقدَّم أن النفاق نفسه يتحول في الآخرة إلى ظل ذي ثلاث شعب ، شعبة لأنّه مع المؤمنين ، وشعبة لأنّه مع الكافرين ، وشعبة لأنّه مع المنافقين .

---

(١) سورة الطور : الآية ١٦ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٧ .

(٣) وورد عن الإمام الصادق عليه السلام الحديث التالي : (قال : قال رسول الله ﷺ : أرض القيامة نار ما خلا ظل المؤمن فإن صدقته تظله) وسائل الشيعة : ج٩ ص٣٦٩ ب١ ح١٢٢٥٨ .

(٤) سورة المرسلات: الآية ٣٠.

وفي حديث مضمونه أنّ الإمام علي عليه السلام قال: (إنّي ما أحسنت إلى أحد وما أساء إليّ أحد، قيل: يا أمير المؤمنين، أنت وهذه الإحسانات الكثيرة إلى الناس، وأنت وهذه الإساءات الكثيرة من الناس إليك؟ قال: أ لم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1]، فكلّ إحسان صدر منّي فهو عائد إلى نفسي، وكلّ إساءة صدرت من شخص بالنسبة إليّ فهي راجعة إليه)[2].

فالعمل؛ مثاله مثال البحر حيث إنّ ماءه يعود إلى نفسه بالمطر، وقد قال بعض العلماء: إنّ حرارة الشمس ونورها يعودان إلى الشمس نفسها، ولهذا بقيت الشمس دائمة؛ لأنّه كلّما نقص منها شيء عاد إليها، وإن كان هذا خلاف المشهور بين علماء الغرب كما هو واضح، وكذلك نشاهد أنّ التراب يرجع تراباً بسبب الإنسان الميّت وبسبب الأشجار، فإنّ الإنسان إنّما يكون من التراب، ثمّ يصبح دماً، ونطفة، وهكذا، ثم يصعد به العمر، ويكون عرضه، وطوله، وعمقه أكثر فأكثر وهذا هو التراب بنفسه الذي تحوّل إلى الفاكهة، أو إلى الحيوان، أو ما أشبه ذلك، ثم إذا مات ووضع في قبره عاد تراباً، وهكذا بالنسبة إلى الأشجار التي كانت تراباً ثمّ تعود تراباً. وقد رأى بعض العلماء إمكان إرجاع حرارة النفط، والفحم، وحرارة البحر، حيث تستهلك في الهواء، وإنّها لا تستهلك حقيقة وإنّما تبقى هذه الحرارة في طبقات الجو، فإذا تمكّنا من إرجاعها يكون النفط، والفحم الحجري، وما أشبه، دورياً أيضاً، فالكلّ دوري حسب

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧.

(٢) ونص الحديث كما عن متشابه القرآن: ج١ ص ١١٨ (ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه، لأن الله يقول: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾)، وقد ذكر الراغب الأصفهاني في الجزء الأول من كتابه: «محاضرات الأدباء: ص ٢١٦ ط ١٩٦١» حديثاً عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «ما أحسنت لأحد قط، ولا أسأت إلى أحد. فرفع الناس رؤوسهم تعجباً ... فقرأ قوله تعالى: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾.

ما نشاهده ، وإن كان في بعضها خلاف ، حيث إنّ دورية بعض الأمور واضحة وبعض الأمور محلّ نزاع بين العلماء .

وعلى كلّ حال : فربّما يطرح سؤال حاصله ، أنّ شمول العمل للإنسان نفسه واضح ، إذ إنّ الإنسان إذا فعل الحسن عاد إلى نفسه ، أو فعل السيئ عاد إلى نفسه . كما أنّ شمول الأمر الحسن الأولاد أيضاً حسب قوله ﷻ : ﴿ **أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ [(١)] أيضاً واضح ، لأنه فضل والفضل يمكن أن يعطى لغير من عمل ، ولذا ورد في الحديث : **(اسألوا الله من فضله)** [(٢)] .

أمّا شمول السيئ الأولاد فكما قال ﷻ : ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾ [(٣)] فما هو وجهه ، والحال أنه خلاف قوله ﷻ : ﴿ **وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ** ﴾ [(٤)] ، وقوله ﷻ : ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** ﴾ [(٥)] ، وقوله ﷻ : ﴿ **وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾ [(٦)] ، وهكذا بعض الآيات والروايات الأخرى حيث لا يجزى إلاّ المسيء شخصاً لا غيره ، والأولاد لا ذنب لهم ؟ .

قلنا في الجواب عن ذلك : إنّ قوله ﷻ : ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾ [(٧)] أمرٌ تكويني ، أي : إنّ الكون بني على هذا النحو ، ولا تلازم بين التشريع والتكوين .

---

(١) سورة الطور : الآية ٢١ .

(٢) وهناك آية في القرآن تشير إلى ذلك وهي الآية ٣٢ من سورة النساء.

(٣) سورة النساء : الآية ٩ .

(٤) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

(٥) سورة النجم : الآية ٣٩.

(٦) سورة الأنعام : الآية ١٦٤، سورة الإسراء: الآية ١٥ .

(٧) سورة النساء : الآية ٩ .

وإنّ معنى قوله تعالى : ﴿لاَ يَحيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلاَّ بأهْلِه﴾ [(١)] ، ليس معناه الفرد المقترف للمكر السيئ ، فإنّ الأهل يطلق على الأعم من الأولاد ، والزوجة ، والأقرباء ، ومن أشبه ذلك .

ثم إن كلمة ﴿لا تزر﴾ تشريع ، أي إن في عالم التشريع لا تزر وازرة وزر أخرى ، فإنّ الإنسان إذا زنى ، أو سرق ، أو قتل ، إنّما يعود شرّه إلى نفسه ، وتطبق عليه الحدود ، أو التعزيرات ، أو ما أشبه ، لا إلى عائلته ، أو أقربائه ، أو جيرانه ، أو أصدقائه ، كما يفعل ذلك الجبارون .

نعم ، يبقى السؤال العقلي : أنّه لماذا جعل التكوين هكذا ـ وهو بيد الله سبحانه وتعالى ـ والتشريع على نحو آخر ، والله عادل في التكوين والتشريع إلى أبعد حدّ من العدل ؟!

وجوابه : أنّ الأمر كذلك في الآخرة بالنسبة إلى العقاب حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿وَتَرْجُونَ منَ الله مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ [(٢)] ، ففي الآخرة لا تعدّي من أحد إلى أحد فيما يعاقب الإنسان المسيء ، وليس الأمر في الدنيا على هذا الغرار ، فإنّ من يستفز الحيّة تلدغه أو تلدغ ذويه ، وهكذا وإن كان ذلك من سنن الله لكنّه لحكمة اطراد القانون وإلاّ لم يستقم العلم وكان خلاف المصلحة ، إذ العلم مبني على الكلّيات والقانون التكويني العام وإلاّ انهدم العلم والقانون ؛ وتضرّر الأولاد يمكن تداركه إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة ، حاله حال غرق السفينة وفيها الأبرياء بفعل الريح مثلاً بينما هؤلاء الأبرياء لم يفعلوا شيئاً يستحقّون به ذلك وإنّما جعل الله الكون هكذا لاطراد العلم والقانون على ما ذكرناه ، ثم إنّ الأبرياء يجزون في الدنيا بالنسبة إلى ذويهم أو بالنسبة إلى أنفسهم إذا نجوا من الغرق .

ثم شمول الحسنة أو السيّئة للإنسان نفسه وإن كانت بصورة أخرى لكنّه شمول

---

(١) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٠٤ .

مثل عودة الحبّة التي زرعها الإنسان إلى الإنسان نفسه تفّاحاً أو حنظلاً إذا زرع التفّاح أو الحنظل . وهكذا بالنسبة إلى أولادهما ، أحدهما في الحسنة والآخر متدارك على ما ذكرنا تفصيله . فاللازم أن يعرف الإنسان فلسفة التاريخ العامة في جميع الجوانب، وذلك من سنن الله في الكون: **﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾**[1] .

---

(١) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

حكم التاريخ

مسألة : إنّ لحكم التاريخ علاقةً وطيدةً مع فلسفة التاريخ ، والمراد بحكم التاريخ أنّ التاريخ يحكم بالصحّة أو الفساد ، فأخلاق الدولة هي أخلاق الفرد مع الفرق حيث إنّ الفرد شيء صغير له أخلاقيات خاصّة بينما الدولة شيء كبير لها أخلاقيات أوسع ، فيحكم التاريخ على معاوية بالسقوط ، ويحكم على الإمام علي عليه السلام بالبقاء ، وهو انتصارٌ للقيم .

وهكذا بالنسبة إلى كلّ فرد وجماعة سواء كان بيد أولئك الجماعة السلاح أو لم يكن بيدهم السلاح ، كالأحزاب التي ليست بيدها السلاح وإنّما بيدها المنطق ، والدعاية ، والتبليغ ، وما أشبه ذلك .

ثم إنّ حكم التاريخ نابع من فلسفة التاريخ ، وبالبديهة من يريد أن يكتب عن فلسفة التاريخ يجب أن يرتدي زي القضاء ويحكم على أفعال شخصيات التاريخ أو جماعاته ، فيقول مثلاً إنّ هتلر مجرم ؛ لأنّه أوصل العالم إلى حافّة الهلاك ، بينما الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله محسن ؛ لأنّه أوصل العالم إلى شاطئ الأمن والسلام .

وهكذا الأمر بالنسبة إلى ستالين ونوح ، وماوتسي تونغ وموسى ، ونمرود وعيسى ، لا من جهة تقارنهما في العصر وإنّما من جهة المقابلة والقياس والمقارنة ، ومن الواضح أنّ القياس يقرّب شيئاً ويبعّد أشياء .

فهناك فلسفة التاريخ الذي هو أمرٌ واقعي لحكم التاريخ المشتقّ من تلك الفلسفة نفسها ، ثمّ الحكم عليه بالصحّة أو الفساد ، أو التقدّم أو التأخّر ، وهذا هو الذي يعمله القضاة في هذا الباب ، ولا نقصد بهم القضاة بين الناس في العائلة ، أو

الشركاء ، أو ما أشبه ، بل هو نوعٌ خاصّ من القضاء ؛ لأنّه مختصّ للحكم على التاريخ .

وهذا الثالث ـ الحكم عليه بالصحة أو الفساد ...الخ ـ أيضاً بديهي للبشر الواعي حيث إنّ الإنسان يرى الصحّة والفساد كمن يحكم على وجهه في المرآة بالجمال أو القبح ، لكن هناك خلاف في مثل هذا الحكم هل هو رؤية أو حكم ، كما أنّ مثل هذا الخلاف وقع للعقلاء في أنّه هل للعقل حكم أو رؤية ، فبعضهم قال : إنّه رؤية . وبعضهم قال : إنّه حكم . ونحن في الأصول ذكرنا أنّ هناك رؤية وحكماً فلا دليل على وجود أحدهما دون الآخر .

والخلاصة : فاللازم أن تلاحظ الأمور الثلاثة بالنسبة إلى شأن التاريخ .

الأحكام التاريخية

في

محكمة التاريخ

مسألة : إنّ الأخلاقية الدينية واللا أخلاقية الدينية كما يحكم بها على الأحياء يحكم بها على الأموات بل على الأشخاص الذين يأتون مستقبلاً إذا علمنا بذلك كما نذكره بالنسبة إلى الدجال ، والإمام المهدي ﷺ ، والنبي عيسى ﷺ الذي ينزل من السماء ، فإذا قلنا إنّ فلاناً كان إنساناً سديداً عالماً عادلاً ، قد حكم التاريخ له . وإن قلنا إنّه مزيف ومغرور وجاهل وسفّاك ، كان قد حكم التاريخ بذلك. وهذا هو ما يفعله الحكماءُ والعقلاء في الحال الحاضر . فإنّ الشخصية الاقتصادية ، أو الحكومية ، أو الاجتماعية ، إذا كانت فاقدة للأخلاق كان محكوماً عليها وإن أحاطت بنفسها بطولة زائفة اصطنعتها لنفسها وروّجتها لها حاشية من الاتباع والغوغائيين ، كما هو شأن الديكتاتوريين ، فيجدون من يصفِّقون لهم مقابل المال ، أو خوف الإرهاب ، فيمدحونهم بما لا يليق بهم ، كما قال الشاعر في وصف أحد الحكّام الأمويين .

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّار

وفي زماننا أنشدت شاعرة [١] معروفة بالانحراف قصيدة لعبد الكريم قاسم تلتها من إذاعة بغداد ، وفيها تخاطب عبد الكريم قاسم«إله الكائنات» .

---

(١) وكانت تسمى : وفية أبو الأقلام .

ولمثل هذا تتأسف القلّة العاقلة من اضطراب القيم ، واضطراب الموازين ، وعزاؤهم الوحيد ـ إن كانوا دينيين ـ التاريخ والآخرة ، وإن لم يكونوا دينيين التاريخ فقط ، إذ سيحكم التاريخ عليه ، وقد قالت إحدى شخصيات الغرب : تستطيع أن تخدم بعض الناس بعض الوقت ، وتستطيع أن تخدع بعض الناس بعض الوقت ، ولكنّك لا تستطيع أن تخدع كلّ الناس كلّ الوقت ، لأنّ كلّ الوقت هو التاريخ . لكنّ الغالب أنّ العقلاء لا ينخدعون حتّى في الوقت نفسه ، لأنّ الموازين التي جعلها الله ﷻ في الفطرة ويحكم بها العقل تتبيّن للراشدين في الوقت نفسه ولا يحتاج إلى مضي الزمان ، فإنّ المنحرف والديكتاتور يتبيّنان من كلّ خطوة .

وعلى كل حال : فإنّ تاريخ العالم هو محكمة العالم ، وحينما يعلّق بعض المؤرّخين على سلوك شخصيّات نتيجة استثارة هذا السلوك للنزعة التقيميّة للإنسان بوجه عام والمؤرّخ بوجه خاص مثل إدانة توينبي لأخلاق موسليني في حرب الحرس أو كقول أحدهم عن نابليون : «إنّه متعجرف مغرور» ، أو كوصف أحدهم لأحد الملوك المنحرفين بأنّ«يده مدنَّسة في كلّ جريمة يمكن أن تُشين إنساناً» ، يكون هدا من حكم التاريخ ، ولا يغيّر الواقع أن يكون هناك مرتزقة ، ومتزلّفون . وطلاّب مناصب ومال وشهوة كما كانوا يحيطون بالخلفاء ، والأمراء ، ومن إليهم . إلى اليوم في الحكومات الديكتاتورية ، فإنّ الضمير منطقة حرّة للإنسان مهما نافق في كلامه أو في عمله ، فإنّ ضميره يؤنبه ويقول له : الصحيح .

وفي التاريخ رأينا من يمدح جنكيز خان [1] وتيمور لنك ، ونيرون ، والحجّاج ،

---

(١) تيمو جين بن يشوكي والمشهور بـ(جنكيز خان) ، مؤسس الإمبراطورية المغولية ، ولد سنة ١١٩٢م ومات إثر سقوطه عن صهوة جواده سنة ١٢٢٧م ، تولى الحكم وراثة وهو ابن الثالثة عشرة من العمر ، وبفترة وجيزة أبرز شجاعته وجلده وقوته العسكرية وشرع في بناء

وهتلر ، وستالين ، ويزيد ، والبهلوي الأوّل . كما وجدنا في زماننا من كان يمدح القتلة ، والسّفاكين ، وطلاّب الشهوات ، من الحكّام المنحرفين ، ولكن هذا لا يغيّر من الواقع شيئاً ، ولا من التاريخ الصحيح حرفاً ، والتاريخ هو التاريخ المبني على أسس دينية وأخلاقية دون غيره مهما اعتلت أصوات التهريج .

إشكال وجواب

يقول أحد شخصيّات الغرب : إنّ إدانة المؤرّخين للشخصيّات التاريخية ، فيه تجاهل لأصول القضاء . فإنّنا في محاكمنا العاديّة نحاكم متّهمين أحياء ، فلا يصحّ أن يستدعى من أصبحوا في ذمّة التاريخ للمحاكمة ، لأنّه لا يمكن أن يحاكم مرّتين ، في حياتهم وبعد مماتهم . إنّهم ينتمون إلى الماضي الذي يرقد بهدوء ، فحسبهم أن يصبحوا موضوع دراسة التاريخ وألاّ يعانوا أكثر من محاولة التفهّم لدوافع أفعالهم . أمّا أولئك المؤرّخون الذين نصَّبوا أنفسهم قضاة ، يدينون هذا ، ويبرئون هذا ، ويعتقدون أنّ هذه هي وظيفة التاريخ ، فإنّهم يتصفون بخلوّهم من الحماسة التاريخية .

أقول : إنّ هذا الكلام ليس إلاّ سفسطة ، أو كلاماً شعرياً . فمن أين استدلّ بأنّه لا يمكن أن يحاكموا مرتين ، ومن أين علم أن المؤرخين يتّصفون بخلوّهم من الحماسة التاريخية ، ثم لم يفهم وجه وجيه لهذا الكلام ، إذ ليس إلاّ دعوى بلا دليل .

وقد ذكر بعضهم في الردّ : أنّ الرجل التاريخي مادام قد مات وهو على كرسي الحكم وهذا هو الأغلب فإنّه لم يحاكم في حياته ، فإن كان طاغية فإن أحداً من

إمبراطورية عظمى ، حكم من سنة ١٢٠٦م واستمر في الحكم إلى سنة ١٢٢٧م واستطاع خلال هذه الفترة أن يوحد القبائل المغولية الوثنية المتنقلة وتوجيهها للفتوحات ، وأخضع الكثير من البلدان لحكمه منها : منغوليا سنة ١٢٠٦م والصين سنة ١٢١٥م ، وفارس وأفغانستان وأرمينيا والهند وقسم كبير من روسيا .

المؤرّخين من بني جنسيته لا يجرؤ على نقد أفعاله وقد جرّب هذا الرجل القائل هذا الكلام نفسه في عهد موسليني .

ثم إنّ الحكم على من أصبحوا في ذمّة التاريخ لا سيّما الذين مرّ على وفاتهم زمنٌ طويل أكثر موضوعية من الحكم عليهم في حياتهم ، إذ مرجل الأحداث لازال يغلي فلا تتضح الرؤية السليمة ، فضلاً من أنّ ضحاياه ما زالوا على قيد الحياة ومن ثمّ فإنّهم يؤثّرون عاطفياً على حكم المؤرّخ ، بخلاف من أصبح وضحاياه في ذمّة التاريخ مثل شارلمان [1] أو نابليون . وقد ذكر المؤرّخون أنّ فرعون مصر الذي بنى الأهرام ضحى في سبيل ذلك بمئات الألوف من العمّال ، والكادحين ، والعبيد ، ومن إليهم .

فهل يصح للمؤرّخ أن يمدح أولئك أو أن يسكت عن أولئك الذين فعلوا هذه المجازر الفجيعة في سبيل شهوة عابرة وخيال فارغ ! بل السكوت عن ذلك جريمة وتشجيع للجريمة ، وإنّ الناس الذين يأتون إلى الحكم من بعد كلّ ظالم إذا عرفوا أنّ الظالم يبقى على عرشه وقد ذهب من هذه الحياة ، يتمادون أيضاً في غيّهم حيث لا حساب أمّا إذا رأوا جرائم السابقين ، ارتدعوا ولو قليلاً ما .

وقد رأينا أنّ ذمّ ستالين ، وهتلر ، وموسليني ، أثّر في الحكّام الذين يأتون من بعدهم حيث لم يتكرّر هتلر في المانيا ، ولا موسليني في إيطاليا ، ولا ستالين في روسيا ، وكذلك حيث ذمّ فرعون الذي كان يقول : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [2] ، ونمرود الذي كان يقول لإبراهيم ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [3] ، وقارون الذي كدّس

---

(١) شارلمان أو شارل الأول الروماني ابن الملك بيبين ، إمبراطور غربي ، ولد سنة ١٢٤هـ (٧٤٢م) ومات سنة ١٩٨هـ (٨١٤م) ، حكم من سنة ١٥٠هـ (٧٦٨م) واستمر في الحكم إلى موته ، تحالف مع الكرسي البابوي ضد بيزنطه ، وتحالف معه هارون العباسي ؛ لأجل القضاء على دولة الأدارسة الشيعية التي كانت قائمة في المغرب فقدم هارون الهدايا والإعطيات له سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م) .

(٢) سورة النازعات : الآية ٢٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٥٨ .

الأموال الكثيرة في حال أنّ جماعة من الشعب كانوا يبيتون جائعين ، لم يبلغ بأحدهم ما بلغ به هؤلاء ، فلا نجد من يقول : أنا ربّكم الأعلى ، أو أنا أحيي وأميت ، أو يكدّس الأموال الكثيرة بالباطل ، وهذا أثر أخلاقيّات التاريخ .

التاريخ بين الرحمة واللارحمة

قيل : إنّ التاريخ لا يرحم ، والتاريخ لا يلاحظ الحياة الخاصّة بما هي خاصّة للشخص أو الحياة العامة بما هي عامّة للشخص بل إنّما يذكر التاريخ هذه الحياة وتلك الحياة على حدٍّ سواء ، وربّما كان إنساناً حاكماً وهو على درجة كبيرة من الاستقامة في حياته الخاصّة بينما تنطوي على شيء كثير في ظلّ سفك الدماء ، ونهب الأموال ، وتعذيب الناس في السجون حتّى يغرس هذه النزعة في قلوب الرعيّة على نحو ما ادّعاه مؤسّس الدولة العبّاسيّة ، أبو عباس السفّاح [1] ، والمنصور الدوانيقي [2] ، وهكذا من أسّس لهم أبو مسلم الخراساني ، فقد رأينا أبا

---

(١) أبو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، أول خلفاء بني العباس ، ولد سنة ١٠٤هـ (٧٢٢م) ومات بمرض الجدري في مدينة الأنبار ـ الهاشمية ـ التي أسسها سنة ١٣٦هـ (٧٥٤م) وحكم أربع سنوات وتسعة أشهر من سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) وإلى سنة ١٣٦هـ (٧٥٤م) وعاش ٣٢سنة ، عرف بالبطش والقتل وأطلق على نفسه لقب السفاح في أول خطبة ألقاها في مسجد الكوفة بعد استلامه للحكم .

(٢) عبد الله بن محمد بن علي ، ثاني خلفاء بني العباس وأخو أبي العباس السفاح ، ولد سنة ٩٥هـ (٧١٤م) ومات سنة ١٥٨هـ (٧٧٥م) ، حكم أكثر من عشرين سنة من سنة ١٣٦هـ (٧٥٤م) وإلى سنة ١٥٨هـ (٧٧٥م) وعاش ٦٣ سنة ، عرف بظلمه وقتله للناس ؛ فقد قمع ثورة العلويين وسجن أولاد رسول الله ﷺ من أبناء الإمام الحسن عليه السلام في المدينة أربع سنوات من ١٤٠هـ وإلى ١٤٤هـ وكان عددهم عشرين شخصاً ، ثم نقلهم إلى الكوفة ثم الأنبار وعلى رأسهم عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وحبسهم في سجون لا يميزون الليل من النهار وكانوا يحددون أوقات صلاتهم بقراءة خمسة أجزاء من القرآن وإذا مات أحدهم في السجن كان المنصور الدوانيقي يتركه معهم ويبقي جسده مربوطاً بالأغلال والأصفاد ، وعندما ماتوا جميعاً هدم عليهم السجن ، كما أنه ضيّق على الإمام الصادق عليه السلام مراراً وتكراراً وحمله إلى العراق وأخيراً قتله بالسم سنة ١٤٨هـ ، وقد

مسلم الخراساني والسفّاح والمنصور في حياتهم الشخصية ، يكون لهم أو يتصور أن لهم من الديانة والأخلاق بل وحتّى الزهد الشيء الكثير ، لكنّهم لا يتورّعون عن سفك الدماء ، وبناء السجون ، وقتل الناس بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربّنا الله . حتّى إنّ أحداً قال لأبي مسلم : لماذا اتّخذت السواد شعاراً ؟ فأمر أبو مسلم بضرب عنقه حتّى لا يتجرّأ أحد أن يقول له مثل هذا الكلام . والقصص في هذا الباب كثيرة ، فلماذا يتواضع المؤرّخون ويحجبون عن إصدار أحكام أخلاقية ، وأحكام دينية ، على ما ذهبوا ؟ ولماذا اتّهم ذاك الرجل الغربي الذي نقلنا كلامه[(١)] مَن يفعل ذلك منهم بأنّه تجرّد عن الحماسة التاريخية إلاّ أنّه كما قال الإمام علي عليه السلام : **(قُلِبَ قلبه فجعل أعلاه أسفله)**[(٢)] .

ذكر الصدوق في عيون أخبار الرضا أن المنصور لما بنى الأبنية في بغدا: ودام ذلك البناء أربع سنوات ، جعل يطلب العلوي طلباً شديداً ويجعل من ظفر به منهم في إسطوانات ، مجوفة ، مبنية من الجص والآجر . للمزيد راجع «منتهى الآمال» للشيخ عباس القمي وأعيان الشيعة : ج١ ص ٢٨ لمحسن الأمين .

(١) في ص٣٥٠ تحت عنوان إشكال وجواب.

(٢) نهج البلاغة : قصار الحكم : الحكمة ٣٧٥ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج١٩ ص٣١٢ ب٣٨١ ، مستدرك الوسائل : ج١٢ ص١٩٤ ب٤ ح١٣٨٥٩ ، ونص الحديث : (أن أول ما تغلبون عليه من الجهاد ، الجهاد بأيديكم ثم بألسنتكم ثم بقلوبكم ، فمن لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكر منكراً قلب قلبه فجعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه).

محاكمة الديكتاتور ومؤازريه في التاريخ

مسألة : على المؤرّخ أن يتناول الديكتاتور ومن آزروه في الديكتاتورية ، في كتبه ، ولهذا قال ﷻ : **﴿إنَّ فرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾** [١] ، ولأنّ العذاب إذا نزل إنما ينزل على الكلّ ، كما قال ﷻ : **﴿أغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾** [٢] . لوضوح أنّ هتلر وحده ما كان يتمكّن من إقامة هذه الحرب التي أفسدت البلاد وأهلكت العباد إلاّ بسبب الجنرالات الذين كانوا حوله يؤازرونه ، وكذلك يكون حال الذين يؤازرون المصلحين ، فنجد في دعاء الصحيفة السجّادية كذلك بالنسبة إلى أصحاب رسول الله ﷺ حيث قال ؑ : **(اللّهم وأصحابُ محمّد خاصّةً الّذينَ أحسنُوا الصحابَةَ والّذين أبلَوا البلاءَ الحسنَ في نَصره وكانَفُوه [٣] وأسرَعُوا إلى وفادته وسَابَقُوا إلى دَعوته واستَجَابُوا لَهُ حيثُ أسْمَعَهُم حُجةَ رسَالاته وفَارَقُوا الأزواجَ والأولادَ في إظهار كلمته وقاتَلُوا الآباءَ والأبناءَ في تثبيت نبوّته وانتصَرُوا به ومَنْ كَانُوا مُنطوين عَلَى مَحَبّته يَرجُونَ تجَارَةً لَنْ تَبُورَ في مَوَدته والّذين هَجَرَتْهُم العَشَائِرُ إذْ تَعَلّقُوا بِعروَتهِ وانتَفَتْ مِنهُم القرابَات إذْ سَكَنُوا في ظلِّ قَرَابَتهِ .**

---

(١) سورة القصص : الآية ٨ .

(٢) سورة نوح : الآية ٢٥.

(٣) كانفوه : أي أعانوه .

فَلا تَنسَ لَهُم اللّهُم مَا تَركُوا لَكَ وفيكَ وأرضهِمْ منْ رضوانكَ وبِما حَاشوا [١] **الخلقَ عَليكَ وكَانُوا مَع رَسُولكَ دعاةً لَكَ إليكَ واشكُرهُم عَلَى هَجرهم فيكَ ديارَ قَومهم وخُروجهم منْ سعة المَعَاش إلى ضيقه ومنْ كَثرت في إعزاز دينكَ منْ مَظلُومهم)** [٢] .

والقرآن الحكيم قال قبل ذلك : ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَار وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَان**﴾ [٣] ، فالنبي هو المحسن الأعظم ، وهؤلاء الصحابة هم المحسنون حوله ، ولذا فليس للمؤرّخ أن يذكر الطاغية وحده ، ولا أن يذكر المصلح وحده بل يجب أن يعطي كل واحد ومؤازريه حقه .

إذاً : فاللازم على المؤرّخ ألاّ يوجّه التحسين أو الانتقاد إلى شخص الحاكم أو الزعيم فقط فيحمّله مسؤولية هذه الشرور أو يذكره بكلّ الخيرات بل يذكر من عاونه وآزره في ذلك ، مثلاً شرور الحرب العالمية الثانية ، والكوارث التي حاقت بألمانيا ، والبلاد التي كانت تحت لواء المحور قد ألقت تبعاتها على هتلر ، وموسليني ، وهيروهيتو [٤] ، بينما قد شارك في صنع الآلة العسكرية كلّ من ساهم في هذه الحرب وتحوّل إلى وقود لها ، وكلّ من دعا إلى العنصرية قد ساهم أيضاً في هذه الحرب ؛ لأنّه كان قد هيأ مقدمات الحرب ، وكان ضمن دعاة العنصرية الشعراء ، والمفكّرون ، والفلاسفة . لذا قال سبحانه في قضيّة الإفك : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ**

---

(١) حاشوا : أي جمعوا.

(٢) الصحيفة السجادية : ص ٣٩ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١٠٠ .

(٤) هيروهيتو إمبراطور اليابان ، ولد في طوكيو سنة ١٩٠١م ، حكم سنة ١٩٢٦م ، حاول كبح جماح العسكريين في محاولة لتجنيب اليابان التورط في الحرب العالمية الثانية ، أصبح بعد هزيمة اليابان عسكرياً عاهلاً دستورياً بموجب الدستور الذي أملته السطات الأمريكية عليه ، مات سنة ١٩٨٩م .

مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١) ، وهناك من تولّى كبره من الصحابة ، وهناك جماعات حوله يتحمّلون شطراً من الإثم حيث لكلّ امرئ منهم ما اكتسب من الإثم .

ومن الواضح : انّ الاستعمار والاستغلال حصيلة عدّة قوى اقتصادية ، وسياسية ، واجتماعية ، وفكرية ، فهل يمكن أن تلقى تبعتهم على فرد ، أو بضعة أفراد ؟ ، وهكذا فإن حسن تحرير العبيد على الأسلوب الغربي ـ والعبيد في الأسلوب الإسلامي غير العبيد في الأسلوب الغربي كما ذكرناه في كتاب العتق من الفقه ـ(٢) ، لا يكون من نصيب إبراهام لنكولن(٣) وحده بل من نصيب «بيهو» والذين احتفوا به وأيّدوه ودعوا إليه .

---

(١) سورة النور : الآية ١١ .

(٢) للمزيد راجع موسوعة الفقه : ج ٧٢ كتاب العتق للإمام المؤلف ﭬ .

(٣) إبراهام لنكولن ، ولد سنة ١٨٠٩م ، سياسي أمريكي تزعم الحزب الجمهوري وقاتل الولايات الجنوبية في الحرب الأهلية فانتصر عليها ، أصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٦٠م ، ألغى الاسترقاق وأعلن حق الأمريكيين المسترقين في الحرية وكان ذلك سنة ١٨٦٣م ، اغتيل من قبل ممثل مسرحي فيما كان يشهد إحدى الحفلات في مسرح بواشنطن سنة ١٨٦٥ م .

الشهادة على التاريخ

مسألة : ليس من الصحيح الاستناد إلى تاريخ لم نشهده ، ولم يقم عليه دليل ، كما إذا اشتهر حسب الظنون ، والخيالات ، والتصوّرات الساذجة ؛ لأنّ الشيء ما لم يثق الإنسان به ، أو يُخبر صادق به ، لم يكن تصوّراً يغنى عنه دليل ، ففي الإسلام الخبر الصادق لا غير. فإنّ أوّل البشر هو آدم وكان في غاية العلم ، والفضيلة ، والعصمة ، وبعد آدم خلقت زوجته حواء ، فولدا ولدين ، وخلق الله تعالى لكلّ واحد من الولدين زوجةً جديدة ، فتزوّجا بهما ثم صار أبناء العمومة ، وكثر النسل إلى يومنا هذا . كما قال القرآن الحكيم : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾** [١] .

فأوّل البشر كان شخصاً واحداً ، ثمّ صار شخصين ، ثمّ صار البشر منهما ، كما ذكرناه من الزوجتين الجديدتين ، وورد به روايات متعدّدة عن الأئمّة الطاهرين عليهم السلام [٢] .

وعلى أي حال : فالبشرية ابتدأت من خلق آدم ، وبخلق آدم وحواء ، أمّا ما ذكره ماركس والماركسيون من التغيير المادّي للتاريخ ، أو دارون [٣] أنّ أصل

---

(١) سورة النساء : الآية ١ .

(٢) عن كيفية بدء نسل آدم عليه السلام راجع بحار الأنوار : ج١١ص ٢٤٥ .

(٣) تشارلز روبرت دارون : ولد سنة ١٨٠٩ م ، ومات سنة ١٨٨٢م ، عالم بريطاني في الطبيعيات ، قام برحلة بحرية بين سنة ١٨٣١م و١٨٣٦م زار خلالها الرأس الأخضر وجزر

البشر هو القرد ، أو ما أشبه ذلك ، فلا دليل عليه إطلاقاً بل الدليل العقلي على خلافه ، ولذا وصل دارون إلى الحلقة المفقودة ، ووصل ماركس إلى عدم قبول العلماء لرأيه ، وكان هدف ماركس هو بيان تناقض النظام الرأسمالي .

ماركس ونظرية التغيير المادي للتاريخ

وقد جمع ماركس وجماعته حول فكرته أدلّةً ليست حتّى استحسانات بل أوهاماً ، فلا تمثل نظرّيته دراسةً موضوعيةً عقلية برهانية ، للنظرة الاجتماعية في تطوّرها خلال عصور التاريخ من أجل التعرّف على أسباب قيام هذه الأنظمة وعوامل انحلالها ، وإنّما نظريّاته الخيالية دارت حول تحليل رأس المال في الحاضر ، والتنبؤ بالشيوعية في المستقبل . أمّا بالنسبة إلى الماضي ؛ فليس ما ذكره إلاّ خيالات واهية لا منطق لها ولا دليل عليها . وفي ضوء هذين الأمرين الحاضر والمستقبل ، فسّر ماركس الماضي منذ أقدم عصوره بالمجتمعات البدائيّة ، ثمّ الزراعيّة ، ثمّ الرقيّة ، ثمّ الرأسماليّة ، ثمّ الشيوعيّة . وقبل سقوط نظرية ماركس كتبت كتباً متعدّدة ، ووصلت إلى عشرة ، ذكرتُ فيها : أنّ النظرية ليست إلاّ تصوّرات وأوهام كنظريّة فرويد حول تمحور المجتمع على محور الجنس .

وعلى أي حال : فقد قال ماركس عن المجتمعات البدائيّة : كانت الملكية والمرأة فيها مشاعة ، ولما كانت القوّة موزّعة بين أفراد العشيرة الذين تحوّلوا من القرد إلى الإنسان ، كانت الملكية مشاعةً ، ولم يكن هناك نظام ، وسياسيون إطلاقاً ،

آزور وسواحل أمريكا الجنوبية وجمع معلومات عن نباتاتها وحيواناتها ، له نظريات في الطبيعة والأحياء ؛ منها : نظرية «تطور أنواع النباتات والحيوانات» ، ومن الطرائف التي تذكر عنه ، أنه يُعد من البلهاء في المدرسة ، وكذا في جامعة الطب ، لذا أخفق في الطب ؛ ممّا اضطرت عائلته الغنية إلى إدخاله في السلك الديني لدراسة المسيحية في الكنيسة ، وقد قضى أوقاته في جمع الحشرات الصغيرة أكثر من دراسته الدينية ، ولكن رغم ذلك منح شهادة دينية ؛ ليكون راعياً لأحد الكنائس في أمريكا الجنوبية ، ثم عاد إلى بلاده بعد عدة سنوات . وبدأ بطرح نظرياته ، أشهر مؤلفاته : «أصل الأنواع» .

وإنّما كان شيخ العشيرة هو الذي يتحكّم كيف يشاء ، ويحكم كيفما يريد ، ولكن هذا المجتمع لم يصبح ملائماً لاحتياجات أفراده ومن ثم أصابه التصدّع ؛ إذ انفصلت القبائل الرعويّة عن المشتغلين بالحرف الأخرى ، الأمر الذي أدّى إلى حدوث تغيير اجتماعي داخل القبيلة ، وبعد أن كانت الملكية مشتركة ، والتوزيع مشاعاً ، والمرأة مشاعةً أيضاً ، اندفع نتيجة تغيير العالم نظام مقايضة من مبادلة ماشية بشيء آخر ، مثل الفواكه التي كانت تقتنى من الأشجار الثابتة بصورة طبيعيّة وتبديل جلود ولحوم الماشية ، فهذا كان أدنى شيء زاد عن حاجته وذلك كان عنده شيء آخر زائداً عن حاجته ، فأخذا يتبادلان ، هذا يعطي اللحم وذلك يعطي الجلد ، أو هذا يعطي الفاكهة وذلك يعطي اللحم أو الجلد وهكذا ، وذلك لأنّه حين اكتشف البذل في إنتاج سلعة لا يحتاج إليها ، فإنّ الوضع الطبيعي أن يلجأ إلى المقايضة ، وهذه تتوقف على اعتبار السلعة ملكاً خاصاً له ، وهكذا انبثق نظام المقايضة عن تقسيم العمل ؛ وهذا بدوره أدى إلى نظام الملكية الخاصّة بدلاً من الملكية العامّة ، كما أنّ المرأة المشاعة أصبحت تدريجاً ملكاً خاصّاً ، وشيخ القبيلة ـ مثلاً ـ كان يقتني لنفسه النساء الجميلات ، وهكذا يأخذ الأقوى فالأقوى والأجمل فالأجمل بعد عملية تنازع . ثمّ اكتشف الحديد والبرونز ، كما صاحب ذلك إنتاج سلع أصبحت ملكاً خاصّاً لمنتجها ، يبيعها ويبادل بها ، وصار تقسيم العمل ، وأصبح الأمر أكثر تعقيداً ، وبهذا الاكتشاف أصبح الإنسان صانعاً ، وهذا هو أهمّ ما يتميّز به عن الحيوان ، لأنّ الحيوان لا يصنع شيئاً إلاّ حسب فطرته ، ولذا نشاهد في ملايين السنوات الحيوان لم يتقدّم حتّى خطوةً واحدة وسواء بالنسبة إلى الحيوانات الوحشية ، أو الأليفة ، أو الطيور ، أو حيوانات البحر ، فالطير يبني عشّه كما كان آباؤه يبنون أعشاشهم ، وهكذا بالنسبة إلى الوحوش والأسماك ، وحتّى النحل والنمل ، حيث تعيش في المستعمرات .

وصنع الآلة هو بداية التاريخ الإنساني ، وإنّ استخدام الإنسان للحجر في إنتاج النار هو بداية مسيرة الحضارة في حياة البشرية ، فعبر هذه الوسيلة استطاع الإنسان أن يطوّر وسائله الحياتية ، وأن يتقدّم بأشواط إلى الأمام . فتطوّر الآلة أدى إلى تطوّر الحياة . فبعد أن كان يعيش الإنسان حياة الغابة ، استطاع بالآلة أن يتحوّل إلى مزارع ، لكن يعود الفضل في هذا التطوّر إلى عقل الإنسان .

ومن الزراعة نشأت الملكية حيث احتفظ الإنسان بالأرض التي زرعها وبحاصل إنتاجه .

ويذكر لنا التاريخ بدايات عمل الإنسان في الزراعة حيث أخذ الإنسان يزرع الحبوب المتساقطة من الأشجار بعد أن رأى أن تلك الحبوب تنبت بنفسها ، وأخذ ينقل الحب من مكان إلى مكان آخر ، وبواسطة المطر نمت الزراعة ، ثم إنّه أخذ البذور من الأشجار التي زرعها ، وهكذا قامت الزراعة .

ونشأ الرقيق نتيجة التفاوت الجسدي بين الناس ، فهناك أقوياء استعبدوا الضعفاء ، فأخذوا يسخرونهم في أمور الزراعة والرعي مستفيدين من طاقاتهم في قبال ما يعطونهم من الطعام ، وهكذا نشأ نظام الرّق .

أمّا الصناعة ؛ فقد نشأت من الملكية الزراعية التي أدّت إلى تقسيم العمل ، فنشأت الصناعات اليدوية التي أخذت تنفصل عن الزراعة شيئاً فشيئاً .

وقام بناء الأسرة من ظهور الملكية حيث أخذ الآباء ببناء البيوت لحماية أبنائهم ، فتحوّل المجتمع إلى مجتمع أبوي بعد أن كان مجتمعاً أمّياً ـ أي تكون علاقة الأبناء بالأمّ فقط ، لأنّه يولد من الأمّ ويعيش مع الأمّ ، فيتعلّق بالأمّ ـ ، وتصبح السيادة في هذا المجتمع للأب أيضاً .

ونشأت من ملكية الأرض ظاهرة الإقطاع ، حيث أصبح الإقطاعيون هم الطبقة الحاكمة ، وهنا بدأ التناقض في المجتمع البشري بين الإقطاع والتجّار والرقيق ، فالإقطاع ؛ يريدون تشغيل الناس في زراعة أراضيهم ، أمّا التجّار ؛

فيريدون تسخير البضائع لأنفسهم ، والرقيق ؛ يريدون التخلّص من السيّدين السابقين الإقطاعي والتاجر ، لكنّ الإقطاعيين واستناداً لزيادة الملكية الخاصّة قادرون على حسم الصراع لصالحهم .

وانعكس ذلك على الحركات السياسية التي بها يدار المجتمع ؛ إذ أصبحت تمثل صراع الطبقات في المجتمع الإقطاعي ، وانعكس ذلك على الفنّ والعلم القديم .

ونظام الرقيق هو الذي مكّن الفلسفة من الظهور بطابع البحث النظري الميتافيزيقي المجرّد من أصل الوجود ، وإنّما تعلّقوا بالآلهة الموهومة ؛ لأنّهم مروا بأحداث لا يعرفونها ويخافون منها كالزلازل ، والفيضانات ، والأمطار الغزيرة ، والرعد والبرق . ومن هنا أخذوا يعبدون الآلهة المتعدّدة آلهة البحر ، وآلهة النور ، وآلهة الظلمة ، وآلهة الرعد والبرق والسحاب ، إلى غير ذلك ، ثم إنّ جماعة منهم لمّا رأوا ارتباطات بعض هذه الأمور ببعض ، اتّخذوا آلهة أقلّ ثمّ آلهة ثلاثة ثمّ إلهين اثنين ثمّ إلهاً واحداً .

وبعد ذلك حيث خلد جماعة من السادة إلى الراحة والترف ، سادت أفكار احتقار العمل اليدوي وكذلك العمل بأجر ، مثلاً دافع أرسطو عن الرق ، واعتبر العبيد أدوات ، كما أنّ بعض فلاسفة اليونان اعتبروا المرأة حيواناً وُجد لأجل خدمة الإنسان ، وقد أنكر هؤلاء أن للمرأة روحاً إنسانية ؛ ولم يصبح تحكّم الإقطاعيين ممثّلاً في الإمارات السياسية البدائية فحسب بل انعكس في طبيعة الحال على الناحية العسكرية حيث إنّ كلّ إقطاعي بحاجة إلى قوّة للدفاع عن مصالحه ومحاربته للجماعات الأخرى التي تزاحمه في الإقطاع ، فأصبح لكلّ إقطاع جيشه الخاصّ لحماية إمارته أو مصالحه الاقتصاديّة ، وبذلك صارت العلاقات الإنتاجية في المجتمع الإقطاعي قائمة على أن يمدّ الأتباع الإقطاعيين بما يلزمهم من خدمات ، فهنالك طبقة غير منتجة تحكم في طبقة منتجة ، وطبقة تجعل من نفسها السادة وتجعل من غيرها العبيد .

ومن زيادة رأس المال أو من نمو المدن ، انبثق النظام الاجتماعي الجديد والعلاقات المختلفة ، وكلّما توسّعت العلاقات ، تعقّدت الأمور أكثر ؛ لوضوح أنّه إذا كان الأمر دائراً بين الاثنين تكون العلاقة بينهما اثنتين ، علاقة هذا بذاك ، وعلاقة ذلك بهذا ، فإذا صاروا ثلاثة صارت العلاقات أربع بإضافة علاقة الطبقة مجموعاً ، وهكذا .

وقد أصبح تطور الإنتاج يقتضي إلغاء العادات ، والقوانين القديمة ، واستبدال نظام النقد المعدني بنظام المقايضة ، لأنّ النقد أُدخل في الأمر سواء كان نقداً من الخزف ، أو الجلد ، أو بعد ذلك نقداً برونزيّاً ، وهكذا تولّد النقد لسهولة التبادل ، وبسببه فقد أصبحت الأنظمة الإقطاعية تشكّل عقبة في سبيل تطوّر وسائل الإنتاج ؛ ولابدّ من الصراع بين برجوازية القوّة الإنتاجية الصاعدة وبين الإقطاعيينّ أصحاب النفوذ القديم ، وقد وصل أولئك بصدامات وثورات ، بلغت ذروتها في الثورة الفرنسية .

أقول : وجاء ماركس ليقدّم الثورة لصالح الجميع حتّى يكون العاملون هم الذين يسودون المجتمع وتنتهي الإقطاعية الرأسمالية والحكومة كما تنتهي بذلك من تصوّر ماركس اختصاص المرأة بهذا أو بذاك ، وانتهى ماركس إلى اللاآت الخمسة «لا دين ، لا عائلة ، لا أخلاق ، لا ملكيّة ، ولا حريّة» ، وإنّما الأخير ؛ لأنّ الحريّة تنافي الثورة ، فاللازم وجود ديكتاتورية البروليتاريا ، فلا حكومة على نحو حكومة الرأسمال ، وما أشبه ذلك .

وقد أنفق الشيوعيون لإثبات هذا الأمر الخيالي الشيء الكثير من الأموال في دعايات إعلامية كبيرة لم يصل إليها غيرهم فيما هو المحفوظ عندنا ، حتّى إن ماو تسي تونغ طبع من كتابه الأحمر باللغة الصينيّة مائة مليون نسخة بالإضافة إلى أربعمائة لغة أخرى طبع الكتاب لها ، واجروا لأجل تثبيت ما ذكروه أنهاراً من الدماء حتّى إن ماو تسي تونغ وحده ؛ قتل أكثر من تسعة وثلاثين مليوناً كما

اتّهمته بذلك موسكو . وستالين قتل في سبيل تحقيق أفكاره خمساً وعشرين مليوناً من البشر بالإضافة إلى سائر الشيوعيين الذين فعلوا الأفاعيل العجيبة ، وبعد ذلك هل ترى في هذه الفلسفة المادّية شيئاً في نفع الناس ، بل كل ما نراه خلاف العقل ، والفطرة ، والبرهان ، والاستدلال ، والمنطق ، ولذا لم يأت هذا المبدأ إلى الوجود إلاّ بسيل من الدماء والدموع ، ولم يستقم مدّة إلاّ بذلك ، بالإضافة إلى هدر الأموال الطائلة في الدعاية ، ثمّ سقطت الماركسيّة سقوطاً ذريعاً ولم يمضِ عليها قرن واحد .

مقارنات نظمية

ثمّ لا يخفى أنّ النظام الإسلامي هو نظام يحترم رأس المال ، كما قال تعالى : ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [1] ، لكنّ النظام الرأسمالي الغربي غير النظام الإسلامي على ما ذكرناه في جملة من كتبنا الاقتصادية ، فالنظام الرأسمالي لا يحترم الفرد وسائر طبقات المجتمع ، كإنسان له حقوق ، ولا يجعل القوى المادّية الخارجية في خدمة الإنسان ، وإن كان أفضل من الشيوعية التي لا حرّية لها ، وذلك أنّ القيمة الحقّة لكلّ سلعة تعادل كميّة العمل المتحقّق فيها بحيث يعتبر العامل المصدر المهم لهذه القيمة على ما ذكرناه في كتبنا الاقتصادية ، فإنّ القيمة أو الأعم من القيمة ؛ تكون في رأس المال الإسلامي مقابل خمسة أمور لا مقابل أمر واحد [2] ، وبذلك يحرم النظام الرأسمالي ـ غير الإسلامي ـ العامل جزءاً من قيمة عمله . وفائض القيمة هو الذي يشكّل ربح صاحب العمل ، فينحسر هذا الربح استمراراً ، فيشكّل رأس المال الذي

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٩ .

(٢) وهي : العمل الجسدي ، والعمل الفكري ، والمواد ، والعلاقات الاجتماعية ، وشروط الزمان والمكان . للتفصيل راجع موسوعة الفقه كتاب الاقتصاد : ج١٠٧ ص٢٢٥ ـ ٢٤٠ ، كما ألمع الإمام المؤلف قدس سره إلى ذلك في كتابه «الاقتصاد بين المشاكل والحلول» .

تجمّع نتيجة أخذ رأس المال أخذاً متّصلاً من العامل وحظراً على العمل والعامل ، لأنّ صاحب العمل لا يدفع للعامل أجره المستحقّ في مقابل قوّة عمله ، وليس معنى ذلك أنّه سرق جميع أمواله وإنّما بعض أمواله ، هذا بالإضافة إلى أنّ الرأسمالية تحلّل أخذ المال كيفما كان حتّى لو كان المصدر هو البغاء ، والرشوة ، والربا ، وما أشبه ذلك ، ولذا نجد في البلاد الرأسماليّة هناك أثرياء إلى أبعد الحدود في مقابل فقراء إلى أبعد الحدود .

فكلّ من الشيوعية والرأسمالية تأخذ حقوق العمّال مع فارق أنّ الشيوعية تأخذ حقوق العمّال وتعطيه للدولة ، والرأسمالية تأخذ حقوق العمّال وتعطيها للرأسماليين ، هذا بالإضافة إلى أنّ النظام الرأسمالي الذي يقوم أساساً على المنافسة الحرّة يخلق صراعاً بين المنتجين ينتهي بضعف صغارهم وتشكيل الاتّحادات في ملكيّة المصانع بين أقويائهم ومن ثمّ تنتهي المنافسة إلى الاحتكار ، ويصبح الصراع بين أصحاب رؤوس الأموال والمنتجين ، ثم يزداد الصراع حدّة بين الرأسماليين الكبار وبين العمّال .

وعلى كل حال : فكلا النظامين له فلسفة وطريقة في العمل ينتهي إلى حرمان جماعة ، لأجل وفرة جماعة أخرى ، ويكون الحال كما هو المثل المعروف «بطون تتخم وبطون تحرم » .

ولما كانت الشيوعية تأخذ حقوق العمّال وتسلب حرّياتهم بالكامل ، كانت معرَّضة للفناء ، بينما ليس بتلك الدرجة الرأسمالية الغربية بل هي معرّضة للتغيير ؛ لأنّها تفسد قوّة العمل ، وتحمل في جذورها التغيير ، وتقوّي تركيز الرأسمال في أيدي القلّة ، بينما يزداد عزل الأموال كثرة وفقاً لمقتضيات الإنتاج والاستهلاك .

ومن هذا الحيث يظهر لنا أنّ الرأسمالية الغربية آخذةً في التغيير إلى الأصلح فالأصلح ، والأقرب فالأقرب إلى الإسلام ، هذا بالإضافة إلى جهات أخرى

ذكرناها في كتاب «الغرب يتغيّر».

وعلى أيّ حال: فليس البحث هنا في السياسة والاقتصاد، أو الإيديولوجية، والفرق بين الأمرين. وإنّما جهة البحث هي بيان فلسفة التاريخ، وإن اتّخاذ الفلسفات المغلوطة ينتهي إلى العمل المنحرف بفلسفة منحرفة؛ قد تكون شيئاً آخراً كالانحراف، فتكون النتائج كارثية؛ كما في الشيوعية، وقد تكون أقلّ انحرافاً؛ كما في الرأسمالية، فتكون النتيجة مشكلة معقّدة.

ومن نافلة القول: أنّ الاشتراكية أيضاً كما تنتهجها بعض بلاد الغرب، أيضاً هي انحراف عن الخطّ المستقيم وإن لم يكن الانحراف بقدر الشيوعية.

والخلاصة: اللازم على من يريد معرفة فلسفة التاريخ واستكشاف الروح العامّة من أيّة جهة من الجهات، أن يلاحظ عدم وجود الانحراف الذهني والفكري في اتّخاذ تلك الفلسفة واستكشاف تلك الروح، وإلاّ فكلّما كان الانحراف قليلاً في أوّل الخطّ، فإنه يؤدي إلى الانحراف بالاطراد في السير، كالخطّ الذي إذ انحرف بقدر مليم في أوّل التخطيط، يكون بقدر فرسخ بعد زمان، وليس العلاج ما تفعله بعض البلاد الغربية الرأسمالية في إعطاء الهبات والصدقات، أو بتكوين جمعيّات الخير وهيئات البرّ، فإنّ الانحراف يبقى ويتفاقم ولو فعل كلّ ذلك، كالشخص المرابي الذي يعطي لهذا صدقة ولهذا صدقة ولو فرض استيعاب تلك الصدقات والهبات كلّ ما أخذه من الربا. ولذا ورد في الروايات: **(أخذه من حلّه)** [1]، وإن الإنسان يُسأل يوم القيامة: **(عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه)** [2]، فكلا الأمرين يكونان محلّ مسؤولية وتساؤل،

---

(١) مجموعة ورام: ج١ ص١٥٧.

(٢) الكافي (فروع): ج٣ ص٢٤١ ح١٥، وقريب منه في إرشاد القلوب: ص١٥ الباب الأول، ومعدن الجواهر: ص٤٩ باب ذكر ما جاء في خمسة، وبحار الأنوار: ج٧٧ ص١٦٢ ب٧.

وثواب إنْ استقام ، وعقاب إن انحرف . وكما الآخرة ، تكون الدنيا أيضـاً ، مـع تفاوت كما ذكرنا ذلك في كتبنا الاعتقادية .

الفصل السابع

وحدة الاشتراك في الحضارات

موجز عن الحضارات

مسألة : اتضح من البحوث السابقة أنّ الحضارات لها وحدة واحدة وروح عامة هي فلسفة التاريخ سواء كانت تلك الحضارة حضارة دينية أو حضارة دنيوية ، واتضح أيضاً أنّ الحضارات بمجموعها لها فلسفة عامّة حالها حال النوع والجنس ، حيث إنّ الإنسان مثلاً له روح عامة سارية في كلّ أفراده ، ثمّ للشاة وللبقر وللإبل كذلك ، ولمجموع الإنسان وهذه الحيوانات روح عامة وفلسفة عامّة هي الكلّية السارية في جميع الأنواع ، فجميع الأديان مجتمعةً ، لها روح عامة واحدة هي وحدة المبدأ والهدف ، كما أنّ لكل واحدة بمفردها روحاً عامةً أيضاً .

وهنا نذكر بعض تلك الحضارات بفلسفتها العامّة ، والحضارات المتعدّدة بفلسفتها الوحيدة التي هي بمنزلة الجنس بالنسبة إلى الحضارات المعتنقة .

وهذه الحضارات هي كالتالي :

الديانة الهندوكية

أولاً : الهندوكية وتسمّى بذلك نسبة للإله برهاماك ـ على حدّ زعمهم ـ وتسمى كذلك بالبرهمية ، وهم يقولون : إنّ برهاماك إله موجود بذاته ، ويستمدّ كلّ شيء وجوده منه ، ولا يحدث في العالم شيء إلاّ بإرادته وإذنه .

ولا ترجع البرهمية إلى كتاب واحد ؛ إذ إنها تستند في عقيدتها ، وتعاليمها وأخلاقها ، وشرائعها ، إلى عدد من الكتب كتبها حكماؤهم ، وعلماؤهم ـ مثل ذلك مثل التلمود عند اليهود ؛ حيث هي مجموعة أفكار وآراء علماء اليهود ـ

وأقدم كتبهم يسمّى فيدا [١]، وغالباً ما يقولون : إنّ دينهم قبل دين المسيح بألف عام ، أيّ حسب قولهم تكون البرهمية قبل ثلاثين قرناً .

وترى البرهمية أنّ جميع الكائنات التي صدرت عن الموجود الأوّل متغيّرة متناسخة ، وأنّهم يقولون : الكلّ يرجع بعد ذلك إلى ذلك الكائن حالها حال قطرات الماء التي تصبّ في الأنهار والبحار من المطر حيث يكون الأمر دوريّاً ، والبحار تصعد ثمّ تنزل وهكذا ، وهم يدّعون الفناء في الخالق ، ويرون أنّ الطريق إلى ذلك إهمال مطالب الجسم ولذّاته وشهواته ، والمنع عن متع الحياة ، والإكثار من الصوم والتوبة والندم على ما اقترف الإنسان من المعاصي ، وهي عندهم غير المعاصي والآثام التي عندنا نحن أي المسلمون .

وفي الأصل كانت البرهمية ـ الهندوكية ـ ديانة التوحيد ، ولذا نحتمل أن يكون لها أصل ونبي واقعي ثمّ حرّفوا وبدّلوا ، واليوم يعتقدون بالتثليث ، وآلهتهم الثلاثة هي : براهما ، وشيفا ، وفيشنو [٢] .

وهم يقولون : إنّ البرهميين خلقوا من رأس الإله براهما ، والفشتريين خلقوا من ذراعه ، والفيشائيين خلقوا من فخذه ، والشودرائيين من قدمه ، وهؤلاء يعرفون باسم المنبوذين ؛ ولهم في الهند صولة وجولة وعددهم يصل إلى ثلاثمائة مليون من ألف مليون مجموع عدد الهنود .

---

(١) فيدا : اسم عام يطلق على الكتب الهندوسية الدينية الأربعة أو على أي واحد منها ، وهي :

١ . ريغ فيدا ـ المزامير والأشعار ـ وهي أقدمها وأهمها .

٢ . يا جور فيدا ـ الصيغ المقدسة ـ .

٣ . ساما فيدا ـ الأناشيد ـ .

٤ . آثارقا فيدا ـ الرقا والتعاويذ ـ .

وهذه الأربعة مكتوبة باللغة السنسكريتية القديمة ، وهي ترقى إلى مابين سنة ٣٠٠٠ ـ ١٠٠٠ ق.م.

(٢) يعتقدون أنّ الإله براهما هو الخالق ، وأن شيفا هو المدمر ، وفيشنو هو الحامي.

فالبرهميون هم الطبقة الدينية العلمية ، والفشتريون لهم الوظائف الحربية ، ومسؤوليتهم المحافظة على الأمن ، والفيشائيون يعملون بالتجارة والزراعة وتربية المواشي ، والشودرائيون ـ المنبوذون ـ قضي عليهم بأن يكونوا خدماً للطبقات الثلاث السابقة ، ويعتبرونهم أنجاساً لا يصح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهرتهم ، وأحياناً يحرِّمون حتّى النظر إليهم ويقولون : نظر الإنسان إلى المنبوذ تسبّب نجاسة العين ، وإذا شَرِبَ المنبوذ في إناء تنجس ذلك الإناء ، وإذا كان فخّاراً كسروه ، وهكذا . فهم أربع طبقات ، وعندهم لا يصح لفرد من طبقة أن ينتسب إلى طبقة أخرى ، ولا أن يزاول مهنته وعمله ، ولا يحقّ لأحد أن يعترض على ما أراد الإله له من الدرجة ، والطبقة ، والعمل .

والعبادات عندهم مختلفة ، فلكلّ واحد من الطبقات الأربع عبادة خاصّة به ، لا يحقّ لغيره أن يتعبّد بتلك العبادة ، وهؤلاء الطبقات الأربع قد تفرّعت منها ثلاثة آلاف طبقة ، والجنّة عندهم أن تصعد الطبقة الدنيا إلى الطبقة العليا . كما أنّ جهنّم عندهم هي انحطاط إحدى الطوائف من طائفة عليا إلى طائفة سفلى .

وهم يقدّسون البقرة ، وفي أيّام نهرو(١) أراد بيع البقرات المقدّسة وكانت أعدادها قد وصلت إلى خمسين مليوناً ثمّ لمّا حدثت اضطرابات ضد بيع البقرة ، كفّ نهرو عن البيع .

ولهم معابد ولعلّ أعظمها : معبد سنغافورة ، ويوجد في كلّ معبد عدد من الدكاكين لبيع الشموع ، وأعواد البخور ، وتماثيل الآلهة ، وهياكل القرابين ، والأرز الملفوف في أوراق المانجو ، إلى غير ذلك من الأمور المرتبطة عندهم بالعبادة .

---

(١) جواهر لال نهرو بن موتيلال ، ولد سنة ١٨٨٩م ومات سنة ١٩٦٤م ، اشترك مع المهاتما غاندي في استقلال الهند ، سجنه البريطانيون أكثر من مرة ، أصبح رئيساً للوزراء من سنة ١٩٤٧م إلى سنة ١٩٦٤م ، شارك في تأسيس دول عدم الانحياز . راجع موسوعة المورد : ج٧ ص ١١٢.

ويؤدّي الهندوس صلاة الجماعة أمام الإله فيشنو يومياً في السابعة صباحاً والسادسة مساءً ، وصلاتهم عبارة عن عدّة أذكار وتعويذات ، وما أشبه ذلك ، كما أنّ الهندوسي الأكبر يجب عليه أن يغسل الإله يومياً عدّة مرّات بالماء والحليب الصافي واللّبن المخثّر وكوكتيل من عصير الفواكه والعسل وعصير الليمون وماء الورد ، وما أشبه ذلك ، ثمّ بعد الغسل ، يغطيه بباقات من الزهور ، والجواهر ، ويوضع أمامه قرابين الأنس ، وجوز الهند ، والموز ، والسكّر ، والبلح ، وينثر أوراق الشجر الخضراء تحت قدمه ، والناس يتقرّبون إليه في التقبيل ، واللمس ، وطلب الحاجات منه .

وعند الهندوسيين ؛ الحيوان محترم مهما كان صغيراً أو كبيراً ، مؤذياً أو غير مؤذ ، حتّى إنّ بعضهم رأيته بنفسي في أيّام الحرب «العراقية ـ الإيرانية»[1] جاؤوا لزيارتي ويصرّون عليّ بالضغط على الحكومتين بترك الحرب ، وكانوا قد علّقوا على أفواههم خرقاً حتّى لا يدخلها حيوان فيتأذّى ذلك الحيوان حتّى لو كان حشرة صغيرة كالبعوض مثلاً ، وجماعات منهم إذا ساروا في الطريق ، أمسكوا بأيديهم سعفاً من النخيل يكنسون بها الشوارع أمامهم حتّى لا يسحقوا بأقدامهم شيئاً فيرتكبوا بذلك خطيئة كبيرة ، كما أنّ للأشجار الكبيرة عندهم قدسيّتها حيث إنّ الأشجار لها أرواح أيضاً ، وظلّ الإنسان إذا وقع على الطعام حَرُمَ ذلك الطعام حيث يتصوّرون أنّ الظلّ يبعث إلى الطعام سمّاً قتّالاً ، ويعتبرون البقرة أمّ

(١) بدأت في ٢٢ أيلول سنة ١٩٨٠م عندما شنّت الطائرات العراقية غارات جوية على المدن والمطارات الإيرانية وانطلقت اثنتا عشرة فرقة عسكرية إلى الحدود الإيرانية بمسافة ١٣٠٠كم ، وانتهت في ٨ آب سنة ١٩٨٨م ، خسائرها في الجانب البشري مليونا قتيل ومشوه ومعاق ، وفي الجانب المالي خمسمائة مليار دولار على أقل التقادير ، وفي الجانب الاجتماعي جيوشٌ من الأيتام والأرامل والمشاكل الاجتماعية ، وفي الجانب الاقتصادي تحطيم البنية التحتية للبلدين ، وفي الجانب الثقافي قتل كفاءة الشعبين وغرس الأحقاد والبغضاء بينهما ، وتحطيم بعض مراكز الآثار والتراث وما إلى ذلك ، وكذلك هبط معدل العمر للفرد العراقي والإيراني بمقدار ١٠ سنوات .

الله ـ والعياذ بالله ـ لأنّها تدرّ لبناً يهب الحياة للناس ، وأحياناً تقتحم البقرة الحوانيت ، فإنْ كان صاحب تلك الحوانيت هندوسياً تركها تعبث في المكان فساداً ، وكثيراً ما أراق البريطانيون دماء الناس بسبب هذه البقرة المقدّسة حيث يذبحها غير الهندوسي ويحارب الذابحين الهندوسي .

ويتبرّكون ببول البقرة ، ويدهّنون المطابخ والجدران بروثها ؛ ليُقبِلَ السَعد إلى البيت وتعمّ الخيرات ، فقد قرأت في إحدى المجلات عن أيّام نهرو أنّه كان في أعيادهم المقدّسة يشرب قطرات من بول هذا البقر ، فقيل له : أنت مثقّف وخريج جامعة كامبريج ، فكيف تفعل ذلك وأنت تعلم أنّه ليس هذا العمل سوى خرافة ، فأجاب : إنّه تقليد ورثناه من آبائنا ، كما قال ﷻ : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ** ﴾ (١) . ومن النصوص المقدّسة في كتبهم : «أيّتها البقرة المقدّسة لك التمجيد والدعاء في كلّ مكان تظهرين به» .

أمّا بالنسبة إلى المهاتما غاندي ؛ فكان يقدّس البقرة ظاهراً لكنّه أسلم واقعاً ، كما أخبر بإسلامه نفران ، قرأت في كتبهما ، أحدهما رئيس الجمهورية الهندية بعد الاستقلال وهو راجند رابراساة ، والثاني محمّد علي جناح (٢) ، حيث كانا قريبين منه ، قالا في كتابيهما : إنّه آمن بالله وبالإسلام إيماناً حقيقياً ، لكنّه لم يظهر إيمانه ؛ خوفاً من سقوط حركته بدسائس المستعمرين .

والهندوس يعتقدون بتناسخ الأرواح ، فإنّهم يعتقدون أنّ الروح لا تفنى بل

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٢٣.

(٢) محمد علي جناح ، مفكر وسياسي هندي ، ولد في كراتشي سنة ١٨٧٦م وتوفي سنة ١٩٤٨م ، أشهر قانوني أنجبته شبه القارة الهندية ، عين قاضياً سنة ١٩٠٠م ثم استقال بعد تسع سنوات ، دخل الحلف الإسلامي سنة ١٩١٣م ثم عين رئيساً دائماً له ، انتخب نائباً في المجلس التمثيلي الأعلى لمدينة بومباي ، اشترك مع غاندي في إدارة حزب المؤتمر قرابة العشرين سنة ، تولّى رئاسة العصبة الإسلامية سنة ١٩٣٤م ، نادى بضرورة قيام دولة مستقلة للمسلمين في باكستان سنة ١٩٤٠م ووفّق لذلك سنة ١٩٤٧م ، تسلّم منصب الحاكم العام للباكستان في نفس السنة .

تنتقل من مخلوق إلى آخر من مراحل ودورات منفصلة عن سواها من الدورات ، والإنسان الصالح تحلّ روحه في طفل من طائفة أعلى ، في حين أنّ الشخص السيئ تحلّ روحه بعد موته في موجود من طائفة أدنى ، فعندهم العوالم ثلاثة : العالم العلوي وهو المطيعون ، وعالم الإنس حيث تحلّ روح أحدهم في جسم مخلوق آخَر تبعاً لحالتها من الصلاح والفساد ، والثالث عالم عقاب جهنّم ويكون فيه من استمرّ ترديه حتّى أصبح برغوثاً ، أو بعوضة ، أو عقرباً ، أو حيّة ، أو رتيلاء ، أو ما أشبه ذلك .

الطائفة السيخية

ومن نافلة القول نشير إلى السيخ ، وهم في الأصل كانوا هندوكاً ، وقد أخذوا مزيجاً من بين الإسلام والمسيحية والهندوكية . وقد اهتموا بالتربية الحربية أشدّ اهتمام ؛ لأنّهم علموا أنّه لا مكان لهم في الهند المزدحمة بالأديان ، والأفكار ، والعقائد ، إلاّ بالسلاح والقوّة .

وأوّل شخص دعا إلى ذلك رجل اسمه «جودو» ، الذي ولد في البنجاب عام ٨٧٤هـ «١٤٦٩م»، وذكر بعضهم أنّ عدد الجميع لا يتجاوز «١٥ مليوناً» ، والمعلّم الأوّل لهم زعم أنّ الله قد تجلّى إليه وأمره بالدعوة إلى هذا الدين ، وقد اختفى ذات مرّة وهو يستحمّ في أحد الأنهار ثلاثة أيّام ثمّ ظهر معلناً أنّ لا هندوك ولا مسلمين وأنّه اهتدى إلى الدين الصحيح ، والمعلّمون لهؤلاء تسعة ، يحمل كلّ واحد منهم لقب «هورو» ، وتنتقل الروح من أحدهم إلى الآخر كانتقال النور ، ولما ظهر فيهم المرتاضون ، صاروا يأتون ببعض الخوارق الناشئة عن قوّة النفس ، ويقولون عن أنفسهم : إنّهم لا يعبدون إلاّ الله ، وإنّهم لا يتّخذون الأصنام ، ويسمحون لكلّ من أراد زيارتهم بدخول معابدهم ، ويدّعون حبّهم للخير المتمثّل في تعاونهم في جمعياتهم الخيرية ، وتبرّعات رجالهم لمعابدهم

سخيّة ، لأنّهم متعاونون مع أصحاب رؤوس الأموال في الهند ، وينبغي لهم أن يزيلوا الشعر من كلّ أنحاء الجسم سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً حسب عقيدتهم الأوّلية لكنّهم عملياً يطيلون شعر الرأس ، وهم دائماً يحملون معهم خنجراً ، أو سيفاً ، أو ما أشبه ذلك ، ويلبسون الخاتم ، كما يلبسون السوار الفولاذي في اليد اليمنى لهدف ما ، لعلّه الصحّة والسلامة . لأنّ مثل هذا الفولاذ يبعد عن الإنسان الابتلاء بأمراض الانتفاخ ، كما يلبس جماعة منهم عمائم كبيرة ذات شكل متميّز ، وبعضهم يستعمل عمّامة محنّكة ، تربط شعر اللحية والعوارض ، ويحترفون غالباً الزراعة والتجارة ، ويحلّلون اللحم حتّى لحم الأبقار التي منعها الهندوس ، فأهمّ ما يميّزهم عن غيرهم مظهرهم الذي يقضي بأنْ يرخى الرجل شعره ويسدل لحيته ، ولهم معابد خاصّة بهم يسمّى المعبد عندهم «غوردوارا» ، وفي معابدهم يوجد الكتاب المقدّس ، فمن دخل المعبد ، ركع حتّى تلامس جبهته الأرض ، ثمّ يعود للوراء وهو متّجه بوجهه ناحية الكتاب المقدّس ، ليجلس مع الآخرين . ولهم صلاة حيث يرتّل الحاضرون منهم كلمات من هذا الكتاب . وقد صرح رئيسهم ذات مرة أنّ الجنود السيخ يعدون من أقوى الجنود في العالم .

ويحرصون على نظافة معابدهم ، وعند دخول المعبد يغسلون أرجلهم ، ويعدّون الجلوس في المعبد عبادة مهما طال جلوسهم ، والمعابد عند السيخ يعقد فيها الزواج ، ويجتمع الناس في المعبد في المناسبات ، والأعياد ، وعند الأحزان ، وموت الأقرباء والأصدقاء ، وتوجد في كلّ معبد لجنة ترعى أمواله وتشرف على أوجه الإنفاق حيث يمتدّ نشاطها إلى إنشاء المدارس والمعاهد . والنساء يحافظن على علامة في الجبهة بلون أصفر أو أحمر وإن كانت مثل هذه العلامة شائعة أيضاً بين الهندوس ، والبوذيين ، والكونفوشيوسيين ، ولهم عادات تشبه عادات اليهود ، وهم يتعبّدون بعقيدتهم ، ويتعصّبون ، ولا يتزاوجون من غيرهم ، ويهتمّون بالمناسبات الدينية . وليس لعباداتهم وقت معيّن بل يمارسونها ساعات

فراغهم ، بعد الانتهاء من أشغالهم ، وهم حذرون من غيرهم من الأديان أشدّ الحذر ، وإن كانوا لا يظهرون ذلك إظهاراً مباشراً .

الديانة البوذية

ثانياً : البوذية [1] ، وهي منتشرة في الهند والصين ، فيدين بها أكثر من ٦٠٠ مليون ، وهم لا يؤمنون بجزاء ، أو بعث ، ولا نشور ، بل هم أشبه بالدهريين .

وإنّي أحتمل أن تكون البوذية في الأصل ديناً سماوياً لكنّها حُرِّفت ، وفي قصّة للإمام العسكري عليه السلام المذكورة في البحار ما يؤيّد ذلك ، والذي بأيديهم الآن ملخّص تعاليم بوذا مثل أنّ الحياة ألم ، فمنذ يولد الإنسان حتّى يموت والآلام تلاحقه ، فالشيخوخة ألم ، والمرض ألم ، والموت ألم ، والفقر ألم ، والعدو ألم ، وما أشبه ذلك . وسبب الألم عندهم الغضب في الإنسان ، وشهواته ، وانحرافاته المادّية والمعنوية ، فهي نارٌ تحرقه هنا .

وفي تصوّرهم أن إيقاف الألم إنّما يكون عن طريق التحرّر والخلاص من عبادة الشهوات والرغبات ، وهذا هو جوهر البوذية . والطريق إلى هذا الكبح ، ثمانية أمور ، وهي :

١ـ الإدراك الصحيح .

٢ـ الأهداف الصحيحة .

٣ـ عدم إيذاء الغير .

---

(١) البوذية معناها باللغة السنسكريتية : العالم الذي وصل للحصول على البوذة ـ العلم الكامل ـ كما جاء ذلك في كتاب «كمال الدين وتمام النعمة»: ص٥٨٤ ، ويقال : إنّ الأمير سيدارتا غوتانا ابن رئيس قبيلة ساكياس ، دعا للبوذية وهو في التاسعة والعشرين من عمره ؛ كردة فعل للانحرافات الاجتماعية والدينية ، وكان يبحث في التأمل والعزلة عن وسيلة لإنقاذ البشر من اليأس والألم ، وخلال خمس وأربعين سنة جال في مختلف أرجاء الهند ممارساً نكران الأنا ، يتبعه في تجواله حشد متزايد باطّراد من التلاميذ والأنصار ، ولد بوذا سنة ٥٦٦ ق. م. ومات سنة ٤٨٦ ق. م.

٤ـ القول الصحيح .

٥ـ السلوك الصحيح .

٦ـ الجهد الصحيح .

٧ـ ضبط النفس .

٨ ـ النشوة الصحيحة .

ولهم وصايا عشر هي عبارة عن قول بوذا كما ينسبون إليه :

١ـ لا تزهق روحاً .

٢ـ لا تأخذ ما لا تستحق .

٣ـ لا تزنِ .

٤ـ لا تكذب .

٥ـ لا تغش أحداً .

٦ـ لا تسكر .

٧ـ كُل باعتدال ولا تأكل شيئاً أبداً بعد الظهر .

٨ ـ ولا تشهد رقصاً ، ولا تسمع غناءً أو تمثيلاً .

٩ـ ولا تلبس حلياً ، ولا تتعطّر ، ولا تتّخذ زينة .

١٠ـ ولا تنم في فرش باذخة ، ولا تقبل ذهباً ولا فضّة .

ومن المعلوم أنّ هذه الوصايا أكثر من العشر لكنّ بعضها مدرج في بعض ، مثلاً لا تلبس حليّاً ، ولا تتعطّر ، ولا تتّخذ زينة ، يعدّ أمراً واحداً ، وهكذا قولهم لا تشهد رقصاً ، ولا تسمع غناءً أو تمثيلاً ، وهكذا .

كما أنّ هناك عشرة أخرى تعدّ عندهم من الكمالات ، وهي العطاء والقيام بالواجب ، والنبذ ـ وهو أن ينظر الإنسان إلى وجوده في هذه الدنيا كأنّه سجين يتنقل فيها حتى إطلاق سراحه ـ ، والفراسة ، والبصيرة ، والجرأة ـ وهو أن تتصف بالشجاعة في مواجهة الذات ـ ، والصبر ، والصدق ، والقرار ـ وكما يجثم

الجبل الصخري صامداً لا تزحزحه الزوبعة كذلك يجب أن يصمد الإنسان في قرارة نفسه إذا أقامه ـ، والرحمة والشفقة ، والهدوء ـ وكما تنظر الأرض هادئة إلى ما على ظهرها من فاسد وطاهر كذلك عليك أن تتلقى أنت الأفراح والأتراح في هدوء إذا أردت بلوغ الحكمة ـ.

وتعاليم بوذا مذكورة في ثلاثة ما يسمّونه بالسلاّت ، فالسلّة الأولى يسمّونها سلّة النظام ، وتشتمل على خمسة كتب تشرح قواعد الرهبنة وحياة الراهب . والسلّة الثانية سلّة الخُطب ، وهي مجموعة من الأحاديث والقصص والأشعار والأمثال ، توضّح السنن والتعاليم البوذية . والسلّة الثالثة سلّة العلوم الرفيعة ، وتبحث موضوعات الفلسفة وعلم النفس .

وهذه السلال هي التي تقدّم للبوذيين نشاطاً فكرياً ، وروحياً ، وخلقياً .

ويعتقدون بالنسبة إلى الموت أنّه عندما يفنى الشكل الحالي للإنسان ، فإنّ شكلاً آخر يحلّ محلّه تبعاً لدرجة عندهم تسمّى بـ«الكاما» التي كانت موجودة لحظة الموت حميدة كانت أو سيّئة ، وعندهم مراسيم في الصوم ، والصلاة ، والزكاة ، والزواج ، والموت ، ويحرقون أجساد موتاهم .

الديانة الكونفوشيوسية

ثالثاً : الكونفوشيوسية ، نسبة إلى كونفوشيوس[1] ، فهو حكيم الصين

---

(١) فيلسوف ومصلح اجتماعي ومنظر سياسي عاش في الصين في مقاطعة شانتونج في أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، وكانت أفكاره تعتمد على الجانب الخلقي كاحترام الآخرين والوفاء وما أشبه ، وقد أسس مدرسة لنشر أفكاره ، وكان أعضاء مدرسته مرتبطين به عاطفياً أشد ارتباط . اقتباس من كتاب موجز تاريخ الأديان : ص١٠٨ لـ«فيليسيان شالي».

ويقال : إنه ولد في «تسيو» في مملكة «لو» سنة ٥٥١ ق. م. ، ومات سنة ٤٧٩ ق. م. ، وكان عدد تلامذته ومريديه ٣٠٠٠ شخص ، وكان يعلم الناس أن كنزهم هو ضمن حكمتهم الشخصية ، ويعلم الحكام أنه من أجل النجاح ينبغي أولاً كسب حب الشعب ، ومن مقولاته

المعروف، وأتباعه اليوم أكثر من نصف مليار من البشر كما ذكره بعضهم ، وقد نشأ كونفوشيوس في أسرة شريفة ، واشتغل بالتدريس حاله حال ما فعله أفلاطون ، والتفّ الشباب حوله ، وأكثر ما يذكر هو الأخلاقيّات .

وقد رأيت كتاباً جمع كلماته باللغة العربية فكان ما يقارب مائتي صفحة ، وكلّها في التعاليم الأخلاقية ، والآداب ، والتوجيهات ، والإرشادات .

وكان ينصح الحكّام لكنّهم لم يقبلوا منه وعارضوه أشدّ المعارضة [١] .

ومن المعروف أنّه لم يكتب شيئاً بنفسه ، فقد كان تلاميذه يقومون بإثبات كلّ ما يمليه أو يسمعونه منه ، وإنّي أحتمل أنّه نبيّ من الأنبياء وحرّف دينه ، وكان قبل المسيح قرابة «٥٦٠» عاماً .

وحيث كان لكونفوشيوس النفس العالية والتلاميد الإصلاحية ، فقد لقي في زمانه ذيوعاً وشيوعاً كبيراً ، وأخذ الحكّام الصينيّون بعد موته يقيمون المعابد باسمه ، فيأمرون بتقديم القرابين باسمه تكريماً لذكراه ، وأطلقوا عليه لقب «عظيم القداسة» ، بينما نجد في وصيّته قوله : «كلّ ما يجوز أنْ ألقّب أو أوصف به هو أنّني تلميذ كثير الاشتياق إلى العلم ، ومعلّم لا يكلّ ، وهذا حسبي ولا شيء أكثر من ذلك» .

«إن جسدنا موروث عن والدينا ، فكيف نستطيع حمل هذا الإرث دون احترام» ، اقتباس من كتاب جريدة العالم المعرّبة من قبل سمير شيخاني.

(١) من مقولاته للحكام : الفضيلة هي استخدام الموارد الطبيعية في تحسين معيشة الشعوب . وسئل مرة عن الحكم فقال: «لا بد للحكومة من تحقيق ثلاثة أمور : أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام وكفايتهم من العتاد الحربي ومن الثقة بحكامهم ، فقيل له : لم يكن بدّ من الاستغناء عن أحد هذه الشروط ، فأيّ الثلاثة يجب أن تتخلى عنه أولاً؟ . فقال : العتاد الحربي . ثم سئل مرة أخرى : إذا كان لا بدّ من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين ، فأجاب عن الطعام ؛ ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاءً محتوماً على البشر، أمّا إذا لم يكن للناس ثقة بحكامهم فلا بقاء للدولة». راجع كتاب عالم صغير بلا قيادة حكيمة : ص١٧٦ ـ ١٧٧ عبد الكريم فرحان .

إن أغلب مبادئ كونفوشيوس هي مبادئ أخلاقية ، مثل المحافظة على الأخلاق الطيّبة بين الأفراد [١] ، وتوثيق الروابط بين الأسر ، ومعاملة الزوجين أو الأولاد أحدهما مع الآخر معاملة حسنة ، وكذلك معاملة الرئيس والمرؤوس أحدهما الآخر معاملة حسنة ، والدعوة إلى تهذيب النفوس وتطهير القلوب وتوسيع الدائرة على كلّ أحد ، وعدم التكبّر ، وعدم الغرور ، وما أشبه ذلك من الأخلاقيّات المعروفة .

الديانة المجوسية

رابعاً : المجوسية ، وهي دين الفرس القديم ، حيث إنّ الناس في إيران وأفغانستان كانوا يعتقدون بها ويتّخذونها ديناً لهم ، وكان لهم نبي كما في رواية عن الإمام علي عليه السلام ذكرها صاحب الجواهر [٢] ، وكان لهم كتاب أيضاً ، ولكنهم

---

(١) مثلاً من مقولاته : «كل الناس أخوة فلا تمييز عنصري ولا مكانة اجتماعية ، فكل إنسان هو الإنسان ولا واحد منهم حيوان وآخر إله» .

(٢) جواهر الكلام : ج٢١ ص ٢٢٩ ونص الرواية كما في الجواهر : عن الشافعي بإسناده أن فروة بن نوفل الأسجعي قال : على ما تؤخذ من المجوس وليسوا بأهل كتاب ، فقام إليه المستورد فأخذ بتلبيبه فقال : عدو الله أتطعن على أبي بكر وعمر وعلي أمير المؤمنين وقد أخذوا منهم الجزية ، فذهب به إلى القصر ، فخرج علي عليه السلام فجلس في ظل القصر ، فقال عليه السلام : أنا أعلم الناس بالمجوس كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه ، وأن ملكهم سكر فوقع على بنته أو أخته ، فاطّلع عليه بعض أهل مملكته ، فلما أضحى جاؤوا يقيمون عليه الحد فامتنع منهم ودعا أهل مملكته وقال : تعلمون ديناً خيراً من دين أبيكم آدم عليه السلام وقد ذكر أنه أنكح بنيه بناته وأنا على دين آدم ، قال فتابعه قوم وقاتلوا الذين يخالفونه حتى قتلوهم فأصبحوا وقد أسري بكتابهم ورفع من بين أظهرهم وذهب العلم الذي في صدورهم فهم أهل كتاب ، قد أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو بكر ـ وأراه قال : وعمر ـ منهم الجزية .
وفي احتجاج للإمام الصادق عليه السلام يثبت أن المجوس كان لهم نبي ، ففي خبر الواسطي عن الصادق عليه السلام : قال سئل عن المجوس أكان لهم نبي ؟ فقال عليه السلام : نعم ، أما بلغك كتاب رسول الله إلى أهل مكة أسلموا وإلا نابذتكم بحرب ، فكتبوا إلى النبي صلى الله عليه وآله أن خذ منا الجزية ودعنا على عبادة الأوثان فكتب إليهم النبي صلى الله عليه وآله : إني لست آخذ الجزية إلا من أهل

قتلوا نبيّهم ، واحرقوا كتابهم [1] ، كما هي عادة الطغاة مع أنبيائهم ، قال الله تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [2] .

ولا يخفى : أنّ هذه الحضارات الأربع التي ذكرتها ، والتي لها وجود إلى اليوم تشبه بعضها بعضاً حيث إنّ لجميعها فلسفة واحدة وتحليلاً واحداً هو الروح العامة لجميعها ، وإن كانت الاختلافات في بعض الجزئيّات زيادة أو نقيصة ، فكلّها يؤمن بالمبدأ والمعاد ، والواسطة بين المبدأ وبين الناس ولو كانت الصور مختلفة أو بما ظاهره الإنكار . كما أنّ كلّها تأمر بالخير والاجتناب عن الشرّ ، وكذلك كلّها لها طقوس ، وأدعية ، وصلوات ، وعبادات ، وكلّها لها أنظمة للتعامل بيعاً ، وتجارة ، وإجارة ، وما أشبه ذلك ، كما لها أنظمة للولادة ، والزواج ، والوفاة ، وما أشبه ذلك .

والسرّ واضح ؛ لأنّ الإنسان لا يمكن أنْ يعيش بدونها ، حيث نداء الفطرة وحيث احتياج الاجتماع ، إلى غير ذلك .

الكتاب ، فكتبوا إليه ـ يريدون تكذيبه ـ زعمت أنك لا تأخذ الجزية إلاّ من أهل الكتاب ثم أخذت الجزية من مجوس هجر . فكتب إليهم النبي صلى الله عليه وآله : إن المجوس كان لهم نبي فقتلوه وكتاب أحرقوه آتاهم نبيهم كتابهم في اثني عشر ألف جلد ثور . وسائل الشيعة : ج١٥ ص٢٢٦ ب٤٩ ح٢٠١٣١ .

وفي خبر آخر عن الواسطي قال : سئل أبو عبد الله عليه السلام عن المجوس ؟ فقال : كان لهم نبي ـ قتلوه وكتاب أحرقوه آتاهم نبيهم بكتاب في اثني عشر ألف جلد ثور وكان يقال له : جاماسب . وسائل الشيعة : ج١٥ ص١٢٧ ب٤٩ ح٢٠١٣٣ .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : سنوا بهم سنة أهل الكتاب ، وكان لهم نبي أسمه دامسب فقتلوه ، وكتاب لهم يقال له جاماسب ، كان يقع في اثني عشر ألف جلد ثور فحرفوه ، ويتكون من أربعة فصول . من لا يحضره الفقيه : ج٢ ص٥٣ ح١٦٧٨ وقريب منه في سنن البيهقي : ج٩ ص ١٨٨ ووسائل الشيعة ج١١ ص٩٨ ب٤٩ ح٧ و ج١٩ ص١٦١ ب١٣ ح٧.

(١) للزرادشتية مبدآن اثنان ، الأول : مبدأ الخير ـ يزدان ـ ، والثاني : مبدأ الشر ـ أهريمن ـ ويحترمون النار ويقدسونها ، ولهم بيوت النيران في إيران والصين والهند .

(٢) سورة البقرة : الآية ٩١ .

كما أنّ في كلّ حضارة حضارة روحاً عامّة ، تجمع أطراف تلك الحضارة ، حياةً ، وموتاً ، وزواجاً ، وتعاملاً ، وأخلاقاً ، ومعاشرة ، ونحو ذلك .

وختاماً : نسأل الله أن يوفّقنا وجميع البشرية إلى ما يحب ويرضى ، وهذا أخرُ ما أردنا بيانه في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب ، وهو المستعان .

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ♦ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ♦ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [1] .

قم المقدسة

١٦ رجب / ١٤١٨ هـ

محمد الشيرازي

---

(١) سورة الصافات : الآيات ١٨٠ـ ١٨٢ .

المحتويات